مقالات كبار العلماء في الصحف السعودية القديمة

١٣٤٣هـ - ١٣٨٣هـ

المجموعة الأولى

الجزء الأول

جمع وترتيب

أحمد بن عبد العزيز الجماز — عبد العزيز بن صالح الطويل

دار أطلس الخضراء
للنشر والتوزيع



ح دار أطلس الخضراء ، ١٤٣٠ هـ

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

الطويل ، عبد العزيز صالح

مقالات كبار العلماء في الصحف السعودية القديمة. / عبد العزيز صالح الطويل ؛ أحمد عبدالعزيز الجماز.ـ الرياض ، ١٤٣٠ هـ

... ص ؛ ... سم

ردمك : ٦-٨-٩٠٠٤٤-٦٠٣-٩٧٨

١ - الإسلام ـ مقالات ومحاضرات أ ـ الجماز ، أحمد عبد العزيز (مؤلف مشارك) ب ـ العنوان

ديوي ٢١٠.٨ ١٤٣٠ / ٦٩٥٣

رقم الإيداع : ١٤٣٠ / ٦٩٥٣

ردمك : ٦-٨-٩٠٠٤٤-٦٠٣-٩٧٨

الطبعة الأولى

١٤٣١هـ - ٢٠١٠م



المملكة العربية السعودية -الرياض ص . ب٢٩٠١٦٢ الرمز البريدي١١٣٦٢

هاتف ٤٢٦٦٩٦٣ — ٤٢٦٦١٠٤ فاكس ٤٢٥٧٩٠٦

الموقع الالكتروني : www.dar-atlas.com

البريد الالكتروني : info@dar-atlas.com

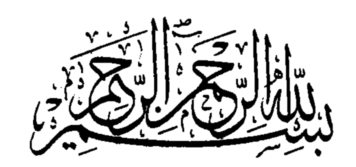
مقالات كبار العلماء في الصحف السعودية القديمة

١٣٤٣هـ - ١٣٨٣هـ

المجموعة الأولى
الجزء الأول

جمع وترتيب
أحمد بن عبد العزيز الجماز
عبد العزيز بن صالح الطويل

دار أطلس الخضراء
للنشر والتوزيع



ح دار أطلس الخضراء ، ١٤٣٠ هـ

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

الطويل ، عبد العزيز صالح

مقالات كبار العلماء في الصحف السعودية القديمة. / عبد العزيز صالح الطويل ؛ أحمد عبدالعزيز الجماز.ـ الرياض ، ١٤٣٠ هـ

... ص ؛ ... سم

ردمك : ٦-٨-٩٠٠٤٤-٦٠٣-٩٧٨

١ ـ الإسلام ـ مقالات ومحاضرات أ ـ الجماز ، أحمد عبد العزيز (مؤلف مشارك) ب ـ العنوان

ديوي ٢١٠,٨ ١٤٣٠ / ٦٩٥٣

رقم الإيداع : ١٤٣٠ / ٦٩٥٣

ردمك : ٦-٨-٩٠٠٤٤-٦٠٣-٩٧٨

الطبعة الأولى

١٤٣١ هـ - ٢٠١٠ م



المملكة العربية السعودية - الرياض ص . ب ٢٩٠١٦٢ الرمز البريدي ١١٣٦٢

هاتف ٤٢٦٦٩٦٣ — ٤٢٦٦١٠٤ فاكس ٤٢٥٧٩٠٦

الموقع الالكتروني : www.dar-atlas.com

البريد الالكتروني : info@dar-atlas.com

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

المقدمة

الحمد للَّه الذي جعل في كل زمان فترة من الرسل بقايا من أهل العلم ، يدعون من ضل إلى الهدى ، ويصبرون منهم على الأذى ، يحيون بكتاب اللَّه الموتى ، ويبصرون بنور اللَّه أهل العمى ، فكم من قتيل لإبليس قد أحيوه ، وكم من ضال تائه قد هدوه ، فما أحسن أثرهم على الناس ، وأقبح أثر الناس عليهم ، ينفون عن كتاب اللَّه تحريف الغالين ، وانتحال المبطلين ، وتأويل الجاهلين[١] .

وصلى اللَّه وسلم وبارك على سيد الحنفاء ، وإمام العلماء ، مَن بلغ الرسالة ، وأدى الأمانة ، ونصح الأمة ، وجاهد في اللَّه حق جهاده ، سيدنا ونبينا وحبيبنا وقدوتنا محمد بن عبد اللَّه ، وعلى آله وأصحابه الذين تلقوا عنه هذا الدين غضًا طريًا ، وبلغوه للعالمين كما تلقوه علمًا زكيًا ، وعلى أتباعهم ومن اقتفى أثرهم إلى يوم الدين .

أمَّا بعدُ : فقد ندب الشارع - عليه أفضل الصلاة والسلام - إلى نقل العلم ، وحث على حفظه ، وتبليغه لمن لم يشهده ، فقال في خطبته في حجة الوداع : « ألا هل بلغت ؟ » قالوا : نعم . قال : « فليبلغ الشاهد منكم الغائب ، فرب مبلغ أوعى من سامع »[٢] .

وقال ﷺ : « نضر اللَّه امرأ سمع مقالتي ، فحفظها ، ووعاها ، فأداها إلى من

---

(١) الرد على الزنادقة والجهمية ، للإمام أحمد بن حنبل ، رحمه الله ص ٦.

(٢) أخرجه البخاري (١٧٤١) ، ومسلم (١٦٧٩) من حديث أبي بكرة رضي اللَّه عنه .

لم يسمعها ، فرب حامل فقه غير فقه ، ورب حامل فقه إلى من هو أفقه منه »(١) .
وقال : « بلغوا عني ولو آية »(٢) .

وقد امتثلت الصحابة حينئذ - الذين هم خير قرون هذه الأمة - ذلك ، فحفظوا عنه أحواله وأقواله وأفعاله ، امتثالًا لأمره ، وابتغاء ثواب اللَّه وأجره .

ثم فعل ذلك بعدهم التابعون وتابعوهم ، قبيلًا بعد قبيل ، وجيلًا بعد جيل ، تلقوا ذلك عنهم ، واستفادوه منهم ، رضي اللَّه عنا وعنهم .

وهم مستمرون على ذلك مدى الدهور والأعوام ، منذ زمنه عليه أفضل الصلاة والسلام ، إلى انقضاء الدنيا والذهاب ، بإخباره عليه أفضل الصلاة والسلام حيث قال : « لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين على الحق ، لا يضرهم من خذلهم ، حتى تقوم الساعة »(٣) .

فشمروا عن ساعد الجد ، وبذلوا في إتقانه وتبليغه المال والمهج ؛ طمعًا في الثواب الجزيل الذي بشرهم به الصادق المصدوق ﷺ في قوله : « من دعا إلى هدى كان له من الأجر مثل أجور من تبعه ، لا ينقص ذلك من أجورهم شيئًا »(٤) .
وفرارًا من الوعيد المترتب على كتمان العلم في قوله : « من كتم علمًا ألجمه اللَّه يوم القيامة بلجام من نار »(٥) .

وسلكوا في تبليغه ما أمكنهم من التعليم ، والإفتاء ، والتأليف ، من خلال ما

---

(١) أخرجه أبو داود (٣٦٦٠) ، والترمذي (٢٦٥٦) ، وابن ماجه (٢٣٠) من حديث زيد بن ثابت رضي اللَّه عنه .
(٢) أخرجه البخاري (٣٤٦١) من حديث عبد اللَّه بن عمرو بن العاصي رضي اللَّه عنه .
(٣) مقتبس من مقدمة ابن الملقن في البدر المنير . والحديث أخرجه مسلم (١٩٢٠، ١٩٢١، ١٠٣٧) من حديث ثوبان والمغيرة وجابر ومعاوية رضي اللَّه عنهم .
(٤) أخرجه مسلم (٢٦٧٤) من حديث أبي هريرة رضي اللَّه عنه .
(٥) أخرجه ابن حبان (٩٥، ٩٦) من حديث أبي هريرة وعبد اللَّه بن عمرو رضي اللَّه عنهم . وصححه الألباني في تعليقه على كتاب العلم لأبي خيثمة (٥٧) .

اسطاعوا عليه من وسائل وسبل شتى ، حتى جاءت ثورة الإعلام المعاصرة ، فكان تبليغ العلم عن طريقها أكثر انتشارًا ، فكانوا من السباقين لاستثمارها رجاء نشر دين اللَّه على المنهج القويم بين العالمين .

ومما اتفقت عليه كلمتهم من أدوات الإعلام « الصحافة » ، إذ دبجوا فيها الكلمات ، وحرروا فيها المقالات ، وأثروها بالبحوث العلمية ، والنكات الفقهية ، ونوادر المسائل ، ودقائق الدلائل ، ولا شك أن للصحافة السعودية نصيبًا من ذلك المعين الضافي ، والنبع الصافي ، فمنذ نشأتها وحتى يومنا هذا والعلماء يسهمون من خلالها في تبليغ الشريعة ونشر السنة .

ومن فضل اللَّه تعالى أن كانت تلك النشأة للصحافة السعودية مواكبة للاستقرار السياسي الذي تمتعت به البلاد في عهد الإمام عبد العزيز بن عبد الرحمن الفيصل - طيب اللَّه ثراه - وبالتحديد بعد دخول مكة المكرمة تحت الولاية العامة للبلاد في ١٣٤٣/٣/١٧هـ ، حيث كانت بلاد الحجاز آنذاك مهيئة - نسبيًا - بشيء من مقومات تلك النشأة ؛ لوجود بعض الصحف التي كانت تصدر تحت وطأة الظروف القاسية للمطابع في ذلك الوقت ، وهي قليلة جدًّا لا تتجاوز الثلاث صحف ؛ أهمها صحيفة « القبلة » التي تم تطويرها بعد شهرين من دخول مكة وتحويله تحت مسمى « أم القرى » لتصبح الصحيفة الرسمية للدولة بعد ذلك - ولا تزال - ، وهي تعتبر النواة الأولى لنشأة الصحافة في العهد السعودي . صدر العدد الأول منها بتاريخ ١٣٤٣/٥/١٥هـ ، ثم تبعها صدور مجلة « الإصلاح » (١٣٤٧هـ) ، ثم صحيفة « صوت الحجاز » (١٣٥٠هـ) ، فمجلة « المنهل » (١٣٥٥هـ) ، فصحيفة « المدينة المنورة » (١٣٥٥هـ) ، فمجلة « الحج » (١٣٦٦هـ) ، فصحيفة « البلاد السعودية » (١٣٧٠هـ) ، فمجلة « اليمامة » (١٣٧٢هـ) ، فمجلة « الرياض » (١٣٧٣هـ) ، فمجلة « عرفات »

(١٣٧٧هـ)، فصحيفة «الندوة» (١٣٧٧هـ)، فـ «قريش» (١٣٧٨هـ)، فـ «الرائد» (١٣٧٨هـ)، فـ «عكاظ» (١٣٧٩هـ)، فصحيفة «القصيم» (١٣٧٩هـ)، فـ «راية الإسلام» (١٣٧٩هـ)، فمجلة «الجزيرة» (١٣٧٩هـ).

هذه أبرز ما صدر من صحف سعودية في الفترة التي تعد الأولى من حيث التطور الصحفي في المملكة العربية السعودية، استغرقت أربعة عقود من القرن الماضي (١٣٤٣ - ١٣٨٣هـ)، تبعها بعد ذلك الكثير من النشاط الصحفي الذي يصعب حصره.

ومن توفيق اللَّه تعالى أن توافق وقت صدور تلك الصحف في تلك الفترة ووجود ثلة من أبرز علماء القرن الماضي من أمثال الشيخ رشيد رضا (ت١٣٥٤هـ)، والشيخ عبد اللَّه بن بليهد (ت١٣٥٩هـ)، والشيخ عبد الظاهر أبو السمح (ت١٣٧٠هـ)، والشيخ عبد الرحمن بن سعدي (ت١٣٧٦هـ)، والشيخ عبد اللَّه بن حسن آل الشيخ (ت١٣٧٨هـ)، والشيخ محمد حامد الفقي (ت١٣٧٨هـ)، والشيخ محمد بن مانع (ت١٣٨٥هـ)، والشيخ عبد اللطيف بن إبراهيم (ت١٣٨٦هـ)، والشيخ محمد بن إبراهيم (ت١٣٨٩هـ)، والشيخ محب الدين الخطيب (ت١٣٨٩هـ)، والشيخ عبد اللَّه القرعاوي (١٣٨٩هـ)، والشيخ محمد عبد الرزاق حمزة (ت١٣٩٢هـ)، والشيخ عبد الرحمن بن قاسم (ت١٣٩٢هـ)، وغيرهم[1]، رحم اللَّه الجميع بمنه وكرمه.

فكانت تلك الصحف ميدانًا لتوقيعات أولئك الأعلام، أثروا بها صفحاتها؛

---

(١) هؤلاء هم علماء المجموعة الأولى من المقالات، وسيرد - إن شاء الله - في المجموعة الأخرى أعلام آخرون أمثال الشيخ الشنقيطي، والشيخ البيطار، والشيخ سليمان بن حمدان، والشيخ عبد الملك بن إبراهيم، والشيخ إسماعيل الأنصاري، والشيخ ابن حميد، والشيخ ابن باز، وغيرهم.

واتخذوها وسيلة في تبليغ الشريعة ؛ حسبة وديانة ، ساعد ذلك حرص شديد من قِبل رؤساء تحريرٍ من أمثال يوسف ياسين ، وعبد القدوس الأنصاري ، والشيخ زيد بن فياض ، وغيرهم ، إذ كانوا يستكتبون أولئك الأعلام لينشروا لهم ما عساه أن يكون سببًا في إيضاح الشريعة لعموم الأمة ؛ من خلال بيان معضلة ، أو مناقشة مسألة ، أو تدوين فتوى شرعية .

وقد آل الزمن بتلك المقالات إلى أن أصبحت دررًا متناثرة تحت أغطية صحف قديمة يعز الوصول إليها إلا بمشقة بالغة ؛ مما جعل بعثها وإخراجها مطلبًا من مطالب الشريعة ؛ ليصبح مرجعًا توثيقيًا ، وسفرًا مجموعًا يضاف لتراث علماء الأمة ؛ يفيد منه الباحثون والقراء .

وحيث إن استيعاب جميعه يحتاج لجهد كبير ووقت طويل وعدد من الباحثين كثير ، فقد رأينا ضرورة إخراج ما يمكننا إخراجه ولو كان نزرًا يسيرًا ؛ أخذًا بـ : « ما لا يدرك كله لا يترك كله » ، فآثرنا تحديد الفترة الأولى للتطور الصحفي في المملكة تحت عنوان : « مقالات كبار العلماء في الصحف[1] السعودية القديمة في الفترة (١٣٤٣ - ١٣٨٣هـ)[2] » ؛ وذلك لما يلي :

١- أن تلك الفترة جمعت أسماء بارزة من العلماء في تاريخ العهد السعودي الحديث بلغوا من المكانة العلمية والاجتماعية ما يجعل أقوالهم وآراءهم مرجعًا علميًا .

---

(١) مصطلح « الصحف » يشمل الجرائد والمجلات ، كما ورد في تعريف نظام المطبوعات السعودي للصحيفة ، وعليه فإن استخدام كلمة « الصحف » في عنوان الكتاب يعني مباشرة الجرائد والمجلات مجتمعة .

(٢) ونسأل اللّٰه تعالى أن ييسر لنا بعده استخراج ما نشر من مقالات في الفترة التالية لهذه الفترة ، خصوصًا من عام ١٣٨٤هـ إلى عام ١٤٠٤هـ ، حيث اشتملت على مقالات كثيرة من كبار علمائنا الأجلاء .

٢- صدور قرار مجلس الوزراء رقم (٤٨٢) في ١٣٨٣/٦/٢٣هـ، والذي أنهى امتيازات الجرائد والمجلات الصادرة في تلك الفترة، وأعطى امتياز إصدار الصحف السعودية إلى شركات ومؤسسات أهلية وفق نظام المؤسسات الصحفية؛ مما أدى لتوقف كثير من الصحف العريقة التي كانت تصدر سابقًا(١)، وتكاثر الصحف الجديدة بعد ذلك التاريخ.

وقد يسر اللّه تعالى لنا ذلك - بمنه وكرمه وحسن توفيقه - فقمنا باستعراض شامل ومسح متواصل لكل ما وقفنا عليه من أعداد تلك الصحف المحفوظة في مراكز المحفوظات في المملكة، سواء عن طريق مصورات الميكروفيلم، أو أصل الصحيفة، ولم يفتنا من أعداد الصحف المذكورة في هذه المقدمة إلا نزرٌ يسيرٌ، واللّه المستعان.

ولقد لقينا نصبًا أثناء استخراجها من بطون تلك الصحف لرداءة الطباعة قديمًا، وسوء التصوير بالميكروفيلم الذي قد يصل عُمُرُ بعضه سبعين عامًا، بحيث لا تمكن قراءته إلا بمشقة بالغة، فللّه الحمد أولًا وآخرًا.

وبما أن تلك المقالات قد دونت في موضوعات متنوعة، خلال أطوار متباينة، لا يربط بعضها بعضًا، ولم تنتظم في سلك واحد، كما هو حال سائر المقالات الصحفية، ناسب أن يجمع ذلك الشتات، فينظم في عقد واحد؛ يضم النظير إلى النظير، ويلحق الفرع بالأصل، في ترتيب بديع، سيما وقد صيغت تلك المقالات بلغة علماء أجلاء في تأصيل شرعي بليغ، كما في بعض الصحف العلمية المتخصصة كمجلة «الحج» مثلًا، فتم ذلك بحمد من اللّه تعالى وتوفيقه.

---

(١) ومما يشار إليه أن جزءًا منها قد توقف قبل ذلك التاريخ لأسباب وظروف متنوعة.

وفي الختام يسرنا أن نزجي وافر الشكر والتقدير لدارة الملك عبد العزيز ممثلة في مركز الوثائق ، وكذلك لمعهد الإدارة العامة ممثلًا في مركز الوثائق به ، أو جامعة الإمام محمد بن سعود ممثلة في قسم الدوريات بالمكتبة المركزية ، حيث ذللوا لنا الصعاب ، وسخروا لنا ما لديهم من إمكانات ، فشكر اللّٰه لهم ، وجزاهم عنا خير الجزاء .

ويعد هذا السفر « المجموعة الأولى » من جملة المقالات المستخرجة ، جمع فيه مقالات العلماء المذكورين ، يليه - بإذن اللّٰه - « المجموعة الثانية » تحوي مقالات أخرى لعلماء آخرين .

نسأل اللّٰه أن ينفع به ويجعله ذخرًا لنا في الآخرة ، ويغفر لنا الزلل ويتجاوز عن السيئات ، والحمد للّٰه رب العالمين ، وصلى اللّٰه على نبينا محمد وآله وسلم .

● ● ●

المنهج في جمع المقالات وترتيبها

* حصر الصحف المستهدفة في البحث بالصحف الصادرة في المملكة العربية السعودية منذ تأسيسها دون ما كان صادرًا قبله أو خارج المملكة وتصدره جهات سعودية .
* استعراض كل ما تم الوقوف عليه من أعداد تلك الصحف .
* تحديد الفترة المستهدفة بفترة ما بين عامي (١٣٤٣هـ - ١٣٨٣هـ) .
* الاقتصار على جمع مقالات كبار علماء تلك الفترة .
* الاقتصار على المقالات العلمية دون غيرها من المقالات التي كتبت لمناسبة اجتماعية ، أو اقتصرت على حدث زمني كتبت لأجله ، ونحو ذلك .
* تدوين مقال العالِم سواء كتبه للصحيفة بنفسه ، أو نقله عنه غيره[(١)] .
* عزو الآيات القرآنية والأحاديث النبوية .
* ضبط النص وتصحيحه وفق قواعد اللغة العربية ، إضافة إلى العناية بعلامات الترقيم ، وإصلاح الأخطاء المطبعية .
* تصحيح النقول من خلال الرجوع لمصادرها الأصلية .
* إثبات مصدر المقال بذكر اسم الصحيفة ورقم العدد وتاريخه .
* بيان غريب بعض الكلمات والعبارات الغامضة من خلال الرجوع للمعاجم اللغوية .

---

(١) ولذا ستجد رسائل للشيخ العلامة عبد اللطيف بن عبد الرحمن بن حسن آل الشيخ (ت١٢٩٢هـ) نشرت مجلة « الإصلاح » نشرها ابنه الشيخ محمد بن عبد اللطيف رحمه الله ، كما ستجد مقالات للشيخ رشيد رضا منقولة في أم القرى عن مجلة « المنار » ، أو نحو ذلك ، وهو قليل جدًّا .

* التعريف بكل عالم في مقدمة مقالاته بترجمة موجزة .
* ترتيب العلماء حسب تاريخ الوفاة .
* ترتيب مقالات كل عالم حسب الفنون والموضوعات .
* وضع فهارس عامة في آخر الكتاب .

❁ ❁ ❁

الشيخ
عبد اللطيف بن عبد الرحمن
ابن حسن رحمه الله

مقالات الشيخ عبد اللطيف بن عبد الرحمن بن حسن

ترجمة الشيخ عبد اللطيف عبد الرحمن
ابن الشيخ حسن ابن شيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب
رحمهم الله تعالى،
وهي بإملاء ولده العلامة المفضال الشيخ محمد[1]

بسم الله الرحمن الرحيم

الشيخ الفاضل العلامة والمرشد الفهامة، نادرة الزمان وقدوة أهل الإسلام والإيمان، الشيخ عبد اللطيف ابن الشيخ العلامة عبد الرحمن بن الشيخ حسن ابن شيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب.

ولد رحمه الله سنة ١٢٢٥ من الهجرة ونشأ ببلد الدرعية، وارتحل مع أهله وأعمامه إلى مصر حين نقلهم محمد علي باشا. وتعلم علم العقائد على والده الشيخ عبد الرحمن وعلى عمه الشيخ عبد الله بن محمد بن عبد الوهاب وعلى عمه علي وعمه إبراهيم وعلى خاله عبدالرحمن بن عبد الله وعلى أحمد بن رشيد الحنبلي.

وأخذ بقية الفنون من النحو والصرف والبديع والمعاني والبيان وعلم القراءات وسائر العلوم عن علماء مصر؛ منهم الشيخ حسن القويسني والشيخ مصطفى البولاقي وعلماء كثيرون من أهل مصر. وأخذ العلم أيضًا والرواية بالسند عن محمد بن محمود الجزازي الإسكندري، وكل من هؤلاء أجازه.

---

(١) مجلة الإصلاح - العدد الحادي عشر - ١٣٤٧/٨/١هـ.

ملاحظة: اكتفينا بهذه الترجمة للشيخ رحمه الله لأهميتها وصدورها عن ابن العلامة الشيخ محمد رحمه الله تعالى.

وخرج من مصر إلى نجد وجلس فيها للتدريس ؛ وأخذ عنه كثيرون من أهل نجد وصنف التصانيف الكثيرة النافعة ، منها : « منهاج التأسيس في الرد على داود ابن جرجيس » ، و« مصباح الظلام في الرد على ابن منصور » . ورد أيضًا على داود في جزء صغير ، و« البراهين الإسلامية في كشف الشبه الفارسية » . ورد على ابن منصور في مسألة اختلاف الأمة وصيام يوم الشك . وله رسائل ومصنفات عديدة وأشعار جيدة ، وشرع في شرح النونية للعلامة ابن القيم وشرح منها أربعين بيتًا . وشرع أيضًا في شرح كتاب « الكبائر » لجده الشيخ محمد بن عبد الوهاب ، وانتفع به أهل نجد ، وألبسه اللّٰه الهيبة والورع والصدع بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ولم تأخذه في اللّٰه لومة لائم .

توفي رحمه اللّٰه سنة ١٢٩٢ هجرية ليلة السبت رابع عشر ذي القعدة ، ورثاه أناس كثير .

❂❂❂

رسالة للشيخ عبد اللطيف في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر(١)

بسم الله الرحمن الرحيم

من عبد اللطيف بن عبد الرحمن إلى الأخ المكرم عبد الرحمن بن جربوع، وفقه اللّٰه للعمل بدينه المشروع.

سلام عليكم ورحمة اللّٰه وبركاته. وبعدُ؛ فنحمد إليك اللّٰه الذي لا إله إلا هو على سوابغ نعمه وجزيل عطائه وكرمه وعلى ما ألبسنا من ملابس فضله وما خصنا به من عظيم العطاء الذي صرفه عمن شاء بعدله. والخط وصل وصلك اللّٰه إلى ما يرضيه، ونظمك في سلك من يخشاه ويتقيه، وأوصيك بتقوى اللّٰه والحرص على معرفة تفاصيلها على القلوب والجوارح، فإنك في وقت كثر قراؤه وقل فقهاؤه.

وما ذكرت من طلب الفائدة بما ورد من النصوص الشرعية الدالة على وجوب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فهذا مما لا يخفى على آحاد العامة من المسلمين فضلًا عن الطلبة والمتعلمين، وهذا الأصل من آكد الأصول الإسلامية وأوجبها وألزمها، وقد ألحقها بعضهم بالأركان التي لا يقوم بناء الإسلام إلا بها، وهو من فروض الكفاية لا يسقط عن المكلفين إلا إن قام به طائفة يحصل بها المقصود الشرعي، وفرض الكفاية من فروض العين من جهة متعلقه؛ لأن الخطاب به لجميع الأمة.

وإنما أرسلت الرسل وأنزلت الكتب للأمر بالمعروف الذي رأسه وأصله التوحيد، والنهى عن المنكر الذي أصله ورأسه الشرك والعمل لغير اللّٰه، وشرع الجهاد لذلك، وهو قدر زائد عن مجرد الأمر والنهى، ولولا ذلك ما قام الإسلام

(١) مجلة الإصلاح - العددان السابع عشر والثامن عشر - ١٣٤٨/١/١٥هـ.

ولا ظهر دين الله ولا علت كلمته . ولا يرى تركه والمداهنة فيه إلا من أضاع حظه ونصيبه من العلم والإيمان قال تعالى : ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ﴾ [آل عمران: الآية ١١٠] ، وقال تعالى : ﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ ۚ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [آل عمران: الآية ١٠٤] ، فهذه الآيات تدل على وجوبه ، وأن القائم به خير الناس وأفضلهم ، وأن الخيرية لا تحصل إلا بذلك .

وفيها أن الفلاح محصور في أهل الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، وهو الفوز بالسعادة الأبدية .

وأما الوعيد على تركه ، فمثل قوله تعالى : ﴿لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُودَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ۚ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا وَّكَانُوا يَعْتَدُونَ ﴿٧٨﴾ كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُ ۚ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴿٧٩﴾ تَرَىٰ كَثِيرًا مِّنْهُمْ يَتَوَلَّوْنَ الَّذِينَ كَفَرُوا ۚ لَبِئْسَ مَا قَدَّمَتْ لَهُمْ أَنفُسُهُمْ أَن سَخِطَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَفِي الْعَذَابِ هُمْ خَالِدُونَ ﴿٨٠﴾ وَلَوْ كَانُوا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالنَّبِيِّ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مَا اتَّخَذُوهُمْ أَوْلِيَاءَ وَلَٰكِنَّ كَثِيرًا مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ﴾ لعنهم على ألسن أنبيائهم بترك النهي عن المنكر والأمر بالمعروف ، واللعن هو الطرد والإبعاد عن الله وعن رحمته .

وذكر بعض المفسرين حديث : « إن من قبلكم كانوا إذا عمل العامل فيهم بالخطيئة جاءه الناهي تعذيرًا ، فإذا كان من الغد جالسه وواكله وشاربه كأن لم يره على خطيئة بالأمس ، فلما رأى الله ذلك منهم ضرب قلوب بعضهم على بعض ، ثم لعنهم على لسان نبيهم داود وعيسى ابن مريم ، ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون »[١] . « والذى نفس محمد بيده لتأمرن بالمعروف ولتنهون عن المنكر

(١) أخرجه أبو يعلى (٥٠٩٤) من حديث ابن مسعود . وضعفه محققه .

ولتأخذن على يد السفيه ولتأطرنه على الحق أطرا أو ليضربن اللّٰه بقلوب بعضكم على بعض، ثم يلعنكم كما لعنهم »[١].

وذكر ابن أبي الدنيا[٢] عن إبراهيم بن عمرو الصنعاني قال: « أوحى اللّٰه عز وجل إلى يوشع بن نون: إني مهلك من قومك أربعين ألفًا من خيارهم وستين ألفًا من شرارهم. قال: يا رب هؤلاء الأشرار فما بال الأخيار؟ قال: إنهم لم يغضبوا لغضبي وكانوا يواكلونهم ويشاربونهم ».

وذكر أيضًا[٣] من حديث ابن عمر: « لينقض الإسلام عروة عروة حتى لا يقال: اللّٰه اللّٰه. لتأمرن بالمعروف ولتنهون عن المنكر أو ليسلطن اللّٰه عليكم شراركم فيسومونكم سوء العذاب، ثم يدعو خياركم فلا يستجاب لهم، ولتأمرن بالمعروف ولتنهون عن المنكر أو ليسلطن اللّٰه عليكم من لا يرحم صغيركم ولا يوقر كبيركم ».

وفي المسند[٤] مرفوعًا: « يا أيها الناس، إن اللّٰه يقول: مروا بالمعروف وانهوا عن المنكر قبل أن تدعوني فلا أجيبكم وتستنصروني فلا أنصركم وتسألوني فلا أعطيكم ».

وفي حديث ابن عباس: « وما ترك قوم الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر إلا لم ترفع أعمالهم ولم يسمع دعاؤهم » رواه الطبراني[٥].

---

(١) أخرجه أبو داود (٤٣٣٦)، والترمذي (٣٠٤٧) من حديث ابن مسعود رضي اللّٰه عنه، وصححه الألباني.

(٢) أخرجه ابن أبي الدنيا في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر (٧٥٠)، وفي العقوبات (١٣).

(٣) أخرجه ابن أبي الدنيا في العقوبات (٣٤).

(٤) المسند ٦/١٥٩ من حديث عائشة.

(٥) لم نجده عند الطبراني في معاجمه الثلاثة، ولا في مسند الشاميين، ولا في الدعاء، والحديث أخرجه ابن أبي الدنيا في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر (٦٧).

وذكر الإمام أحمد رحمه الله[١] عن عمر بن الخطاب رضى اللَّه عنه يوشك القرى أن تخرب وهى عامرة. قالوا: وكيف تخرب وهى عامرة؟ قال: إذا علا أبرارها فجارها وساد القبيلة منافقوها. والأحاديث في ذلك كثيرة تطلب من مظانها.

فصل

وترك ذلك على سبيل المداهنة والمعاشرة وحسن السلوك ونحو ذلك مما يفعله بعض الجاهلين أعظم ضررًا وأكبر إثمًا من تركه لمجرد الجهالة، فإن هذا الصنف رأوا أن السلوك وحسن الخلق ونيل المعيشة لا يحصل إلا بذلك فخالفوا الرسل وأتباعهم وخرجوا عن سبيلهم ومنهاجهم؛ لأنهم يرون العقل إرضاء الناس على طبقاتهم ويسالمونهم ويستجلبون مودتهم ومحبتهم، وهذا مع أنه لا سبيل إليه فهو إيثار للحظوظ النفسانية والدعة، ومسالمة الناس وترك المعاداة في اللَّه وتحمل الأذى في ذاته، وهذا في الحقيقة هو الهلكة في الآجلة، فما ذاق طعم الإيمان من لم يوال في اللَّه ويعادى فيه.

فالعقل كل العقل ما أوصل إلى رضا اللَّه ورسوله، وهذا إنما يحصل بمراغمة أعداء اللَّه، وإيثار مرضاته، والغضب إذا انتهكت محارمه. والغضب ينشأ من حياة القلب وغيرته وتعظيمه، وإذا عدم الحياة والتعظيم عدم الغيرة والاشمئزاز وسوى بين الخبيث والطيب في معاملته وموالاته ومعاداته، وأى خير يبقى في قلب هذا؟ وفى بعض الآثار: «أن اللَّه أوحى إلى جبريل أن اخسف بقرية كذا وكذا. قال: يا رب، إن فيهم فلانًا العابد. قال: به فابدأ، إنه لم يتمعَّر وجهه فيَّ قط[٢]. وذكر ابن عبد البر «أن اللَّه بعث ملكين إلى قرية ليدمراها بمن فيها فوجدا

---

(١) أخرجه أحمد - كما في الجواب الكافي ص ٣٢.

(٢) أخرجه الطبراني في الأوسط (٧٦٦١)، والبيهقي في الشعب (٧٥٩٥) من حديث جابر=

فيها رجلًا قائمًا يصلي . فقالا : يا رب إن فيها عبدك فلانًا يصلي ؟ فقال اللّٰه عز وجل : دمراها ودمراه معهم ؛ فإنه ما تمعر فيَّ وجهه قط[1] انتهى .

ومن له علم بأحوال القلوب وما يوجبه الإيمان ويقتضيه من الغضب له والغيرة لحرماته وتعظيم أمره ونهيه يعرف من تفاصيل ذلك فوق ما ذكرنا .

ولو لم يكن إلا مشابهة المغضوب عليهم والضالين في الأنس بأهل المعاصي ومؤاكلتهم ومشاربتهم لكفى بذلك عيبًا .

واللّٰه الموفق والهادي ، لا إله غيره ، وبلغ سلامنا الإخوان والخواص إجازة مطلقة والشيخ الوالد والعيال بخير ، وينهون السلام ، ولا تنسنا من صالح دعائك . والسلام . سنة ١٢٨٤هـ .

❁❁❁

= رضي اللّٰه عنه . وضعفه البيهقي وقال : المحفوظ من قول مالك بن دينار . وانظر السلسلة الضعيفة (١٩٠٤) . قال الألباني : ضعيف جدًا .

(١) ابن عبد البر – كما في الجواب الكافي لابن القيم ص٢٩. وأخرجه ابن وضاح في البدع والنهي عنها (٢٨٦) عن أبي هزان من قوله . وسندها ضعيف كما قال محقق الجواب الكافي .

من دفائن الكنوز(١)

بسم الله الرحمن الرحيم(٢)

من عبد اللطيف بن عبد الرحمن: إلى من يصل إليه هذا الكتاب من الإخوان، سلمهم الله تعالى.

سلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

وبعد: فموجب هذا والباعث عليه هو النصح الذي يجب علينا من حقكم، وقد قال تعالى: ﴿وَذَكِّرْ فَإِنَّ ٱلذِّكْرَىٰ تَنفَعُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الذاريات: الآية ٥٥] فاذكروا ما مَنَّ الله عليكم وخصكم به في هذا الزمان من نعمة الدين التي هي أشرف النعم وأجلها، وما حصل في ضمنها من المصالح التي لا تعد ولا تحصى، وقد أخبر الله تعالى عن كليمه موسى عليه الصلاة والسلام أنه ذكر قومه هذه النعمة كما قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنۢبِيَآءَ وَجَعَلَكُم مُّلُوكًا﴾ [المائدة: الآية ٢٠] - الآية.

فذكرهم أولًا بالنعمة العظمى، وهي أن جعل فيهم أنبياء يرشدونهم إلى ما فيه صلاحهم وخلاصهم وسعادتهم في الدنيا والآخرة، وقد امتن الله سبحانه على عباده في كتابه بهذه النعمة وذكرهم بها في مواضع كما قال تعالى: ﴿لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ [آل عمران:

---

(١) مجلة الإصلاح - العددان التاسع والعاشر - ١٣٤٧/٧/١٥.

(٢) ورد في هامش المجلة ما نصه: رسالة لم تُطبع بعد من رسائل الشيخ عبد اللطيف بن عبد الرحمن، تفضل على الإصلاح بها علامة وقته الشيخ محمد بن عبد اللطيف، نجل المؤلف.

الآية ١٦٤]، وقال: ﴿هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ﴾ [الجُمُعَة: الآية ٢]. وأخبر عن مراده فيما شرعه من تحويل القبلة إلى بيته الحرام وأن ذلك قد قصد به وأراد إتمام نعمته؛ وليحصل لهم الاهتداء، وذكرهم عند ذلك هذه النعم وأنه فعل ذلك، كما منَّ عليهم بمبعث الرسول ﷺ فقال: ﴿كَمَآ أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِّنكُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْكُمْ ءَايَـٰتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا۟ تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: الآية ١٥١].

فبعث الأنبياء وإرسال الرسل هو الذي حصل به العلم النافع والعمل الصالح، كمعرفة اللَّه بصفات كماله ونعوت جلاله، والاستدلال بآياته ومخلوقاته، والقيام له بما أوجب على خلقه من العبادة والتوحيد والعمل بما يرضي الرب ويريد؛ فإن بهذا تحصل زكاة العبد ونموه وصلاحه وفلاحه وسعادته في الدنيا والآخرة. وفي ضمن تعليم الكتاب والحكمة من تفاصيل العلوم والأعمال والمعارف، والأمثال الدالة على وحدانيته وقدرته ورحمته وعدله وفضله، وإعادته لخلقه وبعثه إياهم ومجازاتهم على أعمالهم، وذكر أيامه في أنبيائه وأوليائه، وما فعل ويفعل بأعدائهم وأعدائه، وإخباره بإلحاق النظير بالنظير والشبيه بالشبيه والمثل بالمثل ما يوجب للعبد من العلم باللَّه ومعرفة قدرته وحكمته في أقداره ومراده من شرعه وخلقه، وغير ذلك من الأحكام الكلية والجزئية ما لا يمكن حصره ولا استقصاؤه.

فما أنعم اللَّه على أهل الأرض من نعمة إلا وهي دون نعمة إرسال الرسل وبعث النبيين، خصوصًا رسالة محمد ﷺ؛ سيد ولد آدم، صاحب اللواء المعقود والمقام المحمود والحوض المورود، فإنه قد حصل برسالته من عموم الرحمة لكافة العالمين، ومن السعادة والفلاح والتزكية والهدى والرشاد لمن اتبعه

ما لم يحصل مثله ولا قريب منه ببعث غيره من الأنبياء . فمن كان له من قبول ما جاء به والإيمان به حظ ونصيب فعليه من شكر اللَّه على هذه النعمة وطاعته وإدامة ذكره والثناء بنعمه ما ليس على من قل حظه ونصيبه من ذلك .

وقد منّ اللَّه عليكم رحمكم اللَّه في هذا الزمان الذي غلبت فيه الجهالات وفشت بين أهله الضلالات والتحق بزمن الفترات ، من يجدد لكم أمر هذا الدين ويدعو إلى ما جاء به الرسول الأمين من الهدى الواضح المستبين ، وهو شيخ الإسلام والمسلمين ومجدد ما اندرس من معالم الملة والدين ، الشيخ « محمد بن عبدالوهاب » رحمه اللَّه تعالى ، فبصر اللَّه به من العماية ، وهدى بما دعا إليه من الضلالة ، وأغنى بما فتح اللَّه عليه وعليكم من العالة ، وحصل من العلم ما يستبعد على أمثالكم في العادة ، حتى ظهرت الحجة البيضاء التي كان عليها صدر هذه الأمة وأئمتها في باب توحيد اللَّه بإثبات صفات كماله ونعوت جلاله والإيمان بقدره وحكمه في أفعاله .

فإنه قرر ذلك وتصدى - رحمه اللَّه - للرد على من نكب عن هذا السبيل واتبع سبيل التحريف والتعطيل ؛ على اختلاف نحلهم وبدعهم ، وتشعب مقالاتهم وطرقهم ، متبعًا - رحمه اللَّه - ما مضى عليه السلف الصالح من أهل العلم والإيمان ، وما درج عليه القرون المفضلة بنص الحديث ، ولم يلتفت - رحمه اللَّه - إلى ما عدا ذلك من قياس فلسفي ، أو تعطيل جهمي ، أو إلحاد حلولي أو اتحادي ، أو تأويل معتزلي أو أشعري ، فأوضح معتقد السلف الصالح بعد ما سفت عليه السوافي وذرت عليه الذواري ، وندر من يعرفه من أهل القرى والبوادي ، إلا ما كان من العامة من أصل الفطرة فإنه قد يبقى في زمن الغربة والفترة .

وتصدى أيضًا للدعوة إلى ما يقتضيه هذا التوحيد ويستلزمه ، وهو وجوب

عبادة اللّه وحده لا شريك له ، وخلع ما سواه من الأنداد والآلهة ، والبراءة من عبادة كل ما عبد من دون اللّه .

وقد عمت في زمنه البلوى بعبادة الأولياء والصالحين وغيرهم ، وأطبق على ترك الإسلام جمهور أهل البسيطة .

وفي كل مصر من الأمصار وبلد من البلدان وجهة من الجهات من الآلهة والأنداد لرب العالمين ما لا يحصيه إلا اللّه على اختلاف معبوداتهم وتباين اعتقاداهم .

فمنهم من يعبد الكواكب ويخاطبها بالحوائج ، ويبخر لها بالتبخيرات ، ويرى أنها تفيض عليه أو على العالم وتقضي لهم الحاجات وتدفع عنهم البليات .

ومنهم من لا يرى ذلك ويكفر أهله ويتبرأ منهم ولكنه قد وقع في عبادة الأنبياء والصالحين ، فاعتقد أنه يستغاث بهم في الشدائد والملمات ، وأنهم الواسطة في إجابة الدعوات وتفريج الكربات ، فتراه يصرف وجهه إليهم ويسوي بينهم وبين اللّه في الحب والتعظيم والتوكل والاعتماد والدعاء والاستغاثة والاستعانة وغير ذلك من أنواع العبادات . وهذا هو دين جاهلية العرب الأولين كما أن الأول هو دين الصابئة الكنعانيين .

وقد بعث اللّه محمدًا ﷺ بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون ، وكانت العرب في وقته وزمن مبعثه معترفين للّه بتوحيد الربوبية والأفعال ، وكانوا على بقية من دين إبراهيم الخليل عليه السلام . قال تعالى : ﴿قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ أَمَّن يَمْلِكُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَمَن يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ وَمَن يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ ۚ فَسَيَقُولُونَ ٱللَّهُ ۚ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾ [يونس: الآية ٣١] ، وقال تعالى : ﴿قُل لِّمَنِ ٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهَآ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨٤﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ . الآيات – إلى قوله – ﴿فَأَنَّىٰ تُسْحَرُونَ﴾

[المؤمنون: الآية ٨٩] ، والآيات في المعنى كثيرة ، ولكنهم أشركوا في توحيد العبادة والإلهية ، فاتخذوا الشفعاء والوسائط من الملائكة والصالحين وغيرهم ، وجعلوهم أندادًا لله رب العالمين فيما يستحق عليهم من العبادات والإرادات .

(يتبع)

❁❁❁

من دفائن الكنوز(١)

رسالة الشيخ عبد اللطيف

(٢)

كالحب والخضوع والتعظيم والإنابة والخشية وغير ذلك من أنواع العبادات والطاعات ؛ لأجل جاههم عند الله والتماس شفاعتهم للاعتقاد والتدبير والتأثير ، كما ظن بعض الجاهلين . قال تعالى : ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَٰؤُلَاءِ شُفَعَاؤُنَا عِندَ اللَّهِ﴾ [يونس: الآية ١٨] - الآية) ، وقال : ﴿أَمِ اتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ شُفَعَاءَ ۚ قُلْ أَوَلَوْ كَانُوا لَا يَمْلِكُونَ شَيْئًا وَلَا يَعْقِلُونَ﴾ [الزُّمَر: الآية ٤٣] ، وقال تعالى : ﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَىٰ﴾ [الزُّمَر: الآية ٣] - الآية .

فنهاهم رسول الله ﷺ عن هذا الشرك ، وكفَّر أهله وجهلهم وسفه أحلامهم ، ودعاهم إلى شهادة أن لا إله إلا الله ، وبين أن مدلولها اللازم بعبادة الله وحده لا شريك له والكفر بما يعبد من دون الله ، وهذا هو أصل الدين وقاعدته .

ولهذا كانت هذه الكلمة كلمة الإسلام ومفتاح دار السلام ، والفارق بين الكافر والمؤمن من الأنام ، ولها جردت السيوف وشرع الجهاد ، وامتاز الخبيث من طيب العباد ، وبها حقنت الدماء وعصمت الأموال .

وقد بلغ الشيطان مراده من أكثر الخلق ، وصدق عليهم إبليس ظنه فاتبعه الأكثرون ، وتركوا ما جاءت به الرسل من دين الله الذي ارتضاه لنفسه . وتلطف الشيطان في التحيل والمكر والمكيدة حتى أدخل الشرك وعبادة الصالحين وغيرهم على كثير ممن ينتسب إلى دين الإسلام في قالب محبة الصالحين

---

(١) مجلة الإصلاح - العدد الحادي عشر - ١٣٤٥/٨/١هـ .

والأنبياء والتشفع بهم ، وأن لهم جاهًا ومنزلة ينتفع بها من دعاهم ولاذ بحماهم ، وأن من أقر للَّه وحده بالتدبير ، واعتقد له بالتأثير والخلق والرزق فهو المسلم ولو دعا غير اللَّه واستعاذ بغيره ولاذ بحماه ، وأن مجرد شهادة أن لا إله إلا اللَّه تكفي مثل هذا وإن لم يقارنها علم ولا عمل ينتفع به ، وأن الدعاء والاستغاثة والاستعانة والحب والتعظيم ونحو ذلك ليس بعبادة ، وإنما العبادة السجود والركوع ، ونحو هذه الزخرفة والمكيدة . وهذا بعينه هو الذي تقدمت حكايته عن جاهلية العرب .

وذكر المفسرون وأهل التاريخ من أهل العلم في سبب حدوث الشرك في قوم نوح مثل هذه المكيدة ، فإن ودًا وسُواعًا ويغوث ويعوق ونسرًا أسماء رجال صالحين في قوم نوح ، فلما هلكوا أوحى الشيطان إلى قومهم أن ينصبوا تماثيلهم ويصوروا صورهم ليكون ذلك أشوق إلى العبادة وأنشط في الطاعة ، فلما هلك من فعل هذا أوحى الشيطان إلى من بعدهم أن أسلافهم كانوا يعبدونهم وبهم يسقون المطر فعبدوهم لذلك ، فأصل الشرك هو تعظيم الصالحين بما لم يشرع والغلو في ذلك .

فأتاح اللَّه بمنه في هذه البلاد النجدية والجهات من أحبار الإسلام وعلمائه الأعلام من يكشف الشبهة ويجلو الغمة وينصح الأمة ويدعو إلى محض الحق وصريح الدين الذي لا يخالطه ولا يمازجه دين الجاهلية المشركين ، فنافح عن دين اللَّه ودعا إلى ما دعا إليه رسول اللَّه ﷺ وصنف الكتب والرسائل وانتصب للرد على كل مبطل ومما حل . وعلم من لديه كيف يطلب العلم وأين يطلب وبأي شيء يقهر المشبه المجادل ويغلب ، واجتمع له من عصابة الإسلام والإيمان طائفة يأخذون عنه وينتفعون بعلمه وينصرون اللَّه ورسوله ، حتى ظهر واستنار ما دعا إليه وأشرقت شموس ما عنده من العلم وما لديه . وعلت كلمة اللَّه حتى غشي إشراقها وضوؤها كل مبطل ومماحل ، وذل لها كل منافق مجادل ،

وحقق الله وعده لأوليائه وجنده كما قال تعالى: ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ ٱلْأَشْهَٰدُ﴾ [غافر: الآية ٥١]، وقوله: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ [النّور: الآية ٥٥] - الآية، فزال بحمد الله ما كان بنجد وما يليها من القباب والمشاهد والمزارات والمغارات، وقطع الأشجار التي يتبرك بها العامة، وبعث السعاة لمحو آثار البدع الجاهلية من الأوتاد والتعاليق والتركبات، وألزم الناس بإقام الصلاة وإيتاء الزكاة وصيام رمضان وسائر الواجبات، وحث من لديه من القضاة والمفتين على تجريد المتابعة لما صح وثبت عن سيد المرسلين، مع الاقتداء في ذلك بأئمة الدين والسلف الصالح المهديين. ونهيهم عن ابتداع قول لم يسبقهم إليه إمام يقتدى به أو علم يهتدى به.

وأنكر ما كان عليه الناس في تلك البلاد وغيرها من تعظيم الموالد والأعياد الجاهلية التي لم ينزل في تنظيمها سلطان، ولم يرد به حجة شرعية ولا برهان؛ لأن ذلك فيه من مشابهة للنصارى الضالين في أعيادهم الزمانية والمكانية ما هو باطل مردود في شرع سيد المرسلين.

وكذلك أنكر ما أحدثه جهلة المتصوفة وضلال المبتدعة من التدين والتعبد باللهو واللعب والمكاء والتصدية والأغاني التي صدهم بها الشيطان عن سماع آيات القرآن، وصاروا بها من أشباه عباد الأوثان الذين قال الله فيهم ﴿وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ عِندَ ٱلْبَيْتِ إِلَّا مُكَآءً وَتَصْدِيَةً﴾ [الأنفال: الآية ٣٥]، وكل من عرف ما جاء به الرسول تبين له أن هؤلاء من أضل الفرق وأخبثهم نحلة وطريقة، والغالب على كثير منهم النفاق وكراهة سماع كلام الله ورسوله.

(يتبع)

❁❁❁

من دفائن الكنوز

رسالة الشيخ عبد اللطيف[1]

(٣)

وأنكر رحمه اللَّه ما أحدثه العوام والطغام من اعتقاد البركة والصلاح في أناس من الفجار والطواغيت الذين يرشحون أنفسهم لتأله العباد بهم وصرف قلوبهم إليهم باسم الولاية والصلاح ، وإن لهم كرامات ومقامات ، ونحو هذا من الجهالات . فإن هؤلاء من أضر الناس على أديان العامة .

وأنكر رحمه اللَّه ما يعتقده العامة في البُله والمجانين وأشباههم الذين أحسن أحوال أحدهم أن يرفع عنه القلم ويلحق بالمجانين .

وأرشد رحمه اللَّه إلى ما دل عليه الكتاب وسنة رسول اللَّه ﷺ من الفرقان بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان ، وساق الأدلة الشرعية التي يتميز بها كل فريق ويعتمدها أهل الإيمان والتحقيق ، فإن اللَّه جل ذكره وصف الأبرار ونعتهم بما يتميزون به ويعرفون بحيث لا تخفى حالهم ولا يلتبس أمرهم ، وكذلك وصف اللَّه تعالى أولياء الشيطان من الكفار والفجار ونعتهم بما لا يخفى معه حالهم ولا يلتبس أمرهم على من له أدنى نظر في العلم وحظ من الإيمان .

وكذلك قام بالنكير على أجلاف البوادي وأمراء القرى والنواحي فيما يتجاسرون عليه ويفعلونه من قطع السبيل وسفك الدماء ونهب الأموال المعصومة ، حتى ظهر العدل واستقر ، وفشا الدين واستمر ، والتزمه كل من كانت عليه الولاية من البلاد النجدية وغيرها والحمد للَّه على ذلك . والتذكير

---

(١) مجلة الإصلاح – العدد الثاني عشر – ١٣٤٧/٨/١٥هـ .

بهذا يدخل فيما امتن الله به على المؤمنين وذكرهم من بعث الأنبياء والرسل.

ومدار العبادة والتوحيد على ركنين عظيمين هما: الحب، والتعظيم. وبمشاهدة النعمة يحصل ذلك ويخبت القلب لطاعة من أنعم بها عليه، وكلما ازداد العبد علمًا بذلك ومعرفة لحقيقة النعمة ومقدارها ازداد طاعة ومحبة وإنابة وإخباتًا وتوكلًا، ولذلك يذكر تعالى عباده بنعمه الخاصة والعامة والآية الظاهرة والباطنة، ويحث على التفكير في ذلك والتذكر وأن يعقل العبدعن ربه فيقوم بشكره ويؤدي حقه.

ومبنى الشكر على ثلاثة أركان: معرفة النعمة وقدرها، والثناء بها على مسديها، واستعمالها في ما يحب موليها ومعطيها.

فمن كملت له هذه الثلاث فقد استكمل الشكر، وكلما نقص العبد منها شيئًا فهو نقص في إيمانه وشكره، وقد لا يبقى معه من الشكر ما يعتد به ويثاب عليه.

والمقصود أن الذكرى فيها من المصالح الدينية والشعب الإيمانية ما هو أصل كل فلاح وخير.

وبدأ في هذه الآية(١) بأعظم النعم وأجلها على الإطلاق وهو جعله الأنبياء فيهم يخبرونهم عن الله فيما يحصل لهم به السعادة الكبرى والمنة الجليلة العظمى. وكل خير حصل في الأرض من ذلك فأصله مأخوذ عن الرسل والأنبياء، إذ هم الأئمة الدعاة الأمناء وأهل العلم، عليهم البلاغ ونقل ذلك إلى الأمة، فإنهم واسطة في إبلاغ العلم ونقله.

---

(١) ومراده رحمه الله بالآية ما تقدم في أول الرسالة وهي قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنۢبِيَآءَ وَجَعَلَكُم مُّلُوكًا﴾ [المائدة: الآية ٢٠] إذ لازال الكلام في بيانها وما اشتملت عليه من التذكير بنعم الله تعالى على عباده. والله أعلم.

وأما قوله : ﴿وَجَعَلَكُم مُّلُوكًا﴾ [المائدة: الآية ٢٠] فهذه نعمة جليلة يجب شكرها وتتعين رعايتها فإنها من أفضل النعم وأجلها ، والشكر قيد النعمة ، إن شكرت قرت وإن كفرت فرت ، ولم تحصل هذه النعمة إلا باتباع الأنبياء وطاعة الرسل ، فإن بني إسرائيل إنما صاروا ملوك الأرض بعد فرعون وقومه باتباع موسى وطاعة اللّه ورسوله والصبر على ذلك . قال اللّه تعالى : ﴿وَأَوْرَثْنَا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُوا يُسْتَضْعَفُونَ مَشَارِقَ الْأَرْضِ وَمَغَارِبَهَا الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ الْحُسْنَىٰ عَلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ بِمَا صَبَرُوا﴾ [الأعراف: الآية ١٣٧] .

وقد حصل باتباع محمد ﷺ لمن آمن به من العرب الأميين وغيرهم من أجناس الآدميين من الملك وميراث الأرض فوق ما حصل لبني إسرائيل ، فإنهم ملكوا الدنيا من أقصى المغرب إلى أقصى المشرق ، وحملت إليهم كنوز كسرى ملك الفرس وقيصر ملك الروم ، وصارت بلادهم وبلاد المغرب والمشرق ولاية لهم ورعية تنفذ فيهم أحكامهم ويجبى إليهم خراجهم ، وقد مكثوا على ذلك ظاهرين قاهرين لمن سواهم من الأمم حتى وقع فيهم ما وقع في بني إسرائيل من الخروج عن اتباع الأنبياء وترك سياستهم والانهماك في أهوائهم وشهواتهم ، فجاء الخلل وسلط العدو وتشتت الناس وتفرقت الكلمة وصارت كثيرة ، وصارت الدولة الإسلامية يسوسها في كثير من البلاد وفي أوقات من الملوك أهل النفاق والزندقة والكفر والإلحاد الذين لا يبالون بسياسات الأنبياء وما جاءوا به من عند اللّه ، وربما قصدوا معاكستهم ، فذهب الملك بذلك وضاعت الأمانة وخشي الظلم والخيانة . وصار بأسهم بينهم وسلط عليهم العدو ، وأخذ كثير من البلاد .

ولم يقنع منهم إبليس عدو اللّه بهذا حتى أوقع كثيرًا منهم في البدع والشرك وسعى في محو الإسلام بالكلية ، وكلما بعد عهد الناس بالعلم وآثار الرسالة

ونقص تمسكهم بعهود أنبيائه تمكن الشيطان من مراده في أديانهم ونحلهم واعتقاداتهم .

ولكن من رحمة اللّٰه ومنته جعل في هذه الأمة بقية وطائفة على الحق ظاهرين لا يضرهم من خذلهم حتى يأتي أمر اللّٰه وهم على ذلك ، وكلما حصل لهذه الطائفة قوة وسلطان في جهة أو بلد حصل من الملك والظهور لهم بقدر تمسكهم بما جاء به محمد ﷺ ولذلك صار لشيخنا شيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب ولطائفته وأنصاره من الملك والظهور والنصر بحسب نصيبهم وحظهم من متابعة نبيهم ﷺ والتمسك بدينه فقهروا جمهور العرب من الشام إلى عمان ومن الحيرة إلى اليمن . وكلما كان أتباعهم وأنصارهم أقوى تمسكًا كانوا أعز وأظهر .

وربما نال منهم العدو وحصل عليهم من المصائب ما تقتضيه الذنوب والمخالفة والخروج عن متابعة نبيهم وما يعفو اللّٰه عنه من ذلك أكثر وأعظم .

والمقصود أن كل خير ونصر حصل وغبر وسرور اتصل فهو بسبب متابعة الرسول ﷺ وتقديم أمره في الفروع والأصول .

وقد مَنَّ اللّٰه عليكم في هذه الأوقات بما لم يعطه سواكم في غالب البلاد والجهات من النعم الدينية والدنيوية والأمن في الأوطان .

فاذكروا اللّٰه يذكركم ، واشكروا نعمه يزدكم ، وقوا أنفسكم وأهليكم نارًا وقودها الناس والحجارة بمعرفةِ اللّٰه ومحبته وطاعته وتعظيمه ، وتعليم أصول الدين ، وتعظيم ما جاء به الرسول الأمين من الأمر والنهي والتزامه والمحافظة عليه ؛ على توحيد اللّٰه ، وإقام الصلاة ، وإيتاء الزكاة ، وصيام رمضان ، وحج بيت اللّٰه الحرام ، والجهاد في سبيله ، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، وترك الفواحش الباطنة والظاهرة ، وسد الوسائل التي توقع في المحذور وتفضي إلى ارتكاب الآثام والشرور ، ويجمع ذلك قوله تعالى : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُ بِٱلۡعَدۡلِ

وَٱلْإِحْسَٰنِ وَإِيتَآيِٕ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ وَٱلْبَغْىِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ [النحل: الآية ٩٠] .

والله المسئول أن يمن علينا وعليكم بسلوك سبيله ، وأن يجعلنا ممن عرف الهدى بدليله . وصلى الله على محمد عبده ورسوله وآله وصحبه أجمعين .

❁ ❁ ❁

الشيخ

محمد رشيد رضا رَحِمَهُ ٱللَّهُ

مقالات الشيخ محمد رشيد رضا[١]

الإلحاد والملحدون[٢]

(١)

نشر العلّامة الأستاذ السيد : محمد رشيد رضا منشئ مجلة « المنار » الأغر

(١) هو العلامة السلفي رشيد بن علي رضا بن محمد شمس الدين منلا علي خليفة القلموني البغدادي الأصل الحسيني النسب .

ولد عام ١٢٨٢هـ ، في قرية قلمون الواقعة بالقرب من طرابلس الشام ، ونشأ بها وتعلم في مدرستها ، ثم التحق بالمدرسة الرشدية بطرابلس الشام ، وهي مدرسة ابتدائية ، ثم تركها والتحق بالمدرسة الوطنية الإسلامية ، ثم انتقل منها إلى المدارس الدينية بطرابلس وبقي فيها حتى تحصل على الشهادة العالمية و ثم واصل تعليمه ودراسته الحرة على أستاذه الشيخ حسن الجسر الذي أجازه في التدريس ، وكان له أثر عظيم في تنشئته وتوجيهه الوجهة العلمية النافعة ، كما أخذ علم الحديث والفقه الشافعي عن الشيخ محمود نشابة إلى جانب استفادته أدبيًّا من الشيخ عبد الغني الرافعي والشيخ محمد القاوقجي الكبير ، والتقى بالسيد محمد عبده مرتين في طرابلس في زيارتين قصيرتين ، فأعجب به ورغب في الاتصال به ، وعزم على الرحيل إليه بمصر سنة ١٣١٤هـ ، وكان قد نال شهادة التدريس العالمية من شيوخه بطرابلس ، فأنشأ مجلة المنار في مدينة القاهرة سنة ١٣١٥هـ ، وأخذ يقاوم على صفحاتها البدع والخرافات ، ويحارب العقائد الزائفة .

واستمر - رحمه اللّٰه - في إصدار مجلة المنار وطبع الكتب التجارية بمطبعتها وتأليف الكتب النافعة ، وقد بلغت مجلة المنار قبيل وفاته ٣٤ مجلدًا .

ألف مؤلفات كثيرة منها : « تفسير القرآن المشهور بتفسير المنار » ، « المسلمون والقبط » ، « عقيدة الصلب والفداء » ، « الوحي المحمدي » ، « الإسلام وأصول التشريع العام » ، « شبهات النصارى وحجج الإسلام » ، « السنة والشيعة » ، « الحكمة الشرعية في محاكمة القادرية والرفاعية » .

استمر السيد رشيد رضا في محاربة البدع والنضال عن عقيدة الإسلام إلى أن توفي فجأة عام ١٣٥٤هـ ، ودفن في القاهرة وحزن عليه المسلمون ، ورثاه العلماء والأدباء في جميع الأقطار .

« مشاهير علماء نجد وغيرهم » (ص٢٨٨) .

(٢) صحيفة « أم القرى » ، العدد (٢٤٨) ، ١٦/٤/١٣٤٨هـ .

في صدر الجزء « الأول » من المجلد « الثلاثين » من مجلته مقالة عن فُشو الإلحاد في ديار المسلمين ، ننشر خلاصتها كما يلي ؛ ليطلع عليها القرَّاء نظرًا لأهميتها :

قال الأستاذ : أما الذي نذكر به القرَّاء - في فاتحة المجلد الثلاثين من الشؤون الإسلامية على عادتنا في هذه الفواتح - فهو أن الحملة على الإسلام قد اشتدَّت في هذا العهد من خصومه في الداخل والخارج ، أعني من قبل دول الاستعمار ودعاة النصرانية وهم طلائعها وحداتها ، ومن أعوانهم وأنصارهم وتلاميذهم في البلاد الإسلامية نفسها ، ولست أعني بهؤلاء من يستخدمهم المبشرون بل أعني من هم أشرُّ وأضرُّ ، وأدهى وأمرُّ من ملاحدة المسلمين ، ودعاتهم وأخدانهم ، وأشباههم ، الذين سممتهم التربية الإفرنجية ، وأفسدتهم الآراء المادية ، وخنَّثهم[1] الإسراف في الشهوات البدنية .

ونحن نطلق لقب الإلحاد على كل من يسمى خطة هؤلاء - في نبذ الشريعة الإسلامية برمتها من حكومتهم ، والتمهيد لمحو عقائد الإسلام وآدابه وعباداته من نابتة شعبهم ؛ بمنع اللغة العربية من جميع بلادهم ، وترجمة القرآن بما لا يؤدي حقائق معانيه من لغتهم - إصلاحًا ويحسنها ويدعو إليها ، فهو عدو للإسلام وولي لأعدائه . وعداوة الإسلام أعم من الارتداد عنه والكفر به ، فإن كان مع هذا زنديقًا يدَّعي الإسلام ويخفي الكفر ، فإفساده أعم وأكبر من إفساد الكافر الأصلي والمرتد ؛ لأن الجاهلين بحقائق الإسلام من المسلمين يغترون بكلامه ، فيفتنهم عن دينهم أو يشككهم فيه .

(١) خنث : المخنث بكسر النون وفتحها والكسر أفصح ، والفتح أشهر ، وهو الذي خلقه خلق النساء في حركاته وهيئته وكلامه ونحو ذلك ، سمي مخنثًا ؛ لانكسار كلامه ولينه ، يقال: خنثت الشيء إذا عطفته. « تهذيب الأسماء » (حرف الخاء) .

وإننا نرى ملاحدة بلدنا[١] هذا طبقات بددا، تسلك طرائق قددا[٢]:

(الطبقة الأولى): المجاهرون بالكفر والصدِّ عن الدين، والطعن في عقائده، وإلقاء الشكوك والشبهات فيها؛ بما يكتبون في الجرائد والمجلات المختلفة.

وأفراد هذه الطبقة لا يدعون التدين ولا يمتعضون لوصفهم بالتعطيل، بل منهم من يفتخر بذلك.

(الطبقة الثانية): الزنادقة الذين يظهرون الإسلام، ويمتعضون إذا وصفوا بالزيغ والإلحاد، وهم مع ذلك يطعنون في أصوله، ويجحدون بعض ما هو مجمع عليه ومعلوم بالضرورة منه، ويشككون في بعض آيات القرآن، وهم لأفراد من الطبقة الأولى إخوان، وأخدان وأعوان.

ورأي هؤلاء في الدين أنه رابطة اجتماعية سياسية يجب أن يكفي في الاعتراف لأهلها به موافقتهم للجمهور في بعض الشعائر والمشخصات العامة؛ كالتجمل والزيارات في الأعياد - وإن لم يصل صاحبها صلاة العيد- واحتفال الجنائز ومآتمها، وقراءة القرآن فيها- وإن اشتمل ذلك على أعمال كثيرة يحرمها الدين- وكزيارات ليالي رمضان وطواف المسحرين فيها، ولكن الصيام نفسه ليس ركنًا من هذه الشريعة ولا شرطًا لها، وكذلك الصلوات الخمس - حتى الجمعة - والزكاة لا يدخلان في هذا الدين الرسمي من باب ولا طاق، فإنهما عندهم من الأمور الشخصية، وتعد كاستباحة السكر والقمار وغيرهما من المنكرات والفواحش مما تتناوله الحرية الذاتية، كما أن ما تقدم من الطعن في الدين وخلفائه وأئمته مما تتناوله حرية الأفكار ويباح الخوض فيه للألسنة والأقلام ونشره في الكتب والرسائل، والمجلات والجرائد.

---

(١) يعني - رحمه الله - بلد مصر في وقته، حيث كثر آنذاك من رفع راية الطعن في الشريعة تحت شعار الإصلاح. نسأل الله السلامة.

(٢) أي: جماعات متفرقين. لسان العرب.

قال بعضهم ما معناه : إذا تكلمت بلسان الدين أقول إن ما في القرآن من كذا وكذا صحيح مسلم ، وإذا تكلمت بلسان العلم والعقل أقول إنه غير صحيح وغير مسلم . يعني أن هذا الذي يثبته القرآن صحيح في اعتقاد المسلمين ومسلم عندهم بمحض التقليد ؛ ولكنه غير صحيح ولا ثابت بدليل عقلي ولا علمي بل ربما يبطله الدليل .

ولولا أن قائل هذا زنديق ذو لسانين يُسِرُّ الكفرَ بوحي اللَّه - وإن قال أحيانًا قال اللَّه ، قال رسول الله- لمَا استباح التشكيك فيه بمثل هذا من قوله ، بل لكان إثبات كتاب اللَّه تعالى للشيء أقوى برهان عنده على ثبوته في نفسه ، وإن لم يثبته أحد من خلقه بنظريات فكره ، وما وصلت إليه مباحث علمه . فإن علم اللَّه محيط بكل شيء من خلقه ، ولا يحيطون بشيء من علمه إلا بإذنه ، أي بما وهبهم من أسباب كسبه من الحس والعقل . ومن المعلوم الذي لا مِراء فيه أن كل ما ثبت عند البشر من هذين الطريقين الكسبيين لهم كان مجهولًا قبل ذلك عندهم ؛ وذلك لا يقتضي عدم ثبوته في نفسه ولو لم يثبته الوحي الصحيح فكيف إذا أثبته ؟ ! .

(الطبقة الثالثة) الغماليج[1] الإمعون من مرضى القلوب المقلدين ، الذين يشايعون المؤمنين إذا كانوا معهم ، ويجارون الملحدين إذا وُجدوا بينهم ؛ فلا يُعرف لهم رأي ثابت مستقر ينصرونه ويردُّون ما خالفه .

وأما سيرتهم في العمل فهي تابعة لتربيتهم في بيوتهم ، وحال عُشرائهم من لداتهم وأترابهم ورفاقهم في المدارس وجيرانهم ، فتراهم يجمعون بين الكفر والإسلام . ومنهم من يصلي الصلوات الخمس لأنه تربى على ذلك ؛ ثم يقر ما هو كفر بإجماع المسلمين ، وينصر الملاحدة القائلين به ، فإسلامهم تقليدي

---

(١) الغَمْلَجُ والغَمَلَّجُ الذي لا يستقيم على وجه واحد يُحْسِنُ ثم يُسِيءُ . لسان العرب [غملج] .

وإلحادهم تقليدي والغالب على أمرهم من يكون أكثر معاشرة وارتباطًا بهم، ومساعدة لهم على أهوائهم ورغائبهم، ومنهم منهوم المال، ومفتون الجاه. وثَمَّ طبقات أخرى مدغم بعضها في بعض؛ فيعسر الحكم عليها بالقطع، على تفاوت الأفراد فيها في العمل والفكر.

وطالما ضربت مثلًا لمسلمي الأمصار المتفرنجة وطبقات الملاحدة: اختلاط الماء الحلو بالماء الملح في مثل شط العرب من جهة البصرة، وساحليٍّ رشيد ودِمياط من مصر، فما كان بين العذب الفرات والملح الأجاج من المائين يتفاوت على نسبة القرب والبعد من كل منهما، وهكذا نرى بعض هؤلاء المسلمين المتفرنجين؛ منهم ما غلب عليه أجاج الكفر فصار من أهله- مسرًا له أو معلنًا- ومنهم المز[1] بين عذوبة الإيمان، وملوحة الإلحاد، والمزازة فيه على درجات، بعضها مقطوب لا تكاد تشربه إلا مقطبًا، وبعضها مغلوب إذا تجرعته لا تكاد تسيغه إلا متهوعًا.

ومما ثبت عندنا بالخبر المستفيض والخبر الطويل العريض أن من أفراد أولئك الملاحدة دعاةً للكفر وسُعاةً للصد عن الإسلام، وأن منهم من يأخذ على ذلك جعلًا من جمعيات التبشير بالنصرانية، ومنهم من يتقاضى مكافأة من بعض الجماعات، ومنهم من يخدم الدول الاستعمارية ويأخذ أجره منها، وأعظم هذه الأجور المناصب والوظائف في البلاد المسيطرة عليها، ومنهم من لذته في ذلك التشبه ببعض فلاسفة الإفرنج وكتّابهم الأحرار، والحظوة عندهم والثناء عليهم في كتبهم وصحفهم، وهم لا يثنون إلا على من كانوا عونًا لهم على أقوامهم، ألم تر إلى المستعمرين والمبشرين، من السكسون واللاتينيين، كيف نوهوا وينوهون بذلك وكما ترى في المقال الأول من مقالات هذا الجزء مترجمًا عن كتاب فرنسي

(١) ما كان طعمه بين حُموضةٍ وحلاوة. «لسان العرب» [مزز]

جديد أُلف للإغراء بهدم الإسلام وتنصير المسلمين .

كان المرحوم الأستاذ الشيخ محمد مهدي وكيل مدرسة القضاء الشرعي أول من أنبأني بأنه وجد في مصر جماعة تتعاون على الصد عن الإسلام بالطعن في شريعته ، وفي حكومته وفي لغته ، وفي أئمته ، وفي كل من نوه بهم التاريخ من الخلفاء ، وكبار العلماء والأدباء ، وفي جمهور سلفه في أرقى العصور ، ثم ظهرت آثارهم الخفية في بعض الصحف العامة ، وفيما نشروا من المصنفات الخاصة ، وكان تعاونهم بمقتضى تعارفهم وتوادهم ، وانتماء بعضهم إلى حزب سياسي ينصرهم .

***

الإلحاد والملحدون[١]

(٢)

وقد أخبرنا من خَبرَ حالهم وعاشر رجالهم بطرق الدعوة التي يفتنون بها الشبان عن دينهم ، ولا سيما الأذكياء الفصحاء منهم ، وسنبينها في مقال آخر . ومما بلغنا من أمرهم أنه لم يكن لهم نظام للدعاية إلى عهد غير بعيد ثم وضعوه .

وقد علم الجمهور أنه كان قد تألف في مصر حزب لحرية الفكر ، كان الملاحدة هم المؤسسين له بالطبع من حيث لا يدري كثير ممن انتظم في سلكه ، أو جعل نوتيًا[٢] لتسيير فلكه ولكن بعضهم تجرأ فيه على كلام ساء بعض من حضره من النصارى ، فانتصروا لدينهم بالفعل ، وكان ما كان من التشاجر الذي أفضى إلى القضاء على ذلك الحزب .

وقد نشرت جريدة « السياسة » الأسبوعية في مارس من سنة ١٩٢٨ مقالًا لأحد أركانهم صرح فيه بأنه يوجد في مصر تعصب ديني (إسلامي) ضار ، وأن جماعة كانوا ألفوا حزبًا لمقاومته وتوطيد دعائم الحرية ، وهذه الجماعة لا تزال تعمل لهذه الغاية .

ولما أُلِّفت في مصر جمعية الشبان المسلمين عارضوها بتأليف (جمعية الشبان المصريين) لأجل القضاء عليها بدعاية الوطنية ، قبل أن تشب عن الطوق ؛ وتشب نارها فلا يكون لهم بها طوق ، ولكنهم لم يقاوموا جمعية الشبان المسيحيين بقول ولا عمل ، بل وجدوا فيها من يكبر شأنها ويلقي المحاضرات في ناديها .

---

(١) صحيفة « أم القرى » العدد (٢٥٠) ، ١٣٤٨/٥/١ هـ

(٢) النُّوتِيُّ : الملاَّ الذي يدير السفينة في البحر . الوسيط (ن و ت) .

وليس هذا الإلحاد بحديث العهد بل نبت قرنه مع التفرنج منذ أكثر من قرن ؛ وما زال يرتفع ويقوى حتى طمع أهله بإطفاء نور الدين ، وقد استباحه من استباحه باسم الحرية ، وفند الأستاذ الإمام جهالتهم ببعض مقالاته في الوقائع الرسمية وكان غربيًّا غريبًا فأصبح شرقيًا قريبًا ، أو كان سيْلًا أتيًا ، فأمسى ينبوعًا وطنيًّا .

تجديد ملاحدتنا وتجديد الإفرنج :

إن ما فعله الملاحدة هو الذي أطمع المستعمرين ودعاة النصرانية في أوربة بالإجهاز على الإسلام ، والتذفيف(1) على ما بقى من مظاهر الحكم الإسلامي في جميع بلاد المسلمين ، وتجديد النصرانية وتعزيزها في الغرب والشرق .

وهاك إشارة إلى بعض ما فعلوا في تجديد دينهم مما يعد أكثره ذريعة للتعدي على ديننا :

(١) عقد دعاة البروتستانتية من الإنكليز وغيرهم مؤتمرًا بعد آخر في القدس مهد النصرانية للتشاور في تعميم تنصير المسلمين ، ونشرت جمعية لهم في لندن بيانًا ذكرت فيه أنه لم يبق للإسلام رسوخ ولا ثبات إلا في جزيرة العرب ، وأنها تحتاج إلى مائة مبشر من المجاهدين لنشر النصرانية في هذه الجزيرة والقضاء عليه في مهده الأول ، ومعقله ومأرزه الأخير .

(٢) أعادت الدولة الفرنسية للجمعيات الكاثوليكية ما كانت صادرته من أموالها وأوقافها تنشيطًا لها على نشر النصرانية .

(٣) أُلفت كتب جديدة باللغة الفرنسية وغيرها في الطعن على الإسلام ، والحث على تنصير المسلمين ولو بالقهر والإكراه .

(٤) صالحت الدولة الإيطالية ، دولة الفاتيكان الكاثوليكية ، وأعادت للبابا

---

(١) التّذفِيف : الإجهاز . الفائق [الذال مع الفاء]

سلطانه السياسي في دائرته ومئات الملايين مما كانت اختانته من أموال دولته ، فتجدد للكنيسة الرومانية بعض سيادتها وسياستها ، وهذا بدء انقلاب جديد في تجديد النصرانية في الشرق والغرب ، وذلك لا يضيرنا إلا إذا اعتدوا علينا وهو أهون من التعطيل والإلحاد عندنا .

(٥) نشطت الجمعيات التي تدعو إلى توحيد كنائس المذاهب النصرانية في الشرق والغرب ، وسارت في سعيها خطوات إلى الأمام .

(٦) إن حركة تجديد الدين في انكلترا تلي في العناية حركة إيطالية ، وقد اشتهر ما كان من اقتراح تعديل كتاب الصلاة المتبع في الكنيسة الرسمية ورد مجلس الأمة (البرلمان) له المرة بعد المرة ، وقد ألفت جمعيات أخرى للبحث في العقائد المسيحية وتقاليد الكنيسة وتقريب ذلك من العلم واستعداد العصر .

(٧) تبارت الأُمتان الإيطالية والإنكليزية في الرجوع إلى آداب الدين في أزياء النساء وعاداتهن ، ومقاومة ما أحدثن من الإسراف في التبرج والخلاعة ، المفضية إلى الإباحة ، فكتب بعض كبار الكتاب من الإنكليز في ذلك مقالات نشرت بعضها الجرائد المصرية .

وأما إيطاليا فقد منع رجلها المجدد ووزيرها الأكبر كثيرًا من هذا الإسراف في الأزياء والرقص والسباحة - تجديدًا للدين والأخلاق - لتجديد قوة الأمة وعظمتها ، وذلك مما يحمده كل فاضل له ولها .

العبرة في تجديد أوربة وتجديد ملاحدتنا :

وأما ملاحدة بلادنا ودعاة الكفر والإباحة فيها ، فالتجديد الذي يدعون إليه هو هدم كل ما يربط الأمة ويشد أزرها ، ويجمع كلمتها ، ويهذب أخلاقها ، من روابط الدين ، والمحافظة على العرض ، ويسمون الكفر والفجور وإباحة الأعراض تجديدًا طريفًا ، ومدنية وتقدمًا وترقيًا ويسمون ما يقابل ذلك من التقوى ، والعفة ،

والصيانة قديمًا باليا .

وقد استشرى عبثهم وفسادهم ، وعظم خطرهم بكثرة الجرائد والمجلات التي ينفثون فيها سمومهم ، على صغر شأنهم ، وسوء سيرتهم الشافّ عن خبث سريرتهم ، فإنه لا مزية لأحد منهم في علم نافع ، ولا عمل صالح وإنما هي خلابة الألفاظ ، التي وافقوا فيها أهواء كبار الفساق وصغار الأحداث ، وأن أهل الرأي والبصيرة عندنا يجزمون بأن جل زعزعة العقائد وفساد الأعراض وإباحة النساء ، يناط بفساد أكثر الجرائد ، والمجلات ، فيا حسرتا على جريدتيّ « المؤيد » و« اللواء » ، ويا حسرتا على شعب يعد من أرقى شعوب الشرق ثروة وحضارة وعلمًا ووطنية ، تعجز الأكثرية الساحقة فيه عن إيجاد جريدة يومية ، تدافع عن عقائده وشريعته وآدابه الملية ، على حين نرى لكل الأقليات الملية المتعددة فيه جرائد متعددة تقوم بهذه الوظيفة حق القيام ، وهذه الأقليات بجملتها لا تبلغ عشر هذه الأكثرية الساحقة لها ، وإنما تفوقها في ثروتها النسبية وجامعتها .

۞۞۞

الإلحاد والملحدون[1]

(٣)

خطر إباحة النساء أو تحريرهن

إن مسألة فوضى النساء التي يعبر عن دعايتها بتحرير المرأة وبتفضيل تهتكها - المعبر عنه بالسفور- على صيانتها وعفتها - المعبر عنهما بالحجاب- قد هبطت بالقطر المصرى وغيره من شعوب الشرق المتفرنجة إلى مهواة من أشد المهاوي خطرًا على أعراضها، وتكوين بيوتها (عائلاتها)، وعلى ثروتها وصحتها، وإن سمى المفسدون دعاة الإباحة والدياثة[2] هذا الخطر تجديدًا وتمدينًا.

فقد صار النساء من ربات البيوت والأمهات، ومن العذارى المتعلمات، يمشين في الشوارع بالليل والنهار مخاصرات[3] للرجال، ويغشين الملاهي والمتنزَّهات، وهن كاسيات عاريات، مائلات مميلات، ومنهن من يسبحن في البحر حيث يسبح الرجال أو معهم، وحيث يراهن المارون بقرب الشواطئ منهم، ومنهن من يختلفن إلى المراقص المشتركة فيرقصن معهم؛ وهن أشد من الأجنبيات عريا، وتهتكًا، وخلاعة، ومجونًا، ورقاعة، ومنهن من يدخلن في خلوات الحلاقين حيث يقصون لهن شعورهن ويحلقون لهن أقفيتهن، ويزينون

---

(١) صحيفة «أم القرى» العدد (٢٥١)، ١٣٤٨/٥/٨ هـ

(٢) الدَّيُّوثُ الذي لا يَغارُ على أهله. و التَّدييثُ: القِيادة. وفي المحكم: الدَّيُّوثُ والدَّيْبُوثُ الذي يدخُل الرجالُ على حُرمته بحيث يراهم كأَنه لَيَّنَ نفسه على ذلك. وقال ثعلب: هو الذي تُؤْتى أَهلُه وهو يعلَم. «لسان العرب» (ديث).

(٣) قال الفرَّاء: خَرَجَ القومُ مُتَخَاصِرِينَ؛ إذاكان بعضُهُم آخِذاً بيدِ بَعْضٍ. «تهذيب اللغة» (٥٩/٧).

لهن نحورهن وصدورهن ؛ وهنالك يلتقين بأخدانهن ولا تسل عن حديثهما جهرًا ، وتواعدهما سرًّا ، دع ذكر تعدد المواخير السرية ؛ على كثرة الجهر به ، ومن المخادنات الشخصية والجرائد والمجلات الكثيرة تغري بهذا أو تذكر من وقائعه ما يجرئهن عليه .

وكان أول ما أعقبه هذا الفساد من الخطر قلة الزواج المهدد للأمة بالوقوف عن النماء ؛ فالانقراض والفناء .

إن خصوم الإسلام القاعدين له كل مرصد يضحكون سرورًا مما أصابه من الخزي بأهله الذين يمهدون لهم السبل لاستعبادهم ، والاستعمار لسائر بلادهم ، ويرقبون كل نبأة للإصلاح تخرج من فم أحد حكمائهم ، أو حركة للتجديد الحق يختلج بها بعض أعضائهم فيبادرون إلى تحذير دولهم منها ، وحضهم على تلافي ما يُخشى من تأثيرها ، ثم إنهم يطعنون فيمن صدرت عنه لصد المسلمين الغافلين عنها ؛ كما ترى من كلامهم في الأستاذ الإمام وصاحب المنار ، وما قاما به من دعوة الإصلاح ، ورأيهم في « المجلة » وتفسيرها « ورسالة التوحيد » وتحقيقها ، وتعزية أنفسهم بأن حركة التفرنج العصرية قد أخذت تنتقص الأصول الدينية ، وبأن أفكار الشيخ محمد عبده التي تغلغلت في عقول المفكرين وكان لها المجال الواسع لدى الشبان المسلمين تلقى أشد الإنكار من أرباب العمائم الجامدين . قالوا : « ولهذا تجد مريدي الشيخ عبده متضائلين لا يقدرون أن يجهروا بأفكارهم لقلة عددهم ولشدة مقاومة الجامدين لهم » .

وإننا نبشر هؤلاء الشامتين ، الذين يتربصون ريب المنون بالإسلام والمسلمين ، معتمدين على مساعدة الملاحدة المتفرنجين ، بأن طلائع النصر قد رفعت أعلامها على رءوس المصلحين ، فنكس الجامدون على رءوسهم ، وارتكست فتنهم بين جراثيم شيوخهم ، وانطلقت في المعاهد الدينية ألسنة

العلماء المستقلين ، وصارت « رسالة التوحيد » تدرس في الأزهر للقسم العالي من الطلبة النظاميين ، « وتفسير المنار » هو المرجع لمدرسي التفسير فيه ، وكتب شيخ الإسلام ابن تيمية متغلغلة في أحنائه ومناحيه ، بل صارت مرجعًا للفتاوى الرسمية ، وأُخذ ببعضها في إصلاح الأحكام الشخصية للمحاكم الشرعية .

وهنالك بشارة أخرى في تحول الأحوال ، ونصر حزب اللّٰه على أحزاب الشيطان ، من الشيوخ الجامدين ، والمتصوفة الخرافيين ، والمتفرنجين الملحدين الفاسقين ، وهو تأليف جمعية الشبان المسلمين ، وتعدد فروعها في الأقطار العربية من شرقية وغربية ، وفوق ذلك كله يقظة الأمة العربية في جزيرتها ، وشروعها في تنظيم قوتها ، واتفاق إماميها في الجنوب والشمال ، على شد أواخي وحدتها باليمين والشمال . والأمم إذا عرفت نفسها ، وتعارفت شعوبها ، تعذر على غيرها القضاء عليها والاستبداد فيها ، فلا يستعجلن « سيكار » الفرنسي « وسنوك » الهولندي وأمثالهما بإغراء دولهما بسرعة القضاء على المسلمين ، فربما كان هذا الاستعجال قضاء على سلطان مجترحيه فيهم لا عليهم ولو بعد حين ، وربما كانت محاسنتهم ، والتوسعة عليهم ، في حرية دينهم ومساعدتهم على تنمية ثروتهم ، أقرب إلى طول العهد على الاستفادة منهم .

❁ ❁ ❁

كتاب البروق النجدية
فى اكتساح الظلمات الدجوية[1]

اطلعنا فى « الجزء الرابع » من المجلد « الثاني والثلاثون » من « مجلة المنار » الغراء تقريظًا لكتاب « البروق النجدية في اكتساح الظلمات الدجوية » تأليف الشيخ عبد اللّٰه ابن علي النجدي القصيمي لمنشئ المنار العلامة الكبير الأستاذ الجليل السيد محمد رشيد رضا فأعجبنا بقوة الروح العلمية التي يكتب بها صاحب المنار ؛ ولتعميم النفع بذلك المقال النفيس ، فإنا قد ارتأينا نشره فإلى القرّاء الكرام نص التقريظ المذكور .

(مؤلفه الشيخ عبد اللّٰه بن علي النجدي القصيمي من طلاب العلم في الأزهر وطبع في مطبعة المنار بمصر سنة ١٣٥٠ وصفحاته ٢٠٣ وثمن النسخة منه ٥ قروش) :

أسرف الأستاذ الشيخ يوسف الدجوي في الطعن على جماعة الوهابية فيما ينشره من المقالات في « مجلة الأزهر » المسماة بنور الإسلام ، كما أسرف في فتاويه التي تنشرها هذه المجلة ، فيما ادعاه من شرعية دعاء الموتى والاستغاثة بهم في الشدائد ، وإيهام الجاهلين بأصول التوحيد أن الصالحين منهم يستجيبون لمن يدعوهم ، ويستغيث بهم فيغيثونهم ، ويقضون حوائجهم .

فهو ينصر بهذه الفتاوى من أفسدت عليهم الخرافات الوثنية دينهم ودنياهم ؛ فهم يتكلون على أصحاب القبور ، ويطلبون منهم ما لا يطلبه المؤمن الموحد إلا من اللّٰه عز وجل ، كما بيناه في « الجزء العاشر » من المجلد (٣١) .

---

(١) صحيفة « صوت الحجاز » ، العدد (١٦) ، ١٣٥١/٣/٢١هـ .

وقد كان -لعدم اطلاعه على كتب الوهابية في التوحيد وإبطال البدع والخرافات والرد على دعاتها والمدافعين عنها- يظن أنه لا يوجد فيهم علماء يقدرون على تفنيد شبهاته وإبطال خرافاته، وكيف وهو محلى بلقب «أحد هيئة كبار علماء الأزهر» حتى تصدى أحد طلاب العلم منهم بالأزهر للرد عليه بهذا الكتاب، فظهر لمن أطلع عليه أن مؤلفه الطالب المبتدئ أعلم من الأستاذ الشيخ يوسف الدجوي بعقائد الإسلام ومذاهب المسلمين وبالتفسير والحديث النبوي وبأقوال أئمة علماء السنة؛ فلذلك كبر عليه وعلى الأستاذ الأكبر أمره، وعاقبوا مؤلفه بحرمانه وحرمان زميل له من إخوانه النجديين بما سنذكره.

بلغنا أن الأستاذ الدجوي أكبر أمر هذا الكتاب، فأنكر أن يكون هذا الطالب النجدي هو المؤلف له وقال: لابد أن يكون مؤلفه صاحب المنار وهذا غريب من فضيلته فإن لصاحب المنار أسلوبًا في الكتابة غير أسلوب هذا الكتاب ولونًا غير لونه، وطعمًا غير طعمه -وإن اتفقا في المسألة- فإذا كان الأستاذ الدجوي لا يميز بين الألوان والأساليب الكلامية كالحسية أفلا يذوق طعمها أيضًا؟! ومتى كان صاحب المنار يعير قلمه لغيره، ويكتم علمه ورأيه؟! لو اطلع على كتب علماء نجد في هذه المسائل لما استكثر على طالب منهم مثل هذا الرد عليه.

الكتاب مؤلف من مقدمة، وأربعة أبواب:

أما المقدمة فقد افتتحت بقصيدة فخرية للمؤلف - منتقدة فى ذوقنا - يليها تفسير كلمة الوسيلة، وتقسيم التوسل إلى مشروع- وهو أحد عشر نوعًا- وممنوع غير مشروع، وهو ما يثبته الشيخ الدجوي وأمثاله.

وأما الأبواب فالأول منها في إبطال ما ادعاه الشيخ الدجوي من أدلة القرآن على التوسل الممنوع وهو ست آيات، والثاني في إبطال ما ادعاه من الأدلة الحديثية، والثالث في محق أدلته العقلية، والرابع فيما احتج به من أقوال العلماء.

وفي كل باب منها مسائل كثيرة ، أظهر فيها من أغلاط الشيخ الدجوي وجهله بأصول الشرع الاعتقادية ، والفقهية ، وقلة اطلاعه على كتب السنة ، وعدم وقوفه على الصحيح وغيره ، ومن ضعفه في الاستدلال ، ما لم يكن يخطر لأحد من الأزهريين على بال ، ولو أردنا إيراد الشواهد منا على ذلك لطال بنا المقال .

ولما اطلع عليه الشيخ ضاق به ذرعًا ولجأ إلى رئيسه الأستاذ الأكبر ، لينتقم له من هذا الطالب النجدي المجاور في الأزهر .

فيقال إن الشيخ لجأ أولًا إلى الحكومة كعادته وطلب منها مصادرة الكتاب ؛ فسأله صاحب الدولة رئيسها : هل يوجد في الكتاب طعن في الدين يمنعه القانون ويعاقب عليه ؟ قال : لا ،وإنما فيه تأييد مذهب الوهابية والانتصار له . قال الوزير : إن له أن يدافع عن مذهبه ويؤيده كما تدافعون عن مذاهبكم وتؤيدونها .

فلجأ ثانيًا إلى حمل المؤلف على بيع الكتاب لهم بثمن بخس ، ووعده بأن يعطى شهادة العالمية في أقرب وقت ، فلم يقبل ؛ لأنه يطلب العلم لأجل الانتفاع والنفع به ابتغاء وجه اللَّه تعالى لا لأجل الشهادة الرسمية .

فلما أعيته الحيلة فيه انتهى ثالثًا إلى سلطته الرسمية ، وهو لا يُسئل فيها عما يفعل ، فقطع أولًا ما كان له ولرفيق له من النجديين من رزق قليل ، وانتهى آخرًا إلى قطع اسمه من سجل المجاورين وإخراجه من مأواه معهم

فإذا صح هذا كما يظهر فهو حجة ناهضة على عجز مشيخة الأزهر وعجز مجلتها عن طالب علم وهابي مبتدئ ، فهل يليق بهم بعد هذا أن يعودوا إلى الطعن في الوهابية في مجلتهم وقد صارت هذه المجلة حجة عليهم لا لهم ؟

بيد أن الأستاذ الشيخ يوسف الدجوي مفتي هذه المجلة ومجادلها قد راعه تحدث بعض الأزهريين وغيرهم في مسائل من رد هذا النجدي تعد من أكبر

الفضائح الهادمة لصيته السابق، فطفق يرد عليها في المجلة بأسلوبه المعروف وطريقته الجدلية في المغالطة، ومنها الحديث الموضوع الذي يتخذه هذا الشيخ وأمثاله من القبوريين حجة على ما يسمونه: التوسل بذوات الأنبياء والصالحين، وسؤال اللَّه تعالى بحقهم عليه وبأشخاصهم. وهو ما رواه الحاكم في «مستدركه»[1] عن عمر رضي اللَّه عنه مرفوعًا أنه «لما اقترف آدم الخطيئة قال: يا رب أسألك بحق محمد لما غفرت لي، قال اللَّه: يا آدم وكيف عرفت ولم أخلقه؟ قال: يا رب لأنك لما خلقتني بيدك، ونفخت في من روحك، رفعت رأسي فرأيت على قوائم العرش مكتوبًا: لا إله إلا اللَّه، محمد رسول اللَّه، فعلمت أنك لم تضف إلى اسمك إلا أحب الخلق إليك فقال اللَّه: صدقت يا آدم إنه لأحب الخلق إلي، ادعني بحقه فقد غفرت لك، ولولا محمد ما خلقتك».

أصر الأستاذ الدجوي على القول بتصحيح هذا الحديث والتفصي[2] من قول الحافظ الذهبي: إنه موضوع بالمغالطة والتأويل.

وقد سألني بعض مجاوري الأزهر عن رأيي في رده فقرأته على تحامي قراءة هذه المجلة لئلا أراني مضطرًا إلى ما لا أحبه من الرد على ما أنكره فيها، فبينت للسائل خطأه فيه إجمالًا وإنني أذكره هنا استطرادًا.

❁❁❁

---

(١) المستدرك ٢/ ٦١٥.

(٢) أصل التَّفصِّي أَن يكون الشيء في مضيق ثم يخرج إِلى غيره. لسان العرب [فصى].

تصحيح الدجوي لحديث آدم الموضوع[(١)]

زعم الأستاذ الدجوي أولًا أن الحاكم صحح هذا الحديث وأن الحافظ الذهبي أقره على تصحيحه .

والحق أن الحافظ الذهبي تعقبه في تصحيحه وصرح بأنه موضوع[(٢)] .

وقد بالغ المؤلف النجدي في التشنيع على الدجوي بهذا الجهل الجريء والإفك الصريح ، ففطن الدجوي بعد التأمل والتفكر في المسألة عدة أشهر إلى جواب عنه نشره في مجلة « نور الإسلام » مظهرًا معارفه وعلومه بعد الأزهر ، وهو أن للذهبي كتابًا جمع فيه الأحاديث الموضوعة التي في مستدرك الحاكم - وهو غير متداول - ولم يذكر هذا الحديث فيها ، فعدم ذكره له دليل على أنه رجع عن عدِّه من الموضوعات الذي صرح به في كتابه « تلخيص المستدرك » أو مدسوس عليه .

ثم حاول تصحيح الحديث أو تقويته بتحقيقات أزهرية طويلة بدأها بقوله :

(إننا نقول إن الذي قاله الذهبي في « تلخيص المستدرك » -بعد قول الحاكم إنه صحيح هكذا- :بل موضوع ، وعبد الرحمن بن زيد واهٍ . ولم يزد على ذلك . ونقول إن هذا مدسوس على الذهبي من بعض تلك الطائفة ، ويبعد جدًّا أن يكون من كلامه ، وكثيرًا ما رأينا ذلك وتثبتنا منه ؛ وربما جرت إليه المناسبة في الأعداد الآتية ، فإن ذلك لو كان من الذهبي لقال : فيه فلان الكذاب أو الوضاع ، ولا يكفي في الحكم عليه بالوضع أن يقول إن عبد الرحمن واه ثم يسكت ، بل كان يقول على الأقل : واه جدًّا ،وكيف يقول إنه موضوع وقد رواه البيهقي في كتاب

(١) صحيفة « صوت الحجاز » العدد (١٧) ، ١٣٥١/٣/٢٨هـ

(٢) المستدرك ٢/ ٦١٥.

دلائل النبوة[١] الذي قال فيه الذهبي نفسه : إن هذا الكتاب كله هدى ونور) .

ثم ذكر أن القاضي عياض رواه في « الشفاء »[٢] وأن سنده فيه صحيح وأن مناظرة مالك لأبي جعفر المنصور[٣] تدل على تصحيحه له .

وأطال في محاولة توثيق عبد الرحمن بن زيد بطريقته الجدلية الأزهرية التي لا تروج بضاعتها إلا على أمثال تلاميذه من مجاوري الأزهر الذين تربوا على أن يقبلوا من مشايخهم كل ما يقولون ، وأن يُهانوا إذا عارضوهم في شيء مما يقررون .

وأقول : إن هذا الاستطراد لا يتسع لتفنيد كل ما في هذا الرد من الخطأ ، ولكنّني أذكر للقارئ نموذجًا موجزًا منه يعلم قدر الدجوي في أمانه النقل وفي الفهم .

(١) قال الدجوي : إن الذهبي لم يزد في التلخيص على قوله « بل هو موضوع وعبد الرحمن بن زيد واه »

وأقول : بل زاد على ذلك أن قال بعده : رواه عبد اللّه بن مسلم الفهري– ولا أدري من ذا– عن إسماعيل بن مسلمة عنه . اهـ أي عن عبد الرحمن .

فقوله : ولا أدري من ذا ، سببه الاشتباه بينه وبين عبد اللّه بن مسلم بن رشيد الذي ذكر الحافظ ابن حجر في لسان الميزان[٤] ، عن الذهبي[٥] قول ابن حبان[٦] فيه « متهم بوضع الحديث » ثم ذكر بعده الفهري[٧] هذا وقال نقلًا عن

---

(١) دلائل النبوة ٥/ ٤٨٨، ٤٨٩.

(٢) « الشفا بتعريف حقوق المصطفى » (١/ ٢٢٧، ٢٢٨) .

(٣) المصدر السابق (٢/ ٥٩٥، ٥٩٦) .

(٤) « لسان الميزان » لابن حجر (٣/٣٥٩) .

(٥) « ميزان الاعتدال » للذهبي (٢/٥٠٣) .

(٦) كتاب « المجروحين » لابن حبان (٢/٤٤) .

(٧) « لسان الميزان » (٣/ ٣٥٩، ٣٦٠) .

الميزان[١] روى عن إسماعيل بن مسلمة بن قعنب[٢] ، عن عبد الرحمن بن أسلم خبرًا باطلًا فيه : « يا آدم لولا محمد ما خلقتك » رواه البيهقي في « دلائل النبوة »[٣] . ثم قال ابن حجر : قلت ولا أستبعد أن يكون هو الذي قبله ، فإنه من طبقته . إهـ

فالحافظ ابن حجر يقول في عبد اللّه بن مسلم راوي الحديث : إنه من طبقة عبد اللّه بن مسلم بن رشيد ، يعني أنه يضع الحديث ، أو هو هو .

ولكن الأستاذ الشيخ يوسف الدجوي لا يعرف اصطلاح المحدثين في حكمهم على الأحاديث ، واكتفائهم أحيانًا بالاستدلال على المعلول منها بذكر علته من رجال السند المجروحين من غير وصف الواحد منهم بالوضاع أو الكذاب كلما ذكره .

[٤](٢) زعمه أنه لا يعقل حكم الذهبي على الحديث بالوضع -وهو يعلم أن البيهقي رواه في الدلائل التي مدحها - مردود بما ذكره في ميزان الاعتدال من حكمه ببطلان هذا الحديث مع عزوه إلى كتاب « الدلائل » للبيهقي ، وقد وافقه الحافظ ابن حجر في ذلك ، فالمسألة مسألة نقل مدون لا مسألة نظريات عقلية واحتمالات أزهرية .

(٣) ذكر الدجوي أهون ما قال أهل الجرح والتعديل في جرح عبد الرحمن ابن زيد ، واحتج به على أن حديثه غير موضوع وأنه قد يكون صحيحًا إذ قال : معلوم أن الذي يغلب عليه الوهم قد يصبح حديثه ... إلخ .

وأقول في تفنيد قوله هذا : إن عبد الرحمن ليست علة ضعفه غلبة الوهم عليه كما

---

(١) « لسان الميزان » (٣/ ٣٥٩، ٣٦٠) .

(٢) « ميزان الاعتدال » (٢/٥٠٤) .

(٣) « دلائل النبوة » (٥/٤٨٨، ٤٨٩) .

(٤) من هنا تكملة المقال في صحيفة « صوت الحجاز » العدد (١٨) ، ١٣٥١/٤/٥هـ

زعم ، بل أهون ما قالوا فيه إنه واه ، وضعيف جدًّا ، وأنه لا يعقل ما يروي . وكان الشافعي[(١)] يهزأ بخرافاته عن أبيه ويجعلها مضرب المثل في الكذب ، والحاكم نفسه قال فيه إنه روى عن أبيه أحاديث موضوعة . فليراجع ص١٧٨ و١٧٩ من « تهذيب التهذيب » للحافظ ابن حجر (الجزء السادس) فتصحيحه بعد هذا الحديث له رواه عنه الفهري الذي هو شر منه من عجائب أغلاطه في « المستدرك » وإن كان لم يفرغ لتنقيحه .

(٤) أن القاضي عياض قد ذكر حديث آدم هذا في الفصل الأول من الجزء الأول من « الشفاء » حكاية عن أبي محمد المكي وأبي الليث السمرقندي وهما من الذين يكثرون من حكاية الموضوعات ، ولم يروه عن أحد من أهل الحديث ولا عزاه إلى كتبهم .

(٥) أن ما رواه القاضي عياض من مناظرة أبي جعفر المنصور لمالك - المشتمل على قول مالك له مستدلًا على استقبال الرسول ﷺ في الدعاء دون القبلة : ولم تصرف وجهك عنه وهو وسيلتك ووسيلة أبيك آدم ؟ - ليس نصًّا صريحًا من مالك بصحة حديث عمر المذكور إذا فرضنا أن هذا قولٌ ثابت عن مالك ، وما هو بثابت ، بل هو مخالف لمذهبه المعروف ولمذاهب سائر الأئمة .

(٦) أن زعمه أن سند القاضي عياض إليه صحيح لا مطعن فيه ، زعمٌ باطل لا ريب في بطلانه ؛ فإنه سند منقطع وينتهي إلى ابن حميد الرازي وقد ضعفه بعضهم ، وأثبت آخرون كذبه ، وكان بعضهم يعدّه مقبولًا في بعض مروياته قبل أن يثبت عندهم كذبه ومنهم الإمام أحمد ، فقد نقل عنه ابنه صالح[(٢)] أنه استأذن عليه مرة أبو زرعة ومحمد ابن مسلم بن وارة فتحدثا عنده ساعة ثم قال له الثاني :

(١) كما في « الضعفاء الكبير » للعقيلي (٢/ ٣٣١، ٣٣٢) ، و« المجروحين » لابن حبان (٢/ ٥٨) ، و« الكامل » (١٥٨٢/٤) .

(٢) أخرجه ابن حبان في « المجروحين » (٢/ ٣٠٣، ٣٠٤) من طريق صالح به .

يا أبا عبد اللّٰه رأيت محمد بن حميد ؟ قال نعم ، قال كيف رأيت حديثه ؟ قال إذا حدث عن العراقيين يأتي بأشياء مستقيمة وإذا حدث عن أهل بلده يأتي بأشياء لا تعرف ، لا يُدرى ما هي . قال فقال أبو زرعة وابن وارة : صح عندنا أنه يكذب . قال صالح فرأيت أبي بعد هذا إذا ذُكر ابن حميد نفض يده .

(٧) استدلال الدجوي بعدم ذكر حديث عمر هذا فيما جمعه الذهبي من موضوعات المستدرك على أنه غير موضوع موافق لقاعدة له باطلة يجري عليها في الجدل والاستدلال على شرعية كثير من البدع التي لم يرد أو لم يطلع هو على ما ورد في عدم شرعيتها أو لم يفهمه ؛ ككون الموتى يقضون حاجات الذين يدعونهم ويستغيثون بهم

وقد عقد الطالب النجدي لهذه الجهالة فصلًا في كتابه رأيته في فهرس الكتاب ولم أقرأ منه شيئًا ، ولولا اغترار بعض العوام والمجاورين بكلام هذا الرجل وبمجلة « نور الإسلام » لما كان هذا مما يحتاج إلى الرد ، فإن القاعدة المعروفة التي لا خلاف فيها بين العلماء هي أن شرعية الأحكام لا تثبت إلا بالدليل ، وعدم شرعيتها هو الأصل فلا يطالب مدعيه بالدليل ، وقد قال بعض أشياخ الأزهر مرة في هذه المسألة أو مثلها : أين الدليل على منعها وكونها بدعة ؟ وكان ذلك في حضرة الشيخ أبي الفضل الجيزاوي شيخ الأزهر -رحمه اللّٰه - فانتهره أبو الفضل وقال له : هذا جهل ، إنما يطالب بالدليل من يدعي أن هذا الأمر مشروع لا من يقول إنه غير مشروع

ومن فروع قاعدته السلبية استدلاله على صحة الحديث المذكور بعدم تعقب صاحب « المواهب » ومحشّيها له ، على أنهما لو صرحا بصحته لما كان لتصريحهما قيمة بعد العلم بوضعه .

وههنا يقال للشيخ الدجوي (أولًا) لا نسلم أن الحافظ الذهبي لم يذكر هذا

الحديث فيما جمعه من موضوعات المستدرك ؛ لأنه ليس في الأيدي نسخة منها .

(ثانيًا) إذا وجدت نسخة مخطوطة لا تعد من الأصول المعتمدة في اصطلاح المحدثين فلا يصح الاحتجاج بها مع وجود المعارض لها ، لاحتمال وقوع التحريف والزيادة والنقص من النساخ فيها .

(ثالثًا) لو وجدت نسخة معتمدة لم يذكر فيها هذا الحديث لما صح أن تعد دليلًا على رجوع الذهبي عما قاله في تلخيص المستدرك لاحتمال تركه سهوًا ، فالعمدة ما صرح به لا ما سكت عنه .

(رابعًا) إذا فرضنا أنه في صريح هذه الرسالة بأن هذا الحديث غير موضوع فلا يصح ترجيح ما أثبته فيها على ما أثبته في تلخيص المستدرك إلا إذا علم أنه جمعها بعد كتابة التلخيص المذكور وفاقًا لما اشترطه علماء الأصول في النسخ .

(خامسًا) إذا فرضنا أنه صرح في هذه النسخة بأن الحديث غير موضوع فتصريحه هذا يصدق بكونه واهيًا منكرًا لا يصح الاستدلال ولا العمل به حتى في فضائل الأعمال التي لها أصل مشروع ؛ لأن من قال من العلماء إن الحديث الضعيف يعمل به في مثل ذلك اشترطوا أن لا يكون واهيًا أو شديد الضعف فضلًا عن القول بتصحيحه .

هذا وإن الكلام قد طال في هذا الاستطراد للرد على ما رأيته للأستاذ الدجوي في مجلة « نور الإسلام » من المغالطات في محاولة تصحيح هذا الحديث والتبجح بتجهيل المؤلف جزاءً على تجهيله إياه في تصحيحه مع الاستكبار عن ذكر اسمه واسم كتابه خوفًا من زيادة اشتهاره ، فنكتفي بما ذكرنا .

❁❁❁

فريضة الحج[(١)]

لما ولى اللَّه إمام السنة الملك عبد العزيز ابن سعود أمر حرمه وحرم رسوله لم يجد أعداؤه وسيلة للحيلولة بين العالم الإسلامي وبين رؤية عدله وإقامته لشرع اللَّه وإحيائه لسنة رسوله ﷺ إلا دعوتهم إلى ترك فريضة الحج وهدم هذا الركن العام من أركان الإسلام انتقامًا منه لهدمه هياكل الوثنية التي بنيت على قبور آل البيت والصالحين برغم السنة النبوية .

ومن المعلوم من دين الإسلام بالضرورة أن اللَّه فرض الحج بنص كتابه المحكم على من استطاع إليه سبيلًا وقال عقب ذلك ﴿وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [آل عِمرَان: الآية ٩٧].

فمن استحل تركه بغير فقد هذا الشرط (الاستطاعة) فهو كافر خارج من دين الإسلام .

ولذلك لم تؤثر تلك الدعاية إلا في بعض الجاهلين . والحجاج يزدادون عامًا بعد عام وينشرون فضل ابن سعود في العالم .

وقد علمنا في هذه الأيام أن دعاة بيت الملك المفقود من الحجاز جددوا هذه الدعاية نفسها وأرسلوا الكتب من مصر إلى جاوة ، وسنغافورة ، وعدن ، واليمن ، والهند ، وسائر الأقطار الإسلامية التي لهم معارف فيها يحثونهم على صد الناس عن الحج ؛ بدعوى أن ملك ابن سعود في الحجاز وفي نجد أيضًا على وشك السقوط بانتصار بعض الخارجين عليه في نجد بقيادة ابن الدويش .

ويستندون في هذه الدعوى على ما ينشرون في جرائد مصر من الأراجيف ،

---

(١) صحيفة «أم القرى» العدد (٢٦١) ، ١٣٤٨/٧/١٩ هـ .

ولكنهم من جهة أخرى يشيعون أن الدويش هذا متفق مع أولاد الملك حسين والإنكليز على ثل[١] عرش ابن سعود ليعيدوا الحجاز إلى الملك حسين أو نجله علي .

فإن كانوا واثقين بهذا وبقرب وقوعه فالمعقول أن يدعوا الناس إلى الإقبال على الحج لا على تركه .

وقد ورد عليَّ اليوم كتاب من بعض المسلمين الغيورين على دينهم في عدن ، ذكروا فيه أن دعاة هدم ركن الإسلام العام عادوا إلى الدعاية الأولى بتفنن جديد في الكذب فقد جاء فيه ما نصه بعد رسم المخاطبة :

« لا يخفاكم يا سيدي أنه جاء أخيرًا إلى هذه البلدة فرقة من الناس أذلهم اللّٰه وأصابهم بداء البغض لجلالة الملك عبد العزيز آل السعود- أيده الله- ولا عمل لهم إلا التجول في الأسواق وثلب هذا الملك الجليل الوافر العرض . وكنا لا نلتفت إليهم ولا نأبه بما يقولون حتى ابتدءوا ينشرون الفتاوى بأن الحج لا يجب في هذه الأيام بسبب وجود الحكومة النجدية في البلدان المقدسة .

وأخيرًا أظهروا للناس أنهم كاتبوكم وأقنعوكم بالأدلة وأجبروكم على الموافقة على فتواهم هذه .

أما نحن فإننا أخبر بهم ونعلم أنه لا يرضى بقولهم إلا مخبل ؛ ولكن خشينا على عامتنا أن يسري إليهم هذا الداء ، أي داء بغض العرب الناشئ عن بغض مليكها الجليل .

فبادرنا بكتابة هذه الأسطر إليكم راجين منكم جوابًا تخدمون به الدين والدولة ، ونرجو أن يكون ردكم على صفحات « الشورى » الغراء ؛ لأنها أشهر الجرائد هنا ويطَّلع عليها أكثر أهالي هذه البلدة . وفي الختام اقبلوا فائق الاحترام » .

كنت أود لو أرسل إليّ هؤلاء الغيورون نسخة من الفتوى التي أشاروا إليها ؛

(١) ثَلَّ البَيْتَ يَثُلُّه ثَلاًّ هَدَمه . لسان العرب - (ثلل) .

لنرى على أي قاعدة من قواعد الجهل والكفر استحل هؤلاء المساكين هدم هذا الركن الإسلامي الركين، وأيُّ نص من نصوص الكتاب والسنة أو من اجتهاد الأئمة أوردوا في فتواهم استدلالًا على أن وجود الحكومة النجدية في الحجاز مسقط لفريضة الحج عن المستطيع خلافًا لنص كتاب اللَّه تعالى؟! إذ لا يبعد أن تدل الفتوى على أن فرض استقبال الكعبة المشرفة في الصلاة قد سقط عن المصلين لوجود الحكومة النجدية هنالك وولايتها على بيت اللَّه تعالى! فإن الجهل ليس له حد يقف عنده.

يسهل علينا أن نقنع كل مسلم- وإن كان عاميًّا جاهلًا- بضلالة هؤلاء الداعين لهم إلى هدم بعض أركان دينهم إتباعًا لأهواء السياسة والملك؛ إذ لا يجهل أحد منهم أن الحج من أركان الإسلام المفروضة على كل مستطيع له، وكتاب اللَّه وكتب السنة الصحيحة موجودة بين أيديهم، فكذبهم عليهما مفضوح.

وإذا كان كذبهم علينا ظاهرًا أنكره العقلاء بدلالة عقولهم- وها نحن أولاء نظهره لغيرهم على صفحات هذه الجريدة وغيرها - فكيف بكذبهم على اللَّه ورسوله وأئمة المسلمين!

وأما الذي يصعب إظهار كذبهم وافترائهم فيه فهو ما يرجفون به في تعظيم أمره ثورة الدويش في نجد على ملكه وإمامه وبيان أن ما يتوقعونه من الشر ويفرحون به ليس خيرًا لهم، بل هو شر لهم ولغيرهم.

ولماذا يصعب إظهار افترائهم فيه؟

لأنهم يدَّعون أن ما يقوله كل أحد غيرهم كذب وأن ما يقولونه هم هو الحق والصدق وحده، فليس علينا إلا أن ننتظر قليلًا كما انتظرنا كثيرًا في حادثة حصر الإمام ابن سعود لجدة والمدينة المنورة، وما كانوا يذيعونه من أخبار ضعفه وقرب طرده من الحجاز، فظهر كذبهم وإرجافهم للعالمين، والعاقبة للمتقين.

أذان إبراهيم الخليل في الحج ودعاؤه للحرم بالرزق
«ما للمسلمين وعليهم من ذلك في هذا العهد»(١)

قضت حكمة اللّه تعالى أن يجعل الركن الاجتماعي العام لدينه الإسلام في بقعة من الأرض ليس للناس هوى فيها لذاتها، فهي لا تقصد لاعتدال هوائها، ولا لعذوبة مائها، ولا لبهجة رياضها، وجنى جناتها، حتى يكون الباعث على قصدها لأداء المناسك هو التعبد المحض والإخلاص للّه تعالى فيه.

وكان من شرع اللّه في هذه المناسك إهداء الأنعام لبيت اللّه تعالى، وإيجاب الفدية على من أخل بشيء من واجبات الإحرام عنده، وعلى من تمتع بالعمرة إلى الحج فيه؛ لأجل توسعة الرزق على سكان حرم اللّه تعالى.

قال اللّه تعالى: ﴿وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ أَن لَّا تُشْرِكْ بِي شَيْئًا وَطَهِّرْ بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْقَائِمِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ ﴿٢٦﴾ وَأَذِّن فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ ﴿٢٧﴾ لِّيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ فِي أَيَّامٍ مَّعْلُومَاتٍ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّن بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ ۖ فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطْعِمُوا الْبَائِسَ الْفَقِيرَ﴾ [الحج: ٢٦، ٢٧، ٢٨].

بل كان من عناية اللّه بأهل حرمه وجيران بيته أن أنطق خليله إبراهيم بالدعاء لهم أن يجذب إليهم قلوب الناس، وأن يرزقهم من الثمرات، وهي غاية نعمة الرزق والرفاهة، قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَٰذَا بَلَدًا آمِنًا وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ مَنْ آمَنَ مِنْهُم بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ۖ﴾ [البقرة: الآية ١٢٦]. قال (أي اللّه تعالى): ﴿وَمَن كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُ قَلِيلًا ثُمَّ أَضْطَرُّهُ إِلَىٰ عَذَابِ النَّارِ ۖ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾ [البقرة: الآية ١٢٦].

---

(١) صحيفة «صوت الحجاز» العدد (٣)، ١٩/١٢/١٣٥٠هـ.

فوعد تعالى بأن يرزق من كفر منهم به وجحد نعمه بالرزق من الثمرات في الدنيا ، وإنما يكون جزاؤه على الكفر في الآخرة لا بحرمان الرزق في الدنيا .

وقال تعالى فيما قصه علينا من دعائه : ﴿رَّبَّنَآ إِنِّيٓ أَسۡكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيۡرِ ذِي زَرۡعٍ عِندَ بَيۡتِكَ ٱلۡمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱجۡعَلۡ أَفۡـِٔدَةٗ مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهۡوِيٓ إِلَيۡهِمۡ وَٱرۡزُقۡهُم مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمۡ يَشۡكُرُونَ﴾ [إبراهيم: الآية ٣٧] .

استجاب اللَّه تعالى دعاء خليله لأهل حرمه في كل زمان ، فسخر لهم القلوب تهوي إليهم من كل مكان ، وتتقرب إليه تعالى بإدرار الرزق عليهم ؛ أجورًا لدورهم وجزاء على خدمتهم ، وصدقة على فقرائهم ، وهدايا لأغنيائهم ؛ إذ علموا أن هذه التوسعة عليهم من متممات نسكهم ، وموجبات رضوان ربهم ، حتى إن اللَّه تعالى سخر لهم في عهد الحرب العامة دولتي « إنكلترة » و« فرنسا » تحمل الحجاج إليهم من المشرق والمغرب مع الإنفاق على هؤلاء الحجاج ، وسخر الأولى لحمل الأرزاق لهم من الهند .

وقد وفق اللَّه تعالى أغنياء هذه الأمة المحمدية فوقفوا على حرم اللَّه وحرم رسوله ﷺ ما لا يحصى من الأطيان والبساتين والعقار في جميع الأقطار ، مما لو حفظ كله أو جله وصرف ريعه في عمران المسجدين وما جعله الشرع حرمًا لكل منهما ، وفي التوسعة على سكانهما ، لكان الحرمان الشريفان أعظم بلاد اللَّه تعالى عمرانًا ، ولكان أهلهما أوسع عباد اللَّه تعالى رزقًا وأبسطهم عيشًا ، بحيث لا تنال منهم أمثال العسرة العالمية الحاضرة شيئًا .

ولكن الفاسقين من الأفراد والظالمين من الحكام قد جعلوا كثيرًا من تلك الأوقاف ملكًا ، وطمسوا معالمها طمسًا ، على أن ما بقي منها معروفًا إلى الآن كاف لعمران الحجاز كله ، وترفيه معيشة أهله ، بل إن المعروف من أوقاف الحرمين في وزارة الأوقاف المصرية وحدها يفي بذلك ، وإننا لا نجد لحكومة

مصر عذرًا شرعيًا في منع الحرمين الشريفين حقهما من أوقافهما والتصرف فيها بغير ما وقفت عليه .

هل يصح أن يكون منع ملك الحجاز استمرار بدعة المحمل المنكرة الخرافية سببًا شرعيًا لحرمان الحرمين وسكانهما من ريع هذه الأوقاف ؟ هذا ما لا يقول به مسلم يعرف الإسلام ، ولو لم يكن المحمل بدعة مشتملة على كثير من المنكرات الشرعية حتى صرح الفقهاء بتحريم الاحتفال به ، والتفرج بالنظر إليه ، فكيف يكون التعبد بالتبرك به وجعله من قبيل مناسك الحج ؟

هل يصح أن يكون عدم اعتراف الحكومة المصرية بحكومة الحجاز الحاضرة عذرًا شرعيًا لهذا المنع والحرمان ؟ كلا ، إن هذا ذنب وذلك ذنب ، ولكن بعض رجال الحكومة المصرية يلبسون الشرع بالسياسة كما اعتذر المرحوم عبد الخالق ثروت باشا عن عدم إرسال كسوة الكعبة المشرفة باحتمال رد الوهابية لها بادعاء أنها بدعة كالمحمل ، قال هذا في جواب البرلمان ، وقبلِه منه البرلمان مع علمه وعلم أعضاء البرلمان أن الملك ابن السعود قبِل الكسوة السابقة ووعد بقبول اللاحقة التي لم ترسل ، ومع علم الجميع بأن المحمل بدعة ابتدعته شجرة الدر ، وأن كسوة الكعبة مشروعة مجمع عليها بين المسلمين ، وقد صنعها ابن السعود بعد منع مصر لها ، فاستأثر بهذا الشرف من دونها .

وقد بلغنا عن بعض رجال الحكومة أنهم يعتذرون عن منع مخصصات الحجاز السنوية من مال وغلال- وهي دون حق الحجاز- أن ناظر أوقاف مصر لا يأمن حكومة الحجاز على وضعها في مواضعها ، ويتعذر على وزارة الأوقاف توليها لتوزيعها وإشرافها عليه ومراقبتها له .

وهذه التعليلات غير صحيحة ، ولو صحت لما صلحت أن تكون سببًا لمنع هذه الحقوق أهلها ، فحكومة الحجاز أمينة ويمكنها إثبات توزيع ما تشاء من

المال إذا لم يكن بصفة تتضمن الطعن بأمانتها، ولو فرضنا أن الذين يتولون توزيعها يخونون بأكل شيء منها لما كان هذا مبيحًا لمنعها كلها عن جميع مستحقيها، وقد يكون هؤلاء الخونة المفروض وجودهم منهم.

ما لنا وللأعذار السياسية والسياسة مازالت تلبس الحق بالباطل وتكتم الحق الصريح على علم بأنه الحق، نحن الآن أمام خطب عظيم يجب فيه تحكيم الرحمة التي هي فوق الحقوق الرسمية، والمماراة السياسية.

إن جيران الله ورسوله محتاجون، وقد تكون العسرة العامة أشد عليهم من غيرهم، وأن حقوقهم على المسلمين كافة أكبر من حقوق غيرهم من إخوانهم في الدين، فعلى المسلمين في جملتهم أن يتقربوا إلى الله تعالى بتوفير ما امتن به على سكان حرمه من إغداق الرزق عليهم، حتى احتج على المشركين منهم بقوله: ﴿أَوَلَمْ نُمَكِّن لَّهُمْ حَرَمًا ءَامِنًا يُجْبَىٰٓ إِلَيْهِ ثَمَرَٰتُ كُلِّ شَىْءٍ رِّزْقًا مِّن لَّدُنَّا﴾ [القَصَص: الآية ٥٧].

وعلى المسلمين أن يتقربوا إليه عز وجل بأن يكونوا مظهرًا محققًا لدعاء خليله إبراهيم بسعة هذا الرزق عليهم، ولدعاء محمد رسول الله ﷺ وخاتم النبيين بالدعاء لأهل حرمه أيضًا.

والذي أقترحه على خيار المسلمين في هذه العسرة أن يُقبل المستطيعون على الحج ويكون الذين يوفقهم الله تعالى لأدائه أسخياء، يبسطون أيديهم بالعطاء للمطوفين والمزورين والخدم، وبالصدقات على الفقراء، فإن ثواب المناسك في هذا العام مضاعف، وثواب جميع النفقات في الحرمين مضاعف، وليذكروا فيه حجة الوداع لمن هداهم الله تعالى إلى هذه السعادة برسالته، وشرفهم بجعلهم من أمته صلى الله عليه وعلى آله وصحابته، وأنه أهدى في حجته هذه إلى بيت الله تعالى مائة بدنة (جمل) نحر بيده الشريفة منها في منى ثلاثًا وستين -وهي

عدد سني عمره الشريف- وأمر ربيبه عليًا - رضي اللّٰه عنه - فنحر الباقي .

وليحذر كل مسلم من فتنة بعض المضلين والملحدين الذين يصدونهم عن التوسع في النفقة في الحرمين الشريفين ويغرونهم بالمشاحة والمماكسة فيها ، ويصفون جيران اللّٰه ورسوله بالطمع في أموال الحجاج ، حتى صار المفتونون بأقوالهم يعدون كل ما يقرب إلى اللّٰه تعالى من النفقة هنالك مغرما من المغارم ، وإن كانوا يسرفون في سائر النفقات -حتى المكروهة والمحرمة منها- في بلادهم ، ولا سيما أماكن اللهو والفسق الخاصة بالأجانب ، دع إسراف الفساق في بلاد الإفرنج .

وإني لأخشى على أصحاب هذا الشعور أن يكون حجه غير مبرور ، وسعيه غير مشكور ، وأن يكون بهذا مأزورًا غير مأجور .

بل أحدث أعداء الإسلام من الأجانب ومن ملاحدة أهله دعاية أخرى شرًا من هذه ؛ وهي ترك الحج لما فيه من إضاعة ثروة الوطن في بلاد العرب . وهذا ضرب من الدعاية إلى ترك الإسلام من أهله ، وإنما المسلم يفضل النفقة في الحرمين الشريفين على النفقة في وطنه تقربًا إلى اللّٰه تعالى ، وقد صار أكثر الحجاج من الفقراء الذين يزاحمون أهل الحرمين في رزقهم .

أخبرني الرحالة الشيخ عبد الرشيد إبراهيم أنه رأى مرة في البيت الحرام رجلًا من حجاج « بلخ » فسأله عن فائدة حجه ، فأجابه بأن اللّٰه تعالى جعل بيته في هذه البقعة الجرداء ، وسخر لأهله الناس لأجل أن يمونوهم ويدروا عليهم الأرزاق ، ففائدتي أنني ممن سخرهم اللّٰه تعالى لما يحبه من ذلك ، فهذا البلخي الأعجمي قد فهم من هذه الحكمة من حكم الحج ما لم تفهمه الألوف الكثيرة من المسلمين .

وأختم هذه الذكرى بمخاطبة مولانا صاحب الجلالة ملك مصر باسم اللّٰه

وبما تقدم من آيات كتابه وسنة خليله إبراهيم وحبيبه محمد صلوات اللَّه وسلامه عليهما أن يصدر أمره لوزارة الأوقاف بإرسال جميع مخصصات الحرمين المتأخرة إليهما في هذا العام ؛ فإنه يكون بحسن النية أكبر أجرًا من جميع الحجاج فيما ينفقون فيه ، وإن لم يبذل من ماله الخاص شيئًا ، ويكون له أعلى الذكر وأرفع الشرف والحمد في جميع العالم ، وترفع في بيت اللَّه ، ومسجد رسوله ﷺ وسائر مشاعر الحج أصوات البائسين وغيرهم بالدعاء المرجو الإجابة له ولولي عهده : ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [التوبة: الآية ١٢٠] .

❁❁❁

الحج
نفقاته وشقته ومشقاته
وحال المسلمين الأولين والمعاصرين فيها(١)

(١)

كان الناس من المسلمين يحجون بيت الله عز وجل مشاة ؛ احتسابًا لزيادة الأجر لا للعجز عن الراحلة ، حتى إن هارون الرشيد أعظم ملوك الأرض في عصره ثروة وترفًا وعظمة حج ماشيًا ، ولكن كان يفرش له اللباد مرحلة بعد مرحلة فيطأ عليه .

وكان الناس يحجون من أبعد أقطار الأرض عن الحجاز كالمغرب الأقصى والأندلس من جهة الغرب ، والهند والصين من جهة الشرق ، إما برًّا فقط ، وإما برًّا وبحرًا ، فيقطع أحدهم المسافة في سنة أو سنتين أو أكثر ، وينفق الألوف الكثيرة من الدراهم والدنانير مما يعده لهذا النسك من أطيب كسبه ، ويعد إنفاقه أفضل ما يدخره لمثوبة ربه ، فإذا هو عاد إلى وطنه حيًّا سالمًا أقيمت له الاحتفالات في أهله ، ووجهت إليه التهاني من صحبه ، ومن الأدباء والشعراء في وطنه إن كان من أهل العلم والأدب أو الوجاهة والثروة ، وإننا لا نزال نرى بقية لهذه الاحتفالات والتهاني للحجاج في هذه البلاد القريبة من الحرمين الشريفين في هذا العصر الذي قربت فيه المسافة وسهلت فيه المواصلة ، وصار من الممكن للمصري أن يسافر من مصر في أوائل ذي الحجة الحرام إلى مكة المكرمة فيحج ويتم المناسك في منتصفه ولا يلبث أن يعود إلى وطنه في الأسبوع الثالث منه إذا لم يزر الحرم النبوي

(١) صحيفة « أم القرى » العدد (٤٢٩) في ١٣٥١/١١/٦هـ .

الشريف ، ولولا الحجر الصحي الاحتياطي لما استغرق سفر الحج شهر ذي الحجة كله ذهابًا وإيابًا بمنتهى الراحة والرفاهة التي كان يعجز عنها الملوك في القرون الماضية .

وأما نفقة الحج الرسمية فقد وضعت حكومة الحجاز تعريفة ؛ علم منها أنه يمكن للرجل أن ينفق على حجه بضعة جنيهات فقط بدون الزيارة ، ومع الزيارة بضعة عشر جنيهًا ، وقلَّما تصل نفقة ركاب السيارات في الحج والزيارة التي لابد منها إلى عشرين جنيها .

ولقد كنت أعددت لحجتي الأولى مع الوالدة -رحمها اللَّه تعالى- مائة جنيه ذهبية ، وإنما لم أنفقها كلها لأنني كنت ضيفًا للملك حسين رحمه اللَّه تعالى مدة وجودي في الحجاز ، كما كنت في الحجة الثانية ضيفًا للملك عبد العزيز أطال اللَّه بقاءه موفقًا للإصلاح .

ومن أغرب أمر المسلمين في هذا الزمان أننا نسمع من بعض حجاجنا ونقرأ لبعضهم من المقالات في الجرائد من التبرم والشكوى من نفقات الحج ومتاعبه ما يدل أصح الدلالة على ضعف دينهم وعدهم الإنفاق في سبيل اللَّه ونيل القربات عنده من المغارم ، ويستبيحون لأنفسهم الطعن في الذين يخدمون الحجاج في حلهم ، وترحالهم ، وطعامهم ، وشرابهم ، ومنامهم ، وتعليمهم المناسك ، وصحبتهم في أثناء أدائها ، وفي غير ذلك من الزيارات ، والطعن في حكومتهم أيضًا ؛ مما يخشى أن يكون آية على أن حجهم غير مبرور ولا مقبول عند اللَّه تعالى .

لهذا رأيت أن أنشر لهم في هذه الأيام من أشهر الحج أثارة تاريخية من حج المسلمين في القرون الوسطى التي كان حال أهلها في الدين دون حال من قبلهم في خير القرون ، وما كانوا يقاسونه في هذه السبيل -سبيل الله- من الشدائد

والمغارم راضين من اللَّه محتسبين الأجر عنده ؛ لتكون عبرة لمن يتذكر ويخشى اللَّه عز وجل ، ويشكر نعمه على أهل هذا العصر .

مشقات الحج ونفقاته في القرن السادس الهجري

إن العالم الكاتب الشاعر الأديب الغرناطي الأندلسي صاحب الرحلة المعروفة برحلة ابن جبير قد حج البيت الحرام ثلاث مرات ، خرج للأولى من غرناطة لثمانٍ من شهر شوال سنة (٥٧٨) ثم ركب البحر من « سبتة »[1] في مركب للروم الجنويين في (٢٨) منه قاصدًا « الإسكندرية » .

وبعد حجه وإلمامه بالعراق فسورية عاد إلى الأندلس في البحر ، ولقي فيه أهوالًا عظيمة منها انكسار مركبهم . وما وصل إلى بلده غرناطة إلا لثمانٍ بقين من المحرم سنة (٥٨١) وكان في أثناء هذه الرحلة يقيد أهم ما رآه وما سمعه وما ألم به هو ومن معه ، فكان ذلك كتابًا حافلًا سمي (تذكرة بالأخبار ، عن اتفاقات الأسفار) واشتهر برحلة ابن جبير .

وإنني أنقل منه هنا بعض ما كتبه من خبر إرهاق الحجاج في الإسكندرية وفي صعيد مصر ثم في جدة –ثغر الحجاز الأعظم– ليكون عبرة لإخواننا المصريين ولسائر المسلمين ، فيشكروا نعم اللَّه تعالى عليهم بما من على عباده من تيسير إقامة هذا الركن العظيم من أركان الإسلام في هذا العصر وقلة نفقاته .

قال رحمه اللَّه تعالى :

(١) بلدة مشهورة ، من قواعد بلاد المغرب ، مرساها أجود مرسى على البحر . « مراصد الاطلاع » (٦٨٨/٢) .

حال الحجاج في الإسكندرية والصعيد
في القرن السادس سنة ٥٧٨ هـ

قال ابن جبير في حوادث شهر ذي الحجة سنة (٥٧٨)[١]:

أوله يوم الأحد ثاني يوم نزولنا بالإسكندرية ، فمن أول ما شاهدنا فيها يوم نزولنا أن طلع أمناء إلى المركب من قبل السلطان بها لتقييد جميع ما جلب فيه ، فاستحضر جميع من كان فيه من المسلمين واحدًا واحدًا . وكتبت أسماؤهم وصفاتهم وأسماء بلادهم ، وسئل كل واحد عما لديه من سلع أو ناضٍّ[٢] ليؤدي زكاة ذلك كله دون أن يبحث عما حال عليه الحول من ذلك أو ما لم يحل ، وكان أكثرهم متشخصين لأداء الفريضة لم يصطحبوا سوى زاد لطريقهم فلزموا أداء زكاة ذلك دون أن يسأل هل حال عليه حول أو لا .

واستنزل أحمد بن حسن منا ليسأل عن أنباء المغرب ، وسلع المركب ، فطيف به مرقبًا على السلطان أولًا ثم على القاضي ثم على أهل الديوان ، ثم على جماعة من حاشية السلطان ، وفي كلٍّ يُستفهم ثم يُقيَّد قوله ، فخلى سبيله وأمر المسلمين بتنزيل أسبابهم وما فضل من أزودتهم ، وعلى ساحل البحر أعوان يتوكلون بهم ويحمل جميع ما أنزلوه إلى الديوان ، فاستدعوا واحدًا واحدًا وأحضر ما لكل واحد من أسباب ، والديوان قد غص بالزحام ، فوقع التفتيش لجميع الأسباب ، ما دق منها وما جل ، واختلط بعضها ببعض ، وأدخلت الأيدي إلى أوساطهم بحثًا عما عسى أن يكون فيها ، ثم استحلفوا بعد ذلك هل عندهم غير ما وجدوا لهم أم لا ؟ وفي أثناء ذلك ذهب كثير من أسباب الناس ، لاختلاط

---

(١) « رحلة ابن جبير » (ص ١٥) .

(٢) الناضُّ والنضُّ : اسم الدراهم والدنانير عند أَهل الحجاز . « لسان العرب » (نضض) .

الأيدي وتكاثر الزحام ، ثم أطلقوا بعد موقف من الذل والخزي عظيم ، نسأل اللَّه أن يعظم الأجر بذلك .

وهذه لا محالة من الأمور الملبَّس فيها على السلطان الكبير المعروف بصلاح الدين ، ولو علم بذلك- على ما يؤثر عنه من العدل وإيثار الرفق- لأزال ذلك . وكفى اللَّه المؤمنين تلك الخطة الشاقة واستؤدوا الزكاة على أجمل الوجوه ، وما لقينا ببلاد هذا الرجل ما يلم به قبيح لبعض الذكر سوى هذه الأحدوثة التي هي من تشدد الدواوين .

(٢)[١]

ثم قال ابن جبير في الكلام على « قوص » وغيرها من الصعيد ما نصه :

« وببلاد هذا الصعيد المعترضة في الطريق للحجاج والمسافرين كإخميم ، وقوص ، ومنية ابن الخصيب ، من التعرض لمراكب المسافرين وتكشفها والبحث عنها ، وإدخال الأيدي إلى أوساط التجار فحصًا عما تأبَّطوه أو احتضنوه من دراهم أو دنانير ما يقبح سماعه ، وتستشنع الأحدوثة عنه ، كل ذلك برسم الزكاة دون مراعاة لمحلها أو ما يدرك النصاب منها حسبما ذكرته في ذكر الإسكندرية من هذا المكتوب ، وربما ألزموهم الأيمان على ما بأيديهم ، وهل عندهم غير ذلك ؟ ويحضرون كتاب اللَّه العزيز يقع اليمين عليه .

فيقف الحجاج بين أيدي هؤلاء المتناولين لها مواقف خزي ومهانة تذكرهم أيام المكوس .

وهذا أمر يقع القطع على أن صلاح الدين لا يعرفه ، ولو عرفه لأمر بقطعه كما أمر بقطع ما هو أعظم منه ، ولجاهد المتناول له ، فإن جهادهم من الواجبات ؛ لما يصدر عنهم من التعسف وعسير الإرهاق وسوء المعاملة مع غرباء انقطعوا إلى اللَّه

---

(١) تكملة المقال في جريدة أم القرى - العدد (٤٣٠) في ١٣٥١/١١/١٣ هـ

عز وجل، وخرجوا مهاجرين إلى حرمه الأمين، ولو شاء اللَّه لكانت عن هذه الخطة مندوحة في اقتضاء الزكاة على أجمل الوجوه من ذوي البضائع و التجارات مع مراعات رأس كل حول الذي هو محل الزكاة، ويتجنب اعتراض الغرباء المنقطعين ممن تجب الزكاة له لا عليه، وكان يحافظ على جانب هذا السلطان العادل الذي قد شمل البلاد عدله، وسار في الآفاق ذكره، ولا يسعى فيما يسيئ الذكر بمن قد حسَّن اللَّه ذكره، ويقبِّح المقالة في جانب من أجمل اللَّه المقالة عنه.

ومن أشنع ما شاهدناه من ذلك خروج شرذمة من مردة أعوان الزكاة في أيديهم المسال[1] الطوال ذوات الأنصبة، فيصعدون إلى المراكب استكشافًا لما فيها، فلا يتركون عِكمًا[2] ولا غِرارة[3] إلا ويتخللونها بتلك المسال الملعونة، مخافة أن يكون في تلك الغرارة أو العكم اللذين لا يحتويان سوى الزاد شيء غيب عليه من بضاعة أو مال، وهذا أقبح ما يؤثر في الأحاديث الملعنة، وقد نهى اللَّه عن التجسس فكيف عن الكشف لما يرجى بستر الصون دونه من حال لا يريد صاحبها أن يطلع عليها، إما استحقارًا أو استنفاسًا دون بخل بواجب يلزمه، واللَّه الآخذ على أيدي هؤلاء الظلمة بيد هذا السلطان العادل وتوفيقه إن شاء اللَّه».

ثم قال: الكلام على جدة:

وأكثر سكان هذه البلدة مع ما يليها من الصحراء والجبال أشراف علويون حسنيون وحسينيون وجعفريون -رضي اللَّه عن سلفهم الكريم- وهم من شظف العيش بحال يتصدع له الجماد إشفاقًا، ويستخدمون أنفسهم في كل مهنة من

(١) المِسَلَّة بالكسر واحدة المَسالّ وهي الإِبَرُ العظام. لسان العرب - (سلل)
(٢) عَكَمَ المتاعَ يَعْكِمُه عَكْمًا شدَّه بثوب وهو أَن يبسُطَه ويجعلَ فيه المتاعَ ويَشُدَّه ويُسَمَّى حينئذ عِكْمًا والعِكامُ ما عُكِمَ به وهو الحَبْلُ الذي يُعْكَمُ عليه. لسان العرب - (عكم).
(٣) الغِرارةُ واحدة الغَرائِر التي للتِّبْن. لسان العرب - (غرر)

المهن ؛ من إكراء جمال إن كانت لهم ، أو مبيع لبن أو ماء إلى غير ذلك من تمر يلتقطونه أو حطب يحتطبونه ، وربما تناول ذلك نساؤهم الشريفات بأنفسهن ، فسبحان المقدر لما يشاء ، ولا شك أنهم أهل بيت ارتضى اللّٰه لهم الآخرة ولم يرتض لهم الدنيا ، جعلنا اللّٰه ممن يدين بحب أهل البيت الذين أذهب عنهم الرجس وطهرهم تطهيرًا .

(ثم قال) : وأكثر أهل هذه الجهات الحجازية وسواها فرق وشيع لا دين لهم ، قد تفرقوا على مذاهب شتى ، وهم يعتقدون في الحاج ما لا يعتقد في أهل الذمة ، قد صيَّروهم من أعظم غلَّاتهم التي يستغلونها ؛ ينتهبونهم انتهابًا ، ويسببون لاستجلاب ما بأيديهم استجلابًا ، فالحاج معهم لا يزال في غرامة ومؤنة إلى أن ييسر اللّٰه رجوعه إلى وطنه .

ولولا ما تلافى اللّٰه به المسلمين في هذه الجهات بصلاح الدين لكانوا من الظلم في أمر لا ينادى وليده ، ولا يلين شديده ، فقد رفع ضرائب المكوس عن الحاج وجعل عوض ذلك مالًا وطعامًا يأمر بتوصيلهما إلى مكثر أمير مكة ، فمتى أبطأت عنهم تلك الوظيفة المترتبة لهم عاد هذا الأمير إلى ترويع الحاج وإظهار تثقيفهم بسبب المكوس .

واتفق لنا من ذلك أن وصلنا جدة فأسكنا بها خلال ما خوطب مكثر الأمير المذكور ، فورد أمره « بأن يضمن الحجاج بعضهم بعضًا ويدخلوا إلى حرم اللّٰه ، فإن ورد المال والطعام اللذان يرسمه من قبل صلاح الدين وإلا فهو لا يترك ماله قبل الحاج » هذا لفظه ، كأن حرم اللّٰه ميراث بيده محلل له اكتراؤه من الحاج . فسبحان مغير السنن ومبدلها .

والذي جعل له صلاح الدين بدلًا من مكس الحاج ألفا دينار ، اثنان وألفا أردب من القمح ، وهو نحو الثمانمائة قفيز بالكيل الإشبيلي عندنا ، حاشا

إقطاعات أقطعها بصعيد مصر وبجهة اليمن لهم بهذا الرسم المذكور.

ولولا مغيب هذا السلطان العادل صلاح الدين بجهة الشام في حروب له هناك مع الإفرنج لما صدر عن هذا الأمير المذكور ما صدر في جهة الحاج. فأحق بلاد اللَّه بأن يطهرها السيف ويغسل أرجاسها وأدناسها بالدماء المسفوكة في سبيل اللَّه هذه البلاد الحجازية، لما هم عليه من حل عرى الإسلام، واستحلال أموال الحاج ودمائهم، فمن يعتقد من فقهاء أهل الأندلس إسقاط هذه الفريضة عنهم فاعتقاده صحيح لهذا السبب، وبما يصنع بالحاج مما لا يرتضيه اللَّه عز وجل، فراكب هذا السبيل راكب خطر، ومعتسف غرر، واللَّه قد أوجد الرخصة فيه على غير هذه الحال، فكيف وبيت اللَّه الآن بأيدي أقوام قد اتخذوه معيشة حرام، وجعلوه سببًا إلى استلاب الأموال واستحقاقها من غير حل ومصادرة الحجاج عليها، وضرب الذلة والمسكنة الدنية عليهم، تلافاها اللَّه عن قريب بتطهير يرفع هذه البدع المجحفة عن المسلمين بسيوف الموحدين أنصار الدين، وحزب اللَّه أولي الحق والصدق والذابين عن حرم اللَّه عز وجل والغائرين على محارمه والجادين في إعلاء كلمته وإظهار دعوته ونصر ملته، إنه على ما يشاء قدير، وهو نعم المولى ونعم النصير.

وليتحقق المتحقق ويعتقد الصحيح الاعتقاد أنه لا إسلام إلا ببلاد المغرب؛ لأنهم على جادة واضحة لا بنيات لها، وما سوى ذلك مما بهذه الجهات المشرقية فأهواء، وبدع، وفرق ضالة، وشيع، إلا من عصم اللَّه عز وجل من أهلها، كما أنه لا عدل ولا حق ولا دين على وجهه إلا عند الموحدين- أعزهم الله- فهم آخر أئمة العدل في الزمان، وكل من سواهم من الملوك في هذا الأوان فعلى غير الطريقة؛ يُعَشِّرون تجار المسلمين، كأنهم أهل ذمة لديهم، ويستجلبون أموالهم بكل حيلة وسبب، ويركبون طرائق من الظلم لم يسمع

مثلها ، اللهم إلا هذا السلطان العادل صلاح الدين قد ذكرنا سيرته ومناقبه لو كان له أعوان على الحق مما أريد . واللّٰه عز وجل يتلافى المسلمين بجميل نظره ولطيف صنعه » اهـ المراد نقله من هذه الرحلة .

لئن كان فضل اللّٰه تعالى على الحجاز في القرن السادس عظيمًا بجعله تحت حكم السلطان صلاح الدين الأيوبي -رحمه الله- إذ أزال منه جل تلك المظالم المرهقة لأهله حتى الشرفاء منهم والحجاج فإن فضل اللّٰه تعالى على الحجاز وحجاج الأقطار في هذا العصر بالملك عبد العزيز آل سعود أعظم ، فإنه لم يعرف المسلمون عصرًا بعد صدر الإسلام كان الحاج فيه آمَنَ على نفسه وماله من الظلم والتعدي مثل هذا العصر ، دع تعبيد الطرقات وكثرة المياه والإسعافات الطبية فيها ، وقطع المسافات بالسيارات لمن شاء . ولو قيض اللّٰه لهذا الملك من الرجال المصلحين ما طالما تمنيناه له كما تمناه ابن جبير لصلاح الدين لكان هذا الإصلاح المادي والمعنوي في الحجاز أكبر وأعم مما هو الآن ، ولا نيأس من روح اللّٰه ، والحمد للّٰه على آلاء اللّٰه .

❁❁❁

الشيخ

عبد الله بن سليمان بن بليهد رحمه الله

مقالات الشيخ عبد الله بن سليمان بن بليهد[1]

(١) هو الشيخ العلّامة رئيس القضاة في وقته عبدالله بن سليمان بن الشيخ سعود بن محمد بن عبد الله بن سليمان بن عثمان بن بليهد، من قبيلة بني خالد التي هي من قبائل بني عامر من صعصعة من هوازن، أحد الشعوب المضريَّة العدنانية. وُلد في بلدة «القرعاء» إحدى قرى القصيم عام ١٢٧٨ هـ. نشأ الشيخ في بلدته فأخذ مبادئ القراءة والكتابة عن والده، ثم شرع في طلب العلم فرحل إلى «بُريدة» للقراءة على الشيخ العلّامة محمد بن عبدالله بن سليم، فقرأ عليه في التوحيد والتفسير والحديث والفقه وأصولها. ثمَّ رحل إلى الهند فقرأ على علمائه من رجال الحديث، ثمَّ عاد إلى بلاده عالمًا حافظًا متقنًا للعلوم الشرعية والعلوم العربية. أخذ العلم عن العديد من علماء عصره، ومن أبرزهم: الشيخ عبدالله بن عبداللطيف، والشيخ حسن بن حسين، والشيخ محمد بن عبدالله بن سليم.

عيِّن قاضيًا لقرى القصيم وبواديها، ثم قاضيًا في مدينة «حائل» وما يتبعها من المنطقة الشمالية. ولما دخل الملك عبدالعزيز الحجاز عام ١٣٤٣هـ نقل الشيخ من قضاء مدينة حائل إلى رئاسة القضاة في مكة المكرَّمة، واستمرَّ على ذلك حتى آخر عام ١٣٤٥هـ حيث أعفي عنه وأعيد إلى قضاء «حائل» مرَّةً أخرى، فاستمرَّ على ذلك حتى وفاته رحمه الله تعالى.

أخذ عنه العلم خلقٌ كثير في مكة المكرمة وفي حائل وفي القصيم، ومن أبرزهم: الشيخ سالم الصالح البنيان، والشيخ حمود بن حسين الشغدلي، والشيخ علي بن محمد الهندي.

وصفه تلميذه الشيخ علي بن محمد الهندي بقوله: «كان الشيخ عبدالله بن بليهد عالمًا فاضلًا، جمع الله له بين السياسة الدينية والدنيوية والعلم والحجة والعقل الوافر، وكان رحالة لا يذكر له أحد بعلم إلّا رحل إليه وأخذ عنه» انتهى.

وقد ألف الشيخ منسكًا سمّاه: «جامع المسالك في أحكام المناسك على المذاهب الأربعة»، ورسالةً لطيفةً ردًّا على مدّعي الخلافة.

استمرَّ الشيخ: في عمله قاضيًا في مدينة حائل وتوابعها، والتدريس والوعظ والإفتاء حتى عام ١٣٥٩هـ حيث سافر فيه إلى مدينة الطائف، فمرض بالحمى نحو شهر، ثمَّ توفي.

وكانت وفاته ليلة الاثنين العاشر من جمادى الأولى من عام ١٣٥٩هـ، وصلّي عليه بمسجد ابن عباس صباحًا، وشيِّع جنازته خلقٌ كثير، ودُفن في المقبرة الواقعة شرقًا من المسجد. فرحمه الله رحمةً واسعةً وجمعنا به في جناته. انظر ترجمته في «تراجم المتأخرين الحنابلة» (ص٩٢)، «الأعلام» (٤/٩١)، «علماء نجد» (٤/١٣٨).

حول هدم القبور[1]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله رب العالمين، والعاقبة للمتقين، ولا عدوان إلا على الظالمين، وأشهد أن لا إله إلا الله إله الأولين والآخرين، وقيوم السموات والأرض، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله الصادق الأمين، صلى الله عليه وعلى آله وأصحابه الطيبين الطاهرين الذين جاهدوا في الله حق جهاده وعبدوا ربهم حتى أتاهم اليقين، وعن ذريتهم ومن تبعهم إلى يوم الدين.

وبعدُ: فإني قد وقفت على مقالات متضمنة إنكار ما قمنا به من إزالة البدع التي ما أنزل الله بها من سلطان، ومنها ما أحدثه الجهال من البناء على القبور وتعظيمها والعكوف عندها، نظير ما كان يفعله أهل الجاهلية الذين قال الله تعالى فيهم: ﴿أَمْ لَهُمْ شُرَكَٰٓؤُاْ شَرَعُواْ لَهُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنۢ بِهِ ٱللَّهُۚ﴾ [الشّورى: الآية ٢١].

وكنت لما قدمت المدينة المنورة في رمضان سنة ١٣٤٤ وجهت إلى علمائها سؤالًا تضمن مسائل:

منها: البناء على القبور واتخاذها مساجد

ومنها: هل يجب هدم البناء ومنع الصلاة عندها؟

ومنها: إذا كان البناء في مسبلة فهل هو غصب؟ ... إلخ

ومنها: ما يفعله الجهال عند هذه الضرائح من التمسح بها ... إلخ

ومنها: ما يفعل عند حجرة النبي ﷺ.

(١) صحيفة أم القرى العدد ١٠٤ - جمادى الثانية ١٣٤٥ هـ.

فكتبوا جوابًا مطابقًا للسؤال، جار على الأصول الشرعية والقوانين المرعية؛ من ذكر الحكم بدليله[١]

فلما ظهر العمل بموجبه قام ناس لذلك وقعدوا، وضجوا وعجوا، وصالوا وقالوا، وحرروا بذلك مقالات، منها ما كتبه محمد علي العزوي الأوردبادي بنجف، والشيخ يوسف الفقيه من علماء جبل عامل وعضو محكمة التمييز بالجعفرية، والسيد حسن صدر الدين الكاظمي

ولما كان ما كتب غير جار على سنن العلم، ولا مستند إلى دليل من كتاب ولا سنة ولا إلى مذهب إمام متبع؛ وكان أشبه شيء بالهذيان واللغو الذي لا يدري صاحبه ما يقول كما قيل: يقولون أشياء ولا يعرفونها، وإن قيل هاتوا حققوا لم يحققوا. كان الأولى بنا أن نعاملهم بالإعراض عن جوابهم امتثالًا لقوله تعالى: ﴿وَإِذَا سَمِعُوا۟ ٱللَّغْوَ أَعْرَضُوا۟ عَنْهُ﴾ [القصص: الآية ٥٥].

وقوله تعالى: ﴿وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلْجَٰهِلُونَ قَالُوا۟ سَلَٰمًا﴾ [الفرقان: الآية ٦٣].

ونحن -والحمد لله- نعتمد في العلم والدين على أصلين عظيمين:

أحدهما؛ أن لا يعبد إلا الله تعالى كما قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: الآية ٥٦].

والثاني؛ أن لا يعبد إلا بما شرع على لسان رسوله ﷺ، كما قال تعالى: ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟﴾ [الحشر: الآية ٧].

وإنا نخاطب من له عقل ودين، يعلم أنه يلاقي الله تعالى ويسأل عما يعتقد ويدين به، فنقول:

إن الله تعالى أرسل رسوله محمدًا ﷺ بالهدى ودين الحق وأكمل به الدين وأتم به النعم على المسلمين حتى قال ﷺ: «تركتكم على المحجة البيضاء

(١) وإتماما للفائدة فقد أوردنا تلك الأسئلة والأجوبة عليها في المقال التالي لهذا المقال.

ليلها كنهارها لا يزيغ عنها بعدي إلا هالك »[١] . فهل كان البناء على القبور وتعظيمها بالعكوف عندها ودعاؤها والذبح والنذر لها مما كتمه النبي ﷺ ولم يبينه لأمته ، ولا علمه خلفاؤه الراشدون وأصحابه والقرون المفضلة والأئمة بعدهم ؟ أو هو شيء فعلوه وجرى العمل به في أيامهم ونحن جهلناه ! فمن عنده علم من ذلك فعليه بيان هذا ، لو لم نعلم أن النبي ﷺ نهى عن ذلك نهيًا شديدًا مؤكدًا ، بل في آخر حياته صرح بلعن فاعل ذلك كما في حديث عائشة رضي الله عنها في الصحيحين[٢] قالت : « لما نزل برسول الله ﷺ طفق يطرح خميصة له على وجهه فإذا اغتم بها كشفها فقال وهو كذلك : لعنة الله على اليهود والنصارى اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد ؛ يحذر ما صنعوا ، ولولا ذلك لأبرز قبره غير أنه خشي أن يتخذ مسجدًا » .

وفي حديث جندب رضي الله عنه الذي رواه مسلم[٣] في « صحيحه » : « ألا وإنّ من كان قبلكم كانوا يتخذون قبور أنبيائهم مساجد ، فلا تتخذوا القبور مساجد فإني أنهاكم عن ذلك » .

وقد ثبت في صحيح مسلم[٤] عن أبي الهياج قال : قال لي علي رضي الله عنه : « ألا أبعثك على ما بعثني عليه رسول الله ﷺ أن لا تدع تمثالاً إلا طمسته ولا قبرًا مشرفًا إلا سويته » .

وهذه الكتب من جميع المذاهب الأربعة قد ثبت فيها أحكام القبور ، ونحن لم نخرج عما قالوه ، فأفيدونا من شرع البناء على القبور ؟ ومن أول من بنى عليها ؟

وغير خاف على من له أدنى ممارسة لعلوم الحديث والتفسير والتاريخ ، أن في

---

(١) أخرجه أحمد (٤/ ١٢٦) ، وابن ماجه (٩٩٦) من حديث العرباض بن سارية رضي الله عنه .

(٢) البخاري (٤٣٥، ٤٣٦) ، ومسلم (٥٢٩- ٥٣١) .

(٣) مسلم (٥٣٢) .

(٤) مسلم (٩٦٩) .

زمن رسول اللّه ﷺ ما دفن أحد في قبر إلا في التراب ، ولم يجصص ولم يبن عليه ، وكذلك من مات من الصحابة بالمدينة المنورة وفي مكة المكرمة وغيرها من البلاد البعيدة ، وكل من مات منهم دفنوا هنالك ولم تجصص قبورهم ولم يبن عليها ، وكذلك لم نسمع في خير القرون أن هذه البدعة حدثت فيها ، بل بعد القرون الخمسة حدثت هذه الفتنة في الدين ، أحدثها بعض المترفهين من الأمراء والملوك ، وتوسعوا فيها حتى جرت تلك البدعة في المقابر المسبلة والمساجد ولم يبالوا فيها ، وإن التصرف في الأرض المسبلة زائدًا على قدر الحاجة حرام ، اتفق عليه جميع أهل المذاهب المتبوعة الأربعة ، فلهذا يحرم الدفن في المسجد ، وكذا أخذ حصة في أرض المسجد لغير المسجد .

فالعجب من الذين يخالفون النصوص الشرعية ، ويتبعون أهواءهم الفانية ، هذا لو لم يكن فيه مفسدة غير ما ذكر لكان ذلك كاف في منعه ، فكيف إذا كان وسيلة إلى الشرك الذي هو أعظم الذنوب ؟ فلا حول ولا قوة إلا باللّه العلي العظيم

وكل من عنده في هذا أو غيره حجة شرعية يجب المصير إليها من كتاب أو سنة أو قول صاحب فعليه بيانها ، والحق ضالة كل مؤمن ، ومن كان بضاعته الجعجعة والهذيان فجوابه كما قيل(١) :

وإذا بليت بجاهل متجاهل … يجد المحال من الأمور صوابا
أوليته مني السكوت وربما … كان السكوت عن الجواب صوابا

نسأل اللّه تعالى لنا ولجميع إخواننا المسلمين الهداية إلى سواء السبيل ، وحسبنا اللّه ونعم الوكيل ، وصلى اللّه على سيدنا محمد وصحبه أجمعين .

❁❁❁

(١) القائل : أبو العباس الرياشي . « الأداب الشرعية » (٤٧/١) .

القول الصريح

فتوى علماء المدينة[1]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

ما قول علماء المدينة المنورة -زادهم اللّه فهمًا وعلمًا- في البناء على القبور واتخاذها مساجد، هل هو جائز أم لا ؟ وإذا كان غير جائز بل ممنوع منهي عنه نهيًا شديدًا فهل يجب هدمها ومنع الصلاة عندها أم لا ؟

وإذا كان البناء في مسبلة كالبقيع، وهو مانع من الانتفاع بالمقدار المبني عليه، فهل هو غصب يجب رفعه لما فيه من ظلم المستحقين ومنعهم استحقاقهم أم لا ؟

وما يفعله الجهال عند هذه الضرائح من التمسح بها ودعائها مع اللّه والتقرب بالذبح والنذر لها وإيقاد السرج عليها هل هو جائز أم لا ؟ وما يفعل عند حجرة النبي ﷺ من التوجه إليها عند الدعاء وغيره والطواف بها وتقبيلها والتمسح بها ؟

وكذلك ما يفعل في المسجد الشريف من الترحيم والتذكير بين الأذان والإقامة وقبل الفجر ويوم الجمعة هل هو مشروع أم لا ؟

أفتونا مأجورين وبينوا لنا الأدلة المستند إليها لا زلتم ملجأ للمستفيدين.

الجواب : نقول وباللّه التوفيق :

أما البناء على القبور فهو ممنوع إجماعًا ؛ لصحة الأحاديث الواردة في منعه، ولهذا أفتى كثير من العلماء بوجوب هدمه مستدلين على ذلك بحديث علي رضي

---

(١) صحيفة « أم القرى » العددان (٦٩) شوال ١٣٤٤هـ، (١٠٤) - جمادى الثانية ١٣٤٥هـ. والمستفتى هو الشيخ عبد اللّه بن بليهد رحمه اللّه .

الله عنه أنه قال لأبي الهياج : « ألا أبعثك على ما بعثني عليه رسول الله ﷺ أن لا تدع تمثالًا إلا طمسته ولا قبرًا مشرفًا إلا سويته » رواه مسلم[١] .

وأما اتخاذ القبور مساجد والصلاة فيها فممنوع مطلقًا ، وإيقاد السرج عليها ممنوع أيضًا ؛ لحديث ابن عباس : « لعن رسول الله زائرات القبور والمتخذين عليها المساجد والسرج » رواه أهل السنن[٢] . وأما ما يفعله الجهال عند الضرائح من التمسح بها والتقرب لها بالذبح والنذر ودعاء أهلها مع الله ، فهو حرام ممنوع شرعًا لا يجوز فعله أصلًا

وأما التوجه إلى حجرة النبي ﷺ عند الدعاء ، فالأولى منعه كما هو معروف من معتبرات كتب المذهب ؛ ولأن أفضل الجهات جهة القبلة ، وأما الطواف بها والتمسح بها وتقبيلها فهو ممنوع مطلقًا

وأما ما يفعل من التذكير والترحيم[٣] والتسليم في الأوقات المذكورة فهو محدث .

هذا ما وصل إليه فهمنا السقيم ، وفوق كل ذي علم عليم .

٢٥/رمضان سنة ١٣٤٤هـ

وكيل رئيس القضاة وأمين الفتوى بالمدينة المنورة محمود شويل ، قاضي المدينة المنورة ومفتي الحنفية إبراهيم بري ، نائب القاضي ومفتي المالكية محمد صادق العقبي ، نائب القاضي ومفتي الشافعية السيد زكي برزنجي ، وكيل مفتي

---

(١) مسلم (٩٦٩) .

(٢) أبو داود (٣٢٣٦) ، والترمذي (٣٢٠) ، والنسائي (٢٠٤٣) ، وانظر السلسلة الضعيفة (٢٢٥) .

(٣) كان مؤذنوا المساجد ينشدون في الثلث الأخير من الليل في ليالي رمضان أناشيد دينية يسمونها « التذكير » ، ويتلوها « الترحيم » ، وهو أن يجأر المؤذن بقوله : « يا أرحم الراحمين ارحمنا » عدة مرات ، ثم يؤذن الصبح . « صوفيات حجازية » (ص٧) .

الحنابلة ونائب القاضي حميده بن الطيب ، مدرس ألفا هاشم مدني ، نائب الحرم محمد الاخميمي الأزهري ، مغربي مدني محمد العمري ، من علماء نجد محمد بن تركي ، مدرس مدني محمد صقر ، نائب القاضي سابقًا ومسود الفتوى الآن أحمد بساطي ، قاضي المدينة سابقًا عمر كردي قاضي المدينة سابقًا أحمد كماخي ، مدرس مدني المبلود بن أبي بكر ، مدرس مدني سعيد وصديق ؛ مدرس مدني محمد البشير أخو الفا هاشم ، مدرس مدني الطيب التومبوكستي ، مدرس مدني خليل الفلاتي[1] .

***

(١) ورد في العدد ٦٩ اختصار لأسماء العلماء .

خطاب رئيس القضاة(١)

(١)

بعد حمد اللّٰه والثناء عليه بصفات كماله ، والصلاة على النبي ﷺ وصحبه وآله .

إن اللّٰه أرسل رسوله محمدًا ﷺ بالهدى ودين الحق ، وأنزل عليه الكتاب تبيانًا لكل شيء ، فدعى الناس إلى ما خلقوا له من عبادة اللّٰه تعالى وحده لا شريك له ، وكذلك جميع الرسل جاءوا بذلك كما قال تعالى : ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ أَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا۟ فِيهِ﴾ [الشورى: الآية ١٣].

وأصل دين جميع المرسلين وأساسه هو التوحيد وهو ثلاثة أنواع :

توحيد الربوبية : وهو الإقرار بأن اللّٰه هو الخالق الرازق المدبر لجميع الأمور ، وهذا قد أقر به غالب الكفار .

وتوحيد الأسماء والصفات : وهو إثبات ما وصف الرب تعالى وسمى به نفسه في كتابه وعلى لسان رسوله ﷺ من الأسماء الحسنى والصفات العلى ؛ إثباتًا يليق بجلاله وعظمته ويختص به من غير تحريف ولا تعطيل ومن غير تكييف ولا تمثيل .

وجميع أصحاب المقالات من الفرق الإسلامية متفقون على إثبات هذه المقدمة ؛ وهي أن اللّٰه تعالى موصوف بصفات الكمال منزه عن صفات النقص ،

---

(١) صحيفة أم القرى العدد ٣٩ في ١٣٤٤/٣/٧هـ وجاء في الصحيفة ما نصه : هذا هو الخطاب الذي ألقاه الشيخ عبد اللّٰه بن بليهد رئيس القضاة في الاجتماع الذي عقد بين علماء نجد وعلماء مكة المكرمة .

وإنما اختلفوا فيما هو كمال وما هو نقص أو يلزم منه النقص ؛ فمنهم من ظن أن وصف الباري تعالى بما وصف به نفسه يلزم منه التجسيم والتشبيه فنفى ما أثبته اللّٰه تعالى لنفسه وعطل أسماءه وصفاته وألحد فيها ، ومنهم من أثبت ذلك وغلا في الإثبات حتى شبه صفات الباري تعالى بصفات خلقه .

وهدى اللّٰه تعالى أهل السنة الذين هم الفرقة الناجية -وهم الوسط في فرق الأمة كما أن الأمة وسط بين سائر الأمم- إلى القول بما دل عليه الكتاب والسنة ومضى عليه سلف الأمة من إثبات جميع ما وصف به تعالى نفسه في كتابه وعلى لسان رسوله ﷺ من الأسماء الحسنى والصفات العلى وإمرارها كما جاءت ، وهذا هو طريق النجاة ، ومن ذلك الإيمان بما أخبر به اللّٰه في كتابه وتواتر عن رسوله ﷺ وأجمع عليه سلف الأمة من أن اللّٰه سبحانه فوق سماواته على عرشه عليٌّ على خلقه وهو سبحانه معهم أينما كانوا يعلم ما هم عاملون .

ومما نعتقده وندين اللّٰه به أن الدين والإيمان قول وعمل ؛ قول القلب واللسان ، وعمل القلب واللسان والجوارح ، وأن الإيمان يزيد وينقص ؛ يزيد بالطاعة وينقص بالمعصية ، ومع ذلك لا نكفر أهل القبلة بمجرد المعاصي ولا نسلب الفاسق المليَّ اسم الإيمان بالكلية ولا نخلده في النار كما يقوله المعتزلة ، ولا نكفره بالكبائر كما تقوله الخوارج ، ونقول : هو مؤمن بإيمانه فاسق بكبيرته ، أو : مؤمن ناقص الإيمان ، أو : مسلم وليس بمؤمن كما يقوله بعض أهل السنة .

ونعتقد وجوب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر على ما جاءت به الشريعة كما صحت بذلك الأخبار عن رسول اللّٰه ﷺ .

ونعتقد إقامة الحج والجهاد والجمع والأعياد مع الأمراء ؛ أبرارًا كانوا أو فجارًا ، وندين بالسمع والطاعة لهم في غير المعصية ؛ عدلوا أو جاروا ما أقاموا الصلاة ، ونحافظ على الجماعة .

وندين الله بالنصح للأئمة خاصة وللأمة عامة ونبرأ إلى الله من طريق الخوارج والمعتزلة الذين يرون الخروج على الأئمة بمجرد الجور أو المعصية .

والنوع الثالث توحيد العبادة : وهو مقتضى شهادة أن لا إله إلا الله ، فإن « لا إله إلا الله » تقتضي إفراد الله بالعبادة والكفر بما يعبد سواه ، وهذا هو معنى النفي والإثبات في هذه الكلمة ، وهو الذي فهمه كفار قريش لما دعاهم النبي ﷺ إلى قول لا إله إلا الله كما قال تعالى مخبرًا عنهم أنهم قالوا : ﴿أَجَعَلَ ٱلْآلِهَةَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ عُجَابٌ﴾ [ص: الآية ٥] .

وقال تعالى : ﴿إِنَّهُمْ كَانُوٓا۟ إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٣٥﴾ وَيَقُولُونَ أَئِنَّا لَتَارِكُوٓا۟ ءَالِهَتِنَا لِشَاعِرٍ مَّجْنُونٍۭ﴾ ، فعرفوا أنَّ لا إله إلا الله تقتضي ترك كل مألوه- أي : معبود- من دون الله .

وهذا الذي دلت عليه لا إله إلا الله من إخلاص العبادة لله وحده وترك عبادة ما سواه كائنًا من كان هو حقيقة التوحيد الذي دعت إليه جميع الرسل ، وهو حق الله على جميع عباده كما قال النبي ﷺ في الحديث الصحيح : « فإن حق الله على العباد أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئًا » . وهو في الصحيحين(١) .

والعبادة : اسم جامع لما يحبه الله ويرضاه من الأقوال والأفعال الظاهرة والباطنة كالحب والدعاء والخوف والرجاء والتوكل وغير ذلك من أنواع العبادة التي يجب إخلاصها لله تعالى وتخصيصه بها دون ما سواه ، فمن صرف من ذلك شيئًا لغير الله سواء كان ملكًا أو نبيًا أو وليًا أو غيره فقد عبده بذلك وجعله شريكًا لله في عبادته ، كما قال تعالى : ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ﴾ [البقرة: الآية ١٦٥] .

وقال عن المشركين إنهم يقولون وهم في النار : ﴿تَٱللَّهِ إِن كُنَّا لَفِى ضَلَٰلٍ

---

(١) أخرجه البخاري (٢٨٥٦، ٥٩٦٧)، ومسلم (٣٠) من حديث معاذ رضي الله عنه .

مُّبِينٍ ﴿٩٧﴾ إِذْ نُسَوِّيكُم بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ ومن المعلوم أنهم لم يسووهم به في الخلق والرزق والتدبير وإنما سووهم به في الحب والتعظيم وهذا هو حقيقة الشرك .

وكذلك من دعا غير الله ؛ دعاء عبادة أو دعاء استعانة ، في شدة أو رخاء ، فقد عبده بذلك وجعله شريكًا لله في عبادته ، فإن الدعاء مخ العبادة ، وسواء دعاه لجلب النفع أو دفع الضر ، أو دعاه لطلب الشفاعة منه أو ليقربه إلى الله ، أو دعاه تقليدًا لآبائه وأسلافه أو لغير ذلك ، والأدلة على ذلك في كتاب الله كثيرة جدًّا منها قوله تعالى : ﴿وَلَا تَدْعُ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ فَإِن فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذًا مِّنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [يونس: الآية ١٠٦] .

وقال تعالى : ﴿وَمَن يَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ لَا بُرْهَٰنَ لَهُۥ بِهِۦ فَإِنَّمَا حِسَابُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦٓ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ [المؤمنون: الآية ١١٧] فهذا نص في كفر داعي غير الله .

(٢)

(١)وقوله تعالى : ﴿وَٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ مَا يَمْلِكُونَ مِن قِطْمِيرٍ * إِن تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا۟ دُعَآءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا۟ مَا ٱسْتَجَابُوا۟ لَكُمْ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ﴾ [فاطر: ١٣، ١٤] .

فهذا صريح أن دعاء غير الله شرك ، وقال تعالى : ﴿وَأَنَّ ٱلْمَسَٰجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا۟ مَعَ ٱللَّهِ أَحَدًا﴾ [الجن: الآية ١٨] .

إلى غير ذلك من الآيات الدالة على هذا المعنى .

فإن قال قائل : إن من يدعو النبي ﷺ أو غيره من الأولياء لا يعتقد أنه يملك نفعًا أو ضرًّا ولا يطلب(٢) ذلك منه ، وأن قوله عند قيامه أو دخوله أو خروجه أو

---

(١) تتمة المقال في صحيفة أم القرى العدد ٤٠ – الجمعة – ربيع الأول – ١٣٤٤ هـ.

(٢) في الأصل : ولا يغلب .

غير ذلك من أحواله : يا رسول الله ، أو يا فلان . إن أراد به طلب النفع والضر فهو شرك ، وإن كان بحكم العادة أو التقليد ، أو لمجرد التعظيم ، أو أنه يشفع له عند الله أو يقربه إلى الله فهذا ليس بشرك

فيقال : إن شرك المشركين الذين بُعِث فيهم النبي ﷺ هو بتعلقهم على الأنبياء والصالحين لطلب القربة والشفاعة ، كما قال تعالى : ﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَىٰ إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِي مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ۗ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ كَاذِبٌ كَفَّارٌ﴾ [الزُّمَر: الآية ٣] . فكذبهم وكفرهم مع قولهم : ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى ، وقال تعالى : ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَٰؤُلَاءِ شُفَعَاؤُنَا عِندَ اللَّهِ ۚ قُلْ أَتُنَبِّئُونَ اللَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ ۚ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [يُونس: الآية ١٨] .

فسبح نفسه سبحانه عن شركهم ، مع قولهم : هؤلاء شفعاؤنا عند الله . فدل على أن دعاءهم لطلب الشفاعة شرك ، وذلك أن ملك الشفاعة بيد الله ، كما قال تعالى : ﴿قُل لِّلَّهِ الشَّفَاعَةُ جَمِيعًا﴾ [الزُّمَر: الآية ٤٤] .

ولا يشفع أحد عنده إلا بإذنه ، كما قال تعالى : ﴿مَن ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِندَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ﴾ [البقرة: الآية ٢٥٥].

فإذا ثبت أن ملك الشفاعة بيده وأنه لا يشفع أحد عنده إلا بإذنه ، فحينئذ تعين أن نطلبها منه سبحانه فنقول : اللهم لا تحرمنا شفاعة نبيك ، أو شفعه فينا ، أو نحو ذلك . فأما دعاء النبي ﷺ لطلب الشفاعة منه ، فهو شرك ، كما تقدم ؛ لأن الدعاء عبادة وقد صرفها لغير الله فيكون ذلك شركًا في العبادة ، وكذلك دعاؤه ليقربه من الله ، فإن التقرب إلى الله لا يكون إلا بطاعته كما قال تعالى : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَابْتَغُوا إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ﴾ [المَائدة: الآية ٣٥] .

أي : بطاعته ، قاله المفسرون ، وكذلك من يدعو غير الله بحكم العادة أو التقليد لآبائه وأسلافه كحال المشركين الأولين ، فإن الله تعالى أخبر عن جميع الأمم المخالفة للرسل بقولهم : ﴿إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّقْتَدُونَ﴾ [الزخرف: الآية ٢٣] .

وأخبر عن قوم إبراهيم أنه لما قال لهم : ﴿هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ * أَوْ يَنفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ﴾ .

لم يقولوا إنهم ينفعون أو يضرون بل قالوا : ﴿بَلْ وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا كَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ﴾ [الشعراء: الآية ٧٤].

فتبين بما قررناه أنه لا فرق بين من يدعو غير الله معتقدًا فيه النفع والضر ، أو أنه شفيع له عند الله ، أو أنه يقربه إلى الله ، أو أن ذلك بحكم العادة والتقليد ، ولن يجد أحد إلى التفريق بين ذلك سبيلًا أصلًا .

ومما يزيد ذلك وضوحًا أن قول القائل عند قيامه وقعوده وسائر حركاته : يا الله استعانة به ، وذلك عبادة بلا ريب لا ينازع فيه أحد ، فإذا قال ذلك لمخلوق كائنًا من كان فقد صرف تلك العبادة لغيره .

وأيضًا فإنه من المتقرر عند أهل العلم أن الكافر إذا أقر بالشهادتين حكم بإسلامه ، وإن ادعى أنه لم يقصد حقيقة الإسلام لم يقبل منه بل يلزم بحكم ما أقر به ، فكذلك إذا تكلم بالشرك لزمه حكمه وإن ادعى غير ذلك ، ولا فرق بينهما وهذا واضح .

فأما تعظيم القبور ؛ بالبناء عليها وإيقاد السرج وغير ذلك مما أحدث فيها ، فبناء المساجد والقبب عليها وعبادة الله عندها بالصلاة وغيرها محرم ، لما ورد عن النبي ﷺ من النهي الصريح ولعن فاعل ذلك كما في حديث عائشة رضي الله عنها من قوله ﷺ : «لعنة الله على اليهود والنصارى اتخذوا قبور أنبيائهم

مساجد » . وهو في « الصحيحين »[(١)] . والأحاديث في ذلك يطول ذكرها ، ومنها حديث علي أنه ﷺ بعثه لهدم القبور المشرفة وقال : « لا تدع تمثالًا إلا طمسته ولا قبرًا مشرفًا إلا سويته »[(٢)].

فأما زيارة القبور فهي ثلاثة أنواع ؛ شرعية ، وبدعية ، وشركية .

فالشرعية : هي التي القصد منها تذكر الآخرة ، والدعاء للميت ، واتباع السنة

والبدعية : هي التي القصد منها عبادة الله عند القبور ، كما يفعله كثير من الناس ؛ لظنهم أن للعبادة عندها مزية على العبادة في المساجد التي هي أحب البقاع إلى الله ، وقد صح عن النبي ﷺ في عدة أحاديث النهي عن الصلاة عند القبور واتخاذها مساجد .

والشركية : هي التي القصد منها تعظيم القبور ودعاؤها ، أو الذبح لها ، أو النذر لها أو غير ذلك من العبادات التي لا تصلح إلا لله ، فهذا حقيقة الشرك ، والأدلة عليه كثيرة جدًّا ، وقد تقدم بعضها ، ولكن لغلبة الجهل وخفاء العلم وبعد العهد بإرشاد النبوة التبس الأمر على أكثر الناس وخفي عليهم ما هو في غاية الوضوح لضعف البصائر وغلبة حكم العوائد ، كما قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه : « إنما تنقض عرى الإسلام عروة عروة إذا نشأ في الإسلام من لا يعرف الجاهلية »[(٣)].

فإن من لم يعرف الشرك ، وما ذمه القرآن وعابه ، وقع فيه وهو لا يدري ، ومثله قول ابن مسعود رضي الله عنه : « كيف أنتم إذا لبستكم فتنة يربو فيها الصغير ويهرم عليها الكبير ، وتتخذ سنة يجري الناس عليها ، فإذا غير منها شيء

---

(١) البخاري (٤٣٥، ٤٣٦)، ومسلم (٥٢٩- ٣١).

(٢) مسلم (٦٩٦) .

(٣) منهاج السنة النبوية ٢/ ٢٣٨.

قيل غيرت السنة ، قيل : متى ذلك يا أبا عبد الرحمن ؟ قال : إذا كثر قراؤكم ، وقل فقهاؤكم ، وكثرت أموالكم ، وقل أمناؤكم ، وتعلم لغير الدين »(١)

إذا عرف ذلك فمعلوم أن كل واحد منا مأمور بأن يصدق الرسول ﷺ فيما يخبر به ، ويطيعه فيما يأمر به وما ينهى عنه ، ولا سبيل إلى ذلك إلا بعد معرفة أمره وخبره ، ولا يكون ذلك إلا بالعلم النافع الموروث عن الرسول ﷺ ، ولم يوجب الله من ذلك على الأمة إلا ما فيه صلاحها في معاشها ومعادها ، وبإهمال ذلك تتعطل مصالحها وتفسد أمورها ، فما خراب العالم إلا بالجهل ولا عمارته إلا بالعلم ، وإذا ظهر العلم في محلة أو بلد قل الشر في أهلها ، وإذا خفي العلم ظهر الشر والفساد ، ومن لم يعرف ذلك فهو ممن لم يجعل الله له نورًا ، قال بعض العلماء : لولا العلم كان الناس كالبهائم . وقال : الناس إلى العلم أحوج منهم إلى الطعام والشراب ؛ لأن الطعام والشراب يحتاج إليه في اليوم مرتين أو ثلاثًا ، والعلم يحتاج إليه في كل وقت ؛ لأن العلم بمنزلة الروح ، بل قد سماه الله تعالى في كتابه روحًا ، كما قال تعالى : ﴿يُنَزِّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ بِٱلرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِۦ﴾ [النحل: الآية ٢] . وقال : ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَاۚ مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ نُورًا نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَاۚ﴾ [الشورى: الآية ٥٢] . فأخبر سبحانه وتعالى أن الوحي الذي أنزله على رسوله روح تحصل به الحياة ، ونور يحصل به الإضاءة ، ومن فقد هذه الروح فهو ميت ، ومن فقد هذا النور فهو في ظلمة ، ولهذا لما خفي العلم على كثير من الناس لم يفرقوا بين ما هو حق لله وما هو حق للمخلوق ، فإن حق الله هو العبادة ، وأما المخلوق فليس له في العبادة شيء ، وأكمل المخلوقين وأفضلهم نبينا محمد ﷺ ، وقد وسمه سبحانه بالعبودية في

---

(١) الدارمي (١٩١) ، والمستدرك (١٨٥) ، ومصنف ابن أبي شيبة (٤٨) ، ومصنف عبد الرزاق (٢٠٧٤١) ، والخطابي في العزلة (ص٨٤) .

أشرف مقاماته في القرآن؛ في مقام التحدي، وفي مقام الإسراء، وفي مقام التنزيل، وفي مقام الكفاية، وفي مقام الدعوة، قال تعالى: ﴿وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا﴾ [البقرة: الآية ٢٣].

وقال: ﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ﴾ [الإسراء: الآية ١]. وقال: ﴿تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِ﴾ [الفرقان: الآية ١]. وقال تعالى: ﴿أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ﴾ [الزمر: الآية ٣٦]. وقال: ﴿وَأَنَّهُ لَمَّا قَامَ عَبْدُ اللَّهِ يَدْعُوهُ﴾ [الجن: الآية ١٩].

وقال ﷺ: «ما أحب أن ترفعوني فوق منزلتي التي أنزلني الله»[١].

وقال: «لا تطروني كما أطرت النصارى ابن مريم إنما أنا عبد فقولوا عبد الله ورسوله»[٢].

فحق النبي ﷺ محبته المقدمة على محبة النفس والولد والوالد والأهل والمال وتصديقه وطاعته، وكذلك أولياء الله تجب محبتهم والإقرار بفضائلهم على اختلاف مراتبهم، وما يجريه الله على أيديهم من الكرامات وخوارق العادات، ولا ينكر كرامات الأولياء إلا أهل البدع، لكن يجب أن يفرق بين أولياء الله وغيرهم، فإن أولياء الله هم المتقون العاملون لله بطاعته كما قال تعالى في وصفهم: ﴿أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾ الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ﴾ [يونس: ٦٢، ٦٣].

فمن كان مؤمنًا تقيًا كان لله وليًا ليس إلا، فأما ما يفعله ويدعيه كثير من الناس الذين هم في الحقيقة من أولياء الشيطان لا من أولياء الرحمن، وما يدعونه من الدعاوى الكاذبة، فنفس دعواه أنه يفعل كذا وكذا كافية في بيان حاله وأنه ليس من أولياء الله كما هو مبين وموضح في كتب أهل العلم[٣] من أهل الحق،

---

(١) مسند أحمد ٣/ ١٥٣، والنسائي في الكبرى (١٠٠٧٧) من حديث أنس.
(٢) البخاري (٣٤٤٥) من حديث ابن عباس عن عمر.
(٣) في الأصل «وموضح، كما هو في كتب أهل العلم»

فيجب أن يفرق بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان ؛ لأن ذلك مما التبس فيه الأمر على كثير من الناس .

والحمد للّٰه أولًا وآخرًا ، وصلى اللّٰه على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم .

❁❁❁

رسالة الأستاذ رئيس القضاة بمكة المكرمة[1]

(١)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله على آلائه والشكر له على نعمائه، والصلاة والسلام على خير أنبيائه وآله وأصحابه، والسالكين على منواله.

إلى من يصل إليه هذا الكتاب من إخواننا المسلمين، كتب الله في قلوبهم الإيمان وأيدهم بروح منه ورضوان، آمين.

سلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

أما بعد، فإني أحمد إليكم الله الذي لا إله إلا هو على سوابغ نعمه، وجزيل بره وإحسانه وكرمه، وأعظم ذلك ما منَّ به علينا من إرسال الرسول الكريم، وإنزال القرآن العظيم، وما أكرمنا به من الهداية للإسلام الذي هو الدين القويم والصراط المستقيم، كما قال تعالى: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا﴾ [المَائدة: الآية ٣]. وجعل أمتنا خير أمة كما قال تعالى: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ ۗ وَلَوْ ءَامَنَ أَهْلُ ٱلْكِتَٰبِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُم ۚ مِّنْهُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ﴾ [آل عِمرَان: الآية ١١٠]. وفي الحديث عنه ﷺ: «أنتم توفون سبعين أمة أنتم خيرها وأكرمها عند الله عز وجل»[2]

ومن فضائل هذه الأمة أن جعل الله العلماء فيها كالأنبياء فيمن قبلها، وأخذ

(١) صحيفة أم القرى العدد ٥٧ الجمعة - ١٥ رجب ١٣٤٤هـ.

(٢) مسند أحمد ٥/ ٣ من حديث معاوية بن حيدة القشيري. وحسنه الشيخ الألباني. انظر حديث رقم (٢٣٠١) من «صحيح الجامع»

عليهم الميثاق كما أخذه على الأنبياء في قوله تعالى : ﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ لَتُبَيِّنُنَّهُۥ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُۥ﴾ [آل عِمران: الآية ١٨٧].

قال بعض السلف[(١)] : « ما أخذ الله على الجهال أن يتعلموا حتى أخذ على العلماء أن يعلموا »

فيا أيها العلماء نبهوا الغافل وأرشدوا الجاهل وبينوا للناس ما علمكم الله ، وها أنا أرفع صوتي بكلمتي ؛ ليتذكر الغافل ، ويسترشد الجاهل ، ولأستنهض العالم ، ولأستحث من في قلبه غيرة على الدين .

عباد الله ؛ عليكم بالاعتصام بحبل الله المتين واتباع الحق المبين عملًا بقوله تعالى وهو أصدق القائلين : ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٠٢﴾ وَٱعْتَصِمُواْ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُواْۚ وَٱذْكُرُواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَآءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِۦٓ إِخْوَٰنًا وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَاۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٠٣﴾ وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى ٱلْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ [آل عمران : ١٠٢- ١٠٤] . وقوله تعالى : ﴿ٱتَّبِعُواْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ وَلَا تَتَّبِعُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَۗ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ﴾ [الأعراف: الآية ٣] . وفي الحديث عن النبي ﷺ : « لا يؤمن أحدكم حتى يكون هواه تبعًا لما جئت به »[(٢)].

ومن حيث إن التعصب للمذاهب والمقالات والنحل والآراء قد فشا وظهر ، وبسببه خفيت الحقائق على الأكثر ، وجب على المسلمين عمومًا والعلماء خصوصًا ؛ حيث أخذ الله عليهم الميثاق ببيان ما علموه من الكتاب وحرم عليهم

---

(١) قائله أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه . انظر تفسير البغوي للآية (١٨٧) من سورة آل عمران .

(٢) ابن أبي عاصم في السنة (١٥) . وقال الألباني : ضعيف . (ظلال الجنة ١/ ٧) .

كتمانه ، أن يكشفوا عن هذه الحقيقة كشفًا يزيل اللبس ويرفض العصبية ودعوة الجاهلية ، كما أرشد إليه نبينا ﷺ في قوله لما سمع رجلًا يقول : يا للمهاجرين . وآخر يقول : يا للأنصار . فقال : « أبدعوى الجاهلية وأنا بين أظهركم ؟ ! »(١).

« فادعوا بدعوى اللَّه الذي سماكم المسلمين المؤمنين عباد اللَّه »(٢).

فها أنا أقول : يا للمسلمين ، يا للمؤمنين ، يا عباد اللَّه ارجعوا بنا إلى ما كان عليه سلفنا وقادتنا وأئمتنا في ديننا في الاعتقاد والعمل والسيرة ؛ لتصلح لنا أمورنا في عاجل دنيانا وأخرانا ونكون بذلك عبيداً للَّه حقيقة لا عبيد الأهواء والأغراض ، وبذلك يحصل لنا ما وعدنا ربنا من الكفاية في قوله تعالى : ﴿أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُۥ﴾ [الزُّمَر: الآية ٣٦] . وفي قراءة أخرى : (عباده)

وإنما يحصل كمالنا بأمرين عليهما مدار السعادة والفلاح ؛ أحدهما العلم النافع ، والثاني العمل الصالح ، وهما المذكوران في قوله تعالى : ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ﴾ [التوبَة: الآية ٣٣] . فالهدى هو العلم النافع ، ودين الحق هو العمل الصالح

والعلم ينقسم إلى قسمين ؛ فرض عين ، وفرض كفاية . وأوجب فرض العين هو العلم بمعنى لا إله إلا اللَّه الذي دلت عليه مطابقةً ؛ من إثبات العبادة للَّه وحده ، ونفيها عما سواه ، كما قال تعالى : ﴿إِلَّا مَن شَهِدَ بِٱلْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [الزخرُف: الآية ٨٦] . وقال : ﴿فَٱعْلَمْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ [محَمَّد: الآية ١٩].

فالعلم بمعنى الإلهية المنفية عما سوى اللَّه المثبتة للَّه هو أول واجب على المكلف ، ولهذا كان كل رسول أرسله اللَّه إلى قومه أول ما يقرع به أسماعهم ﴿ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ﴾ [الأعرَاف: الآية ٥٩].

---

(١) البخاري (٣٣٣٠) من حديث جابر رضي اللَّه عنه .

(٢) الترمذي (٢٨٦٣) من حديث الحارث الأشعري ، رضي اللَّه عنه .

إذا عرف ذلك فلابد من معرفة العبادة بحدها الجامع لها ، وبذلك تعرف أفرادها التي يجب إخلاصها لله ، كما قال تعالى : ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾ [البيّنة: الآية ٥] . فالحب ، والخشية ، والإجلال ، والدعاء ، والخوف ، والرجاء ، والتوكل ، وغيرها من العبادات ؛ كلها خالص حق الرب سبحانه ، ليس لأحد من المخلوقين فيها شيء ، ومن صرف منها شيئًا لغير الله كائنًا من كان فقد جعله شريكًا لله في عبادته ، وسواء اعتقد فيه أنه يملك الضر والنفع أو اعتقد(١) أنه شفيع له عند الله وأنه يقربه إلى الله ، أو فعل ذلك بحكم العادة والتقليد للأسلاف ، والأدلة من القرآن الكريم على ذلك واضحة ، فإن المشركين الأولين الذين بعث فيهم النبي ﷺ إنما كانوا يدعون من يدعون من دون الله ليقربوهم إلى الله أو يشفعوا لهم عند الله ، أو تقليدًا لآبائهم ، كما دل على ذلك قوله تعالى : ﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوۡلِيَآءَ مَا نَعۡبُدُهُمۡ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلۡفَىٰٓ﴾ [الزُّمَر: الآية ٣] . وقال : ﴿وَيَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمۡ وَلَا يَنفَعُهُمۡ وَيَقُولُونَ هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِۚ﴾ [يُونس: الآية ١٨] .

(٢)وقال تعالى : ﴿وَكَذَٰلِكَ مَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ فِي قَرۡيَةٖ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتۡرَفُوهَآ إِنَّا وَجَدۡنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٖ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّقۡتَدُونَ﴾ [الزّخرُف: الآية ٢٣] . فتبين بذلك أنهم لا يعتقدون فيهم الملك ولا الخلق ولا الرزق والتدبير ولا النفع والضر ، بل كانوا يعترفون بذلك كله لله ، كما قال تعالى : ﴿قُلۡ مَن يَرۡزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِ أَمَّن يَمۡلِكُ ٱلسَّمۡعَ وَٱلۡأَبۡصَٰرَ وَمَن يُخۡرِجُ ٱلۡحَيَّ مِنَ ٱلۡمَيِّتِ وَيُخۡرِجُ ٱلۡمَيِّتَ مِنَ ٱلۡحَيِّ وَمَن يُدَبِّرُ ٱلۡأَمۡرَۚ فَسَيَقُولُونَ ٱللَّهُۚ فَقُلۡ أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾ [يُونس: الآية ٣١].

فمن فهم ذلك علم وتيقن أن ما يفعله كثير من الناس عند المشاهد من

---

(١) في الأصل « واعتقد » .

(٢) تتمة المقال في صحيفة أم القرى العدد (٥٨) في ٢٢ رجب ١٣٤٤هـ .

الدعاء، والذبح، والنذر، والتبرك بها، والعكوف عندها، هو عين الشرك الذي نزل فيه القرآن، وقاتل النبي ﷺ عليه الناس امتثالًا لقوله تعالى: ﴿وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ كُلُّهُۥ لِلَّهِ﴾ [الأنفال: الآية ٣٩].

فأما البناء على القبور واتخاذها مساجد ونحو ذلك، فهذه الأمور من البدع المحرمة التي هي من أعظم وسائل الشرك، ولهذا نهى عنها ﷺ وغلظ النهي عنها ولعن فاعلها، كما في الحديث الصحيح الذي أخرجه مسلم[١]: «إن من كان قبلكم كانوا يتخذون القبور مساجد، ألا فلا تتخذوا القبور مساجد فإني أنهاكم عن ذلك». وفي الحديث الآخر عن عائشة رضي الله عنها قالت: «لما نزل برسول الله ﷺ طفق يطرح خميصة له على وجهه، فإذا اغتم بها كشفها، وقال وهو كذلك: لعنة الله على اليهود والنصارى اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد. يحذر ما صنعوا ولولا ذلك لأبرز قبره غير أنه خشي أن يتخذ مسجدًا»[٢]. وفي حديث علي الذي أخرجه مسلم في صحيحه[٣]: «لا تدع تمثالًا إلا طمسته، ولا قبرًا مشرفًا إلا سويته». فهذه إشارة إلى ما يتعلق بهذا المقام الذي هو تحقيق شهادة أن لا إله إلا الله.

فأما ما يتعلق بمعنى شهادة أن محمدًا رسول الله من تصديقه ومحبته وطاعته، والتقيد بشرعه في الأقوال والأفعال، فقد قال تعالى: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ﴾ [آل عِمرَان: الآية ٣١]. وقال تعالى: ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟﴾ [الحَشر: الآية ٧]. وقال ﷺ: «عليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين من بعدي تمسكوا بها وعضوا عليها

---

(١) مسلم (٥٣٢).

(٢) البخاري (٤٣٥، ٤٣٦)، ومسلم (٥٢٩).

(٣) مسلم (٩٦٩).

بالنواجذ وإياكم ومحدثات الأمور»[١] .

فسنة النبي ﷺ وسنة الخلفاء الراشدين هي ما كانوا عليه في الاعتقاد والعلم والعمل ، فعلينا البحث عن حقيقة ذلك والتمسك به ، وذلك بحمد الله مدون محفوظ في كتب علماء السنة وأئمتها ، وإنا ندعو جميع إخواننا المسلمين للرجوع إلى هذه الحقيقة ، ومن كان عنده إشكال في شيء من ذلك فالمرجع فيه إلى كتاب الله تعالى وسنة نبيه ﷺ ، كما قال تعالى : ﴿فَإِن تَنَٰزَعۡتُمۡ فِي شَيۡءٖ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمۡ تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۚ ذَٰلِكَ خَيۡرٞ وَأَحۡسَنُ تَأۡوِيلًا﴾ [النساء: الآية ٥٩] . فالرجوع إليه أحسن الأشياء عاقبة ومآلًا في العاجل والآجل ، ولهذا قال « ذلك خير وأحسن تأويلًا » .

وجميع ما ذكرناه هو مما لا خلاف فيه بين سلف الأمة وأئمتها ، فأما الاختلاف في فروع الدين في المسائل الاجتهادية فهو موجود ، وذلك بحمد الله إنما هو ناشئ عن اجتهاد المجتهدين في أدلة الشرع حسبما أدى إليه اجتهادهم ولا يوجب تفرقًا ولا اختلافًا مع اتحاد المعتقد في أصول الدين كما هو معلوم

فشاطرونا يا رجال الإصلاح في هذه الدعوة إلى الله ، كي ننهض[٢] جميعًا بأمتنا إلى ما يعلي شأنها ويعيد لها سيرتها الأولى ، فلن يصلح آخر هذه الأمة إلا بما صلح به أولها ، ولا يخفى أن كل خير في اتباع من سلف ، وكل شر في ابتداع من خلف ، مدوا يدكم إلينا ، فيد الله مع الجماعة .

هدانا الله جميعًا إلى سواء السبيل ، ووفقنا وإياكم إلى ما فيه النفع العميم والخير الجزيل ، وصلى الله على محمد خاتم النبيين وإمام المتقين وقائد الغر المحجلين وعلى آله وصحبه والتابعين .

---

(١) أحمد ٤/ ١٢٦، وأبو داود (٤٦٠٧)، والترمذي (٢٦٧٦) من حديث العرباض .

(٢) في الأصل : ننهج . ولعل الصواب ما أثبتناه .

حديث رئيس القضاة(١)

عثرنا(٢) في جريدة السياسة على حديث كان للأستاذ الشيخ عبد الله بن بليهد رئيس قضاة الحجاز مع الأستاذ أمين بك الرافعي أحببنا إثباته لما فيه من الفوائد .

قال الأستاذ الرافعي :

العقيدة الدينية للنجديين

سألته : إن الأقوال والآراء متضاربة فيما يتعلق بمذهب الوهابية والوهابيين ، ففريق يقول إن هذا المذهب ليس سوى مذهب سيدي أحمد بن حنبل ، وفريق لا يقول ذلك ويزعم أنه مذهب خامس ، وفريق يدعي أنه خليط من مذهب ابن حنبل ومن أحكام دينية أخرى ، فما هي الحقيقة في كل ذلك ؟

الجواب : أهل نجد هم جميعهم على مذهب الإمام أحمد بن حنبل ، فهم سلفية العقيدة (نسبة إلى السلف) حنابلة المذهب . أما تسميتهم بالوهابية وتسمية مذهبهم بالوهابية فليست من عملهم ، وإنما هي من عمل خصومهم الذين أرادوا تنفير الناس منهم بإيهامهم الناس أن هذا مذهب جديد يخالف المذاهب الأربعة .

أما محمد بن عبد الوهاب الذي كان اسمه من أسباب تسمية النجديين بالوهابيين ، فهو عالم من علماء نجد اتصل بدولة آل سعود فصار له قبول عندهم .

وقواعد التوحيد لدينا مبسوطة في كتب المذهب ، فيما يتعلق بالتوحيد

---

(١) صحيفة أم القرى العدد ٨٨ في ١١ صفر ١٣٤٥ هـ .

(٢) الكلام لصحيفة أم القرى .

العلمي ؛ نقبل آيات الصفات وأحاديث الصفات على صورتها الحقيقية بغير أن نتعرض لها بتأويل .

فاستواء اللّٰه على العرش ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ ٱسۡتَوَىٰ﴾ [طه: الآية ٥] . مثلًا ، لا نؤوله بأنه الاستيلاء أو القهر كما يرى البعض ، وإنما نسلم به كما هو ؛ عاملين بمذهب الأئمة الذي لخصه الإمام مالك في قوله : « الاستواء معقول والكيف مجهول والإيمان به واجب والسؤال عنه بدعة »(١) .

فالكلام في الصفات فرع من الكلام في الذات فهو ممنوع . وكما أنه سبحانه وتعالى لا تشبَّه ذاته بذوات المخلوقين فكذلك صفاته لا تشبه بصفات المخلوقين

أما فيما يتعلق بالتوحيد العملي ؛ فمذهبنا أن العبادة حق اللّٰه تعالى دون سواه ، فلا يجوز صرف شيء منها لغيره كائنًا من كان ، لا لملك ولا لنبي ولا لولي ولا لغيرهم .

فمن سوى بين اللّٰه تعالى وبين أحد من المخلوقين في أي نوع من أنواع العبادات كان عمله شركًا .

سألناه : وماذا ترون في التوسل بالأولياء والأنبياء ؟

فأجاب : إن التوسل مبتدع وليس شركًا ، وأهل نجد يمنعون ذلك ويعتبرونه منكرًا .

أما الوسيلة بالعبادات ، وهل تصل إلى الميت أو لا ، ففيه كلام ؛ لأن العبادات ثلاثة أنواع ؛ بدنية ومالية ومركبة منهما

فالعبادة البدنية كالصلاة ، والتلاوة ، والذكر ، والدعاء ، فيها خلاف

بالنسبة للصلاة ، إذ يقول البعض : إن صلاة الغير لا تصل إلى الميت ، ونقول نحن : إنها تصل ؛ عملًا بعبارة بعض فقهاء الحنابلة : « كل قربة فعلها

(١) « عقيدة السلف أصحاب الحديث » للصابوني (ص ٣٩) .

العبد وأهدى ثوابها للميت توصل إليه »[1] .

أما التلاوة ، والذكر ، والدعاء ، فإنها تصل .

وأما العبادة المالية كالصدقة ، فإنها تصل

والعبادة المركبة منهما كالحج ، فإنها تصل أيضًا .

زيارة القبور

سألناه عن زيارة القبور ؟

فأجاب :هذه الزيارة ثلاثة أقسام :

أولًا : زيارة شرعية ؛ وهي التي يقصد منها تذكرة الآخرة ، والإحسان إلى الميت بالدعاء له ، وإحسان الزائر إلى نفسه ، ومثل هذه الزيارة سنة .

ثانيًا : الزيارة البدعية ؛ والقصد منها عبادة الله عند القبور بالصلاة ونحوها ، بحيث يعتقد أن للعبادة عندها مزية على العبادة في المساجد التي هي أحب البقاع إلى الله .

ثالثًا : الزيارة الشركية ؛ والقصد منها دعاء الموتى لقضاء الحاجات ، وتفريج الكربات .

بناء القبور والبناء على القبور

سألناه : عن القبور وبنائها وما يبنى عليها ؟

فأجاب : بناء القبور نفسها لا يجوز رفعها أكثر من شبر ، واختلف العلماء أن يكون مسطحًا أو مسنمًا ، ولا يجوز تجصيصها ، ولا الكتابة عليها ، وإنما يجوز

---

(١) قال في « الإنصاف » للمرداوي (٢٥٨/٦ ت/د.التركي) : (قوله - أي صاحب المقنع - « وأي قربة فعلها وجعلها للميت المسلم نفعه ذلك » وهو المذهب مطلقا وعليه جماهير الأصحاب وقطع به كثير منهم وهو من المفردات) .

وضع حجر عليها لتمييزها .

أما البناء على القبور ، فإنه ممنوع منعًا باتًا ؛ لأن النبي ﷺ نهى عنه[١] . وإذا أقيم فوق القبر مسجد فلا يجوز الصلاة فيه .

[٢]ومن أجل ذلك كان قبر النبي عليه الصلاة والسلام ليس داخلًا في الحرم النبوي ، وإنما هو موجود في بيت عائشة ، ومن المعروف أن النبي عليه الصلاة والسلام عند اعتكافه لم يكن يدخل بيت عائشة ، بل كان يعتكف في المسجد نفسه .

في شارع المسعى

سألناه : وهل ترضون عن الحالة الحاضرة في شارع المسعى من حيث كونه قذرًا ومملوءًا بدكاكين الباعة وبالكلاب الضالة ؟

فأجابنا : إن شارع المسعى كان عرضه واسعًا في الأصل ، فما زال الناس يغتصبون أراضيه شيئًا فشيئًا حتى ضاق وصار عرضه إلى هذا المقدار الموجود الآن

فيجب إزالة هذا الاغتصاب وإزالة دكاكين الباعة منه ومنع دخول الكلاب فيه حتى يصبح خاصًا بالسعي ، وسنعرض هذا الأمر على المؤتمر الإسلامي .

في الحرم المقدس

سألناه : وهل ترضون عن حالة الحرم المقدس من حيث نوم الحجاج فيه بملابسهم القذرة ومأكولاتهم المتعفنة الفاسدة ؟

---

(١) فعن جابر رضي اللّه عنه قال : « نهى رسول اللّه ﷺ أن يجصص القبر ، وأن يقعد عليه ، وأن يبنى عليه » أخرجه مسلم (٢٢٨٩)

(٢) تتمة المقال في صحيفة أم القرى ، العدد ٨٩ في ١٣٤٥/٢/١٨هـ

فأجاب : إن الواجب منع اتخاذ الحرم محلًا لتناول الطعام ، أما النوم فإننا لا نمنعه إلا إذا ترتب عليه مفسدة .

وكان الأستاذ الشيخ حافظ وهبة قد جاء في هذه اللحظة وحضر الحديث في هذه المسألة فقال لفضيلة الرئيس : « ولكن نوم الحجاج في موسم الحج بالحرم قد ترتب عليه ضرر » .

فأجاب فضيلته : « إذن يمكن منع النوم في أثناء موسم الحج دفعًا للضرر المترتب عليه » .

المرأة والحجاب

وهنا كان الحديث قد انتهى فاستطرد فضيلة محدثنا من ذلك إلى اطلاعنا على أسئلة وردت عليه من بيروت ليجيب عنها ، وكان منها سؤال خاص بالمرأة وحجابها ، فطلبنا إليه أن ننقل السؤال والجواب عنه ؛ لأنه يتعلق بمسألة هي مثار الجدل في مصر .

وهذا ملخص السؤال : ما رأيكم في رفع الحجاب وكشف المرأة وجهها وكفيها في الطرقات والمجتمعات العامة ؟

وهذا نص ما أجاب به :

إن ذلك ممنوع ؛ خشية الفتنة لقوله تعالى : ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّأَزۡوَٰجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَآءِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ يُدۡنِينَ عَلَيۡهِنَّ مِن جَلَٰبِيبِهِنَّۚ ذَٰلِكَ أَدۡنَىٰٓ أَن يُعۡرَفۡنَ فَلَا يُؤۡذَيۡنَۗ﴾ [الأحزاب: الآية ٥٩] .

ولحديث عائشة قالت : « كان الركبان يمرون بنا ونحن مع رسول الله ﷺ محرمات ، فإذا حاذونا سدلت إحدانا جلبابها من رأسها على وجهها »[١] .

---

(١) أبو داود (١٨٣٣) .

وإذا كان هذا في حالة الإحرام ففي غيرها أولى .

وإلى هنا انتهى الحديث ، وطلبنا إليه أن يسمح لنا بنشر أقواله فأذن لنا بعد اطلاعه عليها .

أمين الرافعي

⊛⊛⊛

حقيقة

الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر(١)

الحمد لله الذي نزل الكتاب وهو يتولى الصالحين، القائل في خطاب نبيه الأمين: ﴿خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾ [الأعراف: الآية ١٩٩]. أحمده سبحانه وأسأله أن يجعلنا من حزبه المفلحين، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له الملك الحق المبين، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله الصادق الأمين صلى الله عليه وعلى آله وأصحابه ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين وسلم تسليمًا.

أما بعد؛ فإن الله سبحانه خلق عباده ليعبدوه، وأرسل الرسول ليتبعوه، وأنزل عليه الكتاب ليتدبروه ويفهموه، وبين فيه أمره ليتبعوه ونهيه ليجتنبوه؛ وإن من أهم ذلك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر الذي لا يقوم الدين إلا به، وبه كانت هذه الأمة خير الأمم وأكرمها على الله عز وجل كما قال تعالى: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ﴾ [آل عِمرَان: الآية ١١٠] الآية. وقال تعالى: ﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى ٱلْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ [آل عِمرَان: الآية ١٠٤]. فأمر سبحانه أن تكون أمة؛ يعني طائفة من الناس، قائمة بالدعوة إلى الخير والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فدخل في ذلك نصب الإمام الأعظم الذي يقيم للناس أمر دينهم ودنياهم، ومن ذلك نصبه القضاة والمفتين والمدرسين والدعاة إلى الله تعالى والآمرين بالمعروف والناهين عن المنكر، وكلما كان الناس بهذا الأمر أقوم كان أمرهم أصلح وأتم، وكلما حصل من التقصير والخلل فيه حصل

---

(١) صحيفة «أم القرى» العدد (١١١) الجمعة ٢٤ رجب سنة ١٣٤٥ هـ

من الفساد بحسبه، ولا يظلم ربك أحدًا، فإن العقوبات التي تحدث في الأرض هي بسبب الذنوب والمعاصي كما قال تعالى: ﴿ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِي ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى ٱلنَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ ٱلَّذِى عَمِلُوا۟ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [الرُّوم: الآية ٤١].

والأدلة من الكتاب والسنة في الحث على الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والوعيد الشديد والتهديد الأكيد في تضعيفه كثيرة جدًّا، وهي معلومة مشهورة، والمقصود هنا بيان المعروف ما هو، والمنكر ما هو، وبيان من يجب عليه، وكيفية الأمر والنهي. فإن كثيرًا من الناس لا يعرف المعروف ولا المنكر فضلًا عن أن يأمر أو ينهى

ومن الناس من يكون له غيرة دينية تحمله على الأمر والنهي لكن ليس له بصيرة فيما يأمر به وما ينهى عنه؛ وذلك بسبب ظهور الجهل وخفاء العلم، وغلبة العوائد التي هي أعظم أسباب رد دعوة الرسل عليهم الصلاة والسلام، كما روى عن ابن مسعود رضي الله عنه أنه قال: «كيف أنتم إذا لبستكم فتنة، يربو فيها الصغير، ويهرم عليها الكبير، وتتخذ سنة يجري الناس عليها، فإذا غير منها شيء قيل: غيرت السنة. قيل: متى ذاك يا أبا عبد الرحمن؟ قال: إذا كثر قراؤكم، وقل فقهاؤكم، وكثرت أموالكم، وقل أمناؤكم، وتعلم لغير الدين»[١]. قال الشعبي[٢]: لا تقوم الساعة حتى يكون الجهل علمًا، والعلم جهلًا.

وإذا كان الأمر كذلك تكلم الجاهل وسكت العالم أو عدم بالكلية، وهذا من انقلاب الحقائق في آخر الزمان.

---

(١) الدارمي (١٩١)، والمستدرك (١٨٥)، ومصنف ابن أبي شيبة (٤٨)، ومصنف عبدالرزاق (٢٠٧٤١)، والخطابي في العزلة ص ٨٤.

(٢) الدر المنثور، عند تفسير آية (١٨) من سورة (محمد). جامع العلوم والحكم، عند شرح الحديث الثاني.

إذا عرفت ذلك فاعلم أن المعروف جامع لكل ما عرف عن طاعة الله والتقرب إليه ، والإحسان إلى الناس بكل ما ندب إليه الشرع ، والمنكر ضده .

والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فرض عين على كل من علم حكمه ولم يقم به سواه ، وأمن على نفسه

قال في « الآداب الكبرى » : الأمر بالمعروف -وهو كل ما يؤمر به شرعًا- والنهي عن المنكر- وهو كل ما ينهى عنه شرعًا- فرض عين على من علمه وشاهده وعرف ما ينكر ، ولم يخف سوطًا ولا عصى ولا أذى . وإن وجد من يقوم به سواه فهو فرض كفاية . انتهى[١] .

وما اختص علمه[٢] بالعلماء اختص إنكاره بهم وبمن يأمرونه به[٣] من الولاة والعوام دون غيرهم

وإن دعا الإمام العامة إلى شيء ، وأشكل عليهم ، لزمهم سؤال العلماء ، فإن أفتوا بوجوبه قاموا به ، وإن أخبروا بتحريمه امتنعوا منه ، وإن قالوا : هو مختلف فيه وقال السلطان : يجب . لزمهم طاعته ، كما يجب طاعته في الحكم

ومن لم يعلم أن الفعل الواقع من أخيه المسلم جائز في الشرع أم غير جائز ، فلا يحل له أن يأمر ولا ينهى

فأما ما ورد في الحديث الصحيح « من رأى منكم منكرًا فليغيره بيده ، فإن لم يستطع فبلسانه ، فإن لم يستطع فبقلبه وذلك أضعف الإيمان »[٤] . فإنه يدل على أن من رأى المنكر وقدر على تغييره بيده ، وجب عليه ذلك ، فإن لم يستطع يعني لم يقدر على تغييره بيده وجب عليه إنكاره بلسانه ، فإن لم يستطع يعني لم يقدر

---

(١) « الآداب الشرعية » لابن مفلح (١/١٧٤) .

(٢) سقطت « علمه » من الأصل . والمثبت من « الآداب الشرعية » (١/١٨٢) .

(٣) سقطت « به » من الأصل . والمثبت من « الآداب الشرعية » (١/١٨٢) .

(٤) أخرجه مسلم (٤٩) من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه .

على الإنكار بلسانه وجب عليه إنكاره بقلبه ، وذلك أضعف الإيمان ، وإذا لم ينكر المنكر بقلبه فهو دليل على عدم إيمانه ؛ إذ الإيمان يلزم منه إنكار المنكر .

ومعنى تغيير المنكر باليد منع من يفعله من فعله ، وإن كان ذلك مما لا حرمة له كآلة لهو أو آلة خمر أو نحو ذلك ، أتلفه ولا ضمان في إتلافه .

فأما إقامة الحدود وتعزير من يفعل المنكر ، فليس لآحاد الناس الافتيات على ولاة الأمور فيه ، فإن إقامة الحدود يحتاج إثباتها إلى حكم حاكم ، وكذلك التعزيرات التي تختلف باختلاف الأحوال والأفعال التي يعزر عليها ويدخلها الاجتهاد ، هي وظيفة الإمام أو نائبه كما كان النبي ﷺ وخلفاؤه والأئمة بعدهم هم الذين يتولون ذلك ، وهذا من أكبر مقاصد الولاية .

قال ابن القيم[1] رحمه الله تعالى : ولما كان الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر لا يتم إلا بالعقوبات الشرعية ، فإن الله يزع بالسلطان ما لا يزع بالقرآن ، وإقامة الحدود واجب على ولاة الأمور . والعقوبة تكون على فعل محرم أو ترك واجب .

والعقوبات -كما يعلم- منها مقدر وغير مقدر وتختلف مقاديرها ، وأجناسها ، وصفاتها في التعزير باختلاف الجرائم وكبرها وصغرها ، وبحسب حال المذنب في نفسه .

والتعزير منه ما يكون بالتوبيخ والزجر والكلام ، ومنه ما يكون بالحبس ، ومنه ما يكون بالنفي عن وطنه ، ومنه ما يكون بالضرب .

وإذا كان على ترك واجب كأداء الديون ، والأمانات ، والزكاة ، والصلاة ، فإنه يضرب مرة بعد مرة ، ويفرق بالضرب عليه يومًا بعد يوم ، حتى يؤدي الواجب .

وإذا كان ذلك على جرم ماض فعل منه مقدار الحاجة .

---

(١) « الطرق الحكمية » (ص ٣٨٤) .

وليس لأقله حد ، وقد تقدم الخلاف في أكثره وأنه يسوغ بالقتل إذا لم تدفع المفسدة إلا به ؛ كقتل المفرق لجماعة المسلمين ، والداعي إلى غير كتاب الله وسنة رسوله . وفي الصحيح عن النبي ﷺ : « إذا بويع لخليفتين فاقتلوا الآخر منهما »[١]. وقال : « من جاءكم وأمركم على رجل واحد يريد أن يفرق جماعتكم فاضربوا عنقه بالسيف كائنًا من كان »[٢]. انتهى .

واعلم أن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر تارة يحمل عليه رجاء ثوابه ، وتارة خوف العقاب من تركه ، وتارة الغضب لله على انتهاك محارمه ، وتارة النصيحة للمؤمنين ، والرحمة لهم ، ورجاء إنقاذهم مما أوقعوا أنفسهم فيه من التعرض لعقوبة الله وغضبه في الدنيا والآخرة ، وتارة يحمل عليه إجلال الله وإعظامه ومحبته ، وأنه أهل أن يطاع فلا يعصى ، ويذكر فلا ينسى ، ويشكر فلا يكفر ، وأنه يفتدى من انتهاك محارمه بالنفوس والأموال ، كما قال بعض السلف[٣] : وددت أن الخلق كلهم أطاعوا الله وأن لحمي قرض بالمقاريض . وكان عبد الملك بن عمر بن عبد العزيز[٤] يقول لأبيه : وددت أني غلت بي وبك القدور في الله تعالى . ومن لحظ هذا المقام والذي قبله هان عليه كل ما يلقى من الأذى في الله تعالى ، وربما دعا لمن آذاه كما قال ذلك النبي ﷺ لما ضربه قومه ، فجعل يمسح الدم عن وجهه ويقول : « رب اغفر لقومي فإنهم لا يعلمون »[٥] .

وبكل حال فتبين أن الرفق في الإنكار مطلوب . قال سفيان الثوري : لا يأمر

(١) مسلم (١٨٥٣) من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه .
(٢) مسلم (١٨٥٢) من حديث عرفجة رضي الله عنه .
(٣) هو زهير بن نعيم البابي . انظره في ترجمته في « تهذيب التهذيب »
(٤) أبو نعيم في « الحلية » (٥/٢٨١) وانظر « جامع العلوم والحكم » لابن رجب (١/٤٤٥) تحت حديث (٤) .
(٥) « الورع » لأحمد بن حنبل ص ١٥٥، والبخاري في « الأدب المفرد » حديث رقم (٧٥٧)، وحسنه الألباني .

بالمعروف ولا ينهى عن المنكر إلا من كان فيه ثلاث خصال ؛ رفيق بما يأمر رفيق بما ينهى ، عدل بما يأمر عدل بما ينهى ، عالم بما يأمر عالم بما ينهى . وقال أحمد : الناس يحتاجون إلى مداراة ورفق ، الأمر بالمعروف بلا غلظة ، إلا رجل معلن بالفسق ، فلا حرمة له . قال : وكان أصحاب ابن مسعود إذا مروا بقوم يرون منهم ما يكرهون يقولون : مهلًا رحمكم اللّٰه ، مهلًا رحمكم الله(١) . واللّٰه أعلم ، وصلى اللّٰه على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم .

❁❁❁

(١) «الآداب الشرعية» لابن مفلح ٢١٤/١) وانظر «جامع العلوم والحكم» عند شرح الحديث (٣٤) .

الشيخ

عبد الظاهر أبو السمح رحمه الله

مقالات الشيخ عبد الظاهر أبو السمح[(١)]

تفسير القرآن الحكيم[(٢)]

للأستاذ المفضال العلامة السيد محمد رشيد رضا

أنزل اللَّه تعالى كتابه المبين وحث على تدبره فقال تعالى: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ

---

(١) عبد الظاهر بن محمد نور الدين أبو السمح، العالم الأزهري، أحد كبار أئمة الدعوة إلى السنة في مصر، والإمام والمدرس بالحرم المكي، ولد رحمه اللَّه ببلدة (تلين) بمصر، في عام ١٣٠٠هـ، أتم حفظ القرآن على يد والده في التاسعة من عمره، ثم التحق بالأزهر فقرأ الروايات السبع، وزادت همته في حفظ السنة، واهتم بالتفسير والفقه واللغة وغيرها، وبعد سنين من طلبه للعلم اتصل بعلامة شنقيط العالم محمد أمين الشنقيطي -رحمه الله- فلامس الحق قلبه، فاستنار به إلى العقيدة السلفية، فعكف على دراسة كتب ابن تيمية وابن القيم وغيرهما.. فسلك سبيل الحق وتابع الدليل، وساعده في ذلك طلبه للقرآن والسنة، ونفسه المتجردة للحق..

وقد عمل بمدرسة بالسويس، ثم عاد للقاهرة وطلب العلم بمدرسة در الدعوة، ثم عين مدرسًا بالإسكندرية فقام يدعو إلى توحيد اللَّه، وكانت دعوته سببًا في رفع الجهل عن كثير من الناس، وكان المؤسس لأنصار السنة لمحمدية بالإسكندرية.. وممن استنار بدعوته العالم الأزهري المُحَدِث محمد عبد الرزاق حمزة.

وبعد هذا الجهد الكبير، عرفته الدنيا كعالم ناصح، فطلبه الملك عبد العزيز -رحمه الله- ليكون إمامًا للحرم المكي، ومدرسًا به وبدار الحديث بمكة المكرمة وكان ذلك في عام ١٣٤٥هـ.. فأجاب الدعوة، وكان سنده وعضيده بعد اللَّه تلميذه وصاحبه وصهره الشيخ محمد عبد الرزاق حمزة، فقاما بالدعوة في الحجاز خير قيام بنشر الحق تدريسا ومناصحة وتأليفا.. وقد ألف الشيخ عبد الظاهر عددا من الرسائل منها: «الرسالة المكية في الرد على الرسالة الرملية» و «حياة القلوب بدعاء علام الغيوب» و«الأولياء والكرامات».

وما زال على هذه الحال حتى توفاه اللَّه بمصر عام ١٣٧٠هـ، غفر اللَّه له ورحمه. انظر ترجمته في «الأعلام» (٤/ ١١)، «سير وتراجم» (٢٥٧) لعمر عبد الجبار« المبتدأ والخبر لعلماء في القرن الرابع عشر» (٢/ ٣٧١).

(٢) مجلة الإصلاح - العدد الثالث عشر - ١/٩/١٣٤٧هـ.

إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ﴾ [ص: الآية ٢٩] ، وقال عز من قائل : ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ﴾ [النساء: الآية ٨٢] ، وقال : ﴿أَفَلَمْ يَدَّبَّرُواْ ٱلْقَوْلَ﴾ [المؤمنون: الآية ٦٨] ، وأمر تعالى باتباعه فقال : ﴿وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ مُبَارَكٌ فَٱتَّبِعُوهُ وَٱتَّقُواْ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ [الأنعام: الآية ١٥٥] ، وقال : ﴿ٱتَّبِعُواْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ وَلَا تَتَّبِعُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ﴾ [الأعراف: الآية ٣] .

ولا ريب أن الاتباع لا يكون إلا بعد التدبر والتفقه في المعاني ، ومعرفة ما يريد المتكلم جل وعلا . وقد كان السلف الصالح رضي اللَّه عنهم يتلون كتاب اللَّه ، ويتدارسونه بينهم ويتدبرونه ويعملون به ؛ أفرادًا وحكومات ، يحلون حلاله ويحرمون حرامه ، ويستنبطون منه كل ما يحتاجون إليه من أحكام في شئونهم الخاصة والعامة في حالتي اليسر والعسر والسلم والحرب ، متقيدين بما وردت السنة مخصصة لعامة ومبينة لما أجمل فيه ، وفيما عدا ذلك كان بابه واسعًا لمن أراد أن يفهم ويعمل .

فخلف من بعدهم خلف جمدت قرائحهم وسفهوا أنفسهم فلم يتدبروه ، وإن قرأوه قرأوه ألفاظًا على سبيل التبرك . والبركة ليست إلا في تدبره واتباعه . وليتهم وقفوا عند هذا الحد بل تسفلوا حتى صاروا إلى دركة يحرمون قراءته تدبرًا ، بل يكفرون من يتدبره ويدعو الناس إلى تدبره والعمل به .

والقرآن أنزل لهداية الناس جميعًا إلى قيام الساعة ؛ لأنه أنزل على خاتم النبيين وقال اللَّه فيه : ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴾ [الحجر: الآية ٩] .

وإذا كان القرآن كذلك ولا كتاب بعده ، ولا نبي يأتي بعد الذي أنزل عليه ، وكان معلومًا أن الأزمنة والأمكنة تختلف والحوادث دائمًا في تجدد مطرد ، لم يعقل أن يترك اللَّه الناس سدى من غير أن يبعث إليهم كل حين من يجدد لهم أمر دينهم كما في الحديث . ويرفع لهم راية السلف الصالح ، ويضرب لهم الأمثال

العلمية والعملية ، ويريهم كيف يكون فهم القرآن ، وكيف كان هو صالحًا لكل زمان ومكان ، وأنه ما من جيل أو أمة أو فرد إلا وفي القرآن الحكيم نبؤه وحكمه وما له وما عليه ، وما يلزمه في مرضه وصحته ، وقوته وضعفه ، وعسره ويسره ، وحضره وسفره ، وحياته وموته ، ودنياه وآخرته .

ولقد كان تفسير أستاذنا السيد محمد رشيد رضا صاحب المنار - حفظه اللَّه وأمد في أجله - من أحسن التفاسير التي يحتاج إليها أهل هذا العصر في بيان الأحكام المناسبة ؛ ذلك لأنه راعى في ذلك طريقة القران نفسه في الوعظ والتذكير ، غير معرج على ما يلهي الناس من الاصطلاحات ما ينفر طائر التفكير . وكم قد أهاب بالأمم الإسلامية وحثهم على الرجوع إلى كتابهم وتدبره والعمل به ، وكشف لهم اللثام عن مخدرات معانيه ، وأراهم أنفسهم في مرآة وصفه ، وكم بكى عليهم وأبكى ، وحذر وأنذر ، ووعظ وذكر .

هذا بعض ما يقال في تفسير السيد وعلمه .

واللَّه أسأل أن يعفو عنا وعنه ، وأن يبارك لنا ولجميع المسلمين فيه ، ويؤيده ويسدده ويكبت أعداءه للدين وحساده .. والسلام .

❂❂❂

الدعوة إلى الله تعالى(١)

قال الله تعالى : ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَقَالَ إِنَّنِى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ [فصّلت: الآية ٣٣] ، وقال تعالى : ﴿ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ ۖ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ﴾ [النّحل: الآية ١٢٥] ، ﴿قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى ۖ وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ [يوسف: الآية ١٠٨] ، ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ ۖ﴾ [النّحل: الآية ٣٦] ، ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ﴾ [الأنبياء: الآية ٢٥] ، ﴿رَّبَّنَآ إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِى لِلْإِيمَٰنِ أَنْ ءَامِنُوا۟ بِرَبِّكُمْ فَـَٔامَنَّا ۚ﴾ [آل عمران: الآية ١٩٣] :

الدعوة إلى الله تعالى أشرف الأعمال وأزكى الخصال ، وكفى بها فضلًا أنها وظيفة الرسل الكرام عليهم الصلاة والسلام ، ووظيفة الذين أورثهم الله علمهم واتباع سنتهم .

ومن أجل الدعوة إلى الله أنزلت الكتب وبعثت الرسل وكتب الجهاد وخلقت الجنة والنار وكان الموت والحياة ، والدنيا والآخرة ، والأرض والسموات .

لم يكن الله تعالى ليخفى على ذوي البصائر والعقول حتى يحتاج الناس إلى من يعرفهم به ، ولا ليقيم الدليل على وجوده لولا ذلك الشيطان الرجيم الذي اجتالهم عن فطرتهم ولولا تلك الشهوات التي ركبت فيهم فحجبت بصائرهم ورانت على قلوبهم ، وما كان لعبيد أذلاء فقراء أن يعصوا سيدهم ومليكهم ويتمردوا على أوامره وكتبه ، وهو يحسن إليهم وينعم عليهم لولا الأمل الكاذب والجهل المركب والاغترار بالدنيا وزينتها وظنهم الخاطئ أن لن يبعث الله أحدًا .

---

(١) مجلة الإصلاح - العدد الأول - ١٥/٢/١٣٤٧هـ.

ففطرة اللَّه التي فطر الناس عليها هي معرفة ربهم والإذعان له جل شأنه بالعبودية .

ولكن لما كانت هذه الصوارف التي قدمنا ذكرها من أعظم ما يحول بين المرء وسعادته ويصرفه عن التفكير في عاقبة أمره اقتضت الحكمة الإلهية أن يرسل اللَّه لعباده رسلًا منهم يبصرونهم بها ويحذرونهم منها ويخوفونهم عاقبة الركون إليها ويدعونهم إلى ربهم الذي تشهد بوجوده وربوبيته فطرهم ووجداناتهم فضلًا عن آياته الكونية الماثلة لأعينهم والتي تغشاهم من فوقهم ومن تحت أرجلهم وتملأ أسماعهم وأبصارهم ، ما بين مضيئة مشرقة ، ومظلمة دامسة ، وجامدة شامخة ، ومتحركة متلاطمة ، تملأ القلب روعة وجلالًا ، والعين بهجة وجمالًا .

بعث اللَّه رسله إلى عباده يدعونهم إليه ، ويذكرونهم بنعمه لديه ، وإحسانه إليهم . مبينين لهم عن ربهم ما يحتاجون إليه في سعادتهم الدنيوية والأخروية . قائلين لهم : اعبدوا اللَّه وحده لا إله إلا هو ولا يستحق العبادة سواه ، ضاربين لهم الأمثال ، مالئين أسماعهم بالمواعظ ، مجلين لهم العبر في أجلى مظاهرها ، مطلعين عليهم شمس الحجج في رابعة نهارها ﴿لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾ [النِّساء: الآية ١٦٥] .

الدعاة قسمان : قسم يدعو إلى الرحمن وقسم يدعو إلى الشيطان :

فدعاة الرحمن هم أنبياء اللَّه ورسله وأولياؤه الصالحون .

والدعاة إلى الشيطان هم الجهلة الضالون الذين نسوا اللَّه فأنساهم أنفسهم أولئك هم الفاسقون .

ينبغي أن نزيدك بيانًا وننعت لك كل قسم حتى كأنك تراه ؛ لعل اللَّه أن ينير بصيرتك ويجعلك من الداعين والمرشدين إلى سبيله :

الدعاة إلى اللَّه قوم عرفوا أنفسهم أنهم عبيد لربهم فآمنوا به وأحبوه وعظموه ،

وعرفوا أنه هو المستحق للعبادة ، ورأوا كثيرًا من إخوانهم في الإنسانية غارقًا في بحر الهوى والضلال ، يخضع لغير اللَّه ويذل لسواه ، فخلعوا ثياب رفاهيتهم عنهم وألقوا بأنفسهم في تلك الأمواج المتلاطمة لينتشلوا أولئك الغرقى وقد مدوا إليهم حبل النجاة ، فمنهم من اعتصم به فنجا ومنهم من أبى فكان من الهالكين .

جاءوا إلى عبدة القبور حيث يذبحون عندها ويدعون أصحابها وينذرون لهم ويهتفون باسمهم في الشدة والرخاء فقالوا لهم : مهلا مهلا : كيف تدعون من لا يسمع ولا يبصر ، ولا يغنى عنكم شيئًا ؟ أما سمعتم قول اللَّه تعالى : ﴿ٱدْعُوا۟ رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً﴾ [الأعراف: الآية ٥٥] .

وقوله جل جلاله : ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِىٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ [غافر: الآية ٦٠] ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ ۖ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾ [البقرة: الآية ١٨٦] .

وقوله تعالى : ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ عِبَادٌ أَمْثَالُكُمْ ۖ فَٱدْعُوهُمْ فَلْيَسْتَجِيبُوا۟ لَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ [الأعراف: الآية ١٩٤] .

وهذا تهكم بالداعين غير اللَّه تعالى . وقد نهى تعالى عن دعاء غيره فقال : ﴿وَلَا تَدْعُ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ ۖ فَإِن فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذًا مِّنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [يونس: الآية ١٠٦] .

ثم إن ذبحكم ونذركم لأصحاب القبور عبادة أيضًا لا تنبغي إلا للَّه الذي خلقكم ورزقكم ، فهو سبحانه أحق بأن يكون هذا كله لوجهه تعالى ، يا قوم إن اللَّه الذي خلقكم ورزقكم هو المستحق لعبادتكم ، فادعوه وحده وتوكلوا عليه وحده ، وخافوه ولا تخافوا غيره . اللَّه هو الذي يجيب دعاء المضطر منكم إذا دعاه ويكشف السوء ويقضى لكم جميع حاجاتكم ؛ لأنه حي يسمع ويبصر ويعلم وهو على كل شيء قدير .

أما الذين تدعونهم فليسوا بأحياء ولا يسمعون ﴿وَلَوْ سَمِعُوا۟ مَا ٱسْتَجَابُوا۟ لَكُمْ ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ ۚ وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ﴾ [فَاطِر: الآية ١٤] .

يا قومنا أرأيتم لو كان لأحدكم عبد أو خادم وكلفه أن يعمل في حديقته أو مزرعته ، وتكفل له بطعامه وكسوته وكل ما يحتاجه في معاشه ، ووعده أجرًا جزيلًا إن هو أحسن الخدمة ونصح لسيده في المهنة ، ثم ذهب هذا الخادم يعمل في مزرعة عدو سيده وهو لم يزل في نعمة السيد متقلبًا وفى كنف إحسانه مقيمًا ، ماذا تحكمون على ذلك الخادم ؟ وماذا يستحق عندكم من العقاب ؟

لا شك أنكم تقولون إنه يستحق التأديب والتعذيب .

فهذا مثل المشرك .. كلفه اللّٰه تعالى بعبادته وتكفل له برزقه فذهب يعبد الشيطان ويطيعه ويعصى ربه ويكفر نعمته ويجحد إحسانه .

هكذا وبمثله يدعو الدعاة إلى اللّٰه ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ وَعَمِلَ صَـٰلِحًا وَقَالَ إِنَّنِى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ [فُصّلَت: الآية ٣٣] .

الدعوة إلى اللّٰه سبيل الفلاح ومفتاح النجاح ، وباب العز وأصل الاستقلال والحرية ، وأشرف ما تنفق فيه النفوس والأموال ﴿۞ إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ ۚ يُقَـٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ ۖ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ وَٱلْقُرْءَانِ ۚ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ مِنَ ٱللَّهِ ۚ فَٱسْتَبْشِرُوا۟ بِبَيْعِكُمُ ٱلَّذِى بَايَعْتُم بِهِۦ ۚ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾ [التوبَة: الآية ١١١] .

فمن أقام هذه الدعوة وبذل فيها نفسه وماله عاش عزيزًا ومات شريفًا ﴿قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَآ إِلَّآ إِحْدَى ٱلْحُسْنَيَيْنِ ۖ﴾ [التوبَة: الآية ٥٢] ﴿وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ﴾ [الحَجّ: الآية ٤٠] ، ﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الرُّوم: الآية ٤٧] ، ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعِزَّةَ فَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ جَمِيعًا ۚ﴾ [فَاطِر: الآية ١٠] .

فاستمدوها أيها المسلمون من ربكم وادعوا إليه من تنكب عن سبيل الاستقامة .

إن المسلمين لما تركوا الدعوة إلى اللَّه وانصرفوا إلى شهواتهم مكن اللَّه منهم عدوهم فأذلهم واستباح أموالهم وأعراضهم وسامهم كما تسام البهائم العجماوات ؛ وذلك جزاء من تشبه بالبهائم في اتباع الشهوات ، وعصى رب الأرض والسموات ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحَآدُّونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ أُوْلَٰٓئِكَ فِى ٱلْأَذَلِّينَ﴾ [المجادلة: الآية ٢٠] .

ولا عجب أن يسلط اللَّه تعالى على المسلمين من يذلهم ويستعبدهم لما تركوا الدعوة إلى اللَّه والعمل الصالح ، فقد سلط الكفار المشركين على من كانوا أبر منهم قلوبًا وأفضل إيمانا وأعظم شجاعة وهم مع رسول اللَّه ﷺ يوم أحد ، فأوقعوا فيهم القتل والذبح ، حتى بقروا بطن حمزة عم رسول اللَّه ﷺ ؛ وما ذلك إلا لأنهم خالفوا أمرًا واحدًا من أوامر رسول اللَّه ﷺ حيث قال لهم : « لا تبرحوا أماكنكم غلَبنا أم غُلبنا »[1] فغلبوا المشركين أولًا ثم تركوا أماكنهم يجمعون الغنائم ، فلما فعلوا ذلك انقلب عليهم المشركون ثانية وكان ما كان ، فكيف بمن خالفوا الدين كله أصولًا وفروعًا وفعلوا جميع المنهيات وعصوا جميع الأوامر حتى ما كان منها متعلقًا بنظام الدنيا والسيادة فيها ؟ !

وإن من أعظم المصائب ، وأشد الكوارث نسيان الغياث الحق عند حلول الخطوب وفجاءة النقم ، وأذل من الذل أن تطلب الحرية ممن عزه في إذلالك ، وسعادته في إشقائك .

إن المسلمين لا يحيون حياة طيبة ، ولا ينالون العزة والسيادة إلا بأن يدعوا أنفسهم أولًا إلى اللَّه ، فإذا أفردوه بالإلهية وأبوا أن يكونوا لغيره عبيدًا ، وتواصوا على ذلك وصبروا عليه لم يلبثوا عشية أو ضحاها حتى يحيا منهم من حيَّ عزيزًا ، ويموت منهم من يموت شهيدا شريفًا إن شاء اللَّه تعالى .

---

(١) انظر سيرة ابن هشام ٧٧/٢ .

الدعوة إلى الله تعالى(١)

كيف تكون وعلى أيِّ أساس تقوم

[٢]

إن الدعوة إلى الله من أسهل الأمور وأشقها على النفوس ، فلذا ينبغي أن نبين كيف تكون .

ووجه المشقة فيها ما يلاقيه الداعى من أذى المدعوين ، واستهدافه لتقولاتهم ومعاداتهم ، واحتياجه إلى معرفة طبائع النفوس وما يليق بها ، والطرق الحكيمة التي يسلكها لبلوغ غايته وجذب الناس إلى دعوته ، وإنقاذهم من مصايد الشيطان ، وشفائهم من أمراض الشهوات وعلل الشبهات ، واستعمال الرفق في موضعه والبرهان عند أهله .

وأما وجه السهولة فيها فلأنها تتضمن ذكر الله تعالى ، وبذكره تطمئن القلوب ، وموعود عليها بالنصر في غير ما آية من كلام الله تعالى وغير ما حديث من سنة رسوله ﷺ قال تعالى : ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا فِي الْحَيَوٰةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَـٰدُ﴾ [غافر: الآية ٥١] الآية ﴿وَلَيَنصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ﴾ [الحج: الآية ٤٠] الآية ﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الروم: الآية ٤٧] ﴿إِن تَنصُرُوا اللَّهَ يَنصُرْكُمْ﴾ [محمد: الآية ٧] الآية – ولأن الداعي لله تعالى يجد من الآيات والأدلة والبراهين على صحة الدعوى ما لم يجده داع لغير الله عز وجل .

ففي كل شيء له آية   تدل على أنه واحد

ولأن الفطر مستقر فيها معرفة الله تعالى بآياته ونعمه .

---

(١) مجلة الإصلاح – العدد الثالث – ١٣٤٧/٣/٣٠هـ .

أما كيف تكون الدعوة إلى الله تعالى فإنك تجده في القرآن الحكيم وسيرة النبي عليه أفضل الصلاة وأتم التسليم، تجده في قوله تعالى: ﴿ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ ۖ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ۚ﴾ [النّحل: الآية ١٢٥].

وفي قوله: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَقَالَ إِنَّنِى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٣٣﴾ وَلَا تَسْتَوِى ٱلْحَسَنَةُ وَلَا ٱلسَّيِّئَةُ ۚ ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِىٌّ حَمِيمٌ ﴿٣٤﴾ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾ - ﴿وَلَا تَسُبُّوا۟ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَيَسُبُّوا۟ ٱللَّهَ عَدْوًۢا بِغَيْرِ عِلْمٍ ۗ﴾ [الأنعام: الآية ١٠٨] - ﴿خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿١٩٩﴾ وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ ۚ إِنَّهُۥ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾، وفي آية ﴿هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾ [المائدة: الآية ٧٦].

وفي قول الله تعالى لرسوله ﷺ: ﴿قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [يُونس: الآية ٣١] الآية ﴿قُلْ سِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟﴾ [النّمل: الآية ٦٩] الآية ﴿۞ قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ قُلِ ٱللَّهُ ۖ وَإِنَّآ أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٢٤﴾ قُل لَّا تُسْـَٔلُونَ عَمَّآ أَجْرَمْنَا وَلَا نُسْـَٔلُ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٢٥﴾ قُلْ يَجْمَعُ بَيْنَنَا رَبُّنَا ثُمَّ يَفْتَحُ بَيْنَنَا بِٱلْحَقِّ وَهُوَ ٱلْفَتَّاحُ ٱلْعَلِيمُ﴾ .. إلخ.

هذا تعليم الله لرسوله في موضع الرفق والملاينة.

وقوله: ﴿قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِن يَنتَهُوا۟ يُغْفَرْ لَهُم مَّا قَدْ سَلَفَ وَإِن يَعُودُوا۟ فَقَدْ مَضَتْ سُنَّتُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ [الأنفال: الآية ٣٨]، ﴿قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ سَتُغْلَبُونَ وَتُحْشَرُونَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ ۚ وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ﴾ [آل عِمرَان: الآية ١٢] في موضع المخاشنة والوعيد والتهديد.

ولا ريب أن من الناس من ينقاد بالرفق ويسترقه اللين ويعطفه العتاب، ومنهم من قست قلوبهم وغلظت طباعهم فلا يؤثر فيهم إلا الكلام الشديد كالتهديد

والوعيد ، أو لمعان الحديد وقطع الوريد ، على أن الداعي إلى اللَّه لا يمتشق حسامًا ولا يكره إنسانًا ، بل يحبب اللَّه إلى عباده ويعرفهم به ويقودهم بالحسنى إليه ، وإنما يضطر إلى امتشاق الحسام وإشراع الرمح والسنان إذا صودر في دعوته واعتدى على دينه ووقفت شياطين الإنس تحول بينه وبين هداية عباد اللَّه إلى اللَّه ، وإقامة ما أمر اللَّه به من العدل والإحسان ، وإزالة ما نهى عنه من الظلم والعدوان وعبادة الأوثان ؛ مما يجعل الإنسان الذي كرمه اللَّه أخس أنواع الحيوان .

ولقد لبث رسول اللَّه ﷺ في مكة بين قومه ثلاث عشرة سنة يدعوهم باللين والرفق وهم يؤذونه ويؤذون أصحابه بما قدروا عليه حتى هاجروا غير مرة ، ولم يكف المشركين ذلك حتى بيتوا قتل النبي ﷺ آخر الأمر ، ولولا أن اللَّه أمره بالهجرة منها لبقي صابرًا محتسبًا .

فالدعوة إلى اللَّه تكون بالرفق واللين ومقابلة السيئة بالحسنة ، والإعراض عن الجاهلين وتحمل أذاهم بالصبر الجميل والدعاء لهم بالهداية إلى أقوم سبيل ولولا أن الرفق واللين في الدعوة من أسباب نجاحها وأنهما من الحكمة المشار إليها بقوله تعالى : ﴿ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ﴾ [النّحل: الآية ١٢٥] لما أمر موسى عليه السلام أن يقول لفرعون حين أمره بالتوجه إليه ودعوته إلى اللَّه ﴿ٱذْهَبَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ﴿٤٣﴾ فَقُولَا لَهُۥ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ﴾ .

فالقول باللين يشرح الصدر ، ويفسح للنفس مجالًا للتفكر ، ويرغبها في القبول .

وأما الشدة فهي مدعاة للتنفير والإعراض عن الداعي ، وسبب في صرفه عن الدعوة والاشتغال بما أثار من شرّ كان كامنًا وفتنة كانت نائمة ، ومضاعفة مرض كان على وشك الشفاء لو صادف طبيبًا ماهرًا وسائسًا حكيمًا .

فينبغي للداعي إلى اللَّه أن يكون أوسع حلمًا ممن يدعوه ، وأصبر على أذى

يلاقيه ، وأن يكون سخيًا في الحق ، موطنًا نفسه على الشهادة في سبيل اللَّه ، بادئًا من يدعوهم بما هو الأهم . ويجب أن يكون عاملًا بما يدعو إليه وإلا كان عمله المخالف لقوله حجة عليه ومناقضًا لما يدعو إليه .

إن الدعوة إلى اللَّه لا تقوم إلا على أساس التوحيد وإخلاص الداعي للَّه ، فأما إذا كان غير مخلص لم يثمر عمله ، وإن أثمر في الدنيا لم يكن له عليه ثواب في الآخرة .

❂❂❂

الدعوة إلى الله[1]

[٣]

الدعوة إلى اللَّه تستلزم جهادًا، وصبرًا من الداعي، وحلمًا ورفقًا بالمدعو.

وهذه أركان الدعوة، فإذا جاهد ولم يصبر لم يُنصر، وإن صبر ولم يكن حليمًا رفيقًا بالناس لم يظفر بالنجاح، وربما كان ضرره أكثر من نفعه، وتنفيره أكثر من تأليفه، وإفساده أكبر من إصلاحه.

ويشترط في الداعي إلى اللَّه أن يكون على بصيرة مما يدعو إليه عاملًا به، كما يفهم من قوله تعالى: ﴿قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى﴾ [يُوسُف: الآية ١٠٨]، ومن قوله عز من قائل: ﴿فَٱعْلَمْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ [محَمَّد: الآية ١٩]، وقوله تعالى في قصة شعيب حاكيًا عنه ﴿وَمَآ أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَىٰ مَآ أَنْهَىٰكُمْ عَنْهُ﴾ [هُود: الآية ٨٨]، وقوله تعالى عن نوح عليه السلام: ﴿وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ [يُونس: الآية ٧٢]، وقوله عز وجل لرسوله محمد ﷺ: ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِى وَنُسُكِى وَمَحْيَاىَ وَمَمَاتِى لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لَا شَرِيكَ لَهُۥ ۖ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ أي: أول المنقادين المطيعين لما أدعوكم إليه.

فأما إذا كان الداعي على غير بصيرة فيما يدعو إليه فقد ضل وأضل. وكذلك إذا خالف إلى ما ينهى عنه أي تخلف عن رُفقة المطيعين وخالفهم ما نهاهم عنه. وقد قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ ﴿٢﴾ كَبُرَ مَقْتًا عِندَ ٱللَّهِ أَن تَقُولُوا۟ مَا لَا تَفْعَلُونَ﴾.

فالقائل قولًا لا تصدقه فعاله مخذول مرذول ممقوت عند اللَّه وعند الناس، معدود في زمرة المنافقين المرائين، ومن الذين يحبون أن يحمدوا بما لم يفعلوا

---

(١) مجلة الإصلاح - العدد الخامس - ١٣٤٧/٥/١هـ.

﴿فَلَا تَحْسَبَنَّهُم بِمَفَازَةٍ مِّنَ ٱلْعَذَابِ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [آل عمران: الآية ١٨٨] .

وإنك لتجد كثيرًا من الناس كذلك ، وكما قال الشاعر :

إذا ندبوا للقول قالوا فأحسنوا ولكن حسن القول خالفه الفعل

وقال تعالى في المنافقين : ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ﴾ [البقرة: الآية ٨] الآيات .

وقال : ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُعْجِبُكَ قَوْلُهُۥ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيُشْهِدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا فِى قَلْبِهِۦ وَهُوَ أَلَدُّ ٱلْخِصَامِ﴾ [البقرة: الآية ٢٠٤] .

ومعنى ذلك - والله أعلم - أن قوله مخالف لما في قلبه ، وأنه إذا تكلم في الدنيا أي في وصفها وشأنها أعجبك كلامه لوصفه إياها بما يطابق الحقيقة من فنائها وعدم بقائها ، وأنها كعجوز شمطاء تزينت للناس بمتاعها وزخرفتها ، وبدت لهم في ثياب الفتيات تغرهم بالآمال وتخدعهم بمزيف الجمال ، وهو ألد الخصام أي شديد الخصومة في الباطل ، إن عرض له منها عارض أو بدت له فيها أية منفعة ، فتراه مثلًا يؤول الآيات لأجل حطامها ، ويضعف الأحاديث طمعًا في وصلها ، ويحل الشيء عامًا ويحرمه عامًا ، وإن وصف لك المتقين خلته منهم ، وإن ذم لك المنافقين حسبته من أشد الناس عداوة لهم ، ولكنك إذا بلوت أخباره ، ورأيت فعاله ، عجبت من أحواله ، ومخالفة أفعاله لأقواله . فمثل هذا لا يصلح للدعوة إلى الله ولا يكون من أهلها . ولكنه إذا وجد في هذا الزمان يعد من أئمة الإصلاح ويعطي أضخم ألقاب العلم والفضل ، وأشرف أسماء السيادة والنبل والذكاء والعقل !!

حق على علماء المسلمين في كل بلد وقطر أن يقوموا متضافرين متناصحين داعين إلى الله ، ناعين على أهل البدع الشركية بدعهم ، مقيمين عليهم الحجة ، رافعين لهم لواء السنة ، فإنهم متى رأوا ذلك اللواء في يد ثقاة الأمة انضووا إليه

ولحقوا به ، وكانوا تحت ظله فكانوا من المصلحين .

فليستعذ العلماء العارفون بالتوحيد من الجبن وحب الدنيا والحرص عليها ويقيموا على قدم وساق بادئين بما هو الأهم كما في حديث معاذ : « فليكن أول ما تدعوهم إليه شهادة ألا إله إلا اللّه وأن محمدًا رسول اللّه ، فإن هم أجابوك لذلك فأخبرهم أن عليهم خمس صلوات » الحديث[1] .

فواجب على العلماء العارفين معنى الشهادتين أن يدعوا الناس إليهما حتى يحققوا العمل بهما إيمانًا باللّه ورسوله وكفرًا بالطواغيت .. واجب على العلماء أن يعملوا أمام العوام بما يعلمون ليكونوا لهم خير قدوة يفهمون بها الكتاب والسنة فهمًا عمليًّا ، كما كان النبى ﷺ يعلم الناس بالعمل . والأحاديث الدالة على ذلك في الصحيحين وغيرهما . وكأن علماء التربية في هذا العصر وقفوا على كيفية تعليم الرسول ﷺ فاقتدوا به وأصبحوا .. لا يدخل مدرس المادة من العلم إلا أخذ معه عدة تمثيلية وتصويرية ، إن لم يمكنه عمل الشيء بنفسه أو إيجاده تحت حواس المتعلمين ، كما في تعليم الكيمياء والطبيعة وغيرهما من العلوم .

وبعدُ ، فمتى يعود المسلمون إلى دينهم ويعملون بكتاب ربهم وسنة نبيهم . ليعود إليهم عزهم وسيادتهم وملكهم ؟

سؤال يخالج كل ذي ضمير حي وعقل سليم .

والجواب عليه : إذا وجد دعاة يدعونهم إلى اللّه بالرفق ، ويبينون لهم خطأهم في العقائد ويبصرونهم بالعواقب ، ويضربون لهم الأمثال ، ويتلون عليهم قصص الأمم الغابرة في القرآن ، ويخطبون في المساجد والمجتمعات . وأنى لنا بأولئك الدعاة الذين توفرت فيهم شروط الدعوة وأنابوا إلى اللّه وأخلصوا له ؟

أقول – والحزن ملء فؤادي – : إنهم قليلون ، بل هم أقل من القليل .

---

(١) أخرجه البخاري (١٤٥٨، ٧٣٧٢)، ومسلم (١٩).

نسأل اللّٰه أن يكثرهم في المسلمين، وأن يلهم الأغنياء والملوك والأمراء البذل في هذا السبيل وإعداد طائفة من الدعاة والمرشدين.

كما أسأله أن يوفقهم للأخذ بأحكام الشريعة الغراء ويقيموا الحدود فإن اللّٰه يزع بالسلطان مالا يزع بالقرآن. والسلام.

●●●

الدعوة إلى الله تعالى(١)

الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر

من الدعوة إلى الله الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر . قال تعالى : ﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى ٱلْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ [آل عِمران: الآية ١٠٤] ، وقال تعالى في وصف المؤمنين : ﴿ٱلرَّٰكِعُونَ ٱلسَّٰجِدُونَ ٱلْءَامِرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَٱلنَّاهُونَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَٱلْحَٰفِظُونَ لِحُدُودِ ٱللَّهِ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [التوبة: الآية ١١٢] .

وقال تعالى عن لقمان وابنه ﴿يَٰبُنَيَّ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ وَأْمُرْ بِٱلْمَعْرُوفِ وَٱنْهَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَآ أَصَابَكَ ۖ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ﴾ [لقمان: الآية ١٧] ، وفى الحديث الصحيح الذي رواه مسلم(٢) « وأمرٌ بالمعروف ونهيٌ عن المنكر صدقة » ، وفى الحديث الذي رواه أبو داود والترمذى(٣) ، « لتأمرن بالمعروف ولتنهون عن المنكر ولتأخذن على يد الظالم ولتأطرنه على الحق أطرا أو ليضربن اللَّه بقلوب بعضكم على بعض ثم ليلعنكم كما لعنهم » أى بنى إسرائيل المذكورين أول الحديث .

وفى الصحيح لمسلم وسنن النسائى(٤) وغيرهما عن النبى ﷺ : « إن الدين النصيحة » قلنا : لمن يا رسول اللَّه ؟ قال : « للَّه ولكتابه ولرسوله ولأئمة المسلمين

---

(١) مجلة الإصلاح - العددان السابع والثامن - ١٣٤٧/٦/١٥هـ .

(٢) أخرجه مسلم (٧٢٠، ١٠٠٦) من حديث أبي ذر رضي اللَّه عنه .

(٣) أخرجه أبو داود (٤٣٣٦، ٤٣٣٧) ، والترمذي (٢١٦٩) من حديث ابن مسعود وحذيفة رضي اللَّه عنهما ، وصححه الألباني .

(٤) أخرجه مسلم (٥٥) ، والنسائي (٤٢٠٨) ، وأبو داود (٤٩٤٤) من حديث تميم الداري رضي اللَّه عنه .

وعامتهم » . والأحاديث في هذا الموضوع كثيرة .

والمقصود بالمعروف هنا المعروف من الشرع ، وبالمنكر ما ينكره الشرع ، وإلا فقد يكون للناس عادات قبيحة وبدع سيئة هي المعروف عندهم ، حتى لو أنكرها عليهم عالم بالشرع لكفروه .

مثال ذلك : دعاء العوام وأشباه العوام أصحاب القبور ، ونذرهم لها وطوافهم حولها زاعمين أن ذلك توسل إلى اللّٰه تعالى ، وهو شرك محض ، فمن أنكر عليهم قالوا إنه ينكر الكرامات ويبغض الأولياء وتقولوا عليه أكثر من ذلك .

وقد أضاع المسلمون الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر حتى تغلب أولوا الأهواء والشهوات المفسدون في الأرض ، ورفعوا عقيرتم بالدعوة إلى شهواتهم الشيطانية بدعوى المدنية والتجديد ، فسموا تبرج النساء حرية وزينة وجمالا ، والحياء والحشمة والقرار في بيوتهن حبسا وتأخرا ، والقائم بذلك من الرجال على نسائه متوحشًا ومستبدًا وجاهلًا ، إلى غير ذلك من الألقاب .

وما دعوا إلى شهواتهم هذه الدعوة الخبيثة إلا في نومة أهل الحق واستكانتهم وغفلتهم عنه .

ومن الناس من يقوم بالأمر بالمعروف ، فإذا أوذى في اللّٰه ترك وجعل فتنة الناس كعذاب اللّٰه .

ومنهم من يأمر بالشدة فينفر الناس من الدين ويكون ضرره أكثر من نفعه .

ومنهم من يأمر بالمعروف ولا يفعله وينهى عن المنكر وهو يأتيه ، كما رأيت ذلك في بعض البلاد ؛ فترى أحدهم مثلًا ينهى عن المسكرات وهو شيخ الحشاشين ونديم السكارى .

وإنما يجب أن يكون المتصدر للأمر بالمعروف عالمًا بما يأمر عالمًا بما ينهى ، عاملًا بما يأمر به تاركًا لما ينهى عنه ، رفيقًا فيما يأمر رفيقًا فيما ينهى ،

متحملًا لكل ما يقع عليه من الأذى صابرًا محتسبًا .

ولا يشترط في الآمر أن يكون عالمًا بكل مسألة في الدين ولا بكل علم من العلوم .

نعم ينبغي أن تؤلف هيئات من أهل العلم العاملين الغيورين على الدين والفضيلة ويجولون في كل مجتمع وفي كل مسجد بالوعد والخطابة بالقرآن والسنة .

وعلى العلماء أن ينكروا كل محرم شرعًا ، وأن يبيعوا أنفسهم في هذا السبيل بيع سماح ، وإلا فليدعوا هذا اللقب الشريف (العلماء) لغيرهم ، وليعلموا أنهم لن يحترموا به إذا لم يحققوا معناه في أنفسهم ، وتشهد له آثاره فيهم ؛ من الغيرة وعزة النفس والزهد في الدنيا .

ولو أن أهل العلم صانوه صانهم ولو عظموه في النفوس لعظما[1]

على أهل العلم أن يعلموا أنهم عبيد الله وأنهم ما خلقوا إلا لعبادته والغيرة على دينه وإعزاز كلمته ، فإذا علموا ذلك وباعوا نفوسهم في هذا السبيل عزوا في هذه الحياة وكانوا يوم القيامة من الفائزين .

ليس كل من لبس عمامة وجبة صار عالمًا ، إنما العلماء هم الذين يخشون الله ويخافونه ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُاْ﴾ [فاطر: الآية ٢٨] .

ليس من العلماء من يشكك في الدين وينكر ما صح من أحاديث سيد المرسلين ، كأحاديث سؤال القبر ولا من ينكر شيئًا معلومًا من الدين بالضرورة ، كالاسترقاق المشروع ، أو حقيقة الشياطين ، أو نحو ذلك ، فأمثال هؤلاء يستحقون التأديب أو دخول مستشفى المجاذيب ويسأل لهم الشفاء ، لا أن

---

(١) أخرجه الخطيب البغدادي في الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع ٣٧١/١ من قول علي بن عبد العزيز الجرجاني رحمه الله .

يتربعوا على كراسي التدريس وتجرى عليهم مرتبات من أوقاف المسلمين.

ينبغي أن يكون في كل بلد إسلامي هيئة تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر، ولا تعول على الأغنياء والأمراء، ولا تخاف الأذى من الناس أو المخلوقات المستهترة بأمر الدين أو المعادية له، فإن يد اللَّه على الجماعة ﴿وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ [الحج: الآية ٤٠] ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا﴾ [هود: الآية ٦]، ﴿ٱللَّهُ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ﴾ [الرعد: الآية ٢٦].

إن الذي يرى المنكر ويسكت عليه ولا ينكره إنما هو شيطان أخرس، بل هو شريك الفاعل، وقد بين الحديث الذي رواه مسلم[1] عن النبى ﷺ أن إنكار المنكر على ثلاث درجات: أعلاها الإنكار باليد، وأوسطها الإنكار باللسان، وأدناها بالقلب، وليس وراء ذلك مثقال حبة خردل من إيمان. قال ﷺ: «من رأى منكم منكرًا فليغيره بيده، فإن لم يستطع فبلسانه، فإن لم يستطع فبقلبه وذلك أضعف الإيمان».

ولولا أن الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر يضاد النفوس الشريرة، وأن الآمر يناله منها الأذى بكل ما تقدر عليه ما عقبت وصية لقمان لابنه في الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر بقوله: ﴿وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَآ أَصَابَكَ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ﴾ [لقمان: الآية ١٧].

وقد لعن الذين كفروا من بني إسرائيل على لسان داود وعيسى ابن مريم بسبب عصيانهم واعتدائهم حدود اللَّه وعدم تناهيهم عن منكر يفعلونه، وقيل لهم: ﴿لَبِئْسَ مَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ﴾ [المائدة: الآية ٧٩] - ولا ريب أن تلك اللعنة وهذا الذم ليس خاصًا بهم، بل هو لهم ولغيرهم من كل من يتحقق فيه وصفهم ويكون مثلهم فيما ذموا من أجله ولعنوا بسببه.

---

(١) أخرجه مسلم (٤٩) من حديث أبي سعيد الخدري رضي اللَّه عنه.

ونحن إذا حللنا نفسية علماء اليوم الساكتين على الشرك والزنا والخمر والربا وسب الدين وتبرج النساء وغير ذلك من الموبقات التي تخجل كل حر عاقل فضلًا عن متدين، لرأينا أن سبب ذلك شيئان : أحدهما ؛ الجهل باللَّه وأسمائه وصفاته وأمره وشرعه، والثاني ؛ حبهم الدنيا وعدم إيمانهم بالآخرة .

فإذا سألتهم ما أسكتكم عن إنكار المنكر وأنتم مغمورون فيه، وهو واقع بين سمعكم وبصركم ؟ أما لكم غيرة للَّه على دينه ؟ ألستم الذين يقال لهم العلماء ؟ ! اعتلوا بعلل واهية، واعتذروا بأعذار ساقطة . فمنهم من يقول : الحكومة هي التي في يدها القوة، وهي التي أباحت هذا المنكر ولا قدرة لنا بالوقوف في وجهها ومنعها . ومنهم من يقول : الأغنياء شحوا بأموالهم وأنفقوها على شهواتهم وهذا الأمر لا يقوم إلا بالمال . ومنهم من يقول غير ذلك على هذا النحو . والحقيقة كما أخبرتك آنفا .

ولا عذر لأحد بالسكوت اتكالا على فرد واحد ينكر في أمة كلها أو جلها مخالف أمر اللَّه مستحق لعقوبته .

وإنما فرض الكفاية الذي إذا قام به البعض سقط عن الباقين يقال عند اتساق الأمر وحصول الكفاية بذلك الفرد أو الأفراد . فأما إذا لم يكف مائة ولا ألف فالواجب أن يقوم من تحصل به الكفاية وينقمع به المنكر وأهله .

واللَّه الهادي إلى سواء السبيل .

***

الدعوة إلى اللّٰه تعالى(١)

قال اللّٰه تعالى : ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: الآية ٥٦] .

أيها الإنسان العاقل ، بربك أخبرني بعد أن تفكر وتنظر ، ولو قليلًا ، في ملكوت السموات والأرض ، أناشدك اللّٰه الذي خلق السموات والأرض والذي تؤمن بوجوده ، لا أخاطب غيرك ممن يجحده جل وعلا ، أليس قد خلق الشمس والقمر وسخر ما في السموات وما في الأرض جميعًا منه لخدمتك ومنفعتك ؟ فالشمس تضيء لك بالنهار فتبصر السبل وتميز بين الأشياء ، وهي في الوقت نفسه تنضج لك الفواكه وتصلح لك سائر النبات ، وتدفع عنا جيوش البرد والرطوبة التي لو تركت لهجمت علينا وتركتنا حصيدًا خامدين . وانظر إلى القمر ومنافعه وتأثيره أيضًا والكواكب ، وإلى ذلك النظام البديع ، ثم تأمل قوله تعالى : ﴿وَٱلْخَيْلَ وَٱلْبِغَالَ وَٱلْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً﴾ [النحل: الآية ٨] الآية .

فإذا كان كل شيء في السموات والأرض مسخر لك أيها الإنسان ومخلوق لخدمتك ومنافعك فلماذا إذن أنت مخلوق ؟ وما منفعتك ؟ أترى مخلوقًا أفضل منك ، وقد أخبر اللّٰه أنك مسخر له ومخلوق لطاعته ؟

كلا بل أنت أيها الإنسان سيد المخلوقات ، أنت الذي شرفك اللّٰه بعبادته والقرب منه ، فجعل كل شيء يخدمك ، وجعل كل شيء مطيعًا لك ، وطلب منك أن تطيعه ، وأعطاك اختيارًا وقدرة واردة وعقلًا تميز به ، كي تكون حرًّا فيما تأتي وما تذر ، وخصك بخطابه ومناجاته . أفليس من الخسة والدناءة أن تذهب بعد ذلك التكريم والتشريف تعبد غيره ، وتطيع سواه ، وتخضع لقانون بشر مثلك ، تقدسه وتحكم به على غيرك ؟ بأي حق استحق هذا المخلوق خضوعك

(١) مجلة الإصلاح – العدد الحادي عشر – ١٣٤٧/٨/١هـ .

له والنزول على حكمه من دون الذي خلقك وسواك وجعل لك من لدنه قانونًا لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ؟ إن هذا المخلوق جاهل بمصالح نفسه فضلًا عن مصالح غيره من بني جنسه ، فضلًا عن مصالح العالم كله على اختلاف طباعه وأجناسه ولهجاته وعاداته ، أهذا أحق بك أم اللّٰه العليم الحكيم الذي خلق كل شيء ، وعلم كل شيء ، الذي قدر فهدى ، الذي لا تخفى عليه خافية ، والذي سواك وخلقك في أحسن تقويم ، ومكنك من كل شيء ، وجعلك خليفة في أرضه ؟

حقًّا إنك أيها الإنسان ظالم لنفسك جاهل بمصالحها . أيها الإنسان ، فكر في نفسك فأنت أحق من فكر ، أأنت مؤمن باللّٰه واليوم الآخر أم أنت في ريب ؟ وأخبرني من ذلك ، فإن كنت مؤمنًا فما لك لا تعمل للآخرة ، ومالك لا تطيع من آمنت به ؟

إن كنت لا تدري فتلك مصيبة وإن كنت تدري فالمصيبة أعظم

وإن كنت غير مؤمن باللّٰه تعالى ولا مصدق بوجوده عرفناك به وأقمنا لك الأدلة من نفسك على وجوده .

انظر بعين عقلك ، هل ترى في هذه الدنيا فعلًا بغير فاعل ؟ وانظر وتفكر ثم أخبر واسأل المنكرين ، أخلقوا من غير شيء ، أم هم الخالقون ؟ أم خلقوا السموات والأرض ؟ فإن لم يجيبوا وأصروا على الإنكار ، أجابت عنهم المخلوقات : ما خلقنا إلا اللّٰه .

وإن من أدل الأدلة أن ترى ذا ذكاء وعلوم دنيوية ومعارف كونية ومنطق فصيح وشكل مليح ينكر وجود ربه ويخاصم فيه وجدانه المعترف به ويخاصم المؤمنين .

فهذا دليل على أن اللّٰه موجود وأنه حليم وعدل وحكيم .

أما دليل وجوده فقد حدثناك به ، وهو أن هذا المنكر بين أحد أمرين ، لا ثالث لهما : فإما أن يكون مخلوقًا من غير خالق وحادثًا من غير محدث ، وهذا محال . وإما أن يكون هو الذي خلق نفسه ، وهذا أبعد في الإحالة . ولا سبيل له إلا أن يقول : إنني مخلوق ، والمخلوق مفعول ، فلابد له من خالق ؛ إذ لا يوجد مفعول بلا فاعل .

وإذا أثبت أن للمخلوق خالقًا انتقلنا إلى تعرف صفاته ، فترى القدرة والعلم ، والحكمة والحلم ، والرحمة والعدل في لوح هذه المخلوقات ، كلما أنعمت النظر فيها وتركت المجاحدة .

فمن العدل أن اللَّه تعالى يعذب الأمم العاصية ، ويمتع المطيعة على قدر طاعتها وسيرها في سبيل النظام الكوني المسمى : سنة اللَّه في القرآن .

وهذا الخسف والمسخ والحروب التي تراها أو تسمع بها لم تكن إلا لخروج الناس عن الصراط السوي والأوامر الإلهية الكونية والشرعية .

وإذا رأيت أمة عاصية في نعمة فاعلم أنها تعيش في سعة الحلم إلى أجل مسمى . فإذا جاء أجلهم فلا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون . كما قال تعالى لرسوله ﷺ : ﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلْعَذَابِ وَلَوْلَآ أَجَلٌ مُّسَمًّى لَّجَآءَهُمُ ٱلْعَذَابُ وَلَيَأْتِيَنَّهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ [العنكبوت: الآية ٥٣] ، ﴿وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَمْلَيْتُ لَهَا وَهِىَ ظَالِمَةٌ ثُمَّ أَخَذْتُهَا وَإِلَىَّ ٱلْمَصِيرُ﴾ [الحج: الآية ٤٨] .

وانظر قدرة اللَّه في تلك البحار الزاخرة والجبال الشاهقة والشمس الباهرة والقمر الزاهر والنجوم الطوالع ، التي يهتدى بها في ظلمات البر والبحر .

ثم انظر تلك القدرة القاهرة عند احتضار ملك من ملوك الدنيا ، حيث يسلم نفسه من بين جنبيه وحوله نطس الأطباء والأهل والأصدقاء بين العدد والعدد والقوى المختلفة من أساطيل في البحر ماخرة وطيارات في الهواء سابحة ومدافع

وقنابل ودبابات وغواصات وقواد وضباط وخيل وركاب . وكل ذلك لم يغن عنه شيئًا ولم يدفع عنه تلفًا .

قال تعالى : ﴿فَلَوْلَآ إِذَا بَلَغَتِ ٱلْحُلْقُومَ ﴿٨٣﴾ وَأَنتُمْ حِينَئِذٍ تَنظُرُونَ ﴿٨٤﴾ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنكُمْ وَلَٰكِن لَّا تُبْصِرُونَ ﴿٨٥﴾ فَلَوْلَآ إِن كُنتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ ﴿٨٦﴾ تَرْجِعُونَهَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ .

وأما الرحمة فانظرها في الأمهات حيث ترى للواحدة منهن ترضع أبناءها وتحنو عليهم وتدافع دونهم . وليس هذا في بني آدم فحسب ، بل في كل نوع من أنواع الحيوانات . وتجد مثله إذا دققت النظر في النباتات .

وهكذا إذا أنعمت النظر في كتاب الكون وقلبت أية صحيفة منه ظهرت لك صفات الباري جل وعلا بآثارها واضحة ناطقة بأن اللَّه واحد .

وفي كل شيء له آية   تدل على أنه واحد

وأن له الحمد في السماوات والأرض ، وأن لا شريك له في ملكه وهو المستحق للعبادة والحب كله ، وأن العبودية لا تليق إلا له جل شأنه .

❁ ❁ ❁

الدعوة إلى الله تعالى[1]

أيها الداعي غير الله ، ألم تسمع قول ربك : ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ عِبَادٌ أَمْثَالُكُمْ﴾ [الأعراف: الآية ١٩٤] ؟ تأمل هذه الآية جيدًا ، أجل فكّر فيها وتدبرها ، وحاسب نفسك إذ تقول : (يا الله يا بدوى) أو تقول : (يا رسول الله أغثنى) .

فإنك دعوت في الأولى مع الله أحمد البدوى ، كأن الله لم يكفك فدعوت معه غيره ، وكأنك لم تسمع قول الله تعالى : ﴿أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُۥ﴾ [الزُّمَر: الآية ٣٦] ، وقوله تعالى على سبيل التبكيت وإظهار أن المدعو من غير الله عاجز عن نفع الداعى أو ضره : ﴿فَٱدْعُوهُمْ فَلْيَسْتَجِيبُواْ لَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ [الأعراف: الآية ١٩٤] .

ودعوت في الثانية رسول الله ﷺ وهو الذي أمره ربه أن يقول : ﴿لَّآ أَمْلِكُ لِنَفْسِى نَفْعًا وَلَا ضَرًّا﴾ [الأعراف: الآية ١٨٨] ... الآية ، والذى قال : ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ ٱلْأَمْرِ شَىْءٌ﴾ [آل عِمرَان: الآية ١٢٨] .

جاء إلى هذه الأقطار المقدسة عظيم من علماء قطر من الأقطار المجاورة المعروفة بمعاهدها العلمية ، وصلتها الكبيرة بالإسلام ، وحضر خطبة في الحرم النبوي ، وكان الخطيب يقول للناس : ادعوا ربكم وحده ، ولا تدعو سواه أحدًا ، أو نحو ذلك ، فإن ربكم يغضب إذا دعوتم غيره ، ولو كان ذلك الغير هو رسول الله ﷺ . فغضب ذلك الشيخ من هذا القول الحق الذي لا يبقى على ما عنده من عوائد شب عليها وشاب فيها واستطاع من ورائها أن يكون شيخ سدنة[2] أكبر

---

(١) مجلة الإصلاح – العدد الثاني عشر – ١٣٤٧/٨/١٥هـ.

(٢) سَدَنَ سدْنًا وسَدَانَةً : خدم الكعبة أو بيت الصنم وعمل الحجابة فهو سادن . القاموس المحيط ، تاج العروس (سدن) .

وثن في ذلك القطر، يجبى إليه من المال الباطل والسحت ما أصبح به من الأغنياء من تراث الدنيا وحطامها القليل.

أخذت الشيخ الحمية الجاهلية وتقطع قلبه وارتعدت فرائصه إذ صك سمعه قول الداعي الحق: أخلصوا لله العبادة ولا تشركوا معه أحدًا فلا تدعوا البدوى ولا غيره!!

وإذا انصرف الناس عن دعاء البدوي وغيره، وانقطع بذلك مورد الصناديق من النذور الشركية، فمن أين يثرى أولئك الضخام الأجسام؟! كبر على الشيخ ذلك جدًا، وأخذه الحال وانجذب وضرب بلسان العفاريت، وقام من وسط الجمهور ميممًا الحجرة الشريفة وهو يقول في حركة تشنجية وأنكر الأصوات: يا رسول الله أنا بك مستجير.

فهل فهم أمثال هذا الذي يسمونه عالمًا شيئًا من بينات آيات القرآن الكريم؟ وهل علم معنى لا إله إلا الله؟ لا والله!! وإذا كان أمثاله من أصحاب تلك الأبراج على الرؤوس المنتسبين للعلم، بل الذين يعدون من أكبر العلماء يعملون تلك الأعمال الشنيعة ويناقضون القرآن، ويحاربون الله هذه المحاربة، ويدعون غير الله، ويزعمون أنه ليس بشرك، بل يقولون كما قال سلفهم: ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ﴾ [الزُّمَر: الآية ٣] فكيف بالعوام الذين لم يقرأوا قرآنًا ولا سنة، ولا تعلموا نحوًا ولا صرفًا ولا بلاغة ولا أصولًا ولا تفسيرًا؟!!

إن هؤلاء الجهلة بدين الإسلام قد غشوا العوام بزيهم بعد أن اغتروا بأنفسهم وبعد أن زين لهم الشيطان سوء أعمالهم. وصدق الذي يقول:

وهل أفسد الدين إلا الملو ... ك وأحبار سوء ورهبانها[1]

---

(١) ذكره الذهبي في سير أعلام النبلاء ١٢/ ٢١٣، وابن أبي العز الحنفي في شرح الطحاوية ١/ ١٢٢ عن ابن المبارك رحمه الله.

فإن لم يتوبوا عن شركهم ويراجعوا أنفسهم ويتعلموا من جديد حتى يعرفوا معنى لا إله إلا اللّٰه وإلا فبشرهم بعذاب أليم خالدين فيه أبدًا ، وكان ذلك على اللّٰه يسيرا .

يا معشر من أسلم بلسانه ولم يفض الإيمان إلى قلبه ، تعالوا نسمعكم قول اللّٰه تعالى ، تعالوا نتل عليكم كلام ربكم ، فإن كنتم تريدون الإيمان فآمنوا ولا تتكبروا عن قبول الحق ، وإلا فلا تغشوا المسلمين .

يقول اللّٰه تعالى : ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَن لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُۥٓ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ وَهُمْ عَن دُعَآئِهِمْ غَٰفِلُونَ﴾ [الأحقاف: الآية ٥] .

ويقول : ﴿وَلَا تَدْعُ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ ۖ فَإِن فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذًا مِّنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [يُونس: الآية ١٠٦] .

فليتأمل العاقل النبيه الحريص على الحق الناصح لنفسه مثل هذه الآيات في القرآن مع آيات الأمر بدعاء اللّٰه وحده كقوله تعالى : ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِىٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ ۚ﴾ [غافر: الآية ٦٠] .

وقال : ﴿ٱدْعُواْ رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً ۚ﴾ [الأعراف: الآية ٥٥] .

وقال : ﴿هُوَ ٱلْحَىُّ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَٱدْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ ۗ﴾ [غافر: الآية ٦٥] ، وليبحثوا عن معنى كلمة « إله » على حدة ، ومعنى « لا » على حدة ، ومعنى « دون » و« غير » في الآيات الواردة فيها ، ويتركوا التقليد والمنامات .

وليدعوا اللّٰه تعالى وحده كما دعا النبي ﷺ : « اللهم رب جبريل وميكائيل فاطر السموات والأرض عالم الغيب والشهادة ، أنت تحكم بين عبادك فيما كانوا فيه يختلفون اهدنا لما اختلف فيه من الحق بإذنك إنك تهدي من تشاء إلى صراط مستقيم »[1] لعله يوفقهم ويهديهم ، فإن الهدى هدى اللّٰه ، ومن يهد اللّٰه

---

(١) أخرجه مسلم (٧٧٠) من حديث عائشة رضي اللّٰه عنها .

فلا مضل له ، ومن يضلل فلا هادي له ، ولا حول ولا قوة إلا باللَّه .

إن كلمة (إله) عند العرب تدل على كل ما يعبد بحق أو بباطل و(لا) نافية للجنس .ولما كان العرب المشركون يعبدون آلهة كثيرة يدعونها وينذرون لها وينحرون باسمها بعث اللَّه رسوله محمدًا ﷺ بهذه الكلمة (لا إله إلا الله) يقول لهم : انفوا جميع الآلهة إلا اللَّه وحده فأثبتوا له الإلهية ؛ لأنه هو المستحق لعبادتكم إذ هو الذي خلقكم ورباكم وربي جميع العالمين بنعمته .

وهكذا كان العرب يعرفون معناها ؛ ولذا قالوا : ﴿أَجَعَلَ ٱلْآلِهَةَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا﴾ [ص: الآية ٥] .

فكلمة (لا) نافية لجنس الآلهة وكلمة (إلا) مثبتة للإله الحق . فإذا قلت (لا إله إلا الله) ، فقد أقررت واعترفت بلسانك وعاهدت نفسك أن لا تتأله ولا تعبد بأنواع العبادة كلها أحدًا إلا اللَّه ، فإذا دعوت البدوي ، أو الدسوقي ، أو العباس ، أو الجيلاني ، أو الرفاعي ، أو غيرهم مما ملأ كل الأقطار الإسلامية من أوثان ، ما أنزل اللَّه بها من سلطان . - مثلًا - لكشف ضر ، أو ذبحت له ، أو نذرت ، كنت ناقضًا لكلمة التوحيد وناكثًا للعهد ، وكنت كالذي توضأ ثم نقض وضوءه . أو بعبارة أظهر وأوضح كالذي اغتسل من الأدران ، ثم جاء إلى مجرى بول وغائط وألقى بنفسه فيه . أو بعبارة أخرى ، إذا قال (لا إله إلا الله) كان كالذي ارتفع إلى السماء وعلا فوق الجوزاء فإذا التفت عن اللَّه ودعا لغيره - ولو على زعمه أنه يقربه إلى اللَّه زلفى وواسطة ووسيلة - فكأنما خر من السماء فتخطفه الطير أو تهوى به الريح في مكان سحيق .

فمن لم يعرف معنى (لا إله إلا الله) ويحققها علمًا وقولًا وعملًا لم تنفعه ، ولو قالها طول الليل وطول النهار . وتحقيقها علمًا وقولًا وعملًا ليس بالأمر الهين .

ولذا كانت مفتاح الجنة ، وكانت الأعمال المشروعة والأقوال أسنانها كما

ورد في صحيح البخارى[1] إذ سئل أحدهم : أليس مفتاح الجنة لا إله إلا اللّٰه ؟ فقال : « وما من مفتاح إلا له أسنان ... الأثر » .

ولكن كيف يتعلم العلم متكبر يعتقد أنه عالم ويعتقد جمهور الجهلة أنه عالم ؟ وقد ورد في البخاري في باب (الحياء في العلم) وقال مجاهد : لا يتعلم العلم مستحي ولا مستكبر[2] .

فاتقوا اللّٰه يا من عليهم أعظم المسئوليات بتشبههم بالعلماء وجعلهم في مقام القيادة للناس وحققوا شهادة أن لا إله إلا اللّٰه وأن محمدًا رسول اللّٰه ، واعلموا أن دعاء غير اللّٰه ، كائنًا من كان ؛ ملكًا مقربًا أو نبيًا مرسلا أو وليًا صالحًا شرك أكبر لا يغفر إلا لمن تاب إلى اللّٰه وعمل صالحًا ، ولا تظنوا أن قول لا إله إلا اللّٰه من غير معرفة معناها والعمل بها ينفعكم في دنيا أو أخرى .

ليست لا إله إلا اللّٰه لعقة على اللسان ، وأن قائلها بدون قيام بحقها يستحق الجنان ! لا واللّٰه . ولو صح ذلك لما جاهد أبو بكر رضى اللّٰه عنه مانعى الزكاة واستباح دماءهم وهم يقولونها . ولما قال الرسول ﷺ : « أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا اللّٰه وأن محمدًا رسول اللّٰه ويقيموا الصلاة ويؤتوا الزكاة ... الحديث »[3] ولاقتصر على النطق بها وارتضى ذلك منهم دون الصلاة والزكاة .

لا تظنوا يا ذوى العمائم الكبيرة والجبب العريضة الطويلة أن شهادة مخلوق لكم مهما كان عظيمًا تنفعكم عند اللّٰه ، أو تسعدكم في الدنيا وأنتم محرومون من علم الدنيا وعلم الآخرة ، لا تظنوا أن دعواكم أو انتسابكم للعلم أو للإسلام

---

(١) أخرجه البخاري قبل (١٢٣٧) تعليقًا من قول وهب بن منبه رحمه اللّٰه . ووصله في تاريخه الكبير ١/ ٩٥، وابن حجر في التغليق ٢/ ٤٥٣، ٤٥٤.

(٢) أخرجه البخاري قبل حديث (١٣٠) تعليقًا .

(٣) أخرجه البخاري (١٣٩٩) ، ومسلم (٢٠) من حديث أبي هريرة رضي اللّٰه عنه .

يمحو الحقائق ويغير سنن اللّه في الكون ! لا واللّه . وكيف تكونون علماء وهذه الأوثان تدعى بين أظهركم ويستغاث بها ، ويجعلها الناس كافة آلهة مع اللّه وأنتم ما بين أسوة سيئة للعوام في ذلك ، ومجاهدة من يرشدهم ويدعوهم إلى اللّه ، أو يعرف الحق ويسكت كاليهود ؟

وكيف تكونون علماء المسلمين ، والزنا والخمر والربا والحكم بغير ما أنزل اللّه على مرأى ومسمع منكم ولا تنكرون ولا تغضبون ، بل منكم من يشارك في هذه المنكرات ، ويشهد الموالد وغيرها من أنواع الزور والباطل ، وإذا نهاكم مشفق عليكم من لبس الحرير وأنتم في حرم اللّه وفى أداء عبادة اللّه تتبرمون وتغضبون ، أي أحد من علماء السلف تقتدون به في الاستكبار عن استماع الحق واتباع الهدى ؟ ! اتقوا اللّه ولا تكونوا كالذين قال اللّه فيهم : ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُعۡجِبُكَ قَوۡلُهُۥ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا﴾ [البقرة: الآية ٢٠٤] .

اخبرونا أيها الناس على أيّ حجة تعتمدون في أيّ آية من الكتاب أو حديث عن رسول اللّه تجدون هذا ، أو تظنون أن اللّه يرضى عنكم بعد ذلك أو رسوله أو أحد من المؤمنين ؟ ألم تعتبروا بما أوقع اللّه على الظالمين من ذل وخزى وخذلان وتسلط أعداء وسلب حقوق ؟ فتعلموا يا قوم لا إله إلا اللّه ، وحققوها بالقول والعمل ، ولا تنقضوها بجهلكم وموالاة أعداء الدين ، وكونوا من الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَىٰهُمُ ٱللَّهُۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمۡ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ﴾ [الزُّمَر: الآية ١٨] .

ارجعوا إلى اللّه ﴿وَأَنِيبُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّكُمۡ وَأَسۡلِمُواْ لَهُۥ مِن قَبۡلِ أَن يَأۡتِيَكُمُ ٱلۡعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ﴾ [الزُّمَر: الآية ٥٤] .

استغفروه ولا تدعوا من دونه وليًا ولا نبيًا ولا ملكًا ﴿قُلۡ أَرَءَيۡتُم مَّا تَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَرُونِي مَاذَا خَلَقُواْ مِنَ ٱلۡأَرۡضِ أَمۡ لَهُمۡ شِرۡكٞ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِۖ ٱئۡتُونِي بِكِتَٰبٖ مِّن قَبۡلِ

هَٰذَآ أَوۡ أَثَٰرَةٖ مِّنۡ عِلۡمٍ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ﴾ [الأحقاف: الآية ٤] .

﴿قُلۡ أَفَرَءَيۡتُم مَّا تَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ إِنۡ أَرَادَنِيَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ هَلۡ هُنَّ كَٰشِفَٰتُ ضُرِّهِۦٓ أَوۡ أَرَادَنِي بِرَحۡمَةٍ هَلۡ هُنَّ مُمۡسِكَٰتُ رَحۡمَتِهِۦۚ قُلۡ حَسۡبِيَ ٱللَّهُۖ عَلَيۡهِ يَتَوَكَّلُ ٱلۡمُتَوَكِّلُونَ﴾ [الزُّمَر: الآية ٣٨] .

❁❁❁

الدعوة إلى الله(١)

هكذا يكون العمى

يدعو الكثير من المسلمين غير الله من الأموات حتى في أشد الكروب التي كان المشركون يخلصون فيها دعاءهم لله ويرجعون إليه ويستغيثون به، كما حكى الله ذلك عنهم قال تعالى: ﴿فَإِذَا رَكِبُوا فِي الْفُلْكِ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ﴾ [العنكبوت: الآية ٦٥]، ومسلموا هذا الزمان يدعون غير الله إذا ركبوا في الفلك، حتى وهم متوجهون إلى الحج، فإذا عبثت الريح بالفلك وماجت بها أمواج البحر سمعت من يقول منهم: يا سيدة زينب، ومن يقول: يا سيد يا بدوي، ومن يقول: يا جيلاني، ومن يقول: يا رفاعي: ومن يقول: يا سمان، ويرفعون أصواتهم بدعاء غير الله، ويذكر كل أهل قطر أسماء من يتألهون من الموتى ولا يقولون: يا رب، إلا وهم مشركون به غيره، وسبحان الله وتعالى عما يشركون، فإذا قيض الله مؤمنًا غيورًا على توحيد ربه، وقال لهم: ادعوا ربكم وحده، ولا تدعوا معه سواه غضبوا غضبًا شديدًا وسبوه وشتموه، وربما ضربوه، وعدوه كافرًا وقالوا له: إنك تنكر كرامات الأولياء، فإذا أراد أن يفهمهم أن كرامات الأولياء لا تقتضي دعاءهم من دون الله، وأن الكرامات شيء والشرك شيء آخر ﴿جَعَلُوا أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ وَاسْتَغْشَوْا ثِيَابَهُمْ وَأَصَرُّوا وَاسْتَكْبَرُوا اسْتِكْبَارًا﴾ [نوح: الآية ٧]، وقام يجادل عنهم ذوو العمائم الكبيرة والأكمام الواسعة والأجسام الخشبية والعقول الحجرية: بأنهم ما دعوا في الحقيقة إلا الله، وأنهم يعلمون أن هؤلاء الأولياء لا يملكون نفعًا ولا ضرًا، ولكنهم دعوهم يتقربون بهم إلى الله، ويتوسلون بهم؛ لأنهم مقربون عند الرب

(١) مجلة الإصلاح - العدد الرابع عشر - ١٣٤٧/٩/١٥هـ.

جل وعلا . وهكذا يكون العمى !! وربما شبهوا اللَّه بالملوك الظلمة ، والأولياء بالحجاب ، بل كثيرًا ما يفعلون ذلك ، وتعالى اللَّه عما يقول الجاهلون علوًا كبيرًا .

أما دعاؤهم غير اللَّه وقولهم : إنما ندعوهم ليقربونا إلى اللَّه وليشفعوا لنا عنده فقد قال اللَّه تعالى في أمثالهم : ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِۚ قُلْ أَتُنَبِّـُٔونَ ٱللَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [يُونس: الآية ١٨] .

فهذا الدعاء عبادة ، بل هو مخ العبادة كما ورد عن النبى ﷺ(١) وكما فسر بالقرآن حيث قال اللَّه تعالى : ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِىٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْۚ﴾ [غافر: الآية ٦٠] ، ثم قال بعدها : ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِى﴾ [غافر: الآية ٦٠] ، وكما قال تعالى عن إبراهيم : ﴿وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَأَدْعُوا۟ رَبِّى عَسَىٰٓ أَلَّآ أَكُونَ بِدُعَآءِ رَبِّى شَقِيًّا﴾ [مريَم: الآية ٤٨] ، ثم قال : ﴿فَلَمَّا ٱعْتَزَلَهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَۖ وَكُلًّا جَعَلْنَا نَبِيًّا﴾ [مريَم: الآية ٤٩] ففسر الدعاء بالعبادة في الآيتين .

وقولهم : إنما ندعو اللَّه وهو قصدنا في قولنا : يا بدوى ، أو يا دسوقى مثلًا ، إنما هو في الحقيقة كقول النصارى : الثلاثة واحد والواحد ثلاثة ، وعيسى هو اللَّه واللَّه هو عيسى . وكقول الوجودية الملاحدة : العبد رب والرب عبد . من كل قول يناقض نفسه ويرد أوله على آخره ، وينقض لاحقه تاليه . وإلا فما معنى قول أحدهم في الشدائد والكروب : يا بدوى . ويكون نفس هذا الاسم العلم على عبد معروف يكون معنيًا به الرب جل جلاله . هذا لا يقوله عاقل .

وأما قولهم إنما نتوسل بهم ، فيقال له : يا عجبا كل العجب !! أبعد أن أنزل

---

(١) أخرجه الترمذي (٣٣٧١) من حديث أنس رضي اللَّه عنه . وقال الألباني : ضعيف .

اللّٰه الكتب وأرسل الرسل، وبين لنا سبحانه ما يحب وما يكره، وشرع لنا ما نتقرب به إليه وما يحبه منا من أنواع العبادات نتجاهل ذلك، ونبتدع من عندنا توسلات أخرى لم يأذن اللّٰه بها . بل نهى عنها أشد النهى وكفر متخذيها أشنع تكفير ؟؟

يا قوم - بصركم اللّٰه - هل أنزل اللّٰه الكتب وأرسل الرسل إلا ليعلموا الناس الوسائل التي تقربهم إلى اللّٰه والتى يحبها ؟ فما لكم تتركونها وتتخذون غيرها ؟ هل أمركم اللّٰه باتخاذ الأولياء والتقرب بهم ؟ أم قال لكم ﴿ٱعۡمَلُواْ فَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمۡ وَرَسُولُهُۥ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَۖ﴾ [التوبة: الآية ١٠٥] ؟ وهل قال لكم ربكم ورسوله : تقربوا إليَّ بأوليائي ، أم قال : ﴿أقيموا الصلاة وآتوا الزكاة﴾ ؟ ونحو ذلك من الأوامر. الحق أن أوامره ثقلت عليكم فنكصتم على أعقابكم تتقربون بمن عملوا وبمن تزعمون أنهم أولياؤه . وربما كانوا في الواقع وحقيقة الأمر غير أولياء . يقول اللّٰه تعالى : في بيان ما يقرب إليه من كتابه : ﴿وَمَآ أَمۡوَٰلُكُمۡ وَلَآ أَوۡلَٰدُكُم بِٱلَّتِي تُقَرِّبُكُمۡ عِندَنَا زُلۡفَىٰٓ﴾ [سبإ: الآية ٣٧] ، وهنا كأن سائلًا سأل : فما يقربنا إليك يا رب إذن دُلَّنا عليه وأرشدنا إليه فقال تعالى : ﴿إِلَّا مَنۡ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحٗا فَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ جَزَآءُ ٱلضِّعۡفِ بِمَا عَمِلُواْ وَهُمۡ فِي ٱلۡغُرُفَٰتِ ءَامِنُونَ﴾ [سبإ: الآية ٣٧] فبين سبحانه ما يقرب إليه وبين جزاءه وذلك هو الإيمان والعمل الصالح . فلا وسيلة إلى القرب من اللّٰه ورضاه ودخول جنته سوى الإيمان والعمل الصالح ، وعلى هذا تدل آيات القرآن قال تعالى : ﴿وَٱلۡعَصۡرِ ۝١ إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَفِي خُسۡرٍ ۝٢ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَتَوَاصَوۡاْ بِٱلۡحَقِّ وَتَوَاصَوۡاْ بِٱلصَّبۡرِ﴾ ، وقال : ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ يَهۡدِيهِمۡ رَبُّهُم بِإِيمَٰنِهِمۡۖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهِمُ ٱلۡأَنۡهَٰرُ فِي جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ﴾ [يونس: الآية ٩] ، وقال : ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَانَتۡ لَهُمۡ جَنَّٰتُ ٱلۡفِرۡدَوۡسِ نُزُلًا ۝١٠٧ خَٰلِدِينَ فِيهَا لَا يَبۡغُونَ عَنۡهَا حِوَلٗا﴾ ، ﴿وَمَن يُؤۡمِنۢ بِٱللَّهِ وَيَعۡمَلۡ صَٰلِحٗا يُكَفِّرۡ

عَنْهُ سَيِّئَاتِهِۦ وَيُدْخِلْهُ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ [التغابن: الآية ٩] ، ﴿وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ وَيَعْمَلْ صَٰلِحًا يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّئَاتِهِۦ﴾ [التغابن: الآية ٩] الآيات . ويقول : ﴿ٱدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [النحل: الآية ٣٢] .

فما لكم ثقل عليكم الإيمان والعمل فلم تتوسلوا إلى اللَّه بهما؟ وجئتم تتوسلون بما نهاكم عنه من وسائل الكفار المؤدية إلى النار وبئس القرار .

وفي الحديث القدسي الذي ذكره البخاري في صحيحه[1] عن النبي ﷺ عن اللَّه عز وجل أنه قال : « من عادى لي وليًا فقد آذنته بالحرب - أو بارزني بالمحاربة » . ثم بين ما تنال به الولاية فقال : « وما تقرب إليَّ عبدى بأفضل مما افترضت عليه ، ولا يزال عبدى يتقرب إلى بالنوافل حتى أحبه ... الحديث » . فبين لنا أن أفضل ما يتوسل به المتوسلون إليه ، ويتقرب به المتقربون إنما هو الفرائض والنوافل . وليس منها دعاء الأولياء كما لا يخفى ولا الأنبياء ولا الملائكة ، حتى قال في كتابه المبين لمن يدعو غيره من المقربين : ﴿قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِهِۦ فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ ٱلضُّرِّ عَنكُمْ وَلَا تَحْوِيلًا﴾ [الإسراء: الآية ٥٦] ، ثم بين لهم حال أولئك المقربين أنفسهم فقال : ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُۥ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُۥٓ ۚ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا﴾ [الإسراء: الآية ٥٧] أى أن الذين تدعونهم من دوني وتزعمون أنكم تتقربون بهم إليَّ هم أنفسهم يدعوننى ويتقربون إليَّ بما شرعت لهم ويرجون رحمتى ويخافون عذابى ، فكيف تتقربون بهم إليَّ وحالهم كما وصفت لكم بين رجاء وخوف ؟

فلو أن اللَّه تعالى أحب أن نتوسل إليه بذوات أوليائه وأنبيائه وجاههم دون الإيمان والعمل لأمر بذلك ولسماهم لنا ، ولبين الرسول ﷺ ذلك قولًا وعملًا ،

(١) أخرجه البخاري (٦٥٠٢) من حديث أبي هريرة رضي اللَّه عنه .

كما بين كل شيء ، بل كان هذا أحق بالبيان ؛ لأن التوسل إلى اللَّه هو أصل الدين وأساسه ، والمقصود من خلق الجن والإنس فقد قال تعالى : ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: الآية ٥٦]فعبادة اللَّه تعالى والتوجه إليه وحده هي الوسيلة لا غيرها . ولكن إبليس اللعين العدو المبين للإنسان أراد صرف الناس عن عبادة ربهم ، وإبطال التكاليف والعمل بالشرائع فأمرهم بتوسل من عنده لم يشرعه اللَّه ولا رسوله ؛ ذلك هو التوسل بالأشخاص دون الأعمال ، وقد وجده الناس خفيفًا على نفوسهم إذ لا يكلفهم شيئًا مما في العبادات من جوع وظمأ في الصوم ، وقيام وركوع وسجود في الصلاة ، وبذل نفس ومال في الجهاد في سبيل اللَّه ، قال إبليس اللعين لهم : يكفيهم أن تتوسلوا إلى ربكم بالأولياء المقربين فتدعوهم وهم يتوسطون لكم عند ربكم . فأطاعوه فكانوا من الأخسرين أعمالًا ﴿ٱلَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا ﴿١٠٤﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ وَلِقَآئِهِۦ فَحَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَزْنًا ﴿١٠٥﴾ ذَٰلِكَ جَزَآؤُهُمْ جَهَنَّمُ بِمَا كَفَرُوا۟ وَٱتَّخَذُوٓا۟ ءَايَٰتِى وَرُسُلِى هُزُوًا﴾ [الكهف : ١٠٤ - ١٠٦] ، ثم ذكر ضدهم وهم الذين آمنوا وعملوا فقال : ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّٰتُ ٱلْفِرْدَوْسِ نُزُلًا﴾ [الكهف: الآية ١٠٧] الآية .

فالوسيلة الشرعية المرضية عند اللَّه ورسوله هي ما شرعه اللَّه وأمر به ، وذلك الإيمان والعمل الصالح . فإن آمنت وعملت صالحًا نجوت وإلا فما إخالك ناجيًا .

ومن الآيات التي يلبِّس بها الشيطان وأولياؤه قوله تعالى : ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱبْتَغُوٓا۟ إِلَيْهِ ٱلْوَسِيلَةَ﴾ [المائدة: الآية ٣٥] الآية فيقول شيطان الإنس : أمر اللَّه بالوسيلة فلماذا تمنعونها ؟

والجواب : إننا لم نمنع الوسيلة الشرعية التي أمر اللَّه بها في هذه الآية

وغيرها . وقد أجمع المفسرون على أن معناها الإيمان والعمل الصالح .

أمر اللَّه تعالى المؤمنين بتقواه وعطف عليها بابتغاء الوسيلة إليه من عطف الخاص على العام مثل قوله تعالى : ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَءَامِنُواْ بِرَسُولِهِۦ﴾ [الحديد: الآية ٢٨] ، والإيمان بالرسول ﷺ داخل في الأمر بتقوى اللَّه فكذا ابتغاء الوسيلة ، وهذا واضح لمن أراد اتباع الحق وأنصف نفسه .

فإن قيل : أما للأولياء كرامات ؟ قلنا : نعم ، وإن لم يكرم اللَّه أولياءه فمن يكرم ؟ ولكن الكرامات لا تستلزم دعاءهم من دون اللَّه .

والناس قسمان : أولياء اللَّه ، وأعداء اللَّه .

فأما الأولياء فقد وصفهم اللَّه بقوله : ﴿أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ﴾ [يونس : ٦٢ ، ٦٣] ، وهذا من باب : الذين آمنوا وعملوا الصالحات ، فلا تنفل .

وأما أعداؤه فهم الذين لا يؤمنون ولا يعملون .

وقد قال تعالى : ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ عَدُوِّى وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَآءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُواْ بِمَا جَآءَكُم مِّنَ ٱلْحَقِّ﴾ [المُمتحنة: الآية ١] الآية .

فإذا آمن العبد وعمل صالحًا كان وليًا للَّه بقدر إيمانه وعمله وإخلاصه واتباع رسول اللَّه ﷺ ويكرمه اللَّه بما لا يحصى من الكرامات ، لكن لا تظن أن اللَّه يكرم وليه بقبول وساطته وشفاعته في مجرم يدعو غير اللَّه ، هذا محال .

على أن أولياء اللَّه لا يشفعون لمشرك ولا يتوسطون له عند اللَّه بشفاعة ، ولا يرضون ذلك ، ولو رضوا لكانوا أعداء اللَّه لا أولياءه . وكيف يشفعون في مشرك ، أو يكرمهم اللَّه بقبول شفاعتهم في مشرك يدعو غير اللَّه من الأموات ، صالحين أو طالحين ؟

وقد ورد عن النبى ﷺ وعيد شديد فيمن شفع في أقل من ذلك . قال رسول

الله ﷺ : « من حالت شفاعته دون حد من حدود الله فقد حادّ الله عز وجل .. الحديث » رواه أبو داود وغيره[1] . وفى الباب أحاديث بهذا المعنى ، فكيف يرضى وليٌّ الله حقًا أن يدعوه أحد من دون الله ثم بعد ذلك يشفع له ، ويرجو أن يكرمه الله بقضاء حاجة الداعى غيره ؟ هذا محال عند ذوى العقول ، ومعنى ذلك أن العبد يذل ويخضع بسؤال المخلوق الميت ودعائه وطلب ما ليس في قدرته ولا في قدرة أيٍّ مخلوق ، وهذا السؤال والدعاء عبادة ، بل أظهر أنواع العبادة ، ثم يأمل أن يقضى الله حاجته !! أى أن العبادة للمخلوق ، وقضاء المصالح على الخالق .

وهذا هو الظلم العظيم الذي قال الله فيه : ﴿إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ [لقمان: الآية ١٣] فأى عاقل يرضى أن يطعم خادمًا ويسقيه ويكسوه ويقضي له مطالبه وهو يخدم غيره ؟

❁❁❁

(١) أخرجه أحمد ٢/ ٧٠، وأبو داود (٣٥٩٧) من حديث ابن عمر رضي الله عنهما . وصححه الألباني . وانظر الإرواء (٢٣١٨) .

الدعوة إلى الله

(١)

الوسيلة الشرعية[1]

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله نستعينه ونستهديه، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهد الله فلا مضل له ومن يضلل فلا هادى له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له في ملكه ولا وليّ له من الذل، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله صلى الله عليه وآله وسلم.

أما بعد: فهذه رسالة في بيان الوسيلة الشرعية دعانى لكتابتها ما رأيت من خلط العوام وغالب المنتسبين للعلم الوسيلة الشرعية بالوسيلة الشركية، وعدم معرفتهم بالوسائل المشروعة والوسائل الممنوعة، وتحريفهم آيات الله عن مواضعها بالتأويل الذي لم يقل به أحد ممن يعتد بقوله، ولا ينطبق على اللغة التي نزل بها الكتاب المبين؛ اتباعًا لأهوائهم وموافقة لآبائهم، فأقول وبالله التوفيق:

معنى الوسيلة في اللغة:

اعلم رحمك الله أن معنى الوسيلة في اللغة ما يتقرب به إلى الغير، يقال: وسل يسل وسيلة؛ رغب وتقرب فهو واسل، قال لبيد[2]: «بل كل ذي دين إلى الله واسل». ووسل بالتشديد إلى الله بوسيلة وتوسل؛ عمل عملًا تقرب به إلى الله. وقال الراغب[3]: وسل الوسيلة التوصل إلى الشيء برغبة وهي أخص من

(١) مجلة الإصلاح - العدد الخامس عشر - ١/١٠/١٣٤٧هـ.

(٢) انظر الكشاف عن حقائق التنزيل للزمخشري ١/ ٦٦٢. وانظر ديوان لبيد ص ٢٨.

(٣) مفردات الراغب ص ٥٢٣.

الوسيلة ؛ لتضمنها لمعنى الرغبة قال تعالى : ﴿وَٱبۡتَغُوٓاْ إِلَيۡهِ ٱلۡوَسِيلَةَ﴾ [المائدة: الآية ٣٥] .

وحقيقة الوسيلة إلى اللَّه تعالى مراعاة سبيله بالعلم والعبادة ، وتحرى مكارم الشريعة ، وهي كالقرب ، والواسل ؛ الراغب . وقال الزمخشري[1] : الوسيلة ؛ كل ما يتوسل به ، أى يتقرب من قرابة أو صنيعة أو غير ذلك ، فاستعيرت لما يتوسل به إلى اللَّه تعالى من فعل الطاعات وترك المعاصى . اهـ . من تفسيره .

فإذا عرفت أن الوسيلة هي كل ما يتقرب به إلى الغير ، وأن هذا التعريف عام يدخل فيه كل ما يتوسل به الناس إلى ملوكهم ، وقضاء أوطارهم من الدنيا كالدراهم والدنانير ، فإنها وسيلة إلى قضاء الحاجات ، قلت لك : إن الشارع قد خصص هذا العام بما شرعه على لسان الرسول ﷺ من أنواع القرب التي فصلها بالقول والعمل ، كإقام الصلاة وإيتاء الزكاة ونحو ذلك من الفروض والسنن التي تقرب المرء من اللَّه تعالى بأدائها على الوجه الأكمل .

« فالوسيلة » إذن ؛ وسيلة شرعية تقرب إلى اللَّه ، وهى لا تكون بالهوى وقياسات العقول ولا بالرأي ، بل لابد أن تكون بنصوص من الكتاب والسنة وإجماع من يعتد بإجماعهم كالصحابة والتابعين وأئمة العلماء المجتهدين رضى اللَّه عنهم أجمعين .

ووسيلة دنيوية ؛ كالتجارة والزراعة والصناعة وما شاكل ذلك ، وهذه كل إنسان حر فيما يختاره منها لمعاشه ما لم يضر بدينه ، ولكل أمر من أمور الدنيا وسيلة إذا اتخذت إليه وسيلته حصل وإلا لم يحصل .

مثال ذلك : الكسوة والسكنى ، فإن الوسيلة إليهما النقود ، وهذه النقود إن لم تكن مختومة بخاتم الحكومة ومطبوعة بطابعها لم تعتبر ولم تكن وسيلة يقضى

---

(١) الكشاف عن حقائق التنزيل ١/ ٦٦٢.

بها شيء ما . فليت شعرى كيف يعتبر وسيلة شرعية ما ليس له نص من الكتاب أو السنة .

« فالوسائل الشرعية » التي تقرب إلى اللّٰه لابد أن تكون بتوقيف وتعليم من المعصوم ﷺ ، وإلا كانت وسائل إلى النار . قال اللّٰه تعالى : ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَىٰهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ اللَّهِ﴾ [القصص: الآية ٥٠] ، وقال تعالى : ﴿فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَىٰهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ [القصص: الآية ٥٠] فقسم الأمر إلى قسمين لا ثالث لهما : إما إن يكون مما أتى به النبى ﷺ فيجب التسليم له ، وإما لا فهو ضلال ، ومتبعه ضال ومتبع هواه ، وليس أضل منه .

هذه الجملة ينبغى أن تفهمها لتنفعك في مواضع كثيرة وتحل بها كل مشكل وكل خلاف .

فعلى العبد الذي يحب النجاة من النار والفوز بالجنة أن يتبع المشروع من الوسائل ويعمل بها ولا يتعداها وإلا فقد ضل ضلالًا بعيدًا .

(يتبع)

❁ ❁ ❁

الدعوة إلى الله(١)

(٢)

بيان الوسيلة الشرعية والشركية في القرآن

قال تعالى : ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱبْتَغُوٓاْ إِلَيْهِ ٱلْوَسِيلَةَ وَجَٰهِدُواْ فِى سَبِيلِهِۦ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [المائدة: الآية ٣٥] هذه آية قرآنية من سورة المائدة أمر اللّٰه فيها باتخاذ الوسيلة إليه ، فهل يظن عاقل أن يترك النبى ﷺ بيان هذه الوسيلة ؛ كيفية وكمية ؛ قولًا وعملًا وهو المنزل عليه ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ﴾ [النحل: الآية ٤٤] ؟ اللهم لا .

ولا جواب على هذا إلا أن نقول : قد بين النبى ﷺ أنواع الوسائل المشروعة كلها بدليل قوله ﷺ : « ما تركت شيئًا يقربكم من اللّٰه إلا أمرتكم به ، ولا شيئًا يبعدكم عن اللّٰه إلا ونهيتكم عنه »(٢) . أو كما قال .

وقال اللّٰه تعالى : ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا﴾ [المائدة: الآية ٣] إذن فما هي الوسيلة المشروعة التي بينها الرسول ﷺ ولا يقبل اللّٰه سواها ؟

الوسيلة المشروعة التي أمر اللّٰه بها في الآية الكريمة وبين النبى ﷺ إجمالها هي الإيمان والتقوى والعمل الصالح . فإن قلت : هذا مجمل أيضًا . قلت لك : نعم ، وتفصيله أن العمل الصالح لا يكون صالحًا إلا إذا كان موزونا بميزان الكتاب والسنة .

---

(١) مجلة الإصلاح - العدد السادس عشر - ١٣٤٨/١/١هـ .

(٢) أخرجه الشافعي في مسنده ٢٣٣/١ من حديث المطلب بن حنطب رضي اللّٰه عنه ، وأخرجه البغوي في شرح السنة (٤١١١) من حديث ابن مسعود رضي اللّٰه عنه .

وأول الأعمال الصالحة بعد الإيمان أداء الفرائض ، كالصلاة والزكاة والصيام والحج .. إلخ .

والإيمان مبين في حديث جبريل المشهور في الصحيحين(١) إذ سأل رسول الله ﷺ قائلًا : ما الإيمان ؟ قال : « الإيمان أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والقدر خيره وشره » . وقال النبى ﷺ فيما يرويه عن ربه عز وجل من حديث أبى هريرة عند البخارى(٢) : « من عادى لي وليًا فقد بارزنى بالمحاربة - أو فقد آذنته بالحرب - وما تقرب إليَّ عبدى بأفضل مما افترضته عليه ، ولا يزال عبدى يتقرب إلى بالنوافل حتى أحبه ، فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به .. إلخ » .

ففهمنا من هذا الحديث أن أنواع القرب فرض ونفل . وأن العبد لا يتقرب إلى الله بشيء أفضل مما افترضه الله سبحانه على عباده ، وبينته سنة رسوله المعصوم ﷺ .

ويبين لك أن الوسيلة المشروعة هي الإيمان والتقوى والعمل الصالح قول الله تعالى في آية أخرى في سورة « سبأ » : ﴿وَمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُم بِٱلَّتِى تُقَرِّبُكُمْ عِندَنَا زُلْفَىٰٓ إِلَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ جَزَآءُ ٱلضِّعْفِ بِمَا عَمِلُوا۟ وَهُمْ فِى ٱلْغُرُفَٰتِ ءَامِنُونَ﴾ [سبأ: الآية ٣٧] ، فتأمل قوله جل ذكره : ﴿إِلَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا﴾ [سبأ: الآية ٣٧] بعد قوله : ﴿وَمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُم بِٱلَّتِى تُقَرِّبُكُمْ عِندَنَا زُلْفَىٰٓ﴾ [سبأ: الآية ٣٧] ، فلو كان شيء يقرب إليه تعالى غير الإيمان والعمل الصالح لبينه ، حيث الحاجة إليه ماسة والضرورة به قاضية .

---

(١) أخرجه البخاري (٥٠، ٤٧٧٧) ، ومسلم (٩) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه ، وجاء من حديث ابن عمر ، عن عمر عند مسلم (١) .

(٢) أخرجه البخاري (٦٥٠٢) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه .

وقد بين النبى ﷺ بهديه أنواع الأعمال الصالحة ولم يترك شيئًا منها، ولذلك قال: « مَن أحدث في أمرنا هذا ما ليس منه فهو رد »[(١)] رواه مسلم والبخارى، أى فهو مردود عليه، وقال في حديث آخر: « كل بدعة ضلالة »[(٢)].

ويبين لك أن الوسيلة المشروعة هي الإيمان والعمل الصالح آيات القرآن الكثيرة المتضافرة، والسنة، كقوله تعالى: ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا﴾ [الكهف: الآية ١١٠]، وقوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّٰتُ ٱلْفِرْدَوْسِ نُزُلًا ﴿١٠٧﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَا لَا يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلًا﴾، وقوله جل ذكره: ﴿وَٱلْعَصْرِ ﴿١﴾ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَفِى خُسْرٍ ﴿٢﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَتَوَاصَوْاْ بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْاْ بِٱلصَّبْرِ﴾.

ويبين لك هذا المعنى أن اللَّه تعالى شهد للذين آمنوا وعملوا الصالحات بأنهم خير البرية. قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُوْلَٰٓئِكَ هُمْ خَيْرُ ٱلْبَرِيَّةِ ﴿٧﴾ جَزَآؤُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّٰتُ عَدْنٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُواْ عَنْهُ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَشِىَ رَبَّهُۥ﴾ [البينة: ٧، ٨]، وترى أن اللَّه تعالى جعل الإيمان والعمل الصالح سببًا ووسيلة في دخول الجنة، وناط بهما الفوز والنجاة، فقال جل شأنه: ﴿ٱدْخُلُواْ ٱلْجَنَّةَ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [النحل: الآية ٣٢]، ومثل هذا في القرآن كثير لمن يتدبر وقال: ﴿وَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُوْلَٰٓئِكَ يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا﴾ [النساء: الآية ١٢٤]. وترى أن اللَّه تعالى نفى أن ينفع عنده شيء غير الإيمان والعمل الصالح في كثير من الآيات كقوله تعالى: ﴿وَٱلظَّٰلِمُونَ مَا لَهُم مِّن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾ [الشورى: الآية ٨]، وقوله: ﴿يَوْمَ يَأْتِى بَعْضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ لَا يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَٰنُهَا لَمْ تَكُنْ

(١) أخرجه البخاري (٢٦٩٧)، ومسلم (١٧١٨) من حديث عائشة رضي اللَّه عنها.

(٢) أخرجه مسلم (٨٦٧) من حديث جابر بن عبد اللَّه رضي اللَّه عنه.

ءَامَنَتْ مِن قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِىٓ إِيمَٰنِهَا خَيْرًاۗ﴾ [الأنعام: الآية ١٥٨] ، وكقوله جل ثناؤه لرسوله ﷺ ﴿وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم بَعْدَ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا وَاقٍ﴾ [الرعد: الآية ٣٧] ، وقوله جل ثناؤه : ﴿مَا سَلَكَكُمْ فِى سَقَرَ ﴿٤٢﴾ قَالُوا۟ لَمْ نَكُ مِنَ ٱلْمُصَلِّينَ ﴿٤٣﴾ وَلَمْ نَكُ نُطْعِمُ ٱلْمِسْكِينَ ﴿٤٤﴾ وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ ٱلْخَآئِضِينَ ﴿٤٥﴾ وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿٤٦﴾ حَتَّىٰٓ أَتَىٰنَا ٱلْيَقِينُ ﴿٤٧﴾ فَمَا تَنفَعُهُمْ شَفَٰعَةُ ٱلشَّٰفِعِينَ﴾ [المدثر : ٤٢ - ٤٨] ، وقوله تعالى : ﴿وَمَن لَّا يُجِبْ دَاعِىَ ٱللَّهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَيْسَ لَهُۥ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءُۚ أُو۟لَٰٓئِكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ [الأحقاف: الآية ٣٢] .

وقد أمره اللَّه تعالى أن يتبرأ ممن عصاه ولو كان من ذوي قرباه قال تعالى : ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ ﴿٢١٤﴾ وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢١٥﴾ فَإِنْ عَصَوْكَ فَقُلْ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ﴾ [الشعراء : ٢١٤ - ٢١٦] .

فتدبر هذا وكرره مرارًا حتى يسطع نور اليقين في قلبك وحتى تتذوق حلاوة ذكره على لسانك ويهتز منها سائر جسمك ثم اقرأ قوله تعالى : ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِىٓ إِبْرَٰهِيمَ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ إِذْ قَالُوا۟ لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَءَٰٓؤُا۟ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةُ وَٱلْبَغْضَآءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥٓ﴾ [المُمتَحنَة: الآية ٤] فقد أعلن إبراهيم خليل اللَّه عداوته لقومه وبراءته منهم ومما يعبدون من دون اللَّه حتى يؤمنوا باللَّه وحده ، فجعل الإيمان هو الغاية التي عندها تنتهي العداوة والبراءة ، وقد أمرنا اللَّه بالتأسي به عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام .

فلو كان ينفع غير الإيمان والعمل الصالح الذي هو نتيجة لازمة له لنفع نوح ابنه ، وإبراهيم قومه وأباه ، ولنفع كل نبى أقاربه ، وحينئذ يبطل التكليف ، ويعود إرسال الرسل وإنزال الشرائع عبثًا . تعالى اللَّه عما يشركون وعما يقولون ويعتقدون علوا كبيرًا . ونسأله السلامة والعفو والعافية .

ولو قرأ التاركون للإيمان والأعمال الصالحة - اتكالًا على شفاعة الأولياء

والأنبياء - قول الله تعالى حكاية عن نوح : ﴿وَنَادَىٰ نُوحٌ رَّبَّهُۥ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ٱبْنِى مِنْ أَهْلِى وَإِنَّ وَعْدَكَ ٱلْحَقُّ وَأَنتَ أَحْكَمُ ٱلْحَٰكِمِينَ﴾ [هُود: الآية ٤٥] ، ورد الله تعالى عليه بقوله : ﴿يَٰنُوحُ إِنَّهُۥ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ ۖ إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيْرُ صَٰلِحٍ ۖ فَلَا تَسْـَٔلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۖ إِنِّىٓ أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾ [هُود: الآية ٤٦] لو قرأوا ذلك وفهموه حق الفهم لآمنوا بالله وسارعوا إلى العمل الصالح ، وليئسوا من اتكالهم على الأولياء والشفعاء ، وأخذوا بأقوى الأسباب التي تنجيهم ؛ إذ ليس أقرب من نوح لابنه وقد قال الله فيه ما قال ، ويبين سبب هلاكه بقوله : ﴿إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيْرُ صَٰلِحٍ ۖ﴾ [هُود: الآية ٤٦] ، ونفى كونه من أهله لهذا السبب عينه .

فتأمل هذا جيدًا لتعلم أن ربك عدل ﴿لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ ۖ وَإِن تَكُ حَسَنَةً يُضَٰعِفْهَا وَيُؤْتِ مِن لَّدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ [النّساء: الآية ٤٠] ، وتعلم السر في قضائه وقدره إذ أغرق ابن نوح ولم ينجه مع كفره لأجل أبيه ، ولم يقبل استغفار إبراهيم لأبيه ، ولم ينج أهل لوط لأجله ، ولا فرعون لأجل امرأته ، ولا أبا طالب لأجل حبيبه ﷺ .

فلا وسيلة إلى رضى الله تعالى والفوز بجنته والنجاة من النار إلا بالإيمان والعمل الصالح ، وقد قال تعالى : ﴿وَلِكُلٍّ دَرَجَٰتٌ مِّمَّا عَمِلُوا۟ ۚ﴾ [الأنعَام: الآية ١٣٢] ، وقال تعالى : ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ﴿٧﴾ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ﴾ [الزلزلة : ٧ ، ٨] ، وقال تعالى حكاية عن موسى عليه السلام لقومه : ﴿وَإِن لَّمْ تُؤْمِنُوا۟ لِى فَٱعْتَزِلُونِ﴾ [الدّخَان: الآية ٢١] كما قال تعالى لرسوله ﷺ : ﴿فَإِنْ عَصَوْكَ فَقُلْ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ﴾ [الشُّعَرَاء: الآية ٢١٦] ، وكما قال عن إبراهيم وأبيه ﴿فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥٓ أَنَّهُۥ عَدُوٌّ لِّلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ ۚ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَأَوَّٰهٌ حَلِيمٌ﴾ [التوبَة: الآية ١١٤] .

فلم يعلق الله حبه ورضاه والفوز بجنته إلا بالإيمان والعمل الصالح ، ولم يكن

رضاه إلا على المؤمنين المحسنين ، ولم يكرم إلا المؤمنين المتقين . وقد قص الله تعالى علينا ما سيكون من المفرطين في الإيمان والأعمال الصالحة من الحسرة والندامة يوم القيامة وتمنيهم الرجوع إلى الدنيا ثانية ليعملوا ويتبعوا المرسلين قال تعالى : ﴿وَيَوْمَ يَعَضُّ ٱلظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ يَقُولُ يَٰلَيْتَنِى ٱتَّخَذْتُ مَعَ ٱلرَّسُولِ سَبِيلًا ۝٢٧ يَٰوَيْلَتَىٰ لَيْتَنِى لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا﴾ .

(يتبع)

❁❁❁

الدعوة إلى الله[1]

(٣)

فصل

وقد نفى نفع الأولياء في القرآن في مواضع لا تحصى ؛ قطعًا لأطماع الذين يتكلون عليهم ويتخذونهم من دون اللّٰه شفعاء وزلفى إليه تعالى ، من ذلك قول اللّٰه تعالى : ﴿وَلَا تَرْكَنُوٓا۟ إِلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ فَتَمَسَّكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِنْ أَوْلِيَآءَ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ﴾ [هُود: الآية ١١٣] ، وقال : ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ * أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۗ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾ ، وقال : ﴿وَأَنذِرْ بِهِ ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ أَن يُحْشَرُوٓا۟ إِلَىٰ رَبِّهِمْ ۙ لَيْسَ لَهُم مِّن دُونِهِۦ وَلِىٌّ وَلَا شَفِيعٌ لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ [الأنعام: الآية ٥١] ، وقال لرسوله : ﴿قُلْ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَتَّخِذُ وَلِيًّا فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [الأنعام: الآية ١٤] ، وقال : ﴿مَثَلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْلِيَآءَ كَمَثَلِ ٱلْعَنكَبُوتِ ٱتَّخَذَتْ بَيْتًا ۖ وَإِنَّ أَوْهَنَ ٱلْبُيُوتِ لَبَيْتُ ٱلْعَنكَبُوتِ ۖ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ﴾ [العَنكبوت: الآية ٤١] ، وهذا أبلغ مثل ضربه اللّٰه للذين يتخذون أولياء من دون اللّٰه . وقال : ﴿أَمِ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ ۖ فَٱللَّهُ هُوَ ٱلْوَلِىُّ وَهُوَ يُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ [الشّورى: الآية ٩] ، وقال : ﴿أَمِ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ شُفَعَآءَ ۚ قُلْ أَوَلَوْ كَانُوا۟ لَا يَمْلِكُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَعْقِلُونَ ﴿٤٣﴾ قُل لِّلَّهِ ٱلشَّفَٰعَةُ جَمِيعًا ۖ لَّهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ ، وقال تعالى : ﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ إِنَّ ٱللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِى مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ۗ﴾ [الزُّمَر: الآية ٣] ، وقال ﴿وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا مَا حَوْلَكُم مِّنَ ٱلْقُرَىٰ وَصَرَّفْنَا

(١) مجلة الإصلاح - العددان السابع عشر والثامن عشر - ١٣٤٨/١/١٥هـ.

ٱلْأَيَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٢٧﴾ فَلَوْلَا نَصَرَهُمُ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ قُرْبَانًا ءَالِهَةًۢ بَلْ ضَلُّوا۟ عَنْهُمْ وَذَٰلِكَ إِفْكُهُمْ وَمَا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ﴾ ، وقال : ﴿وَمَن لَّا يُجِبْ دَاعِىَ ٱللَّهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَيْسَ لَهُۥ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءُ أُو۟لَٰٓئِكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ [الأحقاف: الآية ٣٢] ، وقال تعالى : ﴿وَيْلٌ لِّكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ﴿٧﴾ يَسْمَعُ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ثُمَّ يُصِرُّ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٨﴾ وَإِذَا عَلِمَ مِنْ ءَايَٰتِنَا شَيْـًٔا ٱتَّخَذَهَا هُزُوًا أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿٩﴾ مِّن وَرَآئِهِمْ جَهَنَّمُ وَلَا يُغْنِى عَنْهُم مَّا كَسَبُوا۟ شَيْـًٔا وَلَا مَا ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْلِيَآءَ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ .

وقال : ﴿وَمَا كَانَ لَهُم مِّنْ أَوْلِيَآءَ يَنصُرُونَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾ [الشّورى: الآية ٤٦] ، وقال : ﴿وَلَا يَمْلِكُ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِ ٱلشَّفَٰعَةَ إِلَّا مَن شَهِدَ بِٱلْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [الزّخرُف: الآية ٨٦] . ﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهُ حَفِيظٌ عَلَيْهِمْ وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ﴾ [الشّورى: الآية ٦] .

فصل

ولما كان اتخاذ الأولياء من دون اللّه كفرا وضلالًا ، قال تعالى : ﴿أَفَحَسِبَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَن يَتَّخِذُوا۟ عِبَادِى مِن دُونِىٓ أَوْلِيَآءَ إِنَّآ أَعْتَدْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَٰفِرِينَ نُزُلًا﴾ [الكهف: الآية ١٠٢] ، وقال : ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَن لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُۥٓ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ وَهُمْ عَن دُعَآئِهِمْ غَٰفِلُونَ ﴿٥﴾ وَإِذَا حُشِرَ ٱلنَّاسُ كَانُوا۟ لَهُمْ أَعْدَآءً وَكَانُوا۟ بِعِبَادَتِهِمْ كَٰفِرِينَ﴾ .

فمن دعا أحدًا من الصالحين ، سواء كان المدعو صالحًا في الواقع أو في اعتقاد الداعى فحسب ، أو تقرب إليه بذبيحة أو نذر أو خافه أو رجاه فقد اتخذه إلهًا ووليًا من دون اللّه ، وكان دعاؤه إياه وذبحه ونذره وسائر ما يفعله عند القبر من الذل والخشوع عبادة ، ولا يغنى عنه تسمية ذلك توسلًا أو استشفاعًا أو تقربًا ، فإن الحقائق لا تتغير بتغير الأسماء، فإذا سميت الخمر زبيبًا أو مستكة كما

يسميها فسقة اليوم ، لم يكن ذلك برافع عنها حقيقة الخمر وحكمها من التحريم والحد .

كذلك الشرك لا يزيل حقيقته وضع أسماء جميلة الظاهر له . ولذا لما سمى أكثر المسلمين الشرك بغير اسمه وغالطوا أنفسهم واتبعوا أهواءهم ، سلط الله عليهم من يسومهم سوء العذاب من الأمم القوية الإباحية التي تسمي الاستعباد استقلالًا ، والإباحية تمدينًا ، والخلاعة وتهتك النساء رقيًا وتقدمًا ، وكذلك يجزى الله المفترين ﴿فَلَوْلَا نَصَرَهُمُ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ قُرْبَانًا ءَالِهَةَۢ﴾ [الأحقاف: الآية ٢٨] ؟ كأبي العباس والبدوي والدسوقي والرفاعي ، وغيرهم من المعبودين في الهند والشام وجاوه ومصر القاهرة وسائر البلاد والقرى والكفور : ﴿بَلْ ضَلُّواْ عَنْهُمْۚ وَذَٰلِكَ إِفْكُهُمْ وَمَا كَانُواْ يَفْتَرُونَ﴾ [الأحقاف: الآية ٢٨] ، وقال تعالى في إخوانهم من المشركين السالفين ، الذين كانوا يختانون أنفسهم بتسمية الشرك بغير اسمه الحقيقي ﴿أَفَرَءَيْتُمُ ٱللَّٰتَ وَٱلْعُزَّىٰ ﴿١٩﴾ وَمَنَوٰةَ ٱلثَّالِثَةَ ٱلْأُخْرَىٰٓ ﴿٢٠﴾ أَلَكُمُ ٱلذَّكَرُ وَلَهُ ٱلْأُنثَىٰ ﴿٢١﴾ تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَىٰٓ ﴿٢٢﴾ إِنْ هِىَ إِلَّآ أَسْمَآءٌ سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍۚ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَمَا تَهْوَى ٱلْأَنفُسُۖ وَلَقَدْ جَآءَهُم مِّن رَّبِّهِمُ ٱلْهُدَىٰٓ﴾ .

فصل

وقد سمى الله المتخذين من دونه أولياء آلهة في غير موضع من القرآن فقال : ﴿وَٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ ءَالِهَةً لَّعَلَّهُمْ يُنصَرُونَ ﴿٧٤﴾ لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَهُمْ وَهُمْ لَهُمْ جُندٌ مُّحْضَرُونَ﴾ ، وقال عن المشركين ﴿أَجَعَلَ ٱلْأَٰلِهَةَ إِلَٰهًا وَٰحِدًاۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ عُجَابٌ﴾ [ص: الآية ٥] ، وقال : ﴿ءَأَٰلِهَتُنَا خَيْرٌ أَمْ هُوَۚ﴾ [الزخرف: الآية ٥٨] ؟ يعنون عيسى ابن مريم . وقال : ﴿وَقَالَ ٱللَّهُ لَا تَتَّخِذُوٓاْ إِلَٰهَيْنِ ٱثْنَيْنِۖ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌۖ﴾ [النحل: الآية ٥١] .

ولنذكر ما ظهر لنا هنا من نكت البلاغة في وصف إلهين باثنين ، وبيان ذكر اثنين من وجوه :

أولها : التنصيص على المنهي عنه من تعدد الآلهة .

الثاني : التشنيع على المشركين في اتخاذ إلهين اثنين ، فكيف بثلاثة أو ربعة فكيف بثلاثة وأربعة وأكثر من ذلك ؟

الثالث : إظهار غباوتهم وجهلهم بذكر اثنين بعد ما يفيد التثنية في إلهين ، كما تخاطب خادمًا غبيًا عندك لا يفهم إلا بالتكرير والتأكيد ، لا سيما إذا كان ما تنهاه عنه مما ألفه .

الرابع : أنه من باب التفنن في نفى الآلهة ، فإن قوله : ﴿لَا تَتَّخِذُوٓاْ إِلَٰهَيۡنِ ٱثۡنَيۡنِۖ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞ﴾ [النحل: الآية ٥١] كقوله : ﴿فَٱعۡلَمۡ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ [محمد: الآية ١٩] .

الخامس : أنه مشعر بوجود إله واحد ، وإن ضم إله آخر معه حتى يكونا اثنين لجرم كبير وظلم عظيم . فكون الشيء واحدًا غير متعدد والناس يتخذون معه ثانيًا جهل شنيع .

والإله معناه المعبود . فمعنى (لا إله) نفى المعبودات كلها . ومعنى (إلا الله) إثبات المعبود الحق وحده وهو اللّٰه تعالى ، وعلى العبد أن يعرف أصناف العبادة وأنواعها ، وحقيقتها ، حتى لا يجعلها لغير اللّٰه تعالى ، ولا تقع منه لسواه .

أما معناها : فهى غاية الذل والخضوع مع غاية المحبة للمعبود .

وأما أنواعها فالدعاء ، بل هو رأسها ، بل هو مخها ، بل هو هي . كما قال النبى ﷺ : « الدعاء هو العبادة » رواه الترمذى وغيره[1] ، والصلاة والصوم

---

(١) أخرجه الترمذي (٢٩٦٩) ، وأبو داود (١٤٧٩) ، وابن ماجه (٣٨٢٨) من حديث النعمان بن بشير رضي اللّٰه عنه . وصححه الألباني .

والزكاة والحج وسائر المفروضات والنوافل .

وهى مقسمة على الجوارح كلها .

فعبادة القلب ؛ الإيمان والإخلاص والمحبة والخوف والرجاء والتوكل والإنابة والرهبة .

وعبادة اللسان ؛ الصدق في القول والذكر والشكر والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ... إلخ .

وعبادة البصر ؛ النظر في خلق السماوات والأرض وآيات القرآن ونحو ذلك .

والسمع ؛ أن تسمع العلم والذكر والحق من القول ، وتعرض عن اللغو وعما لا يعنى ... إلخ .

وعبادة اليد ؛ التصدق وإعانة الغير ، ودفع الشر والأذى والجهاد في سبيل اللَّه ، وتناول ما فيه ثواب ودفع ما فيه عقاب .

وعبادة الرجل ؛ السعي في طلب العلم وإلى المساجد ، وصلة الأرحام ، والسعي في طلب الرزق الحلال .. إلخ .

وكل ما عملته الجوارح الظاهرة باشتراك أو انفراد ، فإن كان مشروعًا فهو عبادة ، وإن لم يكن مشروعًا فهو إما مباح أو مكروه كراهة تحريم أو تنزيه .

فإذا جعلت المشروع كالنذر والذبح لأحد من الخلق حيًا أو ميتًا أو عمدت أقدامك إلى زيارة ضريح من الأضرحة المعظمة بقصد التبرك والتضرع بصاحبه فقد جعلت حق اللَّه لغيره من الحق وهذا معنى : ﴿إِنَّ ٱلشِّرۡكَ لَظُلۡمٌ عَظِيمٌ﴾ [لقمان: الآية ١٣] ، وأى ظلم أعظم من أن تعطى حق اللَّه لغيره ؟ وأن تجعل نفسك عبدًا لمخلوق مثلك ؟ وأنه خلقك لتكون عبده وحده .

فمن ترك الإيمان والعمل الصالح ، وتوسل بالأولياء ليقربوه إلى اللَّه فقد ضل ضلالًا بعيدًا ، وتبرأ منه الأولياء ، وكان متوسلًا بما لم يجعله اللَّه وسيلة لا شرعًا

ولا عقلًا .

أما شرعًا فإنه لم يأت في القرآن ولا في السنة : « توسلوا بأولياء اللَّه إلى اللَّه » . وما ينسبونه كذبًا على الرسول ﷺ من قوله : « توسلوا بجاهى .. إلخ »[1] باطل باتفاق أهل العلم بالحديث .

وأما عقلًا ، فلأن الميت لا ينفع ولا يضر ، ولأننا نرى من توسل بذي جاه في الدنيا لنيل منصب من مناصب أهلها مثلا وهو لا يحسن العمل الذي يستلزمه ذلك المنصب كان مجرمًا في الحقيقة وشاعرًا بنقصه ودناءته ، وكان من قبل الشفاعة فيه ضعيف الإرادة ظالمًا لأنه قبل في المنصب غير كفئه ، وهذا مما يترتب عليه فساد النظام وهلاك الحرث والنسل . ولذا ترى المتوسلين بالرشاوي والقرابات وذوي الجاه إلى مقاصدهم يستخفون ويسرون ذلك ولا يعلنونه ؛ لأنه معلوم قبحه وعاره عند الناس خاصهم وعامهم ، فكيف يقبل مثل ذلك عند اللَّه تعالى الحكم العدل ؟

❁ ❁ ❁

(١) انظر السلسلة الضعيفة (٢٢) ، والتوسل أنواعه وأحكامه ص١١٧ للألباني .

(ظاهرة محزنة من حال المسلمين)[١]

ورد السؤال الآتى من أحد أفاضل الهنود الذين وفدوا على أم القرى لحج هذا العام قدمه للأستاذ الشيخ عبد الظاهر أبي السمح خطيب الحرم ، وكنت حين تقديم ذلك السؤال حاضرًا مع الشيخ أبى السمح فطلب مني[٢] الأخ الهندي مشاركة الشيخ في الجواب .

ونص السؤال :

(١) هل يجوز لأحد أن يخص مسجد الحنفية أو الشافعية أو الحنابلة أو المالكية بأن لا يصلى فيه غيرهم ؟

(٢) ما حكم من يمنع واحدًا من المسلمين أن يصلى في المسجد إذا هو أجهر بالتأمين أو رفع يده قبل الركوع وبعده ؟ بينوا الحكم في ذلك مأجورين .

الجواب :

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمد للّٰه وحده ، والصلاة والسلام على من لا نبي بعده ، وبعدُ : فالجواب على ما ذكر من السؤال وباللّٰه التوفيق .

١ - أما تخصيص مسجد بجماعة من المسلمين يكون مباحًا لهم ومحظورا على غيرهم ، سواء كانت هذه الجماعة منتسبة إلى أبي حنيفة أو مالك أو الشافعي أو أحمد أو إلى غيرهم رضي اللّٰه عنهم جميعًا ، فهذا غير جائز شرعًا ولم يسمع بمثل هذا في عصر من العصور الفاضلة التي كان الإسلام مرفوع المنار والحق قوي الصوت والباطل زاهقًا ، وما سمعنا ولا سمع أحد من المسلمين أن أبا حنيفة

---

(١) مجلة الإصلاح - العدد الثالث - ١٣٤٧/٣/٣٠هـ .

(٢) من الشيخ محمد الفقي - رحمه اللّٰه - .

جعل لأصحابه مسجدًا يخصهم ولا يحل لغيرهم من أصحاب العلماء الذين كانوا معه بالكوفة أن يصلي معهم ، ولا سمع مثل هذا عن الشافعي ، ولا عن مالك ، ولا عن أحمد ، ولا عن أحد من بقية الأئمة المهتدين ، بل المعروف المتواتر الذي لا يشك فيه أحد أن المسجد كان يصلي فيه أصحاب أبي حنيفة وراء أصحاب مالك وغيرهم ، وكذلك أصحاب كل واحد من العلماء كان يفعل مثل فعل أصحاب أبي حنيفة ، بل وما كان يخطر في بال أحد من أولئك السالفين رحمة اللَّه عليهم أن يجيء زمن يتقدم فيه مثل هذا السؤال الذي هو من أعجب ما ولدت لنا فتن عدولنا عن الاستقامة على سبيل سلفنا الصالح الذين اعتصموا بحل اللَّه جميعًا ، وكانوا برحمة اللَّه إخوانًا ، مهما كان بينهم ، رحمهم اللَّه ، من اختلافات فرعية ما كان يحلم الشيطان أبدًا أن ينال منهم بها مثل ما نال من أولئك المخالفين الذين جعلوا الأمر عصبية وتحاكما إلى الأهواء والآراء ، فأطاعوا بذلك شيطان الفرقة وعصوا اللَّه ورسوله ، وكان عاقبة ذلك أن صار بأسهم بينهم شديدًا ، ﴿تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّىٰ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْقِلُونَ﴾ [الحشر: الآية ١٤] .

٢- المساجد كلها للَّه يجب أن تكون خالصة له دون أحد من الخلق ، ولا يحل لأحد من الناس أن يتحكم فيها بهواه وعصبيته ، يمنع منها أحدًا ممن يقيم فيها الصلاة ويؤدى فيها الشعائر الإسلامية ، ومن فعل ذلك فهو أشبه فيمن قال اللَّه تعالى فيهم : ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن مَّنَعَ مَسَاجِدَ اللَّهِ أَن يُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ وَسَعَىٰ فِي خَرَابِهَا ۚ أُولَٰئِكَ مَا كَانَ لَهُمْ أَن يَدْخُلُوهَا إِلَّا خَائِفِينَ ۚ لَهُمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [البقرة: الآية ١١٤] .

والمراد من المساجد التي لا يحل لأحد أن يمنع منها أحدًا من الذين يعمرونها بالذكر والصلاة هي المساجد التي بنيت وحبست ووقفت على ذكر اللَّه

والصلاة ، فهذه هي العامة لا يحل لأحد المنع منها ، وهي التي يصدق عليها اسم المسجد عرفًا . أما أن يكون أحد اتخذ لنفسه في بيته مسجدًا يصلي فيه وكان ذلك عبارة عن حجرة من حجر البيت ، ومنع غيره من الوصول إلى ذلك المحل فلا بأس عليه إذا هو منع منه ، وهو في الحقيقة لم يمنع المسلمين من مسجد ، بل منعهم دخول بيته الذي جعلت الشريعة له الحق والحرية في أن يمنع منه من يشاء .

وإن تعجب من شيء فاعجب مِن قوم يزعمون أنهم متبعون لأئمة الهدى ومقتدون بخيار سلف هذه الأمة من مالك والشافعي وأحمد بن حنبل وأبي حنيفة وغيرهم رضي اللَّه عنهم أجمعين ، ثم أنت بعد ذلك تجدهم يحادون اللَّه ورسوله وأولئك الأئمة ويشاقونهم ، ويتبعون غير سبيل المؤمنين ، فلو لم يكن للمؤمنين ولا يكون لهم من سبيل إلا قول مرشدهم ﷺ : « مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم وتعاطفهم كمثل الجسد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الأعضاء بالحمى والسهر »[(١)] . فأين فعل هؤلاء المفرقين المشتتين لكلمة المسلمين المجيبين لداعى الشيطان من ذلك الحديث الذي هو صوت داعي الهدى والرشاد والفلاح ؟

وهل يظن ظان أو يخطر على بال مسلم أن أبا حنيفة ومالكا والشافعي وأحمد وغيرهم من أئمة الهدى وعلماء الأمة يرضيه مثل هذه العصبية الجاهلية ويقبل أن ينتسب إليه واحد من أولئك المفرقين؟ كلا واللَّه ألف مرة وحاشى أولئك المهتدين أن يقبلوا مثل ذلك الذي ينقض عرى الإسلام ويهد بناءه ويقوض دعائمه ويجعل المسلمين بعد ذلك أعداء متناحرين متباغضين يأكل بعضهم بعضًا والبقية تكون غنيمة باردة لا عداء المسلمين من أمم الغرب التي تسوم المسلمين في الهند

(١) أخرجه مسلم (٢٥٨٦) من حديث النعمان بن بشير رضي اللَّه عنه .

ومصر وجاوه وسوريا وغيرها صنوف العذاب وأنواع الذل والهوان .

نعم - واللَّهِ - ما وضع الإنكليزي يده على عنق المسلم الهندي إلى بمعاونة أخيه المسلم بمثل هذه الأمور الفرعية البسيطة التي فعلها وتركها على حد سواء ؛ وباتخاذها مثارًا لمنازعات ومشاحنات يضرم العدو بها نار الفتنة ويوقد لهب الحرب بينهما ، حتى يبيتا وفى قلوبهما من البغضاء والحنق على بعضهما ما يبنى منه ذلك العدو الألد عرشًا يقضي من فوقه على أرواحهم وأموالهم وأولادهم وأوطانهم ، وهم بتلك البسائط والجزئيات عن تخليص أنفسهم لاهون .

ما هي تلك الأمور التي من أجلها تفرقون كلمتكم وتشتتون جمعكم ، وتتراشقون برسائل الطعن ومقالات التهجين والتفسيق ؟

إن الجهر بالتأمين لم يقل أحد من سلف الأمة ولا خلفها أنه من أركان الصلاة التي تتوقف صحتها على الإتيان به أو بطلانها على تركه ، ومثل ذلك رفع اليدين قبل الركوع وبعده ، لم يجعله أحد من علماء السلف سببًا لمقاطعة ولا سبيلا لرمي بمثل تلك الأحجار القاسية التي تشجون بها رأس الإسلام ، وتسيلون بها من عيون المؤمنين العبرات الغزيرة على ما آلت إليه حالة المسلمين من عداء وخصام .

أيها المسلمون ، باللَّه أفيقوا من غفلتكم وقدروا أقوالكم وأعمالكم ، وزنوا أنفسكم بميزان القرآن الحكيم والرسول الكريم وسلف الأمة الصالحين المهتدين .

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمة اللَّه عليه في الفتاوى(١) : فإن الرفع المتنازع فيه ليس من نواقض الصلاة ، بل يجوز أن يصلي بلا رفع ، وإذا رفع كان أفضل وأحسن ، وإذا كان الرجل متبعًا لأبي حنيفة أو مالك أو الشافعي أو أحمد ورأى في بعض المسائل أن مذهب غيره أقوى فاتبعه كان قد أحسن في ذلك ، ولم

(١) مجموع الفتاوى ٢٢/٢٤٨ - ٢٥٥.

يقدح ذلك في دينه وعدالته بلا نزاع ، بل هذا أولى بالحق وأحب إلى الله ورسوله ﷺ ممن يتعصب لواحد معين غير النبي ﷺ كمن يتعصب لمالك أو الشافعي أو أحمد أو أبي حنيفة ويرى أن قول هذا المعين هو الصواب الذي ينبغي اتباعه دون قول الإمام الذي خالفه ، فمن فعل هذا كان جاهلًا ضالًا ، بل غاية ما يقال إنه يسوغ أو ينبغي أو يجب على العامي أن يقلد واحدًا لا بعينه من غير تعيين. ومن كان مواليًا للأئمة محبًا لهم يقلد كل واحد منهم فيما يظهر له أنه موافق للسنة فهو محسن في ذلك .. إلى أن قال : وقد أمر الله تعالى المؤمنين بالاجتماع والائتلاف ونهاهم عن الافتراق والاختلاف فقال : ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسۡلِمُونَ ١٠٢ وَٱعۡتَصِمُواْ بِحَبۡلِ ٱللَّهِ جَمِيعٗا وَلَا تَفَرَّقُواْۚ وَٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ إِذۡ كُنتُمۡ أَعۡدَآءٗ فَأَلَّفَ بَيۡنَ قُلُوبِكُمۡ فَأَصۡبَحۡتُم بِنِعۡمَتِهِۦٓ إِخۡوَٰنٗا وَكُنتُمۡ عَلَىٰ شَفَا حُفۡرَةٖ مِّنَ ٱلنَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنۡهَاۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمۡ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمۡ تَهۡتَدُونَ ١٠٣ وَلۡتَكُن مِّنكُمۡ أُمَّةٞ يَدۡعُونَ إِلَى ٱلۡخَيۡرِ وَيَأۡمُرُونَ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَيَنۡهَوۡنَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ١٠٤ وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ تَفَرَّقُواْ وَٱخۡتَلَفُواْ مِنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلۡبَيِّنَٰتُۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ عَذَابٌ عَظِيمٞ ١٠٥ يَوۡمَ تَبۡيَضُّ وُجُوهٞ وَتَسۡوَدُّ وُجُوهٞۚ﴾ [آل عمران : ١٠٢ - ١٠٦] .

قال ابن عباس : تبيض وجوه أهل السنة والجماعة وتسود وجوه أهل البدعة والفرقة(١) .

فأئمة الدين هم على منهاج الصحابة رضوان الله عليهم ، والصحابة كانوا مؤتلفين متفقين ، وإن تنازعوا في بعض فروع الشريعة في الطهارة أو الصلاة أو الحج أو الطلاق أو الفرائض أو غير ذلك ، فإجماعهم حجة قاطعة ، وتنازعهم

---

(١) أخرجه ابن أبي حاتم في تفسيره ٧٢٩/٣ (٣٩٥٠) . وانظر تكميل النفع بما لم يثبت به وقف ولا رفع (١٢) للشيخ محمد عمرو بن عبد اللطيف ، رحمه الله .

رحمة واسعة ، ومن تعصب لواحد بعينه من الأئمة دون الباقين فهو بمنزلة من تعصب لواحد بعينه من الصحابة دون الباقين ، كالرافضي الذي يتعصب لعلي دون الخلفاء الثلاثة وجمهور الصحابة ، وكالخارجي الذي يقدح في عثمان وعلي رضي اللّه عنهما . فهذه طرق أهل البدع والأهواء الذين ثبت بالكتاب والسنة والإجماع أنهم مذمومون خارجون عن الشريعة والمنهاج الذي بعث اللّه به رسوله ﷺ .

فمن تعصب لواحد من الأئمة بعينه نفيه شبه من هؤلاء ، سواء تعصب لمالك أو الشافعي أو أبي حنيفة أو أحمد أو غيرهم ، ثم غاية المتعصب لواحد منهم أن يكون جاهلًا بقدره في العلم والدين وبقدر الآخرين ، فيكون جاهلًا ظالمًا ، واللّه يأمر بالعدل ، والعلم وينهى عن الجهل والظلم .

وهذا أبو يوسف ومحمد أتبع الناس لأبي حنيفة وأعلمهم بقوله وهما قد خالفاه في مسائل لا تكاد تحصى ؛ لما يبين لهما من السنة والحجة ما وجب عليهما اتباعه ، وهما مع ذلك معظمان لإمامهما ، لا يقال فيهما مذبذبان ، بل أبو حنيفة وغيره من الأئمة يقول القول ثم تتبين له الحجة في خلافه فيقول بها ولا يقال له مذبذب .

فالواجب على كل مؤمن موالاة المؤمنين وعلماء المؤمنين ، وأن يقصد الحق ويتبعه حيث وجده ، ويعلم أن من اجتهد منهم فأصاب فله أجران ، ومن اجتهد فأخطأ فله أجر واحد لاجتهاده وخطأه مغفور له .

وعلى المؤمنين أن يتبعوا إمامهم إذا فعل ما يسوغ فإن النبى ﷺ قال : « إنما جعل الإمام ليؤتم به »(١) . وسواء رفع يديه أو لم يرفع لا يقدح ذلك في صلاتهم

---

(١) أخرجه البخاري (٣٧٨، ٦٨٨) ، ومسلم (٤١١، ٤١٢) من حديث عائشة وأنس رضي اللّه عنهما .

ولا يبطلها لا عند أبي حنيفة ولا الشافعي ولا مالك ولا أحمد . ولو رفع الإمام دون المأموم أو المأموم دون الإمام لم يقدح ذلك في صلاة واحد منهما ، ولو رفع الرجل في بعض الأوقات دون بعض لم يقدح في صلاته .

وليس لأحد أن يتخذ قول بعض العلماء شعارًا يوجب اتباعه وينهى عن غيره مما جاءت به السنة ، بل كل ما جاءت به السنة فهو واسع .

ومن أسباب تسليط اللّه التتار على بلاد الشرق كثرة التفرق والفتن بينهم في المذاهب وغيرها ، حتى تجد المنتسب للشافعي بتعصب لمذهبه على مذهب أبي حنيفة حتى يخرج عن الدين ، والمنتسب إلى أبي حنيفة بتعصب لمذهبه على مذهب الشافعي وغيره حتى يخرج عن الدين ، والمنتسب إلى أحمد كذلك ، وفي المغرب نجد المنتسب إلى مالك يتعصب لمذهبه على هذا أو هذا .

وكل هذا من التفرق والاختلاف الذي نهى اللّه ورسوله عنه وكل هؤلاء المتعصبين بالباطل المتبعين الظن وما تهوى الأنفس بغير هدى من اللّه مستحقون للذم والعقاب .

وهذا باب واسع لا تحتمله هذه الفتيا ، فإن الاعتصام بالجماعة والائتلاف من أصول الدين ، والفرع المتنازع فيه (الذى هو رفع اليدين) من الفروع الخفيفة فكيف يقدح في الأصل بحفظ الفرع ؟ أ هـ بتصرف .

وقال في موضع آخر[١] ص (٢٨٠) : تجوز صلاة أهل المذاهب الأربعة وغيرهم بعضهم خلف بعض ، كما كان الصحابة والتابعون لهم بإحسان والأئمة الأربعة يصلي بعضهم خلف بعض مع تنازعهم في مسائل من الفروع وغيرها ، ولم يقل أحد من السلف إنه لا يصلى بعضهم خلف بعض ومن أنكر ذلك فهو مبتدع ضال مخالف للكتاب والسنة وإجماع سلف الأمة وأئمتها . اهـ بتصرف .

---

(١) مجموع الفتاوى ٢٣/ ٣٧٤.

القمار[1]

ضرره في المال والنفس

القمار أو الميسر هو سلب أموال الناس بحيل باطلة مكشوفة أو خفية تواضع عليها ذوو الشره والطمع . وقد كان في الجاهلية فجاء الإسلام بتحريمه كما جاء بتحريم مثله من المظالم الضارة في الهيئة الاجتماعية .

لا يخفى أن المال شقيق الروح ولازم من لوازم حياتها وسعادتها أو شقائها ولذا قرن اللّٰه بينه وبينها في كتابه وقدمه في الذكر على النفس في مواطن الجهاد في سبيله فقال عز من قائل : ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ أَعْظَمُ دَرَجَةً عِندَ ٱللَّهِۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ﴾ [التوبة: الآية ٢٠] ، وهكذا في غير ما آية . وقال تعالى : ﴿وَلَا تُؤْتُواْ ٱلسُّفَهَآءَ أَمْوَٰلَكُمُ ٱلَّتِي جَعَلَ ٱللَّهُ لَكُمْ قِيَٰمًا﴾ [النّساء: الآية ٥] ، وقال عز من قائل : ﴿وَكُلُواْ وَٱشْرَبُواْ وَلَا تُسْرِفُوٓاْۚ﴾ [الأعراف: الآية ٣١] ، وما ذلك إلا حفظًا للأموال وقال : ﴿ٱلْمَالُ وَٱلْبَنُونَ زِينَةُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَاۖ﴾ [الكهف: الآية ٤٦] فقرن المال بالبنين وجعله زينة الدنيا معهم ومن عنده الزينة لا شك كان أزين من العاطل منها وأقدر على عمل الصالحات كما ورد في الصحيح[2] أن بعض الصحابة الفقراء قالوا : يا رسول اللّٰه ، إن الأغنياء يصلون كما نصلي ويصومون كما نصوم ولهم فضل أموال يتصدقون بها ؟ فقال : « ألا أدلكم على شيء إن فعلتموه ..» ، الحديث . وسمى اللّٰه تعالى المبذرين إخوان الشياطين فقال : ﴿إِنَّ ٱلْمُبَذِّرِينَ كَانُوٓاْ إِخْوَٰنَ ٱلشَّيَٰطِينِۖ وَكَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ لِرَبِّهِۦ كَفُورًا﴾ [الإسراء: الآية ٢٧] .

فالنتيجة أن العبد المبذر في المال كفور ويستنبط منه بطريق اللزوم أن المال

---

(١) مجلة الإصلاح – العدد التاسع والعاشر – ١٣٤٧/٧/١٥هـ .

(٢) أخرجه البخاري (٨٠٧، ٥٩٧٠)، ومسلم (٥٩٥) من حديث أبي هريرة رضي اللّٰه عنه .

نعمة وأن المبذر فيه كافر شديد الكفر بالنعمة .

وليس أفظع من هذا الوصف يوصف به إنسان في جنب تبذيره في المال وما ذاك كله إلا لشرف المال وكفى به شرفًا أنه مادة الحياة فلا تبنى الدور ولا تعمر المساجد والقصور ولا ينشر علم الجهاد ولا تستذل الآساد إلا بالمال وهو دية النفس ومهر النساء وسلاح الجبناء والشجعان ولسان العجم والعربان ، ولكن المقامرين لا يعرفون قدره ولا يؤدون حق اللّٰه فيه بشكره والإرعواء عليه وصرفه في حقوقه ، بل يدفعونه بالعشرات والمئات والألوف صفقة واحدة أو جزافًا بلا عد ، طامعين أن يعود إليهم بأضعافه وما هي إلا لعبة واحدة حتى تذهب به كله فيقعد صاحبه مذموما مخذولا محسورا محزونا فلا ماله حفظ ولا عمره صان ولا شرفه أبقى ولا ربه خاف واتقى ، فمثل هذا النار أولى به ولا عجب أن يعجل بنفسه انتحارًا إلى النار وبئس القرار وهذه عاقبة القمار .

لو كان الذين شغفوا بالقمار ممن يؤمنون باللّٰه واليوم الآخر لقلنا لهم اتقوا اللّٰه وارجوا اليوم الآخر أو لو كانوا يؤمنون بالقرآن لقرأنا عليهم آياته وقلنا : ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّمَا ٱلْخَمْرُ وَٱلْمَيْسِرُ وَٱلْأَنصَابُ وَٱلْأَزْلَٰمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ فَٱجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٩٠﴾ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَن يُوقِعَ بَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ فِى ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَعَنِ ٱلصَّلَوٰةِ فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ﴾ [المائدة : ٩٠، ٩١] .

أجل لو كانوا يؤمنون بالقرآن لكفتهم هذه الآية ومثلها من الأحاديث في بيان ضرر القمار وبيان أنه رجس من عمل الشيطان ، وأنه يصد عن ذكر اللّٰه ، إلى آخر ما وصف اللّٰه ، ناهيك أنه قرنه بالخمر والأنصاب والأزلام ولو كانوا يسمعون أو يعقلون لاعتبروا بما يقع بين أيديهم وبما يصيب إخوانهم من تخريب بيوتهم بأيديهم وتطليق نسائهم وتيتيم أولادهم بعد أن حرموهم من أنسهم ليلا ونهارا وأفقروهم صغارًا وكبارًا .

فسبحان من أعماهم عن منافعهم وهم يزعمون أنهم متعلمون . وسبحان من أضلهم عن مصالحهم جزاء ما كسبت أيديهم وما ظلمهم اللَّه ولكن كانوا أنفسهم يظلمون .

ومن المصائب أن الإفرنج قد أفشوا هذا الميسر بطرق شيطانية غريبة واتخذوا له نوادى في المدن من أضخم العمارات وأثثوها بأحسن الأثاث وأفخر الرياش وجاءهم السادة الأغنياء فعكفوا على منضدة القمار كما يعكف عباد العجل على عبادته واحضتنوها كما يحتضن المحب حبيبه والوالدة ولدها طول الليل فيا ليتنى كنت في عبادة اللَّه كهؤلاء المساكين في عبادة (طاولة القمار) ويا ليتهم كانوا أسخياء في سبيل اللَّه أو في مصالح بلادهم وفقرائهم وأقاربهم كسخائهم في الميسر الذي يغضب اللَّه ويورثهم الفقر والفاقة والذلة والمسكنة حتى أن أحدهم يقوم آخر الليل عن (الطاولة) لا يجد أجرة سيارة ولا حمار وهو الذي يقال له : سعادة الباشا وصاحب العزة البك - فيا فرحة الشيطان به ليلة خسارته إذ يقول له وقد خسر عمره وماله وشرفه : أهلا بمن لا يفلح أهلا بذى الطلعة المشئومة على نفسه وأهله وأمته بمثلك أنجح في مهمتي ويكثر أوليائي وأصل إلى بغيتي ألا تقامر فداك أبى وأمى بكل ما تملك بثيابك التي تستر بها نفسك ، وهكذا يعدهم ويمنيهم وما يعدهم الشيطان إلا غرورا .

ومن المصائب أن الإفرنج وأشياعهم لم يقتصروا على إغواء الكبار بل أرادوا طبع الصغار على هذا العار فاخترعوا لهم ألاعيب شتى وأدخلوها في التجارة وسموها (اليانصيب) في حلويات وغيرها ، ويسميها الباعة (شختك بختك) ، فيشترى الأطفال ظرفًا مقفلًا بقرش طمعًا أن يجد به ما يساوى قرشين أو عشرة ، فمرة يجد شيئًا يفرح به ومائة مرة لا يجد وبهذه الطريقة تنمو في الأطفال جذور الأطماع حتى تكبر معهم ويعسر تهذيبها وإصلاحها فإن لم تتدارك الحكومات

الحازمة هذا الخطر الوبيل وتعالجه بالأدوية الفعالة حتى تستأصل جذوره قبل نموها وإلا فبشرها بعذاب أليم في الدنيا والآخرة وذلك جزاء العالمين وإنا لنأسف جد الأسف كلما سمعنا أن الداء سرى إلى النساء واتخذهن لهن نوادى للقمار وأنه أصبح من المدنية التي يزعم الملحدون أنها مدنية راقية يصلح بها المجتمع ولم نسمع أن حكومة من الحكومات قامرت ببلد ولا بمملكة ولا بمستعمرة من مستعمراتها ولا جعلت وزارة لها أسمتها وزارة القمار ولا مصلحة من المصالح وديوانا من الدواوين فيا عجبًا من هذه المدنية التي لم يعرفها غير هؤلاء المساكين.

اللهم اهدهم فإنهم لا يعلمون.

❁❁❁

عقيدة أهل السنة

في كلمتي الشهادة التي هي إحدى مباني الإسلام(١)

نُشر في جريدة (التقوى) العدد (٨٧) ص ٥ الصادر في المحرم سنة ٥٠ كلام طويل في صفات اللَّه تعالى، فيه الحق الموافق لعقيدة السلف الصالح، والباطل الذي لم يقولوه، ولم يروه عنهم راوٍ يوثق بعلمه وروايته.

ونحن مع حبنا للتقوى، واشتراكنا فيها، والعمل على إذاعتها، ونشرها، وترويجها بين الناس لم نرض هذا المقال لما جاء فيه من الكلام المبتدع؛ الذي هو بأهل الكلام والبدع أشبه منه بأهل السنة والجماعة، ونحن نبين ذلك فيما يلي إجمالًا:

قال: «عقيدة أهل السنة في كلمتيّ الشهادة التي هي إحدى مباني الإسلام»

فأشعر هذا العنوان صراحة أنه سيذكر عقيدة السلف الصالح- أي الصحابة والتابعين وتابعيهم والأئمة الذين جاءوا من بعدهم من حملة السنة ورواة الأحاديث النبوية- وأنه سيبين معنى كلمتيّ الشهادة، ولكنه مع الأسف لم يفعل ذلك، بل نقل لنا عقيدة خلفية كلامية، فيها ما يوافق عقيدة أهل السنة وفيها ما لا يوافقه.

إذ يقول:

«عقيدتهم في ذاته- تعالى وتقدس- أنه واحد لا شريك له، ولا ند له، ولا ضد له، ولا مثيل ولا نظير.. إلى قوله: وهو بكل شيء عليم»

وهذا حق كله.

---

(١) صحيفة «صوت الحجاز»، العدد (١٤)، في ١٣٥١/٣/٧هـ.

وأما قوله : « ليس بجسم مصور ، ولا جوهر مقدَّر ، وإنه لا يماثل الأجسام ، لا في التقدير ولا في قبول الانقسام ، وإنه ليس بجوهر ولا بعرض ولا تحله الأعراض ، ولا ... ولا ... ولا... ولا ...» .

فهذا لم يرد عن السلف ، ولم تكن طريقتهم في وصف الباري جل وعلا السلب والنفي الكثير[١] ، كما فعل هذا الناقل ، وليته عزا ما نقله إلى من قاله من العلماء ، أو عزاه إلى نفسه- إن كان هو قائله- بل نسبه إلى أهل السنة ، وأهل السنة يبرءون من شيء اسمه جوهر وعرض وكلام مثل هذا .

إنما جاء لفظ جوهر وعرض في كلام المتكلمين . وهذا من التكلف الذي لم يُؤمروا به ، والإمام الشافعي رضي اللَّه عنه كان يقول فيهم ما معناه : « إنما جزاء هؤلاء أن يُضربوا بالجريد والنعال ويطاف بهم راكبين إلى الخلف ... إلخ »[٢]

وطريقة القرآن في الصفات الإثبات . والنفي فيه قليل كما قال شيخ الإسلام أحمد بن عبد الحليم ابن تيمية -رحمه الله- في بعض كتبه .

فهذا الإمام الجليل والحافظ الكبير ألف في العقائد رسائل صغيرة وكبيرة ، بين فيها عقائد السلف ، ولم يزد شيئًا عما جاء في القرآن والسنة ، فليت الكاتب نقل لنا شيئًا من تلك الرسائل ، كالواسطية ، أو شيئًا مما كتبه الإمام أبو الحسن الأشعري في كتابه « المقالات » أو الصابوني ، أو الطحاوي ، أو الإمام مالك

---

(١) قال ابن أبي العز – رحمه اللَّه – في « شرح الطحاوية » : (يأتي الإثبات للصفات في كتاب اللَّه مفصلا ، والنفي مجملا ، عكس طريقة أهل الكلام المذموم : فإنهم يأتون بالنفي المفصل والإثبات المجمل) (١/١٦٥) ت / د . عبداللَّه التركي والأرنؤوط

(٢) قال ابن أبي العز – رحمه اللَّه – في شرح الطحاوية (١/١١٩) : (وقال الشافعي رحمه اللَّه : حكمي في أهل الكلام أن يضربوا بالجريد والنعال ، ويطاف بهم في القبائل والعشائر ، ويقال : هذا جزاء من ترك الكتاب والسنة ، وأقبل على الكلام) (١/١١٩) ت / د . عبداللَّه التركي والأرنؤوط

رضي اللَّه عنه، أو أحمد، أو أمثالهم من الأئمة.

ولعلنا ننقل هنا عقيدة الأشعري التي ذكرنا آنفًا ليعلم أكثر المنتسبين[١] للأشعري أنهم ليسوا على شيء.

ولقد كان يكفي الكاتب: (ليس كمثله شيء) في النفي، ولكنه مسكين قلد في النقل ولم يكن له اختيار ولا اطلاع على مذهب السلف في العقائد، بل اتبع من يدعون أنهم أهل السنة، والمدعون كثير، ولم يميز بالبرهان والدليل من هم أحق بهذا اللقب العظيم (أهل السنة).

[٢]وليعلم القارئ الكريم أن هذه الطريقة التي نقلها الكاتب لنا في جريدة (التقوى)، وزعم أنها عقيدة أهل السنة بهذا الأسلوب السلبي، إنما هي طريقة الجهمية النفاة الذين لا يصفون اللَّه تعالى إلا بالعدم. حتى من إغراقهم في النفي يقولون: «لا هو فوق ولا تحت، ولا يمين ولا شمال، ولا خلف ولا قدام، ولا وراء، ولا ...ولا... ولا ...»

ولو كلف أعقل العقلاء أن يصف العدم لما وصفه بأكثر من ذلك.

نعم! أثبت للَّه تعالى الاستواء على الوجه الذي قاله، ولو اقتصر على ذلك لكفى، ولكنه زاد فقال: «استواء منزهًا عن المماسة والاستقرار والتمكن والحلول والانتقال لا يحمله العرش، بل العرش وحملته محمولون بلطفه، ومقهورون في قبضته .. إلخ»

وفي هذا فضول لم يقله السلف، ولم ينطقوا بحرف منه. فيا ويل من يقول على اللَّه ما لا يعلم، ويصفه بما لا يعرف، من أدرى هذا الكاتب بأنه لا يحمله العرش، وأنه استواء منزه عن المماسة والاستقرار والتمكن والحلول. ألا يجوز أن

(١) في الأصل: «المنتسبون». والصواب ما أثبتناه.

(٢) تتمة المقال في صحيفة صوت الحجاز العدد (١٥)، في ١٤/٣/ ١٣٥١هـ

يكون ذلك كله أو بعضه مما يفعله الله تعالى، وهو على كل شيء قدير، وأن يكون للمماسة والاستقرار معنى آخر غير الذي يعرف كما للضحك والعجب(١)، ومثل ذلك مما وردت به الأحاديث الصحيحة. وهل كُلفنا أن نشرح الاستواء كما شرحه هذا الكاتب؟ وهل كان السلف يقولون هذا؟! فليأتنا بالآثار وأسانيدها حتى نعلم مثل ما علم، وإلا فلا يقل: إن هذا عقيدة أهل السنة.

إن الإمام مالكًا رضي الله عنه -وهو إمام أهل السنة في عصره، وناشر علمها

(١) قال ابن أبي العز - رحمه الله - في شرح الطحاوية :(وليس لنا أن نصف الله تعالى بما لم يصف به نفسه ولا وصفه به رسوله نفيا ولا إثباتا، وإنما نحن متبعون لا مبتدعون. فالواجب أن ينظر في هذا الباب، أعني باب الصفات، فما أثبته الله ورسوله أثبتناه، وما نفاه الله ورسوله نفيناه. والألفاظ التي ورد بها النص يعتصم بها في الإثبات والنفي، فنثبت ما أثبته الله ورسوله من الألفاظ والمعاني، وننفي ما نفته نصوصهما من الألفاظ والمعاني، وأما الألفاظ التي لم يرد نفيها ولا إثباتها فلا تطلق حتى ينظر في مقصود قائلها: فإن كان معنى صحيحا قبل، لكن ينبغي التعبير عنه بألفاظ النصوص، دون الألفاظ المجملة، إلا عند الحاجة، مع قرائن تبين المراد والحاجة مثل أن يكون الخطاب مع من لا يتم المقصود معه إن لم يخاطب بها، ونحو ذلك.) (٣٣٠/١) ت / د. عبدالله التركي والأرنؤوط

وقال - أيضًا- شارحًا قول الطحاوي - رحمه الله -: (قوله: (وهو مستغن عن العرش وما دونه، محيط بكل شيء وفوقه، وقد أعجز عن الإحاطة خلقه).

ش: أما قوله: « وهو مستغن عن العرش وما دونه ». فقال تعالى: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [آل عِمرَان: الآية ٩٧]، وقال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ هُوَ ٱلْغَنِيُّ ٱلْحَمِيدُ﴾ [فَاطِر: الآية ١٥].

وإنما قال الشيخ رحمه الله هذا الكلام هنا، لأنه لما ذكر العرش والكرسي، ذكر بعد ذلك غناه سبحانه عن العرش وما دون العرش، ليبين أن خلقه للعرش واستواءه عليه، ليس لحاجته إليه، بل له في ذلك حكمة اقتضته، وكون العالي فوق السافل، لا يلزم أن يكون السافل حاويا للعالي، محيطا به، حاملا له، و لا أن يكون الأعلى مفتقرا إليه. فانظر إلى السماء، كيف هي فوق الأرض وليست مفتقرة إليها؟ فالرب تعالى أعظم شأنا وأجل من أن يلزم من علوه ذلك، بل لوازم علوه من خصائصه، وهي حمله بقدرته للسافل، وفقر السافل، وغناه هو سبحانه عن السافل، وإحاطته عز وجل به، فهو فوق العرش مع حمله بقدرته للعرش وحملته، وغناه عن العرش، وفقر العرش إليه، وإحاطته بالعرش، وعدم إحاطة العرش به، وحصره للعرش، وعدم حصر العرش له. وهذه اللوازم منتفية عن المخلوق.(٤٢٩/٢).

في وقته- سُئل عن الاستواء فلم يزد على قوله: الاستواء معلوم، والكيف مجهول، والسؤال عنه بدعة[1]. فهل عجز مالك عن وصف الاستواء- ومقامه من اللغة والعلم والدين مقامه- ويقوى عليه حضرة الكاتب أو من نقل عنه؟ سبحان الله!

هل قال رسول الله ﷺ، وهو المأمور بالتبليغ والدعوة إلى ربه- والدعوة إلى الله فرعٌ عن معرفته سبحانه- هذا الكلام؟ وهل قال: فوقية لا تزيده قربًا إلى العرش والسماء كما لا تزيده بعدًا عن الأرض والثرى؟. وقال: وإنه لا يحل في شيء، وإنه بائن من خلقه بصفاته ليس في ذاته سواه ولا في سواه ذاته؟! ما هذا الكلام الفارغ الذي ينقل مثله عن الجهم بن صفوان والمريسي وأضرابهما من الدخلاء في الإسلام.

ثم أخذ يتكلم على الحياة والقدرة والعلم والإرادة وسائر الصفات التي اختارها الخلف كالسنوسي. وقسموها إلى أربعة أقسام: نفسية، وسلبية، ومعان، ومعنوية، وجعلوها عشرين. وهذا الحصر والتقسيم لم يرو عن السلف الصالح الذين هم أهل السنة بالحق، وهو قول على الله بغير علم.

وقد حرم الله تعالى في كتابه في جملة ما حرم القول عليه جل وعلا بغير علم. فقال عز من قائل: ﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَٱلْإِثْمَ وَٱلْبَغْيَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَأَن تُشْرِكُوا۟ بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا وَأَن تَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف: الآية ٣٣].

فتأمل رحمك الله كيف قرن القول عليه بغير علم بالشرك وعطف عليه؟

---

(١) ذكره في شرح الطحاوية في عدد من المواضع، انظر (١/١٨٨)، (٢/٤٣٠)، (٢/٧٠١). وجاء في الإبانة الكبرى لابن بطة (٦/١٥٢) عن سفيان بن عيينة، قال: سئل ابن أبي عبد الرحمن عن قوله تعالى: (الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى)، قال: الاستواء غير مجهول، والكيف غير معقول، ومن الله تعالى الرسالة، وعلى النبي البلاغ، وعلينا التصديق.

وكيف عدَّه من جملة الفواحش التي حرَّمها؟ فيجب أن يقف المسلم في العقائد- ولا سيما صفات اللَّه تعالى وأسمائه- على ما ورد في الكتاب العزيز والسنة الصحيحة إثباتًا ونفيًا بغير زيادة ولا نقص.

[(١)] وللعالم الداعي إلى اللَّه أن يناظر أصحاب النحل بالطرق التي يمكنه إقناعهم بها، ويخاطبهم بما يعرفون من قواعدهم وأساليبهم حتى يرجعوا إلى الحق، كما كان يفعل الغزالي رحمه اللَّه وغيره من علماء المسلمين في الرد على أهل البدع، ولكن لا يكون كلامهم في هذه المناظرات والمجادلات من العقائد التي تنشر في جريدة كالتقوى لعوام المسلمين؛ فإن جمهور الناس لا يعرفون جوهرًا وعرضًا ولا كلامًا مثل هذا.

وليت شعري من الذي قال لهذا الكاتب: صف لنا ربك بغير ما وصف نفسه، وغير ما وصف رسوله ﷺ حتى تكلَّف أن يقول لنا: «يرى من غير حدقة ولا أجفان، ويسمع من غير صمخة وآذان، كما يعلم بغير قلب، ويبطش بغير جارحة، ويخلق بغير آلة» معللًا هذا كله بقوله: «إذ لا تصبح صفاته صفات الخلق كما لا تشبه ذاته ذوات الخلق»

ويمكن أن يُرد هذا التعليل بأن لا داعي له، وأن اللَّه لم يكلفنا ذلك، وبأنه يجوز أن يكون سمعه بآذان لا تشبه آذان المخلوقين، وأن له قلبًا لا كقلوب المخلوقين مثلًا. ويمكن أن يقال مثل ذلك في الرؤية والخلق، ولا سيما أنه ورد في القرآن: أنه خلق آدم بيده. وإذا كان باب الإمكان واسعًا، فلماذا لا نقف عند وصف اللَّه نفسه، ووصف رسوله ﷺ إثباتًا ونفيًا؟ ونتبع طريق السلف في ذلك، وقد نقلنا آنفًا ما روي عن مالك.

فإن قال قائل: هذا مقتضى قوله تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ [الشورى:

---

(١) تتمة المقال في صحيفة صوت الحجاز العدد (١٦)، في ١٣٥١/٣/٢١هـ.

الآية ١١] و﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ﴾ [الإخلاص : الآية ٤] .

قلنا : وهل عجز السلف عن شرحها ؟ أم ترك الرسول لكم بيانها ؟ أم لم يسعكم ما وسع الصحابة والتابعين فيها ؟

وبعد هذا كله فما معنى كلمتي الشهادة التي وعد الكاتب ببيانها بمقتضى عنوانه ؟ إن كان هذا فلا نسلِّم . وكل ذي مسكةٍ من عقل ونهلةٍ من علم ينكر أن يكون هذا معنى شهادة ألا إله إلا اللّه وأن محمدًا رسول اللّه .

وإنما معنى شهادة ألا إله إلا اللّه : الاعتراف والإذعان بأنه لا معبود حق إلا اللّه ، وأن محمدًا ﷺ رسوله . فهذا ما تدل عليه كلمة الشهادة بالمطابقة ، وتدل باللزوم على وجوب الطاعة للّه ولرسوله على المعترف المذعن ، ومن الطاعة الانتهاء عما نهى اللّه ورسوله عنه من القول بلا علم . قال تعالى : ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۚ إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُو۟لَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا﴾ [الإسراء: الآية ٣٦] . وفي هذا القدر كفاية لمن أراد الحق ، ومن شاء مزيدًا فعليه بالواسطية لشيخ الإسلام ابن تيمية ، وشرح الطحاوية المطبوع على نفقة الإمام عبد العزيز آل السعود- وفقه اللّه وأيده بنصره- وغير ذلك من كتب السنة وتفسير السلف .

واللّه الموفق ، لا رب غيره ولا إله سواه .

❁❁❁

بيان حقيقة، ورد شبهة[1]

كتبت مقالًا تحت عنوان (الإسلام والمسلمون) متحريًا فيه دعوة المسلمين بالتي هي أحسن إلى الوفاق والوئام وترك الشقاق والخصام، وبينت بالإجمال ما كان عليه السلف الصالح، وما عليه المسلمون اليوم في جريدة «الإسلام» فكتب حضرة محرر «الإسلام» يرد على هذا تحت عنوان (رد عليه)، وتشبث حضرته بمثل ضربته، وهو اختلاف المسلمين في الوسيلة إلى اللَّه اختلافًا جرَّ عليهم فتنًا عظيمة، وبلايا جسيمة صدعت وحدتهم وفرقت كلمتهم، ولم أتعرض لتصويب فريق وتخطئة فريق، بل قمت بينهم داعيًا إلى التوفيق لا أكثر ولا أقل، فرماني حضرة الأستاذ بما رماني في مقاله، وزعم أنني متعصب لجماعة يرون قصر الناس على مذهبهم ورأيهم، وأن الدين أنزل واسعًا فضيقناه، وقد بنى هذا الرد وتلكم التهم على فهمه في الوسيلة ورأْي لم تسمعه الأمة. وهو أن الوسيلة إلى اللَّه من المسائل الفرعية التي يعذر الناس فيها حسب اختلافهم في الأذواق والفهم والاجتهاد-

وهذا يبطله القرآن والسنة والعقول السليمة. برهان ذلك قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱبۡتَغُوٓاْ إِلَيۡهِ ٱلۡوَسِيلَةَ﴾ [المائدة: الآية ٣٥].

ولا ريب أن النبي ﷺ بيَّن للناس معنى هذه الوسيلة، وكل ما يقرِّبهم إليه تعالى قولًا وعملًا وتقريرًا؛ فبيَّن الصلاة، والزكاة، والصوم، والحج، وأنواع البر كلها كما أمره اللَّه تعالى في قوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغۡ مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَۖ﴾ [المائدة: الآية ٦٧]، وقوله جل شأنه: ﴿وَأَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ ٱلذِّكۡرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيۡهِمۡ﴾ [النحل: الآية ٤٤].

---

(١) صحيفة «صوت الحجاز»، العدد (٨)، في ١٣٥١/١/٢٤هـ.

وقال تعالى في بيان الوسيلة إليه أيضًا : ﴿وَمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُم بِٱلَّتِى تُقَرِّبُكُمْ عِندَنَا زُلْفَىٰٓ إِلَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ جَزَآءُ ٱلضِّعْفِ بِمَا عَمِلُوا۟ وَهُمْ فِى ٱلْغُرُفَٰتِ ءَامِنُونَ﴾ [سَبَإ: الآية ٣٧] .

فبين أن الزلفى إليه بالإيمان والعمل الصالح ، وقد ذكر اللَّه تعالى الإيمان والعمل الصالح في كتابه أكثر من مائتي مرة ، حتى في أقصر سورة وهي ﴿وَٱلْعَصْرِ ① إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَفِى خُسْرٍ ② إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ﴾ [العصر : ١-٣] . وأخبر بأن الذين آمنوا وعملوا الصالحات هم خير البرية ، وأن الذين كفروا أولئك هم شر البرية .

وفي « صحيح البخاري » عن أبي هريرة رضي اللَّه عنه عن النبي ﷺ فيما يروي عن ربه عز وجل : « من عادى لي وليًا فقد آذنته بالحرب وما تقرب إلى عبدي بأفضل مما افترضت عليه » الحديث[1] .

قد بيَّن تعالى في كتابه ، كما بيَّن رسوله ﷺ في سننه أنه لا يدخل الجنة إلا مؤمن ، ولا يفوز برضى اللَّه وجزائه إلا بالإيمان والعمل الصالح قال تعالى : ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُوا۟ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا﴾ [الكهف: الآية ١١٠] .

ووعد من آمن وعمل صالحا بالحياة الطيبة والجزاء الحسن في الآخرة في غير ما آية .

فليقرأ الأستاذ المحرر القرآن والسنة ، وليتدبرهما يجد الوسيلة ليست بالرأي والذوق والمواجيد ، ولو كانت الوسيلة إلى اللَّه بالرأي والذوق لما بعثت الرسل ولما كان ثَم حاجة إلى بعثهم وهديهم وإرشادهم ، فإنهم ما أرسلوا ولا بعثوا إلا ليعلِّموا الناس كيف يتوسلون إلى ربهم ويتقربون إليه ، فالوسيلة إلى اللَّه والتقرب

---

(١) البخاري (٦١٣٧) .

إليه هو أصل الدين، لا من المسائل الفرعية.

[(١)]وقد بين اللّٰه تعالى وسيلة المشركين في كتابه كي نتقي ونحذر، ولكن غلب على بعض النفوس الجهل والشقاوة فلم تفهم هذا البيان.

قال تعالى في الوسيلة الشركية: ﴿قُلِ ٱدۡعُواْ ٱلَّذِينَ زَعَمۡتُم مِّن دُونِهِۦ فَلَا يَمۡلِكُونَ كَشۡفَ ٱلضُّرِّ عَنكُمۡ وَلَا تَحۡوِيلًا ۝٥٦ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ يَبۡتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلۡوَسِيلَةَ أَيُّهُمۡ أَقۡرَبُ﴾ الآية [الإسراء: الآية ٦٥، و٦٦].

قال ابن عباس وغيره[(٢)]: كانوا يدعون الملائكة والعزير وعيسى بن مريم وأمه؛ يتوسلون بهم إلى اللّٰه، فأخبر اللّٰه تعالى أن المدعوين أنفسهم يبتغون إلى ربهم الوسيلة بالعمل الصالح.

فالوسيلة للخلق كلهم إلى اللّٰه واحدة. غاية الأمر: كل يأخذ منها حسب استطاعته واستعداده ﴿وَلِكُلّٖ دَرَجَٰتٞ مِّمَّا عَمِلُواْۚ وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا يَعۡمَلُونَ﴾ [الأنعام: الآية ١٣٢]. صدق اللّٰه العظيم.

وقال تعالى أيضًا في وسيلة المشركين: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوۡلِيَآءَ مَا نَعۡبُدُهُمۡ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلۡفَىٰٓ إِنَّ ٱللَّهَ يَحۡكُمُ بَيۡنَهُمۡ فِي مَا هُمۡ فِيهِ يَخۡتَلِفُونَۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي مَنۡ هُوَ كَٰذِبٞ كَفَّارٞ﴾ [الزُمَر: الآية ٣].

وحكى عنهم أنهم كانوا يدعون اللّٰه مخلصين له الدين في أوقات الشدة والضر في غير ما آية قال تعالى: ﴿فَإِذَا رَكِبُواْ فِي ٱلۡفُلۡكِ دَعَوُاْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ فَلَمَّا نَجَّىٰهُمۡ إِلَى ٱلۡبَرِّ إِذَا هُمۡ يُشۡرِكُونَ﴾ الآيات [العَنكبوت: الآية ٦٥].

وقال تعالى في التوسل إليه في الدعاء: ﴿وَلِلَّهِ ٱلۡأَسۡمَآءُ ٱلۡحُسۡنَىٰ فَٱدۡعُوهُ بِهَاۖ وَذَرُواْ ٱلَّذِينَ يُلۡحِدُونَ فِيٓ أَسۡمَٰٓئِهِۦۚ﴾ [الأعراف: الآية ١٨٠].

---

(١) من هنا تتمة المقال في صحيفة «صوت الحجاز»، العدد (٩)، في ١/٢/١٣٥١هـ.

(٢) أخرجه الطبري في تفسيره، عند تفسير هذه الآية.

وأحاديث أدعية الرسول ﷺ وأصحابه أكثر من أن تذكر هنا فليراجعها من شاء في البخاري ومسلم، وغيرهما من كتب السنة فلا يجد فيها: بجاه فلان، ولا حق فلان.

فتبين بهذا كله أن الوسيلة إلى اللَّه أمر شرعي، لا مدخل للرأي فيه ولا الاجتهاد، وكل أمر شرعي لا يثبت إلا بكتاب أو سنة صحيحة. فهاتوا برهانكم على ما تدعون إن كنتم صادقين.

وأما المسائل الفرعية التي يسوغ الاختلاف فيها باختلاف الفهوم والأذواق فمثل اختلافهم في النية في صوم رمضان وصوم النوافل، فالصوم نفسه وسيلة إلى اللَّه ثابت بالكتاب والسنة لا خلاف في فرضيته، وإنما الخلاف في مسائل تحته تتعلق به، فمنهم من يقول بوجوب تبييت النية، ومنهم من يقول يكفي من أول ليلة، ومنهم من يقول لو أصبح صائمًا لكفاه ولو لم ينو، ونحو ذلك.

ولم يختلف العلماء في أن الوسيلة إلى اللَّه لا تثبت إلا بالنصوص الشرعية؛ لأنها عبادة كما قدمنا، والعبادة لا تكون بالرأي ولا بالعقل.

(١)ومما تقدم يفهم العقلاء أن اللَّه تعالى قد بيَّن في كتابه الوسيلة الشرعية والشركية، فالوسيلة الشرعية هي تقوى اللَّه والجهاد في سبيله والإيمان. والعمل الصالح داخلٌ في مسمى التقوى. والوسيلة الشركية كانت ولا تزال بالأشخاص الميتين المعتقد فيهم القرب من اللَّه تعالى.

ولو كان الناس يدعون اللَّه تعالى بجاه النبي ﷺ ويقتصرون على جاهه دون غيره لهان الأمر ولمَا كان ذلك شركًا وإنما كان بدعة فقط؛ لأنه لم يرد عن الرسول ﷺ ولا أصحابه؛ ولأن اللَّه تعالى يقول: وقوله الفصل - ﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا﴾ [الأعراف: الآية ١٨٠]. وأدعية الرسول ﷺ تبين معنى هذه الآية،

(١) تتمة المقال في صحيفة صوت الحجاز، العدد (١٠)، في ١٣٥١/٢/٨هـ

وتعليمه للصحابة كذلك . فليتق اللّه من يريد النجاة لنفسه . قال الإمام علي كرم اللّه وجهه : لو كان الدين بالرأي لكان مسح أسفل الخف أولى من أعلاه[1] .

وأما جعل الزعامة الإسلامية قسمين ؛ زعامة دينية ، وزعامة سياسية ، وتفريق حضرة المحرر بين الزعامتين ، فهي فكرة غير إسلامية ، وليدة هذا العصر الموبوء بالإلحاد والزندقة ، وهي فكرة تصرِّح عن باطنها وتعلن عن نفسها بأن الدين الإسلامي لا يصلح للسياسة ولا للحكم ، وإنما هو عبارة عن عبادة في المحاريب ، وعلاقة بين العبد وربه لا أكثر ولا أقل ، كما قالها بعض الملاحدة من مقلدة الإفرنج .

والقرآن والسنة مصرحان بخلاف ذلك ، وناطقان بأنه دين السياسة الحكيمة والمدنية الصحيحة ، وسيرة النبي ﷺ بين أيدي الناس شاهدة بأنه ﷺ كان يقود الجيوش ، ويقرأ ويكتب للملوك يدعوهم إلى الإسلام ، ويبعث البعوث ويحكم بين الناس بهذا القانون السماوي في كل شيء ، قال تعالى : ﴿وَأَنِ ٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ﴾ [المائدة: الآية ٤٩] ، ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِمَآ أَرَىٰكَ ٱللَّهُ﴾ [النساء: الآية ١٠٥] ، ولو كان دين عبادة في المحاريب فقط ؛ لما أمر الرسول ﷺ أن يحكم به بين الناس ، ولما كان ثمة ما يدعو إلى الحكم بينهم ؛ إذ الحكم لا يكون إلا في الخصومات ، والعبادات لا خصومة فيها بين العبد وربه ، وإنما هي بين العباد بعضهم لبعض ، فمن قرأ سورة الأنفال والتوبة على الأقل علم يقينًا لا شك فيه أن الإسلام دين عبادة وسياسة ؛ جمع بين الأمرين . وبما جرى من سيرة النبي ﷺ وخلفائه يتبين صدق ما نقول ، وأن التفريق بين الزعامتين رأي مأفون ، وباللّه التوفيق .

❁ ❁ ❁

---

(١) أخرجه أحمد (١٧٤٧٨) ، وأبوداود (١٤٠) ، وصححه الألباني (إرواء الغليل / ١٠٣)

إجابة على استفتاء ديني[1]

حضرة المحترم صاحب جريدة «صوت الحجاز» الغراء.

سلامًا واحترامًا. وبعد: فقد ورد إليَّ الكتاب التالي من أحد الحجاج المصريين أرجو نشره والجواب عليه إحقاقًا للحق، وإجابة للسائل المحترم، ولكم الشكر. وهذا نص الخطاب بالحرف:

«مولاي الإمام الفاضل:

لقد أترعتم قلبي وشرحتم صدري يوم وقفت على درسكم الموقر، ورأيتكم تدعون الناس إلى كتاب اللّٰه وسنة رسوله عليه الصلاة والسلام؛ ولذا شجعتموني على أن أسألكم ما يأتي، وما أردت أن أبين بين الناس، فأستحلفكم باللّٰه ألا تسألوا عن السائل من هو؟ وأفيدونا في الدرس مما علمكم اللّٰه، وزادكم علمًا، وجعلنا وإياكم من المقربين إليه بإجابة داعي اللّٰه.

يقول مؤلف كتاب التوحيد لمجد عبد الوهاب -كذا-[2] صحيفة ٣٠ -كذا-: أن السيد هو اللّٰه، واستدل بحديث القوم الذين قالوا له: يا سيدنا ..، إلخ. فقال لهم النبي ﷺ... الحديث.

فهل إذا قلنا: سيدنا محمد، كما لو قلنا: إلهنا محمد -نعوذ باللّٰه من الشرك- وإلا فما معنى قول الشيخ وقصده، وما معنى ذلك؟

نريد الاستفادة والعلم فقط، لا الجدال. وأيضًا نداءنا - كذا - في المسجد النبوي عند السلام على رسوله عليه الصلاة والسلام، وقولنا: السلام عليك (يا) رسول اللّٰه، و(يا) أبا بكر، و(يا) عمر. وفي قراءة التحيات: السلام عليك أيها

---

(١) صحيفة صوت الحجاز، العدد (٤)، في٢٦/١٢/١٣٥٠هـ

(٢) ومراده شيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب رحمه الله

النبي . أفليس هذا نداء للغائب ؟ -كذا- وهل يجوز أو نقول - كذا - :السلام على رسول الله ،بدون ياء النداء ؟ ، وأن الصحابة كانوا يقولون ذلك في حياته ، وما قولكم فيمن يصرخ في الناس على غفلة منهم ويقول : وحدوه . ولا يقول : وحدوا الله ؟ »

« حاج مصري »

هذا نص كتابه بحروفه .

والجواب عليه أنا نقول : إن الشيخ الإمام المجدد رحمه الله قال في كتابه التوحيد صحيفة (١٢٨) طبعة منير ، وصفحة (٦٩) طبعة المنار مع مجموعة التوحيد ما نصه بالحرف :

باب ما جاء في حماية النبي ﷺ حمى التوحيد وسدِّ طرق الشرك :

عن عبد الله بن الشخير رضي الله عنه قال : انطلقت في وفد بني عامر إلى رسول الله ﷺ فقلنا : أنت سيدنا . فقال : السيد الله تبارك وتعالى . قلنا : وأفضلنا فضلًا ، وأعظمنا طولًا . فقال : قولوا بقولكم أو بعض قولكم ولا يستجرينكم الشيطان . رواه أبو داود[1] بسند جيد .

وعن أنس رضي الله عنه أن ناسًا قالوا : يا رسول الله ! يا خيرنا ، وابن خيرنا ، وسيدنا ، وابن سيدنا فقال : « يا أيها الناس قولوا بقولكم ولا يستهوينكم الشيطان ، أنا محمد عبد الله ورسوله ما أحب أن ترفعوني فوق منزلتي التي أنزلني الله عز وجل » . رواه النسائي[2] بسند جيد .

ثم قال بعد ذلك : « فيه مسائل ؛ الأولى : تحذير الناس عن الغلو . الثانية : ما

---

(١) أبو داود (٤٨٠٦) ، وصححه الألباني (صحيح وضعيف سنن أبي داود برقم (٤٨٠٦) .

(٢) أحمد (١٠٠٧٧) ، النسائي في الكبرى (١٠٠٧٨) ، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة برقم (١٠٩٧) .

ينبغي أن يقول من قيل له : أنت سيدنا . الثالثة قوله : « لا يستجرينكم الشيطان » . مع أنهم لم يقولوا إلا الحق . الرابعة : قوله : « ما أحب أن ترفعوني فوق منزلتي » . اهـ بنصه

فلو أن حضرة الكاتب تدبر الترجمة أولًا ، والمسائل التي استنبطها الشيخ - رحمه الله - ثانيًا لفهم المقصود ، وهو أظهر من وضح النهار ، والترجمة مطابقة لما أورد الشيخ الإمام - رحمه الله - من حديث عبد الله بن الشخير رضي الله عنه .

فإن النبي ﷺ نهى القوم عن مواجهتهم إياه بالسيادة والإطراء ، وإن كان ما قالوه حقًّا كما ذكره الشيخ ؛ خوفًا عليهم من الغلو الذي وقع فيه النصارى ؛ ولذا قال ﷺ في الصحيح [١] : « لا تطروني كما أطرت النصارى عيسى بن مريم ، وإنما أنا عبد الله ورسوله » . وكان ﷺ يرى الشرف كل الشرف في هذه العبودية .

[٢]وقد جاء في الصحيح[٣] أيضًا أنه ﷺ خير بين أن يكون ملكًا رسولًا ، أو عبدًا رسولًا ، فاختار أن يكون عبدًا رسولًا ، وقد وصفه الله تعالى في أشرف مقاماته بالعبودية فقال : ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ﴾ [الإسراء: الآية ١] ، وقال تعالى : ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ ٱلْكِتَٰبَ وَلَمْ يَجْعَل لَّهُۥ عِوَجَا﴾ [الكهف: الآية ١] .

فأراد ﷺ أن يسد ذريعة الشرك بنهيه ذاك ، وأن يعرفهم أنه لا يحب الإطراء والمدائح كالملوك والأمراء والمتكبرين في الأرض بغير الحق ، وأن يعلمهم أن

(١) البخاري (٣٤٤٥) من حديث ابن عباس عن عمر رضي الله عنهم .
(٢) تتمة المقال في صحيفة صوت الحجاز ، العدد (٥) ، في ١٣٥١/١/٣هـ
(٣) البخاري (٣٦٩١) .

السيد في الحقيقة هو اللَّه ، وأنه لم يبعث إلا لدعوة الناس إلى اللَّه ودلالتهم عليه وإرشادهم إليه ، وبيان ما يحب ويرضى منهم ، لا إلى دعوتهم إلى نفسه طلبًا للتعاظم عليهم ، والتعالي والتكبر كالملوك والسلاطين ، وقد عرفهم ﷺ بذلك حق اللَّه عليهم وحق رسوله ، وحمى حِمى التوحيد من شوائب الشرك والغلو

وقد اعترف الشيخ- رحمه الله- أنهم لم يقولوا في تسويده وإطرائه إلا حقًّا ، وهذا دليل واضح على كذب الذين ينسبون إلى الشيخ وأتباعه إنكار سيادته ﷺ

ولم يرد- رحمه الله- أن من قال : سيدنا محمدًا . كمن يقول : إلهنا محمد- كما فهم الكاتب- على أن كثيرًا من الجهلة قد ألهوا الرسول ﷺ ومن دونه من المخلوقات بالنحر ، والنذر ، والدعاء ، والطواف ، وطلبوا منها ما لا يطلب إلا من اللَّه ، وهم مع ذلك لم يقولوا إنها آلهة أو أنا أللهناها . فمثلهم في ذلك كمن يزني ولا يقول لفعلة الفاحشة : زنى . وكمن يشرب الخمر ويقولون : إنه مبسوط . وكالنساء تتبرج وتسمي ذلك مدنية وموضة ، فكذلك جهلة المسلمين يؤلِّهون غير اللَّه ببعض العبارات ، ولا يسمون ذلك الغير إلهًا كما كان الجاهلية يسمونه ، كأن اللَّه تعالى نهاهم عن التسمية لفظًا وأمرهم بتأليه غيره فعلًا ، وهذا ضلال مبين .

وقد وقع الناس فيما خافه الرسول ﷺ عليهم فقال شاعرهم[1] :

يا أكرم الخلق ما لي من ألوذ به سواك عند حلول الحادث العمم

وقال أيضًا :

فإن من جودك الدنيا وضرتها ومن علومك علم اللوح والقلم

فهذا لو سمعه الرسول ﷺ وهو حي لأنكره وأدب قائله الأدب البليغ ، ولو

(١) وهو محمد بن سعيد بن حماد بن عبد اللَّه الصنهاجي البوصيري المصري (٦٠٨ - ٦٩٦هـ) . من أشهر قصائده البردة . « محبة الرسول بين الاتباع والابتداع » (ص ٢٥٠) .

كان هذا الشاعر يعلم علم اليقين أن اللّه أرحم الراحمين للاذ به دون الرسول ﷺ ، ولو كان يعلم أن اللّه لطيف بعباده ، وأنه يجيب من دعاه ، وأنه أقرب إليه من حبل الوريد ، وأنه معه أينما كان لما قال هذا القول .

وبالجملة فقد تبين مقصد الشيخ محمد بن عبد الوهاب رحمه اللّه .

وأما قول الكاتب : « وأيضًا نداؤنا في المسجد النبوي ... إلخ . وقولنا في التحيات : السلام عليك أيها النبي »- بكاف الخطاب-

فجوابه : أن النداء في قولنا : السلام عليك يا رسول الله- عند قبره الشريف ، أو بعيدًا عنه ، وفي التحيات- ليس محظورًا ، وليس هو من قبيل دعاء أو نداء غير اللّه المعدود شركًا ؛ إذ ليس كل دعاء وكل نداء شركًا حتى يحتج علينا محتج بمثل هذا ، وإنما نقول دعاء غير اللّه فيما لا يقدر عليه إلا اللّه - بهذا القيد - فمن فهم هذا زال عنه الإشكال .

وأن قولنا : السلام عليك يا رسول اللّه ، ويا أبا بكر ، ويا عمر ، ليس فيه طلب شيء من الرسول ﷺ ولا أبا بكر ولا عمر ، بل قولنا : السلام عليكم . دعاء لهم وردت به السنة ، فيجب أن نقف عنده ولا نزيد عليه ونقيس في دين اللّه بدون حاجة إلى القياس ؛ على أن أهل القياس كالشافعي وأضرابه من الأئمة لم يستعملوا القياس إلا عند عدم النص ، وهنا النصوص مستفيضة في السنة بالنهي عن دعاء غير اللّه ، وفي كتاب اللّه تعالى .

[١]وأما شبهة مخاطبة الغائب بكاف الخطاب ففي اللغة العربية[٢] ... فالمقصود ....[٣] : المخاطب وتنزيله منزلة الحاضر ؛ لما في ذلك من كاف

---

(١) تتمة المقال في صحيفة « صوت الحجاز » ، العدد (٦) ، في ١٣٥١/١/١٠هـ .

(٢) غير واضح في الأصل .

(٣) طمس في الأصل .

الخطاب، والمناجاة ومساعدة النفس على تصدر المعاني، وتأثرها. وأحيانًا يخاطب الحاضر مخاطبة الغائب لأمور تقتضي ذلك؛ بينها علماء البلاغة، وذكرها أهل اللغة قال الشاعر(١):

عجبت لمسراها وأنى تخلصت　　إلي وباب السجن دوني مغلق
المت وحيت ثم قامت فودعت　　فلما تولت كادت النفس تزهق

ثم قال بعد ذلك مخاطبًا إياها وهي غائبة:

فلا تحسبي أني تخشعت بعدكم　　بشيء ولا أني من الموت أفرق

ومن شعر أمير الشعراء شوقي بك في روايته «كلوبترا» بعد ما قتلت نفسها أخذت إحدى جواريها الحية التي قتلت بها نفسها وقالت: كلوبترا، ويا أسفى عليك يا كلوبترا.

فهذه الجارية تخاطب كلوبترا وهي ميتة، وهذا كثير. وليس كل خطاب الغائبين والميتين من الشرك وإنما دعاؤهم وطلب العون منهم والاستغاثة بهم وطلب المدد منهم هو الشرك.

وأما قول الكاتب: «وما قولكم فيمن يصرخ في الناس على غفلة منهم ويقول: وحدوه. ولا يقول: وحدوا اللَّه»

فجوابه: أن بعض العوام يقولون هذه الكلمة وقصدهم تذكير الناس باللَّه تعالى وتنبيههم إلى ذكره تعالى.

وأكثر ما يستعملون هذه الجملة هنا في الحجاز؛ في تشييع الجنازات، ولا ريب أن هذا القول بدعة؛ إذ لم يكن الصحابة ولا التابعون يفعلون ذلك. وسواء قالوا: وحدوه، أو وحدوا اللَّه، فالأمر ظاهر، فإن الضمير في وحدوه معلوم أنه للَّه. وقد تضمر العرب في موضع الإظهار إذا كان المضمر معلومًا، كما في قوله

---

(١) وهو جَعْفَر بن عُلْبَة الحارِثِيّ. «الحماسة البصرية» (ص ١٥٨)

تعالى : ﴿مِنْهَا خَلَقْنَٰكُمْ﴾ [طه: الآية ٥٥] . أي من الأرض ﴿وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ﴾ [طه: الآية ٥٥] . وكقوله جل شأنه : ﴿حَتَّىٰ تَوَارَتْ بِٱلْحِجَابِ﴾ [ص: الآية ٣٢] . أي : الشمس . أما إذا قال أحدهم للناس : وحدوه ، أو وحدوا اللّٰه ، على غفلة منهم في غير تشييع جنازة ، فهو أمر بمعروف كقولك : صلوا على النبي ﷺ .

هذا ما بدا للعاجز ، واللّٰه أعلم ، وصلى اللّٰه على سيدنا محمد النبي الأمي وعلى آله وصحبه وسلم .

⁂

بدع نصف شعبان[1]

١- قراءة يس مرة بنية طول العمر، ومرة لتوسيع الرزق، ومرة لغفران الذنوب.

٢- صلاة نوافل، وغسل لهذه الصلاة.

٣- دعاء مخصوص يطبع ويفرق بثمن على الناس، وبعض مشايخ الطرق يزيدون قراءة دعاء يسمونه دعاء يس.

٤- زعمهم أن بئر زمزم يزيد في ليلة نصف شعبان، ويجتمع لذلك النساء والرجال، وهذه البدعة خاصة بمكة المكرمة.

٥- إسراج المساجد في غير مكة والمدينة، والاجتماع فيها، وقراءة الدعاء المعلوم؛ اللهم يا ذا المن ولا يُمن عليه يا ذا الجلال والإكرام.. إلخ.

وما ندري لهذه البدع كلها دليلًا من كتاب ولا سنة ولا عمل سلف. مع أن الناس يعنون بهذه الليلة أكثر من عنايتهم بليلة القدر التي جاء في فضلها وفضل قيامها الكتاب والسنة. والمرجو من إخواننا المسلمين أن ينتهوا عن هذه المحدثات، وأن يتوبوا إلى الله، ولا يتقربوا إليه جل شأنه إلا بما شرع في كتابه، أو على لسان رسوله ﷺ، فإن التقرب إليه تعالى بما لم يشرع غير مقبول كما قال النبي ﷺ: «من أحدث في أمرنا هذا ما ليس منه فهو رد»[2] وقوله في حديث آخر: «وكل محدثة بدعة وكل بدعة ضلالة»[3].

إن التوبة إلى الله واستغفاره والتمسك بشرعه موجب لرضاه جل وعلا،

---

(١) صحيفة صوت الحجاز، العدد (٣٦)، في ١٣٥١/٨/١٤هـ.

(٢) البخاري (٢٥٥٠).

(٣) مسلم (٨٦٧).

والمخالفة واتباع الهوى موجبان لسخطه ، وسخطه موجب للعقاب في الدنيا والآخرة .

وليعلم الذين يهمهم معرفة الحق والعمل به ، أن زمزم لا تفور في هذه الليلة ، ولم يرد بذلك حديث ولا أثر ، وإنما هي خرافة من الخرافات التي يختلقها الناس لأغراض دنيوية مادية ، فعلى العقلاء أن لا يصدقوا كل ما يقال إن صدقًا وإن كذبًا حتى يتحققوه[1] ، وقد حقق أهل الصدق هذا الأمر فلم يجدوه صحيحًا . والسلام .

❁❁❁

(١) في الأصل (يحتقره) ، ولعل الصواب ما أثبتناه .

أحاديث موضوعة يجب التنبيه لها[1]

كثيرًا ما يُسمع من العوام أحاديث يعزونها إلى رسول الله ﷺ، وهي كذب لا أصل لها في دواوين السنة المعتبرة عند المسلمين، كالبخاري ومسلم والسنن الأربع أبي داود والترمذي والنسائي وابن ماجه، ولا غيرها كالموطأ ومسند أحمد رحمهم الله تعالى.

وذلك مثل قول بعضهم: «النائم في مكة كالعابد في غيرها». وكم اغتر بمثل هذه الأحاديث أناس؛ حتى لو ارتكبوا الفسوق والعصيان جراءة على الله.

وقد قيل في المدينة أحاديث مثل هذه، والناس لا يفرقون بين صحيحها من سقيمها، وكثير من الكتَّاب يكون كالعوام في مثل هذا التساهل من عزو أحاديث إلى رسول الله ﷺ لم يقلها، ولم تأت بأسانيد تدل على صلاحيتها للاستدلال. وقد قال النبي ﷺ: «من كذب علي متعمدًا فليتبوأ مقعده من النار»[2].

لذلك ننصح لكل مسلم ألا يعزو حديثًا إلى النبي ﷺ حتى يعلم قيمته من الصحة أو الضعف، والله أعلم.

❁❁❁

---

(١) صحيفة صوت الحجاز، العدد (٣٥٢)، في ١٣٥٨/١/١٤هـ

(٢) البخاري (١٢٢٩)، مسلم (٣).

ليس بحديث(١)

قرأت في العدد الماضي في المحاضرة التي نشرت عن الإمام مالك للأستاذ السيد أحمد العربي معزوًا إلى رسول اللّٰه ﷺ: «اختلاف أمتي رحمة»(٢).

فنطالب صاحب المقال بتصحيح الحديث، وأن يذكر من رواه، وفي أي كتاب من كتب السنة وجده.

أما نحن فنرى أن هذا الحديث باطل قال تعالى: ﴿وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ * إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ﴾ [هود: ١١٨، ١١٩]. صدق اللّٰه العظيم، وقد نهى اللّٰه تعالى في كتابه العزيز في غير ما آية عن التفرق في الدين فقال: ﴿وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُشْرِكِينَ * مِنَ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ﴾ [الروم: ٣١، ٣٢]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا لَّسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ إِنَّمَا أَمْرُهُمْ إِلَى اللَّهِ﴾ [الأنعام: الآية ١٥٩]. وفي القرآن كثير مثل هذا، والأمر بالاتحاد والاعتصام بكتابه.

وهذا كله يعارض هذا الحديث ويدل على بطلانه؛ لأنه يدعو إلى الاختلاف، ويدل على أن الاختلاف رحمة، وهذا خلاف تعاليم الإسلام.

فنرجو ممن يكتبون في الدين أن يلاحظوا ما يكتبون، لا سيما أحاديث الرسول ﷺ، واللّٰه المستعان، وهو الموفق، ولئن كان الكاتب عزيزًا لدينا فالنصيحة للّٰه ولرسوله وللمؤمنين أعز.

❁❁❁

---

(١) صحيفة البلاد السعودية، العدد (٧١٢)، في ١٦/٦/١٣٦٧هـ.

(٢) سيأتي مقال طويل للشيخ عبد اللّٰه بن حسن آل الشيخ عن هذا الحديث وإبطاله.

الحج المبرور[(١)]

الحج المبرور المقبول لا جزاء له إلا الجنة، وإنما يكون الحج مقبولًا إذا اقتُدي فيه برسول الله ﷺ، وخلا من جدال ورفث وفسوق، فقد صح عن النبي ﷺ أنه قال: «من حج فلم يرفث ولم يفسق رجع من ذنوبه كيوم ولدته أمه»[(٢)]. والرفث يطلق على الجماع ومقدماته من قول وفعل وعلى الفحش، فينبغي للمحرم أن يصون لسانه من السفاسف.

مواقيت الإحرام:

مواقيت الإحرام؛ هي الأماكن التي متى وصل إليها مريد الحج أو العمرة أو حاذاها، أن يتجرد من ثيابه، ويتزر، ويرتدي، ويحرم بما يريد من حج أو عمرة أو يقرن بينهما، فيقول: لبيك اللهم حجًّا، أو لبيك اللهم عمرة وحجًّا.

والإفراد بالحج أفضل لمن أمكنه أن يؤدي العمرة في سفرة أخرى. والقران أفضل لمن ساق الهدى من الخارج- أي خارج المواقيت- وإلا فالتمتع أفضل، وقد أمر النبي ﷺ كل من لم يسق الهدى من أصحابه أن يتمتع، بأن يلبس ثيابه، ويحل من إحرامه بعد أن يطوف ويسعى ويفدي بذبيحة إن قدر، وإلا صام ثلاثة أيام في الحج وسبعة إذا رجع إلى أهله.

وقد صح عن النبي ﷺ أنه أمر كل من لم يسق الهدى بالتمتع، ولمَّا تقاعس بعضهم عن أمره ﷺ قال: «لو استقبلت من أمري ما استدبرت ما سُقت الهدى ولتمتعت»[(٣)]. وذلك أنه عليه السلام كان قارنًا. هذه سنة رسول الله ﷺ.

---

(١) صحيفة صوت الحجاز، العدد (٢٩٤)، في ١٣٥٦/١٢/٦هـ

(٢) مسلم (١٣٥٠) من حديث أبي هريرة.

(٣) البخاري (١٦٥١) من حديث جابر رضي الله عنه

ومتى تجرد الإنسان من ثيابه ، وقال : لبيك اللهم حجًا أو عمرة ، فقد دخل في الإحرام كالذي يدخل في الصلاة بالتكبير ، ومتى دخل في الإحرام حرم عليه الطيب ، والنساء ، وتقليم الأظفار ، ونتف الشعر ، وصيد البر ، والإعانة عليه ، ولا يزوج ، ولا يتزوج ، ولا يخطب أيضًا خطبة زواج .

والمقصود من هذا الإحرام وأعمال الحج كلها الإقبال على اللَّه بكليته ، والتجرد من الدنيا ، والظهور بمظهر التارك لها الزاهد فيها الزاري عليها ، السائر إلى الآخرة لا يشغله عنها شاغل ولا يلهيه ماله كائنًا ما كان .

إذا احتاج إلى لبس ثوب ، أو قص شعر ، أو حلقه لمرض ، أو نحوه ، فعله ، وعليه فدية من صيام ، أو صدقة ، أو نسك بعده ؛ أعني صيام ثلاثة أيام ، أو صدقة على ستة مساكين لكل مسكين نصف صاع ، أو ذبح شاة يفرقها على المساكين ، لا يأكل منها ، بخلاف فدية التمتع .

فإذا كان يوم التروية ؛ وهو الثامن من ذي الحجة ، أحرموا بالحج ، وخرجوا محرمين إلى عرفات ، فإذا وصلوا إلى منى وهي في طريقهم حطوا رحالهم ، وصلَّوا فيها الظهر والعصر والمغرب والعشاء ، وباتوا فيها ، فإذا طلع الفجر صلَّوا فيها الصبح ، وخرجوا منها بعد طلوع الشمس آمِّين عرفة عن طريق (ضب) المسمى بالقناطر ؛ « أعني : قناطر عين زبيدة » ولعرفات حدود وأعلام ظاهرة ، ويجب على الحجاج أن يجاوزوها إلى داخل الوادي ، وهناك يحطون رحالهم ، وينصبون خيامهم ، فإذا حان وقت الظهر صلوه مع العصر ، إما مع الإمام إن أمكن في مسجد نمرة ؛ وهو في حدود عرفات إلى الغرب ، وإلا صلوا في أماكنهم جامعين بين الظهر والعصر بإقامتين ، قاصرين بهما ، وذلك أن يؤذن لهم أحدهم ويقيم الصلاة ، فيتقدم إمام منهم ، ويصلون الظهر ركعتين ، فإذا انتهوا منه أقاموا العصر فصلوه ركعتين أيضًا ، ثم يذكرون اللَّه بالأذكار المشروعة ؛ بلا إله إلا اللَّه ،

وسبحان اللَّه، والحمد للَّه، واللَّه أكبر، ويسألونه، ويدعونه بما شاءوا من خير الدنيا والآخرة، وينبغي أن يدعوا بأدعية مأثورة، أو بما شاءوا من الأدعية التي لا تخالف السنة، متأدبين بأدب سيد المرسلين ﷺ.

والحذر أن يسأل الحاج ربه بغير أسمائه الحسنى؛ فإن اللَّه تعالى يقول: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا﴾ [الأعراف: الآية ١٨٠]. فمن قال: بحق فلان، وجاه فلان. فدعاؤه مدخول غير مقبول.

وهكذا يظل الحاج يذكر ربه ويدعوه حتى تغرب الشمس تمامًا، وبعد الغروب يرتحلون. وعرفات كلها موقف، فقد قال ﷺ: «وقفت ها هنا وعرفات كلها موقف»(١). فلا يشقن حاج على نفسه ويتكلف طلوع جبل الرحمة، أو خلافه.

والوقوف بعرفات من أهم أركان الحج، ولذلك يقول النبي ﷺ: «الحج عرفة»(٢) ولا عجب، فإن لهذا الموقف الجامع من الروعة والتأثير الروحاني في الأفراد والجماعات ما لا يبلغ كنهه وصف قلم، ولا تعبير لسان.

ففي هذا الموقف العظيم يفاض على النفوس بفيوضات ربانية، ويشعر الناس بعظمة ربهم وغناه، وفقرهم إليه، وحاجتهم القصوى إلى رحمته ومغفرته ورضاه، وتشعر النفوس بهزة رحمانية تساقط عنها ذنوبها، وتغمرها بعطف إلهي تخرج به نقية من سيئاتها، فيا له من موقف يذكِّر الإنسان موقفه بين يدي ربه، ويعيد له ذكريات تجعله خاشعًا بين يدي ربه، يرجوه ويستعطفه بلسان حاله وقاله، ولسان حاله أبلغ من لسان قاله، وهنالك يرى إخوانه في زي واحد

---

(١) مسلم (١٢١٨) من حديث جابر الطويل.

(٢) أحمد ٤/ ٣٠٩، والترمذي (٨٨٩)، ابن ماجه (٣٠١٥)، والنسائي (٣٠١٦) من حديث جابر بن يعمر.

متجردين مثله ، لا فرق بين غني وفقير ، ولا ملك وصعلوك ، كلهم يدعو ربه بلغته مع اختلاف اللغات ، وتباين اللهجات ، واللَّه يعلم كل ذلك .

فهذا الموقف صفحة مصغرة من صفحات يوم الحشر ، ومثال يزيد المؤمن إيمانًا بذلك اليوم العظيم ، ويذكِّره به حتى يعمل له ويتزود للمسير إليه ، وكلما تذكر الإنسان معنى ما يقول من التلبية مثلًا زادت معرفته بربه ، وتأثره بما يقول .

وهناك في هذا الموقف العظيم يتجلى اللَّه على عباده الذين سبقت لهم منه الحسنى ، فيناجونه بحوائجهم ، ويخاطبونه بلا واسطة قائلين : لبيك اللهم لبيك ، أي إجابة بعد إجابة ، أي دعوتنا ربنا إلى بيتك فلبيك اللهم لبيك .

الإفاضة من عرفات

إذا غربت الشمس جاز للحجاج أن يفيضوا ، ولكن بدون زحام ولا إيذاء أحد ، فإذا وجدوا متسعًا أسرعوا ، وإذا وجدوا سبقًا وزحامًا في الطريق أمسكوا وساروا على مهل حتى يصلوا إلى مزدلفة ، وبها المشعر الحرام ، وقد بات بها النبي ﷺ ، وقدم ضعفة أهله بعد هزيع من الليل سحرًا ، فمن استطاع أن يبيت فليبت ، ومن لم يستطع فليقم فيها بقدر استطاعته ، والدين يسر لا حرج فيه ، وقد صلى رسول اللَّه ﷺ المغرب والعشاء جمعًا حين وصوله إليها بدون ريث ، وبات فيها إلى الصبح ، فصلى بإغلاس ، وقصد المشعر الحرام بعد ذلك ، فلبث يدعو اللَّه عنده ، ويذكره حتى أسفر ، ثم أفاض منها قبل طلوع الشمس ، وأمر أن تلتقط له جمرات ، وهي دون البندقة وفوق الحمصة ، ثم سار حتى إذا وصل وادي محسر أسرع السير فيه ؛ لأن ذلك الوادي هو الذي أهلك اللَّه فيه أصحاب الفيل ، وهذه سنته ﷺ إذا مر بديار الظالمين ، أو مكان إهلاكهم ، فلما وصل إلى منى رمى جمرة العقبة بسبع حصيات ، وهذه الجمرة في أول منى من جهة مكة ، وهي ظاهرة في مكانها ، فيرمى الحجاج جمراتهم فيها ، وكلما ألقوا حصاة

يقولون : بسم اللَّه واللَّه أكبر ، اللهم اجعله حجًا مبرورًا وذنبًا مغفورًا وعملًا متقبلًا .

فإذا انتهى الحاج من الرمي حلق رأسه ، وذبح ما عنده من هدي ، ولبس ثيابه ، وحل في إحرامه ؛ وبذلك يحل له كل ما كان ممنوعًا منه إلا النساء ، ويبقى عليه طواف الإفاضة ؛ وهو ركن من أركان الحج ، فإذا طاف هذا الطواف فقد حل له كل شيء حتى النساء .

والنبي ﷺ فعل هذا الطواف يوم العيد بعدما تحلل التحلل الأول ، فمن قدر على ذلك فهو أفضل ، ومن لم يقدر فلا حرج ، فوقته موسع إلى آخر أيام منى ، وأما بعد ذلك ففيه نزاع بين أهل العلم ، فينبغي التعجيل به خروجًا من الخلاف قبل نهاية أيام منى .

ومن كان سعى أولًا فسعيه أولًا يكفيه لحجه وعمرته ، ومن لم يكن سعى فعليه السعي عقب الطواف .

ومن فرغ من ذلك عاد إلى منى ليكمل الرمي (رمي الجمرات الثلاث) يومين أو ثلاثة أيام .

رمي الجمار

في اليوم الحادي عشر من ذي الحجة يبدأ الحاج برمي الجمرات الثلاثة بعد الظهر بادئًا بالأولى منها بسبع حصيات ، وبعد أن يرميها يتنحى بعيدًا عنها إلى اليمين ، ويدعو اللَّه طويلًا ، ويذكره كثيرًا ، ثم يمشي إلى الجمرة الوسطى ، ويرميها كذلك ، ويدعو اللَّه ، ثم الثالثة ، ولا يقف بعد الرمي عندها .

وليس بلازم أخذ الحصا كله من مزدلفة ، ولا يجوز أن يرمي الحاج بحصا قد رمى به غيره .

ويفعل مثل ذلك في اليوم الثاني بعد الظهر ، وإذا فرغ من رمي الجمار الثلاث

كان له أن يبقى في منى حتى يرمي اليوم الثالث وأن يعود إلى مكة ، وقد تم حجه ونسكه .

ومما ينبغي أن يُعلم أن دين اللَّه يسر ، وأنه تعالى يقول في كتابه العزيز : ﴿ما جعل عليكم في الدين من حرج﴾ . وقال جل من قائل : ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ﴾ [البقرة: الآية ١٨٥] . وقال ﷺ : « يسروا ولا تعسروا ولن يشاد الدين أحد إلا غلبه »[(١)] .

فمن وجد ضيقًا وحرجًا في بعض المسائل المنسوبة إلى مذهب من المذاهب ، فليرجع إلى سنة رسول اللَّه ﷺ ، أو يسأل العالمين بها ، يجد الفرج واليسر فيها إن شاء اللَّه تعالى .

ومن دخل معتمرًا أول قدومه ، فليس عليه أن يخرج ليأتي بعمرة بعد الحج .

وقد كثر سؤال الناس عن من يدخل الكعبة أحقًّا أنه لا يجوز له أن يمشي حافيًا ، ولا يمسك نارًا و ... و٠٠إلخ ؟

وكل هذا لا أصل له ، وكل شرط ليس في كتاب اللَّه فهو باطل ، فهذه الشروط التي يزعمها بعض الناس لداخل الكعبة باطلة ، لم ترد في كتاب ولا سنة واللَّه أعلم .

ونصيحتي إلى الحجاج أن يحفظوا حجهم من الهبوط بالأعمال البدعية كالطواف حول الأضرحة ، أو النذر لها ، أو دعائها من دون اللَّه ، أو جعل شيء من الحرث والأنعام للصالحين ، فإن ذلك كله لا يجوز شرعًا ، ولا يحبط الأعمال الصالحة مثله

نسأل اللَّه التوفيق لجميع المسلمين ، وأن يديم علينا نعمة الأمن والإصلاحات بطول عمر مليك البلاد عبد العزيز آل سعود آمين .

---

(١) البخاري (٣٩) من حديث أبي هريرة رضي اللَّه عنه

القــوة[1]

القوة هي مصدر الحياة ، وأصل المجد والعز والسيادة والسعادة ، فإذا لم تكن قوة فلا سبيل إلى شيء من ذلك .

والقوة قسمان ؛ مادية ومعنوية ، ولابد منها لكل أمة تريد أن تحيا بين الأمم عزيزة مستقلة ذات سيادة محترمة وجانب مهيب .

فالمادية تكون في الأجسام من نمو وصحة وعافية ، فيجب أن نعمل شعبًا وحكومة على هذا المبدأ ، ويجب على الحكومة أن تعد كل من عمل ضد هذه القوة خائنًا لوطنه ، ولإيجاد هذه القوة يجب أن تعلم النساء كيفية تربية طفلها ، والمحافظة عليه من يوم أن يكون جنينًا ، بل من يوم يكون نطفة وتكون له مستودعًا إلى أن يبلغ سن الفطام ، بل إلى أن يبلغ سن التربية في المدرسة والتعليم .

ولابد للحكومة أن تعمل على النظام الشرعي الاجتماعي في الزواج والطلاق وصيانة النساء ؛ لأنهن حقول الأمة ومزدرعها ، فيجب أن تكون هذه الحقول سليمة من كل ما يضعف بذورها .

فلابد إذن من تحريم تبرج النساء وظهورهن بزينة الخلاعة ، مما يغري بهن أولي الإربة من الرجال ، ولا سيما الفتيان الذين لا يقدرون على كبح جماح شهوتهم .

وإذا نشأت هذه البذور الطيبة الطاهرة من أمهات طاهرات طيبات وسُلِّموا إلى الأساتذة الأفاضل الذين يعنون بالأخلاق الحسنة ، والنظام الاجتماعي الذي وضعه الحكيم العليم ؛ أصبحوا رجالًا يعتمد عليهم في عزة الوطن واستقلاله .

---

(١) مجلة « الحج » ربيع الأول والآخر - ١٣٦٩هـ.

وأسباب القوة المادية معلومة ، وليست تحد ، وقد أمرنا اللَّه تعالى بإعداد القوة لأعدائنا ما استطعنا ، فلا بد أن نعلِّم أولادنا في كل فرع من فروع القوة ما يمكن ، فنعلِّم طائفة كبيرة في الهندسة الميكانيكية والكهربائية ، ونعلم طائفة في الكيمياء ، وهلم جرا ، في كل علم وفن ، ونعمل المعامل لإخراج أنواع الأسلحة والسفن الحربية والطائرات وغير ذلك ، ونترك اللعب واللهو والهزل .

وأما القوى المعنوية فهي الإيمان باللَّه ، والتمسك بالفضائل والأخلاق التي تزيدنا ارتباط بعضنا ببعض وتجعل الأمة متضافرة تشعر بالعزة القومية والوحدة الوطنية .

وكل من عمل على خلاف هذا النظام مما يضعف القوة كان له جزاء صارم يجعله عبرة بغيره .

وجدير بالأمة الضعيفة ، والمسلوبة العزة أن تجدَّ في الأمر ، وتنسى اللذائذ الشهوية ، حتى تعود لها قوتها بتماسك أجزائها وعلو نفسها ، وحتى لا يطمع أحد في استعبادها ، أما الطابع الذي هي عليه اليوم فيجب أن يُنبذ ويُلقى في الزبالة .

القوة هي التي فيها الحياة ، والضعف يؤدي إلى الممات ، وجملة القول أن الإسلام الصحيح هو مبعث القوة وأساسها ، فمتى تمسكت الأمة قويت وسادت ، وإذا تركته وتساهلت فيه وتهاونت ، وقعت في مهاوى الشقاء والضعف والموت .

❁❁❁

أفضل طرق التربية والتعليم في القرآن والسنة[1]

لقد أخذت وزارة المعارف في مصر من زمن غير قريب تتأسى بأوربا، فترجموا كتبًا كثيرة من لغتها، ووضعوا كتبًا للتربية والتعليم على أسلوب كتبها، ولم تزل تترقى إلى أن بلغت شأوها ونشط معلموها الأفاضل، فسلكوا سبلًا سهلة هجمت بالتلاميذ على ينابيع العلم، فأوردتهم خير موارده من قريب، بلا عناء ولا نصب، وإن كانت يد السياسة قد ضيقت عليهم تلك الموارد، وحالت بينهم وبين الغل منها والنهل، وحرمت بعضها مما فيه العز والمجد، كالفنون الحربية، والميكانيكية، والكيماوية... إلخ ... إلخ.

وليس المقصود بيان هذا الظلم الآن، وإنما مقصودنا أن نبين أن أوربا التي نعجب بتربيتها وتعليمها ونتأسى فى تأليفاتنا بها، إنما أخذت ذلك كله من عندنا، فلما رأينا ثمرته زاهية ناضجة عندها، وأعرضنا منذ زمن بعيد عن كتاب ربنا وسنة نبينا، ظننا أن ذلك من مبتكراتها وتجاربها، وما هو -وربك- إلا بعض مما في كتاب ربنا وسنة نبينا.

وها أنذا أورد فصولًا في التربية والتعليم من السنة النبوية؛ دليلًا على ما قلت، وبالله التوفيق:

١- التعليم برفق:

يفتخر الأورييون علينا أنهم يعلمون أبناءهم بغير ضرب، ويعدون ضربهم همجية وعجزًا من المعلم، ويذكرون له أضرارًا وخيمة، ومنها تنفير القلوب من

(١) صحيفة صوت الحجاز العدد (٤٧) في ١٣٥١/١١/٣ هـ.

العلم وكراهته ، ومنها بذر بذور الجبن في قلوب التلاميذ ، ومنها إذلالهم و ...[١] عن ذلك من بلادهم ، وغير ذلك .

ونحن نقول إن التعليم بالرفق وإعادة الكلام مرتين أو ثلاثًا ليفهم . موجود ذلك في سنة نبينا ﷺ .

فمن ذلك قول النبي ﷺ في « الصحيح » لعائشة : « عليك بالرفق ، وإياك والعنف »[٢] . وقوله : « ما كان الرفق في شيء إلا زانه ولا كان العنف في شيء إلا شانه »[٣] .

وقال البخاري[٤] : باب من أعاد الحديث ثلاثًا ليفهم عنه . وأورد فيه طرفي حديثين .

ومن الرفق لقاء المتعلم بما يحب تأليفًا له وترغيبًا في العلم كقول النبي ﷺ لوفد عبد القيس : « مرحبًا بالقوم غير خزايا ولا ندامى » . وقوله عليه الصلاة والسلام : « يسروا ولا تعسروا وبشروا ولا تنفروا »[٥] .

فيؤخذ من هذا الحديث سلوك أقرب الطرق لتفهيم التلاميذ وتيسير الدروس عليهم وتسهيلها .

ويؤخذ منه عدم استعمال الضرب والنهر والسب والشتم وكل غلظة ؛ لأنها تنفر ، والتنفير منهي عنه

ويؤخذ منه أيضًا ترغيب الطلبة بالمكافآت التي يحبونها إذا أتقنوا عملًا ، أو أحسنوا فهم درس ، فإن كانوا صغارًا أجيزوا بأنواع من الحلوى ، وإن كانوا كبارًا

---

(١) كلمة غير واضحة.

(٢) البخاري (٥٦٨٣) ، مسلم (٢٥٩٤) .

(٣) مسند أحمد (٢٥٧٥٠) ، مسلم (٢٥٩٤) .

(٤) البخاري (٥٣) ، (١٧) .

(٥) البخاري (٦٩) ، مسلم (١٧٣٣) .

يشعرون بحلاوة العلم أجيزوا بكتب ورسائل في الفن الذي يحبونه مثلًا ، ليزدادوا فيه فينتفعوا وينفعوا أمتهم .

وبالجملة فهذا الحديث أصل في التعليم ، أخذت به أوربا في جميع مدارسها وجعلته دستورًا لها في تعليم نشئها ، فلما أهملناه نحن ، وصرنا -لعجزنا- نضرب التلاميذ ونعد الضرب هو الأصل في التعليم والتربية ، صاروا يضحكون منا ، ويفتخرون علينا ، وما هي إلا بضاعتنا ردت إلينا .

٢- تشويق المعلم تلاميذه للعلم ، وحثهم على نشره بعد تعلمه :

ومما هو أصل عندهم في التربية والتعليم تشويقهم تلاميذهم للعلم ، ومواساتهم فيه ، وإعانتهم عليه ، وهذا موجود عندنا في سنة نبينا ومنا أخذوه .

ومن ذلك قول النبي ﷺ في خطبة الوداع : « أي يوم هذا » وكان اليوم معروفًا عندهم ، وأظهر من شمس الضحى في ضحوته ، ولكنه خاطبهم بهذا الأسلوب ليشوقهم وينبه أذهانهم إلى مسائل من العلم مهمة في حفظها وفهمها ، والعمل بها سعادة المسلمين وهناؤهم .

فعن عبد الرحمن بن أبي بكرة عن أبيه ذكر النبي ﷺ قعد على بعيره وأمسك إنسان بخطامه أو بزمامه ثم قال : « أي يوم هذا ؟ » فسكتنا حتى ظننا أنه سيسميه بغير اسمه ، قال : « أليس يوم النحر ؟ » قلنا : بلى ، قال : « فأي شهر هذا ؟ » فسكتنا حتى ظننا أنه سيسميه بغير اسمه قال : « أليس بذي الحجة ؟ » قلنا : بلى قال : « فإن دماءكم وأموالكم وأعراضكم بينكم حرام كحرمة يومكم هذا في شهركم هذا في بلدكم هذا ، ليبلغ الشاهد الغائب ، فإن الشاهد عسى أن يكون أن يبلغ من هو أوعى له منه »[1] .

وفي الحديث الحث على نشر العلم المنافي لكتمانه ،

---

(١) البخاري (٦٧) ، مسلم (١٦٧٩) .

[(١)]وجلوس المعلم على مكان مرتفع ليسمع تلاميذه ، وفي الحديث غير ذلك من الفقه ليس هذا محل بيانه ، وهذا هو الفقه في الدين ، لا تلك الكتب التي يقال لها كتب فقه وهي مجموعة آراء لا دليل عليها ، أو لبعضها دليل لكنه غير مذكور بجانب مدلوله .

فأخذ القوم[(٢)] بكل ما فيه نفع لهم من سنة نبينا ، وأخذنا بما نهى عنه ﷺ .

يقول ﷺ : « إن منكم منفرين »[(٣)] وهذا حق ، فترى بعض المعلمين بل كثيرًا منهم ، يجيء التلاميذ إليه صغارًا ؛ ففضلًا عن حبسهم في غرفته التي لم يعتادوها ، ومخالفتها ما فطروا عليه من حب السعة والمناظر المختلفة السارة ، يغلظ لهم القول ، ويعبس وجهه ويقطب جبهته ، وربما ضرب بعضهم قبل أن يعلمهم شيئًا ، وربما أخذ أكثر الدرس في نهر تلميذ وتوبيخه على شيء تافه وقع منه ؛ فيضيع عليهم الدرس ، ويخرجون من عنده وهم ساخطون لاعنون وكأنما خرجوا من سجن ونجوا من سبع أنقذوا من بين أظفار الموت ومخالبه ، ثم يجيئون يشتكون لأهليهم- وهم أجهل من المعلمين وأضل- فيزيدونهم ضربًا ونهرًا ويقولون لهم : (تستاهلون) . فإذا أصبحوا تمنوا أن الموت زارهم في نومهم وأن أرواحهم لم تعد إليهم حتى لا يروا هؤلاء المعلمين ولا هذا السجن الذي خرجوا منه بالأمس أو المقول فيه : (داخله مفقود وخارجه مولود) .

فيا قوم : اتقوا الله ، وتفقهوا في كتاب ربكم وسنة نبيكم تجدوا كل شيء فيه مما تمنن علينا به أوربا ، وهي ما استفادته إلا من ديننا وهدى نبينا .

❁❁❁

---

(١) تتمة المقال في صحيفة صوت الحجاز العدد (٤٩) في ١٣٥١/١١/١٦هـ.

(٢) أي الأوربيون.

(٣) البخاري (٧٠٢) ، ومسلم (١٨٢، ٤٦٦) من حديث أبي مسعود الأنصاري رضي الله عنه.

الدين النصيحة[1]

هذا لفظ حديث صحيح عن تميم الداري [2] وبمعناه عن جرير بن عبد اللّه ، رواه البخاري [3] ، ولفظ الحديث قال : « بايعت رسول اللّه ﷺ على إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة والنصح لكل مسلم » .

فدل الحديث على أن النصح لكل مسلم من الأمور المهمة حتى قرن بالصلاة والزكاة في المبايعة .

والنصح أن تحرص على إيصال الخير لكل مسلم وإبعاد الشر عنه بكل ما يمكن ويدخل في ذلك تنبيهه للخير بتركه سهوًا أو عمدًا وأمره بالمعروف ونهيه عن المنكر وتبصيره بعيوبه .

وقد قال العلماء في تعريف النصح بما يقرب مما قررنا وذلك (إرادة الخير المنصوح له) .

ولكن أصبحت[4] كلمة (نصح) وما يشتق منها أثقل من الجبال على قلوب الناس وأسماعهم ، بل اعتبرها كثيرٌ منهم سبة ! فإذا قلت لإنسان : يا أخي أريد أن أنصحك . ابتدرك قائلًا من قبل أن يسمع حرفًا واحدًا من نصيحتك : « انصح نفسك » !! وخصوصًا إذا كان الناصح فقيرًا والمنصوح غنيًّا أو كان عاميًّا والمنصوح عالمًا ولو في نظر نفسه . فلا تسل عما يلقى الناصح من التعنيف والتوبيخ والسب إن لم يضرب ويحقر !! .

فلما تكبر الناس وفشا فيهم العجب بأنفسهم والغرور ورأى الناصحون من

---

(١) صحيفة أم القرى العدد٦٦٧ في ١٣٥٦/٧/١٢هـ.
(٢) أخرجه مسلم (٥٥) من حديث تميم الداري رضي اللّه عنه .
(٣) أخرجه البخاري (٥٧، ٥٢٤) .
(٤) في الأصل « أصبت » .

الأذى ما ضرهم ولم ينفع المنصوحين ترك أهل العلم النصيحة لأنها لا تقبل منهم ، وأصبح أهل الدين في نظر الأغنياء وأهل علم الدنيا كالصفر على يسار العدد لا قيمة له ، بل أصبح وجودهم عالة وقذى في العيون وشجى في الحلوق حتى أصبح أحدهم يتمثل بقول الشاعر :

فلو أن قومي أكرموني وأتأقوا[(١)] سجالا بها أسقي الذين أساجل
كففت الأذى ما عشت عن حلمائهم وناضلت عن أعراضهم من يناضل
ولكن قومي عزهم سفهاؤهم على الرأي حتى ليس للرأي حامل
تظوهر بالعدوان واختيل بالغنى وشورك في الرأي الرجال الأماثل

وإنما كان هوان أهل الدين عند أولئك المغرورين المفتونين لقلة دينهم وفحوى قلوبهم منه وجهلهم به وعدم تعظيمهم له ، زد على ذلك طمع أهل الدين أنفسهم في أهل الدنيا وركونهم إليهم وإظهارهم الحاجة والفاقة والحرص على ما في أيديهم .

ولو أن أهل الدين استغنوا عن أهل الدنيا كما استغنى أهل الدنيا عنهم وزهدوا فيما عندهم لكان قولهم مسموعًا ورأيهم متبعًا ومحترمًا إذ كان العلماء في القرون المفضلة كسفيان الثوري وابن عيينة والشافعي وابن حنبل وحسن البصري وأحزابهم تسمع نصائحهم ويعمل بأقوالهم ويصبرون على الضراء صبر الكرام ؛ يصومون النهار ويقومون الليل وتشبعهم الكسرة ، فأمثال هؤلاء حقًّا كان يسمع نصحهم ويخشى خلافهم .

فقل لي بربك ماذا نعمل إذا كان الناس مقبلين على شهواتهم تاركين أوامر ربهم كارهين للحق كما قال تعالى : ﴿لَقَدْ جِئْنَٰكُم بِٱلْحَقِّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَكُمْ لِلْحَقِّ كَٰرِهُونَ﴾ [الزخرف: الآية ٧٨].

---

(١) التَّأَقُ : شدَّة الامْتِلاء . «لسان العرب»(تأق).

إن أهل الشهوات يكرهون كل من يحول بينهم وبينها ولو كان ألطف من النسيم العليل وأعذب من الماء السلسبيل . وهذا رسول الله ﷺ وهذه سنته أتراهم يحبونها ويعملون بها إلا فيما يوافق الهوى ، ألم يقل رسول الله ﷺ : « إذا رأيت شحًا مطاعًا وهوى متبعًا وإعجاب كل ذي رأي برأيه فعليك بخويصة نفسك »[1] .. الحديث ، أليس هذا هو الزمان الذي ينطبق عليه الحديث ؟ !

ونقول في جواب ذلك ؛ لابد من النصح لكل مسلم وتحمل الأذى في ذلك وإلا بطل الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والنصح المقرون بالصلاة والزكاة ، وعلينا أن ننصح سواء قبل منا أم لم يقبل ، وسواء أوذينا في ذلك أو لم نؤذ قال تعالى : ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ فَإِذَآ أُوذِىَ فِى ٱللَّهِ جَعَلَ فِتۡنَةَ ٱلنَّاسِ كَعَذَابِ ٱللَّهِ﴾ [العنكبوت: الآية ١٠] .

وكل ما قيل من تطاول الأغنياء على الفقراء وغير ذلك لا يمنع من النصح لكن ينبغي أن يكون النصح سرًّا للخواص ، فإن إعلان النصح فضيحة وتركه لنيل ما عند المنصوح من دنيا بخس واشتراء بآيات الله ثمنًا قليلًا .

فإذا تحقق الناصح من عدم قبول نصحه أو نزول ضرر به فله حينئذ أن يسكت وينكر بقلبه ، والله الهادي إلى سواء السبيل .

❁❁❁

(١) أخرجه ابو داود (٤٣٤١) ، والترمذي (٣٠٥٨) ، وابن ماجه (٤٠١٤) من حديث أبي ثعلبة الخشني رضي الله عنه ، وضعفه الألباني في (المشكاة (٥١٤٤)) .

عبرة تاريخية[1]

نصيحة العارف بالله السيد أحمد الرفاعي الكبير رضي الله عنه للخليفة أبي أحمد المستنجد بالله العباسي.

ذكرها المؤرخ ابن حماد الموصلي في تاريخه «روضة الأعيان» عند ذكره الخليفة المشار إليه قال رحمه الله:

رُوي بالسند الموثوق- كذا- عن الشيخ صالح علي الطري خادم السيد أحمد الرفاعي رحمهما الله تعالى: أن أبا العباس أحمد المستنجد بالله أحضر حاجبه نصر بن عماد يومًا وقال له: إن السيد أحمد الرفاعي ممن أوتي الحكمة، وزهد في غير الله، فاذهب إليه بكتاب مني وأتني بجوابه، فإني مستنصحه. فقال نصر بن عماد: السمع والطاعة. فكتب الخليفة المستنجد كتابًا قال فيه:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

من أمير المؤمنين إلى السيد العابد الزاهد الشريف الدال على الله بهدي رسوله ﷺ، أحمد بن الشريف أبي الحسن البطائحي العلوي- نفع الله به المسلمين-

أما بعد ...

فإني أسألك بالله أن تكثر لي من النصيحة في جوابك؛ فإني في حاجة لنصيحتك، وأي حاجة، ولا ريب عندي بحصول بركة نصحك لي إن شاء الله، فأجبني بما يفتح الله به عليك مكثرًا فإنك مهبط الفتح اليوم، وأسألك الدعاء لي وللمسلمين، وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه أجمعين.

وطوى الكتاب وأعطاه الحاجب المذكور، فأخذه وأتى به إلى السيد الكبير

---

(١) صحيفة «صوت الحجاز»، العدد (٢٤) في ١٨/٥/١٣٥١هـ.

رضي اللَّه عنه ، ففتح الكتاب ، ثم بعد أن قرأه قال : ماذا أقول ؟ إن قلت لا أقدر على النصيحة خفت الرياء ، وإن قلت أقدر خفت الفضيحة . ولا حول ولا قوة إلا باللَّه العلي العظيم .

ثم إنه أمر بدواة وقرطاس . وقال لي : إني عليل ، اكتب[1] فإنك مبارك إن شاء اللَّه ، فرمقته للتلقي فقال :

[2]بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد للَّه والصلاة والسلام على سيد خلقه عبده وحبيبه ومصطفاه .

أما بعد ...

من الفقير إلى اللَّه أحمد بن علي أبي الحسن -كان اللَّه له- إلى الإمام الخليفة المطاع أمير المؤمنين أبي أحمد المستنجد باللَّه العباسي الهاشمي ،أيده اللَّه بما أيد به عباده الصالحين . آمين .

وصلنا كتابك الآمر بالنصيحة ؛ والحديث الشريف « الدين النصيحة ، الدين النصيحة ، الدين النصيحة »[3] ولولا هذا الحديث لما تصديت لنصحك . نصيحة مثلك -بارك للَّه بك- لها شرطان : الإخلاص من الناصح ، والقبول ؛ بشرط العمل بالنصيحة من أخيه -أيدك اللَّه بتوفيقه-

يا أمير المؤمنين : إن أنت أنفذت أحكام كتاب اللَّه -تعالى وتقدس- في نفسك ، نُفذت أحكام كتبك في ملكك ، وإن عظمت أمر اللَّه تعالى باتباع رسوله عليه الصلاة والسلام ، واحتفلت بشأنه الكريم ، عظم الناس عمالك وولاة الأمور من قبلك ، ولا تنظر يا أمير المؤمنين ما عليه القياصرة وملوك المجوس من القوة

---

(١) في الأصل : إني على أكتب.

(٢) تتمة المقال في صحيفة « صوت الحجاز » ، العدد (٢٥) في ١٣٥١/٥/٢٥هـ.

(٣) مسلم (٥٥) من حديث تميم الداري رضي اللَّه عنه.

في ملكهم -مع انسلاخهم وبعدهم عن كل ما ذكرته لك- فإنهم جهلوا الحق فأبعدهم الحق عنه ، وقربهم من الدنيا ، وقربها منهم ، وولاهم أمر من شاء من خلقه ، فإن ساسوهم بما تسكن إليه أفئدتهم ، وتطمئن له طباعهم دام أمرهم في حجاب دنياهم إلى أن تنقطع حبال آجالهم ، وإن لم يسوسوهم بالرفق والمدارة ، وأوقعوا فيهم ما ينقل عليهم ، سلطهم عليهم ، فسلب دنيا قوم بقوم ، والنار مأوى الكافرين .

وأما أنت يا أمير المؤمنين ، فحافظ ثغور ، وحارس دماء وأموال عزت[1] بكل مفازاتها بسيوف الإسلام ، لا علمًا بقدومك بعد حين ، ولا تمهيدًا لك لتفعل برأيك ، إنما كان ذلك للّٰه ولرسوله ، فافزع في كل أمورك إلى اللّٰه ، وعظم في كل شؤونك أمر رسول اللّٰه ، وأنت حينئذ في أمان اللّٰه ، وظل نبيه[2] ، نافذ الأمر ، ثابت السلطان ، مؤيدًا بجند اللّٰه وكلماته ، ولا تبديل لكلمات اللّٰه .

ثم زن - يا أمير المؤمنين - كل ما يصل إلى خويصة نفسك في هذه الدار من طعام تأكله ، وشراب تشربه ، ورداء ترتديه ، وظل تستظله ، واجعل الشره على الدنيا بقدر ذلك ، وإياك وظلم العباد ، وإذا استفزك الشيطان ورام نزغك إلى الظلم ، فسل نفسك لو كنت مسجونًا ، أو مظلومًا ، أو مقهورًا ، أو مكذوبًا عليك ما الذي تريده لنفسك من سلطانك ؟ وعامل الناس بما تريده لنفسك ، فإنك إن فعلت ذلك وفيت العدل والآدمية حقهما .

واعلم أن ما أنت فيه من الملك والدولة شيء يسير من ملك اللّٰه ، وأنت جزء صغير منه ، فإن رأيت لك شيئًا ، ونسيته ، وقمت تفعل فعل من يزعم مشاركة في ملكه فأهملت حقه ، وغدرت خلقه ، يصرف عنك عونه ونصره ، ولك فيمن

---

(١) في الأصل : هزت.

(٢) هذه من الألفاظ المجملة ، ولعل مراده : أنه ما دام مؤتمرًا بأمر رسول اللّٰه ﷺ فهو في ظل شريعته . واللّٰه أعلم .

مات عبرة، ولا تنظر -يا أمير المؤمنين- إلى من صرفهم عن مشغلة الدنيا من أحبابه المقربين إليه، كبغض الصحابة الذين نازعهم الناس، وانتزعوا أزمة الدنيا من أيديهم؛ لأن أولئك قوم اجتذبهم إليه، وولى على الناس من يشاكلهم في أعمالهم، وكل عن عمله مسئول. ﴿وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾ [الكهف: الآية ٤٩].

يا أمير المؤمنين: ظلك ما أظلك، ورداؤك ما سترك، وطعامك ما أشبعك، ومالك ما لك منه شيء، وليس لك من الأمر شيء، إن ربي على ما يشاء قدير.

(١)نعم أنت خاتم من خواتم القدر، يطبع على ألواح الصور، فيرفع الله به ويضع، ويصل ويقطع. فإن أنت لزمت الأدب مع الفعال المطلق برعاية حق شرعه الذي شرع لعباده أثابك وأدار محور الواجب بك، وبأهلك بعدك، وإن أهملت أمره وهتكت ستر خلقه، دخلت في عداد الظالمين ﴿وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ﴾ [البقرة: الآية ٢٧٠].

يا أمير المؤمنين: أهل الفهم السليم والذوق الصالح تجتمع هيئتهم على الحق، ويترعرعون في بحبوحة العدل والإحسان، فكبيرهم وصغيرهم، وأميرهم ومأمورهم، وحرهم وعبدهم في الدين سواء، ولكل منهم مقام معلوم، لا تشب فيه نار الشقاق، ولا يتحكم فيهم سلطان سوء الأخلاق، يحكمون بما أنزل الله، ولا يزالون في أمان الله، ولو احتالوا في الحكم فجعلوا له وجهًا في الظاهر، وأبطنوا الباطل. يقول لهم الحكيم العدل: ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَـٰسِقُونَ﴾ [المائدة: ٤٧]. فإذا أظهروا الباطل، وهيئوا له سبيلًا شرعيًا أدخلته غلبتهم وشوكتهم في الحكم قال الحق تعالى لهم: ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّـٰلِمُونَ﴾ [المائدة: الآية ٤٥]. فإذا أظهروا الباطل، وانتحلوا له سبيلًا من الرأي استصغارًا لحكمة الشرع، وتعززًا بالأمر

---

(١) تتمة المقال في «صحيفة صوت الحجاز»، العدد (٢٧)، في ١٣٥١/٦/٩هـ.

فحكموا به قال لهم المنتقم الجبار : ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ [المائدة: الآية ٤٤] .

يا أمير المؤمنين : أروقة الأعمال لا تُعَمَّر بأيدي الخيال ، ولا يصان حي إلا بمادة جامعة تلصق القلوب ببعضها ، وتدفع النزاع والتفرقة ، وما هي والله إلا الشرع العادل والسنة المحمدية الصالحة ، وكل ذلك أمر الله الذي طبع الطباع وعلم ما تطيب له ، وبه يرتاح الضعيف لطلب حقه من خصمه القوي ، وأنت تدري -يا أمير المؤمنين- أن ابن عمك إمام المسلمين عليًّا أمير المؤمنين - كرم الله وجهه ورضى عنه- حدَّث عن ابن عمه سيد المخلوقين أنه قال : « لن تقدس أمة لا يؤخذ للضعيف فيها حقه من القوي غير متعتع »(١) . والأمر -والله- كذلك .

وعلمت - يا أمير المؤمنين - من سيرة عمر بن الخطاب الفاروق الجليل رضي الله عنه أنه لم يرهب فارس والروم والمغرب والصين والهند والبربر بفرش الديباج ، وبسط الحرير ، وكؤوس الجواهر ، والخيول المسومة ، والبيوت الشاهقة ، والأقواس المذهبة . إنما أرهبهم بالعدل المحض ، وأفحم شوس رجالهم بالحكمة البالغة ؛ ألا وهي شريعة نبيك سيد الحكماء وبرهان العقلاء ، وإمام الأنبياء محمد ﷺ .

ولتعلم -أمطر الله على قلبك سحاب الإلهام المبارك والتوفيق ، وأحكم أمرك بالأعوان الصالحين أهل الحكمة والنجدة- أن الحق كمين تحت ضلوع الخاصة والعامة ؛ المحق منهم والمبطل ، فربما أعانك عبدك على باطلك بيده ولسانه انقيادًا لوقتك ، وأنكره عليك بسره ، وأضمر قلبه لك السوء ، فلا يزكي - كذا - ذكرك لديه ، ولو جعلته حرًّا ثم أكبرته ثم استوزرته ، بل ولو كان أشد منك

(١) المعجم الكبير (١١٢٣٠) ، السنن الكبرى للبيهقي (١١٢٩٤) .

باطلًا . وهذا سر اللّه المضمر في الحق .

واعلم أي سيدي أن جيوش الملوك العدل ، وحراسهم أعمالهم ، ودفاتر أحوالهم عمالهم وأصحابهم ، وهذه الدفاتر في أيدي العامة . فأصلح دفتر أحوالك ، وأحكم حراستك ، وأيد جيشك ، وعليك بأهل العقل والدين ، وإياك وأرباب القوة والغدر والضلالة ، فهم أعداؤك ، وصن أمرك من أن تلعب به النساء والأحداث والذين لا نخوة لهم ، فإنهم من دواعي الخراب والاضمحلال ، وإذا أحببت فحكِّم الإنصاف في عملك ، حتى لا تقدم غير محق ولا ترفع بغير حق ، وإذا كرهت فاذكر اللّه ، ونزه طبعك من الجور والغدر ، فإن مكانك مكان من يدور صاحبه مع الحق لا مع الغرض ، وإذا غضبت فاجنح للعفو ، فإذا أخطأت فيه خير من أن تخطئ في العقوبة . واجعل بَذْلك ونوالك لأهل الدين والحكمة والغيرة للإسلام ، واختر منهم أشرفهم طبعًا ، وأكبرهم عقلًا ، وأوجزهم رأيًا ونطقًا ، وأبكتهم حجة ، وأعلمهم باللّه ورسوله ، وساوِ الناس برًّا وفاجرًا مؤمنًا وكافرًا في باب عدلك ، واحفظ حرمة الدين وأهله ، واعمل عملًا تحسن به عاقبتك إذا لاقيت ربك . واللّه ولي التوفيق . إنا للّه وإنا إليه راجعون والسلام عليكم ورحمة اللّه وبركاته . انتهى .

ما في هذا الكتاب من العبر

١- تواضع الأمراء وحسن اعتقادهم في أهل الزهد والمنقطعين إلى اللّه تعالى .

٢- التوسل إلى اللّه بدعاء الصالحين من الأحياء لا الأموات .

٣- حاجة الملوك والأمراء إلى نصيحة المخلصين ، وطلبها منهم .

٤- إجابة الناصحين ومعرفتهم باللّه تعالى وسنته في خلقه .

٥- بيان فضل الرفاعي ، والفرق بينه وبين من ينتسبون إليه في هذا الزمان من

أكلة الأفاعي والنار والمشعوذين والجهلة .

٦- بلاغة المتقدمين وعدم تكلفهم السجع وغرائب اللغة وسلاسة ألفاظهم وحسن أسلوبهم .

٧- تلطفهم بالمنصوح له ، ومعرفتهم بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر .

٨- رد شبه الملوك الذين اغتروا بالدنيا وزخارفها ، وظنوا أن العز بما يتحلون به من متاعها وقصورها وفرشها وأثاثها .

٩- معرفته رضي اللَّه عنه بالسياسة الشرعية الحكمية التي من تمسك بها في كل زمان نجح .

١٠- الترغيب والترهيب وتحذير العاقبة .

وبالجملة فالكتاب كله درر وغرر وعبر ومواعظ ، نسأل اللَّه تعالى أن يوفق المسلمين لاتباع سلفهم الصالح وأن يلهمهم الصواب ويبصرهم .

❁ ❁ ❁

عبرة وموعظة في حادث

« رواية شاهد عيان »(١)

حدثني ثقة أنه كان في بلده رجلان أخوان شقيقان ، ألم بأحدهما مرض خاف على نفسه ، وكان لكل منهما ١٢ فدانًا ورثاها عن أبيهما ، فلما اشتد على المريض مرضه أحضر أخاه وكتب له أرضه ما عدا الثمن أبقاه لزوجه ، وقال له : يا أخي إن مت فالأرض لك وإن حييت فهي لي . وأراد اللَّه أن يحيى ، فبعد شهر عادت إلى المريض صحته ولكن كانت الأرض قد ذهبت عنه ؛ إذ انتهز أخوه فرصة اشتغاله بمرضه وذهب فسجل الحجة في المحاكم باسمه وبذا خرجت عن حيازة ذلك الأخ المريض وذلك عن غش وخيانة وغدر .

وفي ذات يوم أخذت امرأة المريض بقرته لتسقيها وترعاها في أرضها وأرض زوجها فما تشعر إلا وولد الأخ الغادر يطردها ويذودها عن الأرض بألفاظ المالك المسلط ، فقالت له : لماذا تذودني عن أرضي ؟ ! فقال : اذهبي لا أرض لك ولا لزوجك عندنا . فذهبت فاشتكت لزوجها ما كان من ابن أخيه فقال : لا بأس عليك وأرسل لأخيه صديقًا له يطلب منه ما ائتمنه عليه وما أوصاه به ، فقال : أمجنون صاحبك ؟ ! لا شيء له عندي . - فقال : حسن .. ولبلغ الأمر إلى الأخ فطلبه لدى العمدة ؛ عمدة بلدهم فأنكر وكان لدى العمدة علم بالمسألة فقال للمظلوم : اذهب واشتك وإذا احتجت لدراهم تنفق منها على القضية أعطيتك كل ما تحتاج إليه . فقال الرجل : لا حاجة لي بالشكوى إلى الخلق بعد أن بين لي إنكاره وجحوده وأشكو إلى اللَّه وأفوض أمري إليه . وانصرف .

ولم تمض أيام حتى درى بعض المحامين المشهورين بالمسألة فعرض على

(١) صحيفة « أم القرى » العدد ٦٦٥ في ١٣٥٦/٦/٢٧هـ.

الرجل أن يقوم له بالقضية[١] حتى إذا كسبها أعطاه أتعابه فقال له -وهنا يتبين للقارئ محور المقالة وسر الموعظة- :

قل لي أيها المحامي المحترم لو اتخذتك مدافعًا عني محاميًا لي ثم اتخذت غيرك وكيلًا في القضية أما تغضب مني وتسخط علي ؟ فقال : بلى ، قال : إني وكلت ربي في قضيتي من قبلك وفوضت الأمر إليه من قبل وكفى بالله وكيلا فانصرف المحامي متعجبًا من هذا الرجل ووثوقه بالله .

وقالت امرأة الظالم تعظه : يا صاح اتق الله وأرجع إلى أخيك ما أخذت منه فإني أخشى عليك ، فزجرها ، فألحت عليه ، فهددها بالطلاق ، فسكتت راغمة ، وكان لهذا الظالم ولدان كبيران وكان الرجل وولداه قد أنزلوا الزرع في البيدر بعد حصاده وظنوا أنهم قادرين عليه فجاءهم أمر الله بغتة وبيتهم فأصبحوا هالكين ؛ وذلك أن الرجل وأولاده كانوا في بيتهم يتذاكرون فيما صار إليهم من الغنى الوافر والأرض الواسعة ويأكلون ويضحكون إذا رسول من بيت أهل الزوجة يقول : عجلي لأمك فإنها تنفس الآن وقد طلبتك ، فشدت عليها ثيابها وخرجت إلى أمها وبعد قليل نام الرجل وأولاده وبعد هزيع من الليل حيث الناس نيام والرجل وأولاده غارقون في لذة الأحلام خر عليهم السقف من فوقهم وتدكدكت جدران البيت عليهم فجعلتهم حصيدًا خامدين وأنجى الله الناهين عن المنكر والمؤمنين .

❁❁❁

(١) في الاصل « بالقصة ».

أخلاق وآداب[١]

الإنسان في هذه الحياة كظل لا ثبات له ولا بقاء، والسعيد فيها كل السعيد من تحلى بالأخلاق الكريمة والآداب العالية، فمتى ارتحل إلى الدار الآخرة وخرج من هذه الحياة بقي أثره إن كان حسنًا وإن كان سيئًا. قال الشاعر[٢]:

وإنما المرء حديث بعده فكن حديثا حسنا لمن وعى

ومن الناس من يعجبك شكله الظاهر وحديثه الطالي فإذا عاملته واحتككت به ظهر لك مكنونه وبانت لك أخلاقه.

ومنهم من إذا أكرمته ملكته وهذا كريم. ومنهم من إذا أحسنت إليه تمرد وقابل الإحسان بالإساءة وإكرامك إياه باللؤم فهو لئيم. قال المتنبي:

إذا أنت أكرمت الكريم ملكته وإن أنت أكرمت اللئيم تمردا

ولا عجب أن ترى ذلك في الناس فهم كما ورد في الحديث معادن كالذهب والفضة والرصاص والنحاس والحديد والسهل والصعب. والمرء يكبر على ما تعود في الصغر فإن تعود أخلاقًا حسنة ونشأ على آداب قويمة تأصلت فيه ورسخت في نفسه حتى تصدر عنه من غير تصنع ولا تكلف فيحمده الناس ويحبونه، وبقدر هذا الحب تكون سعادته في الدنيا، كما أنهم لو كرهوه لسوء أخلاقه وقلة آدابه تكون شقاوته فيها وبؤسه، فإذا بلغ أربعين سنة وهو على شيء من الأخلاق؛ حسنًا كان أم سيئًا لم يكن ثم مطمع في تغييره كما قال الشاعر العربي[٣]:

---

(١) صحيفة أم القرى العدد ٦٦٦ في ١٣٥٦/٧/٥هـ.

(٢) القائل: أبو بكر محمد بن دريد. «جمهرة الأمثال» (٣٥٢/١).

(٣) القائل: الأعور الشنّي، بشر بن منقذ بن عبد القيس. «اللآلي في شرح أمالي القالي» (١/ ٢٦٣).

إذا ما المرء قصر ثم مرت ... عليه الأربعون عن الرجال
ولم يلحق بصالحهم فدعه ... فليس بلاحق أخرى الليالي

وإذا بلغ المرء أربعين سنة عد شيخًا في اللغة لسنه .

وقد قال الشاعر أيضًا(١) :

والشيخ لا يترك أخلاقه ... حتى يوارى في ثرى رمسه

وإن الذي لا يؤدبه أبواه ولا أساتذته أدبته الأيام والليالي وما أقسى تأديبها !!

ترى رجلين في دائرة عمل واحدة فأحدهما يستقبلك بالبشر والبشاشة واللطف ويقدم لك ما استطاع من كرامة حتى يقضي حاجتك وينهي عملك فتخرج من عنده شاكرًا مسرورًا ، وكلما جلست في مجلس ذكرته بخير وأثنيت عليه ، وأما الآخر فلسوء أخلاقه وقلة آدابه يستقبلك بوجه عبوس وقاح ومنطق جاف ثقيل لا ينزل الناس منازلهم ولا يعرف أقدارهم ؛ وذلك لأنه فدم ثقيل وغرّ جاهل لم يثقف ولم يؤدب ، وما أشبه هذا بالقطا الذي لم يعرف لهم أب فلا تكاد تلقاه حتى تستعيذ باللّه من شره ، وأمثال هذا لا يفلح ولا يكاد يقضي لك حاجة إلا بشق الأنفس ولا تخرج من عنده إلا ساخطًا عليه ذامًا له ، وربما حملك على مقابلته بما ليس من أخلاقك .

وإن من الآداب أن يكون الناس عندك على ثلاثة أقسام ؛ كبار يجب لهم الإحترام والتكريم كما تحترم أباك ، وإما صغار فتعاملهم باللطف والرحمة كأولادك ، وإما مثلك فتعتبرهم إخوانًا لك ، فإذا كانوا ممن تجمعهم بك جامعة دينية أو لغوية فذلك أدعى إلى الإحترام والإكرام والمحبة ، ولا يفقد هذا إلا فاقد الذوق أو شقي محروم ، أفليس المسلم أولى بأن يحترم إخوانه المسلمين أنَّى كانوا وحيثما وجدوا ؟ بلى ؛ ولكن من لم يعرف الإسلام ولم يكن في قلبه ذرة منه

(١) القائل : صالح بن عبد القدوس . « البيان والتبيين » (٧٨/١) .

كيف يحترم المسلمين ويعرف حقوقهم ؟ !!

الآداب الإسلامية هي أعلى الآداب ؛ يدلك على ذلك حديث واحد وهو قوله عليه الصلاة والسلام : « مثل المسلمين في تراحمهم وتوادهم وتعاطفهم كمثل الجسد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى » [(١)] وفي حديث آخر يقول عليه الصلاة والسلام : « المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضا » [(٢)] .

فلو كان المسلمون على ذلك لم يقدر أحد على صدع بنيانهم ولا تقويض عزهم .

إن الآداب السامية والأخلاق الكريمة هي علة الضم والتآلف والمحبة ، وذلك كله علة القوة ، والقوة علة الحياة السعيدة العزيزة ، والضعف علة الموت ، ولا يعيش إلا القوي ، وعلة الضعف المرض فكما أنَّ الجسم إذا مرض ضعف فمات فكذلك الأمة إذا مرض جسمها بالأخلاق السيئة والآداب الدنيئة الدنسة انحلت قواها وماتت وأصبحت حياتها سافلة كحياة البهائم لا تعرف غير الأكل والسفاد ولم يكن لها اعتبار بين الأمم .

أليس عجيبًا أن تكتب إلى لورد عظيم فيجيبك بأرق مما كتبت ويجيبك بأحسن من تحيتك ثم تكتب إلى رجل من بني دينك ولغتك ووطنك فلا يجيبك ولا يعنى بك ؟ !! .. وتكتب لجلالة الملك عبد العزيز آل سعود ذلك الرجل العظيم المسلم حقًا فيجيبك ، وتكتب لمن دونه ...[(٣)] بل لمن لا يصلح أن يكون خادما لخادمه فلا يجيبك !! .. فانظر إلى الفرق العظيم في هذه المسألة البسيطة

---

(١) أخرجه البخاري (٦٠١١) ، ومسلم (٢٥٨٦) من حديث النعمان بن بشير رضي الله عنه .

(٢) أخرجه البخاري (٢٣٤١) ، ومسلم (٢٥٨٥) .

(٣) كلمة غير واضحة في الأصل .

كمثل لغيرها من الأخلاق .

إن التواضع في عز عزٍّ آخر ، وإن الكريم لا يصدر منه إلا الكرم ، وإن الخيِّر لا يصدر عنه إلا الخير واللئيم الشرير بالعكس ، ولو شئت لذكرت أشخاصًا بأسمائهم يعدون حقًا مثلا للأخلاق العالية والآداب العالية ولكني أترك ذلك للتاريخ فهو الذي يقرظهم ويسجل لهم ما يستحقون من ثناء حسن أو غيره ، وإنهم ليعلمون أنهم رجال اليوم وذكرى المستقبل .

فمن أراد ان يصل عمره بعمر آخر أو أعمار كثيرة طويلة فليبن من الآن بيت عزه الذي لا تؤثر فيه زعازع الرياح وهوجها ولا السيول ومعاولها على أساس الدين القويم والأخلاق الكريمة ، وإن الآمال معقودة في شباب اليوم إذا عنوا بالأخلاق والآداب العالية ، فإن الأمم بأخلاقها وعلومها . وإن التواضع في عز عزٍّ آخر ، أما الصلف والكبر والغرور والعجب والزراية التي كثيرًا ما تعتري الشبان إلا من عصم اللَّه فهي أمراض وبيلة فتاكة وكثيرًا ما يذهب الشباب ضحيتها ، وقد رأيت حادثين في شابين لم أحمد مكانهما !! .. ولست طبعًا بجاعلهما مقياسًا لغيرهما فإن شباب الحجاز وللَّه الحمد أصبح يعرف ما عليه من واجبات نحو الصغير والكبير بما ناله من ثقافة وأدب ، وبإزاء هاتين الحادثتين جمعتني الفرص السعيدة ببعض الشبان الأدباء المثقفين وكان ذلك داعيًا لسروري واغتباطي وتفاؤلي وتوسمي خيرًا .

إن الشباب الحجازي سيبلغ في القريب العاجل ذروة الكمال ما دام متمسكًا بالآداب الكريمة والأخلاق العالية إن شاء اللَّه ، واللَّه الموفق .

❁❁❁

السؤال في الإسلام(١)

السؤال في الإسلام ؛ إما سؤال عن علم وإما سؤال حاجة ومال .

أما الأول فهو مباح وقد يكون واجبًا .

وأما الثاني وهو سؤال الناس أموالهم وأشياءهم فهو حرام إلا من ضرورة .

دليل إباحة سؤال العلم ووجوبه من الكتاب والسنة ، قول اللّه تعالى : ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَهِلَّةِ﴾ [البقرة: الآية ١٨٩] ، ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ﴾ [البقرة: الآية ٢١٩] ، ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلشَّهْرِ ٱلْحَرَامِ﴾ [البقرة: الآية ٢١٧] ، ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ﴾ [الإسراء: الآية ٨٥] ، ﴿فَسْـَٔلُوٓا۟ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [النحل: الآية ٤٣] .

ومن السنة قول النبي ﷺ : «ألا سألوا إذ لم يعلموا ؟ ! إنما دواء العي السؤال » (٢) .

وإذا كان السؤال عن تعنت وتعجيز كسؤال بعض المشركين النبي ﷺ آيات كانوا يقترحونها ونحو ذلك من الأسئلة التي لا فائدة للسائل فيها وقد يسوؤه معرفتها ، فهذا منهي عنه أيضًا كما قال تعالى : ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَسْـَٔلُوا۟ عَنْ أَشْيَآءَ إِن تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ﴾ [المائدة: الآية ١٠١] وكمن سأل عن الحج ؛ أكل عام هو يا رسول اللّه ؟ .

ومقصودنا الآن بيان سؤال التسول الذي اتخذه كثير من الناس حرفة حتى فضلوها على العمل واستمرأوها وآثروها على كل صناعة وزراعة وتجارة .

قلنا إن سؤال الناس أموالهم وأشياءهم إلا لضرورة ملحة حرام ، والدليل على ذلك قول النبي ﷺ : « لا تزال المسألة بأحدكم حتى يلقى اللّه تعالى

(١) صحيفة أم القرى العدد ٦٦٤ في ٢٠ جمادى الثانية ١٣٥٦هـ.

(٢) أخرجه أحمد ١/ ٣٣٠، وأبو داود (٣٣٧) ، وابن ماجه (٥٧٢) من حديث ابن عباس رضي اللّه عنهما .

وليس في وجهه مزعة لحم» رواه البخاري ومسلم والنسائي [١]، وذكره المنذري في «باب الترهيب من المسألة» [٢].

وعن سمرة بن جندب أن رسول اللَّه ﷺ قال: «إنما المسائل كدوح يكدح بها الرجل وجهه فمن شاء أبقى على وجهه ومن شاء ترك، إلا أن يسأل ذا سلطان، أو في أمر لا يجد منه بدًا» رواه أبو داود والنسائي والترمذي [٣]. والكدوح: آثار الخموش.

وقال رسول اللَّه ﷺ: «من سأل وعنده ما يغنيه فإنما يستكثر من النار». قالوا وما الغنى الذي لا ينبغي معه المسألة؟ قال: «قدر ما يغدِّيه ويعشِّيه» [٤].

وفي هذا الباب أحاديث كثيرة لا تحتملها هذه العجالة وفيما ذكرناه كفاية لمن أراد أن يتقي اللَّه ويصون نفسه من ذل السؤال وشناره.

ولست أدري لماذا فشى في المسلمين التسول والإلحاح في المسألة وديننا يحرم ذلك إلا من ضرورة كذي فقر مدقع، أو غرم مفظع، أو دم موجع.

ولابد للمصلح أن يرى العامة ويتمكن من معرفة الداء ثم يصف الدواء كالطبيب الماهر النطاسي [٥]، ولا علة لفشو هذا المرض الوبيل بين جماعات الناس فيما يظهر لي إلا ثلاثة أمور:

---

(١) أخرجه البخاري (١٤٧٤)، ومسلم (١٠٤٠)، والنسائي (٢٥٨٥) من حديث ابن عمر رضي اللَّه عنهما.

(٢) «الترغيب والترهيب» (١/٣٢٢).

(٣) الترمذي (٦٥٠)، وأبو داود (١٦٣٩)، والنسائي (٢٥٩٩) من حديث سمرة بن جندب رضي اللَّه عنه، وصححه الألباني. صحيح الترمذي (٦٨٤).

(٤) أخرجه ابو داود (١٦٢٩)، والبيهقي ٧/٢٤ من حديث سهل بن الحنظلية رضي اللَّه عنه. وصححه الألباني. صحيح الجامع (٦٢٨٠).

(٥) النطاسي: العالم الماهر والطبيب الحاذق، والدقيق نظره في الطب. «تاج العروس»، و«الوسيط» (ن ط س).

الأول : منع الناس الزكاة وهي حق الفقراء .

الثاني : كسل بعضهم وحرصه على الثراء من طريق التسول .

الثالث : ترك المسؤولين تأديب هؤلاء المتسولين وتكليفهم بأعمال مفيدة لهم ولوطنهم وأمتهم .

والعلاج أن يمنع الأصحاء من المتسولين ؛ رجالًا ونساء ويشغلون بأعمال عامة أو خاصة ، ويعلم الأولاد الصغار صناعة ، والبنات تزوج ، ومن لا تصلح ..[١] فإن كن يتيمات فقيرات فهن أولى بدار تؤيهن وتنظر في مصلحتهن إلى أن يبلغن السن المناسب لتزويجهن .

وحبذا لو فتح بعض المفكرين محلًا لتخديم العاطلين كما يوجد ذلك في البلاد المتمدينة على أن الحاجة هنا ماسة وخصوصًا لندرة وجود الخدم .

إن التسول صار حرفة على أن فيها من الضر ما نقص عليك بعضه :

فمن أضرارها ، بل من أكبرها إظهار أقصى الذل والخضوع والفقر للمسؤول ، وهذه الحال ينبغي أن تكون من العبد بين يدي خالقه والمتكفل برزقه ، ولذلك كان سؤال المخلوق بهذه الحالة وخصوصًا إذا انضم إليها عدم الحاجة حرامًا كما يستفاد من النهي الوارد في الأحاديث المقتضي للتحريم .

ومن أضرارها اختلاط النساء بالرجال وخصوصًا إذا كن شابات وكواعب ، فتراهن يخضعن بالقول ويتذللن في السؤال ؛ وذلك مما يطمع ذوي النفوس الدنيئة والشهوات البهيمية فيهن خصوصًا إذا كان ذلك في المساجد فإن ضرره يكون أعظم .

ومن أضرارها تعويد النفوس الكسل وتمرينها على البطالة ، وإضرار الناس بالإلحاح في السؤال ومضايقتهم ، وصرفهم عن العبادة وإشغالهم بما لم تبن

---

(١) هكذا بالأصل.

المساجد له .

وإن كثيرًا من المتسولين ليعلمون أولادهم وهم أطفال هذه المهنة الدنيئة ويعلمونهم الإلحاح والتملق والذلة للمسؤول حتى ينالوا منه بغيتهم .

إن الذين اتخذوا حرفة التسول أصبحوا يعدون العمل في البيوت وغيرها من العار ، فتدعو المرأة لتخدم في بيتك وتعمل ما يعمله أمثالها من غسل وطبخ ونظافة بيت مثلًا فتأبى كل الإباء ! فهي تستنكر الخدمة وهي عمل حلال ولا تستنكر التسول ومد يدها الخضبة بالحناء إلى الناس ، ويجيء غلام يستجديك فتقول : تعال اعمل عندي وكل واشرب واكنس . فيقول : كلا إني أكسب من حرفتي أضعاف ما تعطيني !!

لذلك أصبح الناس في حاجة إلى خدم يبحثون عنهم فلا يجدون ، وليس ذلك لقلة الفقراء ولا الأولاد الذين يصلحون للخدمة ، ولكن لأنهم يكسبون بالتسول ما لا يكسبون بالعمل ، وقد رأوا التسول حرفة سهلة ووسيلة قريبة إلى جمع المال ، ولا ريب أن هذا فساد اجتماعي ومرض خلقي ، وتفرض مداواته على الأمة وخاصة الأغنياء منها ؛ وذلك بأن يوجدوا المصانع وينشئوا الشركات التي تسع العاطلين فتعلمهم ما ينفعهم ، وهكذا يجب أن تتضافر الأمة مع حكومتها على إصلاح الفاسد ومداواة الأمراض الاجتماعية ، والله الموفق .

❁❁❁

الإمامة في المسجد الحرام

« حاضرها وماضيها »[(١)]

كانت الإمامة في المسجد الحرام زمن الترك وأحكامهم في الحجاز مثال الفوضى والعبث، والتفرق في الدين؛ وذلك أن الإمامة كانت وظيفة يتوارثها الأبناء عن الآباء، والآباء عن الأجداد، وكان من لم يصلح من أولئك الأبناء للإمامة أقام نائبًا عنه للقيام بالوظيفة.

وكان في المسجد الحرام أئمة كثيرون يعدون بالعشرات، بل بالمئات. قائمة المذهب الحنفي -مثلًا- بلغوا خمسين ومائة أو كثير. وأئمة الشافعية كانوا مثل ذلك أو قريبًا منه، وأئمة المالكية والحنابلة، غير أن الحنابلة كانوا أقل الطوائف وأقل الأئمة.

ولقد كانت تقام الصلاة في المسجد فيتقدم أحد أئمة الشافعية ويصلي أول الوقت في الفجر، والمالكية والأحناف جلوس ينتظرون حتى تنتهي الشافعية، ويصلون عند الإسفار، ولا تسل عما كان منهم في رمضان؛ فإنك كنت ترى جماعات كثيرة متعددة مختلفة العدد، وكان كل حافظ شيئًا من القرآن يقوم لثلاثة أو أربعة أو أكثر من جماعة، فيصلي بهم التراويح، ولا ريب أن هذا تفرق في الدين منهي عنه. وكان قد وقع في زمن عمر مثله فجمع الناس على إمام واحد وانتهى التفرق والحمد لله.

ولما جاء الإمام العادل الملك عبد العزيز -وفقه الله تعالى- ورأى هذه الفوضى والتفرق في أعظم مساجد الدنيا، هاله الأمر، وانتخب من كل مذهب عددًا من الأئمة يتناوبون الصلاة فيما بينهم، فإذا صلى منهم إمام صلى جميع من

---

(١) مجلة « الحج » - جمادى الثانية - ١٣٦٧هـ.

في المسجد خلفه ، وانتهى بذلك التعدد ، واقتضت حكمة هذا الملك المتمسك بدينه المصلح لما فسد أن ينقص من هؤلاء الأئمة عددًا بالتدريج كل عام حتى صار الإمام واحدًا والجماعة واحدة في رمضان وغير رمضان ؛ غير أن لهذا الإمام مساعدين إذا غاب لمرض أو نحوه صلى بدله النائب الأول ، فإن غاب صلى النائب الثاني .

وأصبحت الجماعة في المسجد الحرام مما يسرك منظره ويبهرك رواؤه وجلاله ، ولله الحمد والمنة ، وجزى الله مليكنا خير الجزاء على اجتثاث هذه الفتنة وذلك المنكر ؛ الذي لم يقره كتاب ولا سنة ولا مذهب .

ولم يكن هذا أول إصلاح بادر إليه مولانا المليك المهدي عبد العزيز ، ولا أول حسناته الكثيرة ، فلقد قضى على بدع كثيرة في المسجد الحرام بقدر ما سمحت به الظروف ، وهو- حفظه الله- ناصر للسنة فكم أبطل - حفظه الله وزاده توفيقًا- من بدع أهل الطرق التي كانت منتشرة في المسجد الحرام ، وكانوا يقرءون أورادها بأصوات منكرة ، وأبطل ازدحام النساء في الحرم بعض الليالي لإقامة بدع وموالد ما أنزل الله بها من سلطان ، فاستراح الناس من بدع دينية ، وفوضى أخلاقية كانت أخطر من الوباء الأصفر على الناس ، أطال الله عمره وزاده إصلاحًا وتوفيقًا .

❁ ❁ ❁

شعلة أُطفئت وشمس توارت ....!![1]

رثاء فقيد الإسلام العلامة السيد محمد رشيد رضا

أي خطب دها وأي مصاب ؟ ! خبِّروني فقد فقدت صوابي ؟
أحقيق قضى رشيد فأمسى صامتا لايحير رد جواب ؟ !
أحقيق هوى منير الدياجي من سماء العلا وحق اكتئابي ؟ !
أحقيق غاض الخِضم ودك الط ود في (مصر) يا له من مصاب ؟ !
أي إمام الهدى ! أعرني لسانا كان فيه الهدى وفصل الخطاب
وذكاء يمده نور علم ويراعا يجول في كل باب
وأعرني لآلئًا كنت تمليـ ها هدى من بليغ آي الكتاب
فلعلي أصوغ منها المراثي باكيات ولا بكاء السحاب
ولعلي أفي ببعض حقوق لفقيد الإسلام محيي الشباب
من لنا اليوم بعد موتك يفتي ويبين الصواب دون ارتياب ؟ !
ويذود الضلال من غير عي ويرد العدا على الأعقاب ؟ !
من (لتفسيرك) الحكيم ومن ذا (لمنار) في الحق ليس يحابي ؟ !
من يجلي العويص من مشكلات من يجلي مخدرات الكتاب ؟ !
كان ملء العيون علمًا وفضلا حجة في العلوم والآداب
سلفيا محققا مستقل الـ فكر حر الضمير حلو الخطاب
المعيا مناظرًا لا يجارَى وبليغا من أبلغ الكتاب
وخطيبًا مفوها علويا ثابت الأصل في ذوي الأحساب

---

(١) صحيفة صوت الحجاز، العدد (١٧٤) في ١٣٥٤/٦/١٩هـ صحيفة أم القرى العدد (٥٦٢) في ١٣٥٤/٦/١٥.

محيـيـا سنـة النـبـي بـعـلـم ... ومـمـيـتـا لـبـدعـة وكـذاب
داعيا للإله في حين يدعو ... عـلـمـاء الـضـلال لـلأنـصـاب
حارب الشرك والفجور بعزم ... دونه اسمر القنا والحراب
فتوالت عليه سوء خطوب ... مـن أنـاسٍ كـثـيـرة كـالـذبـاب
وتـعـاوت عـلـيـه مـثـل ذئـابٍ ... وهو كالبدر لم يُنل باصطخاب
فمضى معرضا بغير التفات ... لأذى مـلـحـد وأهـل كـتـاب
غير راج من الخلائق أجرا ... لا ولا خـائـف ولا هـيـاب
كم أهاب الرشيد بالشرق حتى ... أشرقت شمسه بغير حجاب
صادعا بالحق المبين إذا ما ... شغلت غيره ذوات الخضاب
لا يبالي بمدحة الناس يوما ... وهو أهل لها ؛ ولا بسباب
واقرأ (الوحي) إن أردت رشادا ... و(مـنـارا) دلـيـلـه كـالـشـهـابِ
كم تمنى لشرعة اللّه نصرا ... وعلوًّا على جميع الرقاب
كم أماط اللثام عنها وجلّى ... وسـبـاتـا بـحـسـنـهـا الـخـلاب
شعلة اطفئت وشمس توارت ... وي كأن الحياة لمع سراب
ليت شعري أتائب حاسدوه ... بـعـد هـذا لـربـنـا الـتـواب ؟
أم يظل الحسود بعد مصرا ... لا يبالي بهول يوم الحساب
كل حي إلى الفناء سيمضي ... ومـسـوق جـمـيـعـنـا لـلـتـراب
رب إن المصاب فيه عظيم ... ضاق ذرعا به أولو الألباب
رب أفرغ على القلوب اصطبارا ... وارزقن الفقيد حسن الثواب

❁❁❁

الشيخ

عبد الرحمن بن ناصر السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ

مقالات الشيخ عبد الرحمن بن ناصر السعدي(١)

القرآن هو الفرقان(٢)

قال اللّه تعالى : ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ لِيَكُونَ لِلْعَـٰلَمِينَ نَذِيرًا﴾ [الفُرقان: الآية ١] . وصف اللّه القرآن بهذا الوصف الجليل ، المطابق للواقع ، فإن الفرقان هو العلم النافع الصحيح ، الذي يوضح الحقائق ، ويميز بين مراتب الأشياء المتباينات . قال تعالى : ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِن تَتَّقُوا۟ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا﴾ [الأنفَال: الآية ٢٩] . أي : علمًا ، ومعارف عظيمة نافعة ، تفرقون بها بين

---

(١) هو العلامة الورع الزاهد تذكرة السلف الشيخ عبد الرحمن بن ناصر بن عبد اللّه آل سعدي الناصري التميمي الحنبلي . ولد في مدينة عنيزة بالقصيم سنة ١٣٠٧هـ .ونشأ نشأة حسنة فدخل مدرسة تحفيظ القرآن فحفظه عن ظهر قلب وهو في الرابعة عشر من عمره ، ثم اشتغل بطلب العلم ، فقرأ على الشيخ إبراهيم بن حمد بن جاسر والشيخ محمد بن عبد الكريم الشبل والشيخ صالح بن عثمان القاضي وهو أكثر من قرأ عليه حيث لازمه ملازمة تامة حتى توفي . ولما بلغ من العمر ثلاثة وعشرين سنة جلس للتدريس ، فكان يتعلم ويعلم ويقضي أوقاته في ذلك ، وفي عام ١٣٥٠هـ انتهت إليه المعرفة التامة ورئاسة العلم في القصيم ، ورشح لقضاء عنيزة عام ١٣٦٠هـ لكنه امتنع تورعا ، وقد أخذ عنه العلم خلق كثير منهم الشيخ سليمان بن إبراهيم البسام والشيخ محمد بن عبد العزيز المطوع والشيخ عبد اللّه بن عبد الرحمن البسام والشيخ محمد بن صالح آل عثيمين وغيرهم ،.
وقد كان له عناية فائقة بالتأليف فألف مؤلفات كثيرة نافعة منها : تفسير القرآن الكريم المسمى « تيسير الكريم المنان في تفسير القرآن » ، « إرشاد أولي البصائر » ، « تنزيه الدين وحملته ورجاله مما افتراه القصيمي في أغلاله » ، « الدرة المختصرة في محاسن الإسلام » ، وغيرها .
توفي - رحمه اللّه - سنة ١٣٧٦هـ فأصيب الناس لموته وصلي عليه ودفن في مقبرة الشهوانية المعروفة بمدينة عنيزة . انظر ترجمته في « مشاهير علماء نجد » (ص٢٥٦) ، « علماء نجد » (٢١٨/٣) ، « روضة الناظرين » (٢٢٠/١).

(٢) مجلة « اليمامة » - العدد (٦) - في ١٣٧٣/٥هـ .

الأمور النافعة والأمور الضارة ، فعلوم القرآن تعطي العالم بها فرقانًا يفرق بين الحق الصحيح وبين الباطل الفاسد ، فإنه وضح الحق والأصول والعقائد ، وبينها بطرقها وبراهينها ، فبين التوحيد والرسالة والمعاد ، بيانًا كافيًا شافيًا بأدلتها وبراهينها التي لا تبقي شكًّا ولا ريبًا ولا إشكالًا ، وأبطل ما يضاد ذلك وينافيه ويعارضه بالبراهين الدالة على بطلانه ، وفرق بين الصراط المستقيم المتضمن معرفة الحق والانقياد له ، وبين السبل الأخرى وهي سبل المذاهب الباطلة والطرائق الفاسدة ، وأقام الأدلة على فسادها شرعًا وعقلًا ، وفرق بين أولياء اللَّه بذكر صفاتهم وإيمانهم وأخلاقهم وأعمالهم الجميلة الصالحة ، وبين أعداء اللَّه بذكر انحراف عقائدهم وضلالهم وسوء مقاصدهم وأخلاقهم الرذيلة وأعمالهم الفاسدة ، وفرق بين الدين الحق الصحيح ؛ وهو دين الإسلام الذي يدعو إلى الإيمان بكل رسول أرسله اللَّه وبكل كتاب أنزله اللَّه وأن لا نفرق بين أحد من رسله وبين شيء من كتبه ، بل نؤمن بالحق الذي نزلت به الكتب وأرسلت الرسل كلهم .

فجمع الدين الإسلامي جميع الأديان الصحيحة ، وقرر الحقائق كلها ، وذكر انحراف من تناقض في دينه وإيمانه فآمن ببعض الرسل وبعض الكتب دون بعض ، وأخبر أنه بهذا الإيمان المنحرف متناقض ، وأن كفره ببعض الكتب وببعض الرسل يعود على إيمانه الذي زعمه بالإبطال ، فإن الرسل يصدق بعضهم بعضًا ، ويؤمن بعضهم ببعض ، والكتب السماوية كذلك ، وتكذيب بعضهم تكذيب للجميع ، ولهذا قال تعالى عن هؤلاء الضالين الظالمين : ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكۡفُرُونَ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيُرِيدُونَ أَن يُفَرِّقُواْ بَيۡنَ ٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيَقُولُونَ نُؤۡمِنُ بِبَعۡضٖ وَنَكۡفُرُ بِبَعۡضٖ وَيُرِيدُونَ أَن يَتَّخِذُواْ بَيۡنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا ﴿١٥٠﴾ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡكَٰفِرُونَ حَقّٗاۚ﴾ [النساء : الآية ١٥٠] .

وقال تعالى آمرًا جميع الخلق : ﴿قُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيۡنَا وَمَآ أُنزِلَ إِلَىٰٓ

إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾ [البقرة: الآية ١٣٦] .

فهذا الإيمان الذي أمر اللَّه به الخلق كلهم ، جمع الحق كله ، والدين الصحيح كله ؛ واحتوى على إقرار جميع الحقائق الصادقة ، والحث على جميع العلوم النافعة ، والمعارف الصحيحة ، والأخلاق الجميلة ، والأعمال الصالحة ، المصلحة للدين والدنيا ، المصلحة للعقول والقلوب والأرواح ، في الدين والدنيا والآخرة .

وأخبر تعالى أن هذا القرآن يهدي للتي هي أقوم - أي : أزكى وأفضل وأكمل ؛ من العقائد والأخلاق والأعمال ، والعلوم والمعارف ، والصلاح المطلق ، والإصلاح والفلاح . وفرق أيضًا بين الحلال والحرام ، والطيب والخبيث ، فأمر وأباح كل طيب نافع من الأقوال والأفعال الظاهرة والباطنة ، ومن المآكل والمشارب والملابس والمناكح ، والمعاملات والاستعمالات . فكل طيب نافع أباحه وأمر به ؛ بحسب حاله ، وكل خبيث ضار من هذه المذكورات منعه وحرمه ، وحذر الخلق عنه ؛ رحمة بهم في الأمرين - فيما أباحه لنفعه وخيره وبركته ، وفيما حرمه لضرره وشره .

وفرق بين حق اللَّه الخاص ؛ وهو الاعتراف بوحدانيته ؛ وأنه ليس له شريك في شيء من خصائص أوصافه والقيام بعبوديته على وجه الإخلاص والإحسان ، وبين حق رسوله الخاص ؛ من التوقير والتعزير والنصرة وتوابعها ، وبين الحق المشترك ، وهو الإيمان به وبرسوله ، ومحبته ومحبة رسوله ، وطاعته وطاعة رسوله . فهذه للَّه أصلًا ، ولرسوله تبعًا

كما فرق بين حقوقه من العبادات كلها ، وبين حقوق خلقه على اختلاف حقوقهم ومراتبهم ، من الوالدين والأولاد ، والأقارب والأصحاب ، والجيران

وأبناء السبيل، والمساكين والمعاملين، والزوجات والأزواج، فذكر حقوق هؤلاء مجملة مفصلة، حصل بها الفرقان بين من قام بها فاستحق الثواب الجزيل، ومن أهملها أو بعضها فاستحق من العقاب بحسب حاله

وفرق بين الأموال التي تؤكل بحق، وهي الحاصلة بكل طريق مباح شرعي، وبين الأموال التي تؤكل بالباطل وبغير حق من المعاملات الفاسدة، والميسر، والاستيلاء عليها بغير حق، فذكرها موضحة مفصلة، وبين المواريث ومستحقيها، وأحكام الأنكحة وشروطها ومحرماتها وحقوقها، والطلاق والرجعة والعدد، وبين الجنايات على النفوس والأموال، وموجباتها، وما يترتب عليها من الديات والضمانات

وفرق بين الأيمان الصحيحة المنعقدة، وبين غيرها من الأيمان المحرمة أو غير المنعقدة والنذور، وبين الأحكام والأقضية العادلة، وطرقها وبيناتها، ومتعلقاتها، وذكر ما يضاد ذلك وينافيه.

وفرق بين العلوم النافعة التي تعين على الدين والدنيا، وتنفع في العاجل والآجل، فحث عليها، وأمر بها، وبين العلوم الضارة التي كلها ضرر، أو ضررها أكثر من نفعها، ونهى عنها وحذر منها، فما من علم نافع ومعرفة صحيحة وخلق جميل، وعمل صالح وسعي نافع إلا بينه، وحث عليه، ونهى عن ضده.

فلا بقي شيء يحتاج إلى تفصيل وتوضيح وفرقان، إلا كان هذا القرآن كفيلًا ببيانه. كافيًا للمقبلين عليه، ولا تزال علومه ميسرة للمتذكرين، وكنوزه معدة للمتدبرين، وآياته ظاهرة للعالمين.

❁❁❁

محاورة دينية اجتماعية[1]

هذه صورة محاورة بين رجلين كانا متصاحبين رفيقين مسلمين يدينان بالدين الحق، ويشتغلان في طلب العلم جميعًا، فغاب أحدهما عن صاحبه مدة طويلة، ثم التقيا، فإذا هذا الغائب قد تغيرت أحواله، وتبدلت أخلاقه، فسأله صاحبه عن ذلك، فإذا هو قد تغلبت عليه دعاية الملحدين الذين يدعون لنبذ الدين ورفض ما جاء به المرسلون، فحاوله[2] صاحبه وقلبه، لعله يرجع عن هذا الانقلاب الغريب، فأعيته الحيلة في ذلك، وعرف أن ذلك علة عظيمة ومرض يفتقر إلى استئصال الداء ومعالجته بأنفع الدواء، وعرف أن ذلك متوقف على معرفة الأسباب التي حولته، والطرق التي أوصلته إلى هذه الحالة المخيفة، وإلى فحصها وتمحيصها وتخليصها وتوضيحها ومقابلتها بما يضادها ويقمعها على وجه الحكمة والسداد

فقال لصاحبه مستكشفًا له عن الحامل له على ذلك: يا أخي ما هذه الأسباب التي حملتك على ما أرى؟ وما الذي دعاك إلى نبذ ما كنت عليه؟ فإن كان خيرًا كنت أنا وأنت شريكين، وإن كان غير ذلك فأعرف من عقلك ودينك وأدبك أنني وأنك لا نرضى أن تقيم على ما يضرك.

فأجابه صاحبه قائلًا: لا أكتمك أني قد رأيت المسلمين على حالة لا يرضاها ذوو الهمم العلية؛ رأيتهم في جهل وذل وخمول، وأمورهم مُدبرة، وأحوالهم سيئة، وأخلاقهم منحلة، وقد فقدوا روح الدين والدنيا جميعًا، ورأيت في

---

(١) مجلة المنهل - ربيع الأول - ١٣٦٧هـ ونشر المقال مختصرا في مجلة اليمامة العدد (١١) في شوال/١٣٧٣.

(٢) هكذا في الأصل، ولعل الصحيح: فحاوره.

الجانب الآخر هؤلاء الأجانب قد ترقوا في هذه الحياة ، وتفننوا في الفنون الراقية والمخترعات العجيبة المدهشة والصناعات المتفوقة ، فرأيتهم قد دانت لهم الأمم ، وخضعت لهم الرقاب ، وصاروا يتحكمون في الأمم الضعيفة بما شاؤا ، ويعدونهم كالعبيد والأجراء ، فرأيت فيهم العز الذي بهرني ، والتفنن الذي أدهشني ، فقلت في نفسي : لولا أن هؤلاء القوم هم القوم ، وأنهم على الحق والمسلمون على الباطل لما كانوا على هذا الوصف الذي ذكرت لك ، فرأيت أن سلوكي سبيلهم واقتدائي بهم خير لي وأحسن عاقبة ، فهذا الذي صيرني إلى ما رأيت .

فقال له صاحبه حين أبدى ما كان خافيًا : إذا كان هذا هو السبب الذي حوَّلك إلى ما أرى فهذا ليس من الأسباب التي يبنى عليها أولو الألباب والعقول عقائدهم وأخلاقهم وأعمالهم ومستقبل أمرهم ، فاسمع يا صديقي تمحيص هذا الأمر الذي غرك وحقيقته :

إن تأخر المسلمين فيما ذكرت ليس ناشئًا عن دينهم ، فإنه قد علم كل من له أدنى نظر وبصيرة أن دين الإسلام يدعو إلى الصلاح والإصلاح في أمور الدين وفي أمور الدنيا ، ويحث على الاستعداد ؛ من تعلم العلوم والفنون النافعة ، ويدعو إلى تقوية القوة المعنوية والمادية لمقاومة الأعداء والسلامة من شرهم وأضرارهم ، ولم يستفد أحد منفعة دنيوية- فضلًا عن المنافع الدينية- إلا من هذا الدين ، وهذه تعاليمه وإرشاداته قائمة لدينا تنادي أهلها : هلم إلى الاشتغال بجميع الأسباب النافعة التي تعليكم وترقيكم في دينكم ودنياكم .

أفبتفريط المسلمين تحتج على الدين ؟! إن هذا لهو الظلم المبين !

أليس من قصور النظر ، ومن الهوى والتعصب ، النظر في أحوال المسلمين في هذه الأوقات التي تدهورت فيها علومهم وأعمالهم وأخلاقهم ، وفقدوا فيها جميع

مقومات دينهم، وترك النظر إليهم في زهرة الإسلام والدين في الصدر الأول، حيث كانوا قائمين بالدين، مستقيمين على الدين، سالكين كل طريق يدعو إليه الدين، فارتقت أخلاقهم وأعمالهم حتى بلغت مبلغًا ما وصل إليه ولن يصل إليه أحد من الأولين والآخرين، ودانت لهم الدنيا من مشارقها إلى مغاربها، وخضعت لهم أقوى الأمم، وذلك بالدين الحق والعدل والحكمة والرحمة، وبالأوصاف الجميلة التي كانوا عليها؟!

أليس ضعف المسلمين في هذه الأوقات يوجب لأهل البصائر والنجدة منهم أن يكون جدهم ونشاطهم وجهادهم الأكبر متضاعفًا، ويقوموا بكل ما في وسعهم؛ لينالوا المقامات الشامخة، ولينجوا من الهوة العميقة التي وقعوا فيها؟!

أليس هذا من أفرض الفرائض وألزم اللازمات في هذا الحال؟

فالجهاد في حال قوة المسلمين، وكثرة المشاركين فيه له فضل عظيم يفوق سائر العبادات، فكيف إذا كانوا على هذه الحالة التي وصفت؟ فإن الجهاد لا يمكن التعبير عن فضائله وثمراته، ففي هذه الحال يكون الجهاد على قسمين:

أحدهما: السعي في تقويم المسلمين، وإيقاظ هممهم، وبعث عزائمهم، وتعليمهم العلوم النافعة، وتهذيبهم بالأخلاق الراقية، وهذا أشق الأمرين، وهو أنفعهما وأفضلهما.

والثاني: السعي في مقاومة الأعداء، وإعداد جميع العدد القولية والفعلية والسياسية؛ الداخلية والخارجية؛ لمناوءتهم والسلامة من شرهم!

أفحين صار الأمر على هذا الوصف الذي ذكرت وصار الموقف حرجًا تتخلى عن إخوانك المسلمين وتتخلف مع الجبناء والمخالفين؟ فكيف مع ذلك تنضم إلى حزب المحاربين!.. اللَّه اللَّه يا أخي لا تكن أقل ممن قيل فيهم: ﴿تَعَالَوْا قَٰتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَوِ ٱدْفَعُوا۟﴾ [آل عِمرَان: الآية ١٦٧]. قاتلوا لأجل دينكم، أو ادفعوا

لأجل قومكم ووطنكم ، لا تكن مثل هؤلاء المنافقين ، فأعيذك يا أخي من هذه الحال التي لا يرضاها أهل الديانات ، ولا أهل النجدات والمروءات ، فهل ترضى أن تشارك قومك في حال عزهم وقوة عددهم وعنصرهم ، وتفارقهم في حال ذلهم ومصائبهم ، وتخذلهم في وقت اشتدت فيه الضرورة إلى نصرة الأولياء ورد عدوان الأعداء ؟ فهل رأيت قومًا خيرًا من قومك ، أو شاهدت دينًا أفضل من دينك ؟

فقال المنصوح : الأمر هو ما ذكرت لك ، ونفسي تتوق إلى أولئك الأقوام الذين أتقنوا الفنون والصناعات ، وترقوا في هذه الحياة .

فقال له صاحبه وهو يحاوره : رفضت دينًا قيمًا كامل القواعد ، ثابت الأركان ، مشرق البرهان ، يدعو إلى كل خير ، ويحث على السعادة والفلاح ، ويقول لأهله : هلم إلى كل صلاح وإصلاح ، وإلى كل خير ونجاح ، واسلكوا كل طريق يوصلكم إلى السعادة الدنيوية والأخروية .

دين مبني على الحضارة الراقية الصحيحة التي بنيت على العدل والتوحيد ، وأسست على الرحمة والحكمة والعلم والشفقة وأداء الحقوق الواجبة والمستحبة ، وسلمت من الظلم والجشع والأخلاق السافلة ، وشملت بظلها الظليل وإحسانها الطويل وخيرها الشامل وبهائها الكامل ما بين المشارق والمغارب ، وأقر بذلك الموافق والمنصف المخالف ، أتتركها راغبًا في حضارات ومدنيات مبنية على الكفر والإلحاد ، مؤسسة على الطمع والجشع والقسوة وظلم العباد ، فاقدة لروح الإيمان ورحمته ، عادمة لنور العلم وحكمته ؟

حضارة ظاهرها مزخرف مزوق ، وباطنها خراب ، وتظنها تعمر الموجود ، وهي في الحقيقة مآلها الهلاك والتدمير ، ألم تر آثارها في هذه الأوقات ، وما احتوت عليه من الآفات والويلات ، وما جلبته للخلائق من الهلاك والفناء والتدمير ؟

فهل سمع الخلق منذ أوجدهم اللَّه لهذه المجازر البشرية التي انتهى إليها شوط هذه الحضارة نظيرًا أو مثيلًا ؟

فهل أغنت عنهم مدنيتهم وحضارتهم من عذاب اللَّه من شيء لما جاء أمر ربك وما زادتهم غير تتبيب ؟

فلا يخدعنك ما ترى من المناظر المزخرفة ، والأقوال المموهة ، والدعاوى الطويلة العريضة ؛ وانظر إلى بواطن الأمور وحقائقها ، ولا تغرنك ظواهرها ، وتأمل النتائج الوخيمة ، والثمرات الذميمة ، فهل أسعدتهم هذه الحضارة في دنياهم التي لا حياة لهم يرجون غيرها ؟ أما تراهم يتنقلون من شر إلى شرور ؟ ! ولا يسكنون في وقت إلا وهم يتحفزون إلى شرور فظيعة ومجازر عظيمة ؟

فالقوة والمدنية والحضارة والمادة بأنواعها إذا خلت من الدين الحق فهذه طبيعتها ، وهذه ثمراتها وويلاتها ، ليس لها أصول وقواعد نافعة ، ولا لها غايات صالحة

ثم هب أنهم متعوا في حياتهم واستدرجوا فيها بالعز والرئاسة ومظاهر القوة والحياة ، فهل إذا انحزت إليهم وواليتهم يشركونك في حياتهم ويجعلونك كأبناء قومهم ؟ كلا واللَّه ، إنهم إذا رضوا عنك جعلوك من أرذل خدامهم ، وآية ذلك أنك في ليلك ونهارك تكدح في خدمتهم ، وتتكلم وتجادل وتخاصم على حسابهم ، ولم ترهم رفعوك حتى ساووا معك أدنى قومهم وبني جنسهم !! فاللَّه اللَّه يا أخي في دينك وفي مروءتك وأخلاقك وأدبك !! واللَّه اللَّه في بقية رمقك !! فالانضمام إلى هؤلاء واللَّه ، هو الهلاك .

فقال له المنصوح : لقد صدقت فيما قلت ، ولكن لي على هذا المذهب أصحاب مثقفون .

(١) ولي على هذا الرأي شبيبة مهذبون، قد تعاقدت معهم على التمسك بالإلحاد، واحتقار المستمسكين بدين رب العباد، قد أخذنا نصيبًا وافرًا من اللذات، واستبحنا ما تدعو إليه النفوس من أصناف الشهوات، فأنىَّ لي بمقاطعة هؤلاء السادة الغرر؟ وكيف لي بمباينتهم وقد اتصلت بهم غاية الاتصال؟!

فالآن يتنازعني داعيان: داعي الحق بعد ما بان سبيله واتضح دليله، وداعي النفس والاتصال بهؤلاء الأصحاب المنافي للحق غاية المنافاة، فكيف الطريق الذي يريحني ويشفيني، وما الذي عن هذا الأمر يسليني؟

فقال له صاحبه الناصح: ألم تعلم أن من أوجب الواجبات وأكبر فضائل الرجل اللبيب أن يتبع الحق الذي تبين له، ويدع ما هو فيه من الباطل، وخصوصًا عند المنازعات النفسية، والأغراض الدنيوية؛ وأن الموفق إذا وقع في المهالك طلب الوسيلة إلى تحصيل الأسباب المنجية؟

أما علمت أن من نعمة اللَّه على العبد أن يقيض له الناصحين الذين يرشدونه إلى الخير، ويأمرونه بالمعروف وينهونه عن المنكر، ويسعون في سعادته وفلاحه؟ ثم من تمام هذه النعمة أن يوفق لطاعتهم ولا يتشبه بمن قال اللَّه فيهم: ﴿وَلَـٰكِن لَّا تُحِبُّونَ ٱلنَّـٰصِحِينَ﴾ [الأعراف: الآية ٧٩].

ثم اعلم أنه ربما كان الإنسان إذا ذاق مذهب المنحرفين، وشاهد ما فيه من الغي والضلال، ثم تراجع إلى الحق الذي هو حبيب القلوب، كان أعظم لوقعه وأكبر لنفعه! فارجع إلى الحق صادقًا، وثق بوعد اللَّه ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُخْلِفُ ٱلْمِيعَادَ﴾ [آل عِمرَان: الآية ٩].

فقال المنصوح: لا يخفى عليك يا أخي أن الباطل إذا دخل في القلوب وتمكن منها لا يخرج بسهولة، فأريد أن توضح لي توضيحًا تامًّا بطلان ما عليه

(١) مجلة المنهل - ربيع الآخر - ١٣٦٧هـ.

هؤلاء الملحدون ، فإنهم يقيمون الشُّبه المتنوعة في ترويج قولهم ليغْتَرّ به من لا بصيرة له .

فقال له الناصح : اعلم أن الحق والباطل متقابلان ، وأن الخير والشر متنافيان ، وبمعرفة واحد من الضدين يظهر حسن الآخر أو قبحه ، فأنبئك على وجه الإجمال والتنبيه اللطيف :

إذا أردت أن تقابل بين الأشياء المتباينات فانظر إلى أساسها الذي أسست عليه ، وإلى قواعدها التي انبنت عليها ، وانظر إلى آثارها ونتائجها وثمراتها المتفرعة عنها ، وانظر إلى أدلتها وبراهينها التي بها ثبتت ، وانظر إلى ما تحتوي وتشتمل عليه من الصلاح والمنافع ومن المفاسد والمضار ، فعند ذلك إذا نظرت لهذه الأمور بفهم صحيح وعقل رجيح ، ظهر لك الأمر عيانًا .

فإذا عرفت هذه الأصول ؛ فهذا الدين الحق الذي دعت إليه الرسل عمومًا ، وخاتمهم وإمامهم محمد ﷺ خصوصًا ، قد بُنِيَ وأسس على التوحيد والتأله للَّه وحده لا شريك له ، حبًّا ، وخوفًا ، ورجاء ، وإخلاصًا ، وانقيادًا ، وإذعانًا لربوبيته ، واستسلامًا لعبوديته ، قد دل على هذا الأصل الذي هو أكبر جميع أصول الأدلة العقلية والفطرية ، ودلت عليه جميع الكتب السماوية ، وقرره جميع الأنبياء والمرسلين وأتباعهم من أهل العلوم الراسخة والألباب الرزينة والأخلاق العالية والآداب السامية ؛ كل أولئك اتفقوا على أن اللَّه منفرد بالوحدانية ، منعوت بكل صفة كمال ، موصوف بغاية الجلال والعظمة والكبرياء والجمال ، وأنه رب كل شيء ومليكه ، وأنه الخالق الرازق المدبر لجميع الأمور ، وأنه منزه عن كل صفة نقص وعن مماثلة المخلوقين ، وأنه لا يستحق العبادة والحمد والثناء والشكر إلا هو ، فالدينِ الإسلامي على هذا الأصل أُسس ، وعليه قام واستقام .

وأما ما عليه أهل الإلحاد ، فإنه ينافي هذا الأصل غاية المنافاة ؛ فإنه مبني على

إنكار البارئ رأسًا ، فضلًا عن الاعتراف له بالكمال وعن القيام بأوجب الواجبات وأفرض الفروض ؛ وهو عبوديته وحده لا شريك له .

فأهل هذا المذهب أعظم الخلق مكابرة وإنكارًا لأظهر الأشياء وأوضحها ، فمن أنكر اللَّه فبأي شيء يعترف ؟ ﴿فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَ ٱللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ يُؤْمِنُونَ﴾ [الجاثية: الآية ٦] وهؤلاء أبعد الناس عن عبودية اللَّه والإنابة إليه ، وعن التخلق بالأخلاق الفاضلة التي تدعو إليها الشرائع ، وتخضع لها العقول الصحيحة ، ومع خلو قلوبهم من توحيد اللَّه والإيمان به وتوابع ذلك ، فهم أجهل الناس وأقلهم بصيرة ومعرفة بشريعة الإسلام وأصول الدين وفروعه .

فتجدهم يكتبون ويتكلمون ويدَّعون لأنفسهم من العلم والمعرفة والثقافة واليقين ما لا يصل إليه أكابر العلماء ، ولو طُلِب من أحدهم أن يتكلم عن أصل من أصول الدين العظيمة الذي لا يسع أحدًا جهله ، أو على حكم من الأحكام في العبادات والمعاملات والأنكحة ، لظهر عجزه ، ولم يصل إلى ما وصل إليه كثير من صغار طلبة العلم الشرعي . فكيف يثق العاقل فضلًا عن المؤمن بأقوالهم عن الدين ؟ فأقوالهم في مسائل الدين لا قيمة لها أصلًا ، ولو سبرت حاصل ما عليه رؤساؤهم لرأيتهم قد اشتغلوا بشيء يسير من علوم العربية ، وترددوا في قراءة الصحف التي على مشربهم ، وتمرنوا على الكلام الذي من جنس أساليب كثير من هذه الصحف الرديئة الساقطة ، فظنوا بأنفسهم وظن بهم أتباعهم الاضطلاع بالمعارف والعلوم ، فهذا أسمى ما يصلون إليه في العلم . أما الأخلاق فلا تسأل عن أخلاق من لا يؤمن باللَّه ولا باليوم الآخر ولا يعتقد الأديان الصحيحة ، فإن الأخلاق نتائج الاعتقادات الصحيحة والفاسدة

فغاية ما عند هؤلاء التملق القولي والفعلي ، والخضوع الكاذب للمخلوقين ، وهم مع هذا الخضوع السافل تجد عندهم من العُجب والكبر واحتقار الخلق

والاستنكاف عن مخالطة من يستنقصونهم شيئًا كثيرًا ، فهم أوضع خلق اللَّه وأعظمهم كبرًا وتيهًا

ثم إنهم يستعينون على هذا الخلق المسمى عندهم بالثقافة ، بالتصنع والتجمل بالملابس والفرش والزخارف ، ويفنون كثيرًا من أوقاتهم بذلك ، وقلوبهم خراب خالية من الهدى والأخلاق الجميلة ، فالجمال الظاهر الباطل ماذا يغني عن الجمال الحقيقي

ثم إذا لحظت إلى غاياتهم ومقاصدهم فإذا هي أغراض دنية ، ومقاصد سفلية ، ومطامع شخصية ، وإذا سبرت أحوالهم رأيتهم إذا اجتمعوا تظنهم أصدقاء مجتمعين ، فإذا افترقوا فهم الأعداء ﴿تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّىٰ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْقِلُونَ﴾ [الحشر: الآية ١٤] .

وما وصفت لك من أحوالهم -وأنت تعرف ذلك- قليل من كثير ، فكيف ترضى أن يكون هؤلاء أحبابك وأصدقاءك ؛ ترضى لرضاهم وتسخط لسخطهم ، وتقدمهم على حظوظك الحقيقية وسعادتك الأبدية ؟ .

فانظر إلى صفاتهم نظر التحقيق والإنصاف ، وقارن بينها وبين نعوت البررة الأخيار الذين امتلأت قلوبهم من محبة اللَّه والإنابة إليه ، والإيمان وإخلاص العمل لأجله ، وفاضت ألسنتهم بذكر اللَّه والثناء عليه ، واشتغلت جوارحهم في كل وسيلة تقربهم إلى اللَّه وتدنيهم من رضوانه وثوابه ونفع الخلق ، أشجع الناس قلوبًا وأصدقهم قولًا ، وأطهرهم أخلاقًا وأزكاهم عملًا ، وأقربهم إلى كل خير وأبعدهم من كل شر ، يكفون عن الخلق الأذى ، ويبذلون لهم الندى(١) ، ويصبرون منهم على الأذى .

أفتقدم على هؤلاء الأنجاب الغرر من ملئت قلوبهم من الشك والنفاق ،

---

(١) في الأصل « النذر ».

وفاضت على ظاهرهم فاكتسوا لذلك أرذل الأخلاق، يقومون بالنفاق والرياء، ويقعدون بالتملق والإعجاب والكبرياء، وصفهم القسوة والطمع والجشع، ونعتهم الكذب والغش والبهرجة والخنوع، قد منعوا إحسانهم لكل مخلوق، واتصفوا بكل فسوق، قد خضعوا في بحوثهم العلمية لكل مارق، وتبعوا في أخلاقهم كل رذيل وفاسق.

(١)قال المنصوح: واللَّه ما تعديت في وصفهم مثقال ذرة، ولكني أريد أن تدلني على طريق يجمع بين السعادة الدنيوية والسعادة الأخروية، لأن نفوس من تربى وتخلق بأخلاق هؤلاء لا ترجع عما ألفته إلا بأمر قوي؛ إما بترغيب وهوى يجذبها، وإما بترهيب وخوف يقمعها.

فقال له صاحبه الناصح: واللَّه لقد أدركت في هذا الدين مطلوبك، وفيه واللَّه كل مرادك ومرغوبك، فإنه الدين الذي جمع بين سعادة الدنيا والآخرة، وفيه اللذات القلبية والروحية والجسدية، ولا تفقد من مطالب النفوس الحقيقية شيئًا إلا أدركته؛ ولا من أنواع المسرات شيئًا إلا حصلته، ففيه ما تشتهيه الأنفس وتلذ الأعين.

وسأوضح لك ذلك؛ فاعلم أن أصول اللذات المطلوبة:

أولًا: راحة القلوب وسكونها وطمأنينتها وفرحها وبهجتها وزوال همومها وغمومها.

ثانيًا: القناعة والطمأنينة بما أوتيه العبد من المطالب الجسدية.

ثالثًا: استعمال ذلك على وجه يحصل به السرور والاغتباط

فهذه الأمور الثلاثة من رزقها واستعملها على وجهها فقد نال كل ما يتنافس فيه المتنافسون، وأدرك كل ما تعلق به طمع الطامعين، فإن جميع اللذات ترجع

(١) مجلة المنهل - جمادى الأولى - ١٣٦٧ هـ.

إلى ما ذكرنا .

فأما لذات القلوب وحصول سرورها وزوال كدرها ؛ فإنما أصل ذلك بالإيمان التام بما دعا الله عباده إلى الإيمان به من الإيمان بتوحده بجميع نعوت الكمال ، وامتلاء القلب من تعظيمه وإجلاله ، ومن التأله له وعبوديته والإنابة إليه ، وإخلاص العمل الظاهر والباطن لوجهه الأعلى ، وما يتبع ذلك من النصح لعباد الله ومحبة الخير لهم ، وبذل المقدور من نفعهم والإحسان إليهم ، والإكثار من ذكر الله والاستغفار والتوبة ، فمن أوتي هذه الأمور فقد حصل لقلبه من الهداية والرحمة والنور والسرور وزوال الأكدار والهموم والغموم ما هو نموذج من نعيم الآخرة . وأهل هذا الشأن لا يغبطون أرباب الدنيا والملوك على لذاتهم ورئاساتهم ، بل يرون ما أعطوه من هذه الأمور يفوق ما أُعْطِيه هؤلاء بأضعاف مضاعفة . وهذا النعيم القلبي لا يعرفه حق المعرفة إلا من ذاقه وجربه فإنه كما قيل :

من ذاق طعم نعيم القوم يدريه ... ومن دراه غدا بالروح يشريه

فهذا إشارة لطريق هذا النعيم القلبي الذي هو أصل كل نعيم

وأما الأمر الثاني ؛ فإن الله أعطى العباد القوة والصحة ، وما يتبع ذلك من مال وأهل وولد وخول[1] وغيرها . والناس بالنسبة لهذه الأشياء نوعان ؛ قسم صارت هذه النعم في حقهم محنًا ونقمًا ، وقسم صارت في حقهم نعمًا وخيرات ومنحًا .

أما أهل الدين الحقيقي فقد قابلوا هذه النعم وتلقوها على وجه الشكر لله والاغتباط بفضله وتناولوها على وجه الاستعانة بها على طاعة المنعم ، وعلموا أنها من أكبر الوسائل لهم إلى رضى ربهم وخيره وثوابه إذا استعملوها فيما هُيئت له

(١) الخَوَلُ : حَشَمُ الرجُل وأتباعُه وأحدُهم خائِل . وقد يكون واحد ويقَعُ على العَبدِ والأَمَة وهو مأخوذ من التَّخْويل : التَّمليك . وقيل من الرِّعاية . (النهاية في غريب الأثر - باب الخاء مع الواو).

وخُلقت له ، وقد رضوا بها عن اللَّه كل الرضى ، فإنهم علموا أنها من عند اللَّه الذي له الحكمة التامة في جميع أقضيته وأقداره ، وله الرحمة الواسعة في جميع تدابيره ، وله النعمة السابغة في كل عطاياه وهو أرحم بهم من الخلق أجمعين ، فحيث علموا العلم اليقيني صدورها ممن هذا شأنه قنعوا بما أعْطُوه منها ؛ من قليل وكثير كل القناعة ، وسكنت قلوبهم عن التطلع والتطلب لما لم يقدر لهم . ومتى حصلت الطمأنينة والقناعة والرضى عن اللَّه بما أعطى فقد حصلت الحياة الطيبة

فإذا أدركت حق الإدراك نعتهم هذا عرفت أن نعيم الدنيا في الحقيقة هو نعيم القناعة برزق اللَّه ، وطمأنينة القلوب بذكر اللَّه وطاعته . إن الواحد من هؤلاء لو لم يكن عنده من هذه الأمور ؛ وهي القوة والصحة ، والمال والأهل والولد ، وتوابع ذلك ، إلا الشيء القليل ، لكان في راحة وسرور من جهتين : جهة القناعة وعدم تطلع النفس وتشوفها للأمور التي لم تحصل ، وجهة ما ترجوه من ثواب اللَّه العاجل والآجل على هذه العبادة القلبية التي تزيد على كثير من العبادات البدنية . فإن التعبد للَّه بمعرفة نعمه ، والاعتراف بها والرضى بها والرجاء للَّه أن يديمها ويتمها ، وأن يجعلها وسيلة إلى نعم أخرى ، وأن يجعلها طريقًا للسعادة الأبدية ، لا ريب أن هذه الأحوال القلبية من أفضل الطاعات وأجل القربات

فكم بين سرور هذا الذي تعبد بروح الدين وحصلت له الحياة الطيبة وبين من تلقى هذه النعم بالغفلة وعدم الاعتراف بنعمة المنعم ، وشقى بهمومها وغمومها ، وكان إذا حصل له شيء من مطالب النفوس لم يرض به ، بل تشوف إلى غيره ، وتطلع لسواه ، فهذا يتنقل من كدر إلى كدر آخر ؛ لأن قلبه قد تعلق تعلقًا شديدًا بمطالب الجسد ، فحيث جاءت على خلاف ما يؤمله ويريده قلق أشد القلق ، وهو لا يزال في قلق مستمر ؛ لأن المطالب النفسية متنوعة جدًا ، فلو وافقه واحد لم يوافقه الآخر ، ولو أرضاه واحد كدره الآخر ، وربما اجتمع في الشيء الواحد

سرور من وجه وحزن من وجه آخر ، فصفوه ممزوج بكدره ، وسروره مختلط بحزنه ، فأين الحياة الطيبة لهذا ؟ !

وإنما الحياة الطيبة لأرباب البصائر والحجى الذين يتلقونها كلها بالقبول والقناعة والرضى .

وأما الأمر الثالث ، وهو جهة استعمال هذه النعم ؛ فصاحب الدين الصحيح يتناولها على وجه الشكر للَّه على نعمه ، والفرح بفضله ، وينوي بها التقوي على ما خلق له من عبادة اللَّه وطاعته ، وينفقها محتسبًا بها رضى اللَّه وفضله وخلفه العاجل والآجل . ويعلم أنه إذا أنفق على نفسه وأهله أو ولده أو من يتصل به فإنما نفقته صادفت محلها ووقعت موقعها ، فلم يتثاقل كثرة النفقة في هذا الطريق ؛ لأنه يقول معتقدًا : هذا أولى ما بذلت فيه مالي ، وهذا ألزم ما قمت به من الواجبات والفروض ، وهذا خير ما قمت به من المستحبات ، وهذا أعظم ما أرجو له الخلف من اللَّه حيث يقول وهو الكريم الوفي : ﴿وَمَآ أَنفَقْتُم مِّن شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُۥ وَهُوَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ﴾ [سَبَإ: الآية ٣٩] . ولا يزال نصب عينيه احتساب الأجر في سعيه بكسبه وفي مصرفه أجناس ذلك وأنواعه وأفراده متفطنًا لقوله : « على أنك لن تنفق نفقة تبتغي بها وجه اللَّه إلا أجرت عليها حتى ما تجعله في في امرأتك »[1] .

فمن كان هذا وصفه فإن لذاته الدنيوية هي اللذات الحقيقية السالمة من الأكدار مهما يرجو من الثواب العاجل والآجل من اللَّه ، ومن كانت هذه صفته سهل عليه الأخذ من حلها ووضعها في محلها ويُسرت له أموره غاية التيسير .

وأما من استعمل هذه النعم على وجه الشره والغفلة ولم يفكر في الاعتراف بفضل اللَّه في كل الأوقات وبنعم اللَّه ولم يفرح بالنعم لأنها من فضل اللَّه ، بل

---

(١) البخاري (٥٦) من حديث سعد بن أبي وقاص رضي اللَّه عنه .

فرح بها فقط لموافقة غرضه النفسي ، ولا نوى بها الاستعانة على طاعة اللّه ، ولا احتسب في نيلها وصرفها على المنفق عليهم الأجر والثواب ، فمن كان هذا وصفه فإن الكدر والحزن له بالمرصاد ؛ فإنه إذا فاتته بعض الشهوات النفسية حزن ، وإن أدرك ما أدركه منها ولم يكن على ما في خاطره من كل وجه حزن ، وإن أراد منه ولده ومن يتصل به نفقة أو كسوة واجبة أو مستحبة حزن ، ولم تخرج منه إلا بشق الأنفس ، وإن خرجت منه خرج معها بضعة من سرور قلبه ؛ لأنه يحب بقاء ماله ويحزن لنقصه على أي وجه كان ، وليس عنده من الاحتساب ما يهون عليه الأمر ، هذا إن كان غير بخيل ، فإن كان شحيح النفس مطبوعًا على البخل ، فإن حياته مع أولاده وأهله والمتصلين به حياة شقاء وعذاب وأكدار متواصلة وأحزان مستمرة ، لا إيمان عنده يهون عليه النفقات ، ولا نفس سخية لا تستعصي عن نيل المكرمات ، فيا له من عذاب حاضر وعذاب مستمر ! فأين هذا من ذاك الذي حصلت له الحياة الطيبة بأكملها ؟ !

هذا كله بالنظر إلى هذه الأمور الثلاثة التي هي أصل اللذات عند العقلاء ، قد اتضح لنا أن صاحب الإيمان الصحيح هو الذي فاز باللذات الحقيقية وسلم من المكدرات .

ثم إذا عطفنا النظر إلى الطوارئ البشرية التي لابد لكل عبد منها ؛ وهي المصيبات التي تعتري العباد من الأمراض المتنوعة ، وموت الأحبة ، وفقد الأموال ونقصها ، ووقوع المكاره بمن تحب وزوال المحاب ، وغيرها من أنواع المصائب ؛ دقيقها وجليلها ، رأيت المؤمن حقًّا قد تلقاها بقوة وصبر واحتساب ، وقد قام لها بارتقاب الأجر والثواب ، وعلم أنها تقدير العزيز العليم ، وأنها أقضيته صدرت من الرب الرحيم ؛ فهان عليه أمرها وخفت عليه وطأتها ، فإنه إذا فكر فيما فيها من الآلام الشاقة قابلها بما تتضمنه من تكفير السيئات وتكثير الحسنات

ورفعة الدرجات والتخلق بأخلاق الكرام والقوة والشجاعة ، وإذا أنهكت بدنه وماله رآها مصلحة لقلبه وروحه .

فإن صلاح القلوب بالشكر للَّه على نعمائه ، والصبر على بلائه ، وانتظار الفرج من اللَّه إذا ألمت الملمات ، واللجوء إلى اللَّه عند جميع المزعجات والمقلقات ، فأقل الأحوال عند هذا المؤمن أن تتقابل عنده المصائب والمحاب ، والأفراح والأتراح ، وقد تصل الحال بخواص المؤمنين إلى أن أفراحهم ومسراتهم عند المصيبات تزيد على ما يحصل فيها من الحزن والكدر الذي جبلت عليه النفوس

فأين هذه الحال من حال من تلقى المصيبات التي لابد للخلق منها بقلب منزعج مرعوب ، وخشعت نفسه المهينة لما فيها من الشدائد والكروب ، فبقيت الحسرات تنتاب قلبه وروحه ، وزادت مصائب قلبه على مصائب بدنه ، ليس عنده من الصبر وارتقاب الثواب ما يخفف عنه الأحزان ، ولا من الإيمان ما يهون عنه الأشجان ، تعتريه المصائب فلا تجد عنده ما يخففها فتعمل عملها في قلبه وروحه وبدنه وأحواله كلها .. القلب مليء من الهم والغم والألم ، والخوف السابق واللاحق قد ملأ نفسه فانحل لذلك لبه وانحطم ، وقد ضعف توكله على اللَّه غاية الضعف ، حتى صار قلبه يتعلق بمن يرجو نفعه من المخلوقين ، فيا لها من مصائب دنيوية اتصلت بالمصائب الدينية والخلقية ، وتراكم بعضها فوق بعض حتى صار عنده أعظم من الجبال الرواسي . فواللَّه لو علم أهل البلاء والمصائب بما في الإيمان والروح والتسلية والحياة الطيبة لسارعوا إليه ولو في هذه الحال التي هم فيها مضطرون إلى ما يخفف عنهم آلامها ولا يجدونه إلا في الإيمان الصحيح الحقيقي وما يدعو إليه .

[1]ومما يتعلق به سرور الحياة ونعيمها ، أو همها وغمها ، معاشرة الخلق على

(١) مجلة « المنهل » - جمادى الآخرة - ١٣٦٧ هـ.

اختلاف طبقاتهم، فمن عاشرهم بما يدعو إليه الدين استراح، ومن عاشرهم بحسب ما تدعو إليه الأغراض النفسية، فلا بد أن يكون عيشه كدرًا، وحياته منغصة.

وتوضيح ذلك أن الناس ثلاثة أصناف؛ رئيس، ومرؤوس، ونظير.

أما من له رياسة حكم، أو ثروة، وله أتباع وحاشية، فله معهم حالان؛ حالة فيما يفعله معهم، وحالة فيما يصيبه من أتباعه من خير وشر، وموافق للطبع ومخالف له، فإن هو حكَّم الدين والشرع في الحالتين استراح، وله أجر من اللَّه؛ إذ استعمل العدل معهم، واستعمل النصح والإحسان، وقابل المسيئ منهم بالعفو، وشكرهم على فعل المعروف والخير، مبتغيًا بذلك وجه الله

وأيضًا فإنه إذا تأمل فيما فعله من خير اطمأنت نفسه وانشرح صدره، فأين هذا من الرئيس الذي لا يبالي بظلم الناس في دمائهم وأموالهم وأعراضهم، ولا يبالي بسلوك طرق العدل والإنصاف، وليس له صبر على أية أذية تصيبه من رعيته، فهو مع أتباعه في نكد مستمر، ورعيته قد ملئت قلوبهم من مقته وبغضه، يتربصون به الدوائر والفرص، حتى إذا وقع في أقل شيء أعانوا عليه أعدى أعدائهم، فهو معهم غير مطمئن على حياته ولا على نعمته، لا يدري متى تفجؤه البلايا، ليلًا أو نهارًا!... هذه حالة الرئيس على وجه الإجمال..

وأما حالة المرؤوس؛ فإن أطاع الدين في وظيفته، وأطاع حاكمه أو سيده، أو والده، واستعمل الآداب الشرعية في معاملته، والأخلاق المرضية، فهو مع طاعته للَّه ولرسوله قد استراح وأراح، وطابت عنه نفس رئيسه، وأمن عقوبته، وأمل إحسانه وبره ومحبته.

وأما من تعدى طوره وعصى متبوعه والتوى، فإنه لا يزال متوقعًا لأنواع المضار، يمشي خائفًا وجلًا لا يقر له قرار، ولا يستريح له خاطر.

وأما حالة النظير المساوي ؛ فإن جمهور من تعاشرهم من الخلق إذا خالقتهم بالخلق الحسن ، اطمأنت نفسك ، وزالت عنك الهموم ؛ لأنك تكتسب بذلك مودتهم ، وتخمد عداوتهم ، مع ما ترجوه من عظيم ثواب اللَّه على هذه العشرة التي هي من أفضل العبادات ، فإن العبد يبلغ بحسن خلقه ، درجة الصائم القائم .. وحسن الخلق له خاصية في فرح النفس ، لا يعرف ذلك حق معرفته إلا المجربون ..

فأين حال هذا ممن عاشر الناس بأسوأ الأخلاق ؛ فخيره ممنوع ، وشره غير مأمون ، وليس له أقل صبر على ما يناله من المكدرات ، فهذا قد تنغصت عليه حياته ، وحضرته همومه وحسراته ، فهو في عناء حاضر ، ويخشى من الشقاء الآجل ..

وأما معاشرته مع أهله وأولاده ومن يتصل به ، فإنه يتأكد عليه القيام بالحقوق اللازمة تامة لا نقص فيها ولا تبرم ، فمن عامل هؤلاء بما أمر اللَّه ورسوله ، راجيًا بقيامه به ثواب ربه ورضاه ، عاش معهم عيشة راضية ، ومن كان معهم في نكد وسوء خلق ؛ مع الصغير والكبير ، يخرج من بيته غضبان ، ويدخل على أهله وولده متكدرًا ملآن ، فأي حياة لمن كانت هذه حاله ؟ ! وما الذي يرجوه حيث ضيع ما فيه فرحه ومسراته ؟ !

وأما عشرته مع معامليه ، فإن استعمل معهم النصح والصدق وكان سمحًا إذا باع ، سمحًا إذا اشترى ، سمحًا إذا قضى ، سمحًا إذا اقتضى ، حصلت له الرحمة ، وفاز بالشرف والاعتبار ، واكتسب مودة معامليه ودوام معاملتهم ، ولا يخفى ما في ذلك من طيب الحياة ، وسرور النفس ، وما في ضدها من سوء الحال وسقوط الشرف ، وتنغص الحياة .

والفارق بين الرجلين هو الدين ، فصاحب الدين منبسط النفس ، مطمئن

القلب . فقد تبين لك أن السعادة واللذة الحقيقية بجميع أنواعها تابعة للدين ..

واعلم يا أخي أن الدين نوعان :

أحدهما : أعمال وأحوال وأخلاق دينية ودنيوية ، وكما ذكرنا أنه لا سبيل إلى حصول الحياة الطيبة إلا بالدين .

والثاني : علوم ومعارف نافعة ، وهي علوم الشرع والدين ، وما يعين عليها ويتوسل إليها به ، فالاشتغال بها من أجل العبادات ، وحصول ثمرتها من أكمل اللذات ، ولا يشبهه شيء من اللذات الدنيوية ، واعتبر ذلك بحال الراغبين في العلم تجد أكثر أوقاتهم مصروفة في تحصيل العلم ، فيمضي الوقت الطويل ، وصاحبه مستغرق فيه يتمنى امتداد الزمن ، وهذا عنوان اللذة ، فإن المشتاق يقصر عنده الوقت الطويل ، ومن ضاق صدره بشيء يطول عليه الوقت القصير ؛ وذلك أن صاحب العلم في كل وقت مستفيد علومًا يزداد بها إيمانه ، وتكمل بها أخلاقه ، والمتصفح للكتب النافعة ، لا يزال يعرض على ذهنه عقول الأولين والآخرين ، ومعارفهم وأحوالهم الحميدة وضدها ، ففي ذلك معتبر لأولي الألباب .. فكم من قصة تمر عليك في الكتب تكتسب بها عقلًا جديدًا ، وتسليك عند المصائب بما جرى على الفضلاء ، وكيف تلقوها بالرضا والتسليم ، واغتنموا الأجر من العليم الحكيم .

والعلم يعرفك طرقًا تدرك بها المطالب ، وتدفع بها المكاره والمضار ، والعقل عقلان ؛ عقل غريزي ، وهو ما وضعه اللّه في الإنسان من قوة الذهن في أمور الدين والدنيا . وعقل مكتسب ، إذا انضم إلى العقل الغريزي ازداد صاحبه حزمًا وبصيرة ، فكما أن العقل الغريزي ينمو بنمو الإنسان حتى يبلغ أشده ، فكذلك العقل المكتسب له مادتان للنمو ؛ مادة الاجتماع بالعقلاء والاستفادة من عقولهم وتجاربهم ، تارة بالاقتداء ، وتارة بمشاورتهم ومباحثتهم ، فكم ترقى

الرجل بهذه الحال إلى مراقي الفلاح ، ولهذا كان انزواء الرجل عن الناس يفوته خيرًا كثيرًا ، ونفعًا جليلًا ، مع ما يحدثه الاعتزال من الخيالات وسوء الظن بالناس ، والإعجاب بالنفس الذي يعبر عن نقص الرجل ، وربما ضر البدن ، فإن مخالطة الناس تفتح أبوابًا من المصالح ، وتسليك ، وتقوي قلبك ، وفي ضعف القلب ضرر على العقل ، وضرر على الدين ، وضرر على الأخلاق ، وضرر على الصحة .

وينبغي للإنسان أن يعامل الناس ، بحسب أحوالهم ، كما كان النبي ﷺ يحسن خلقه مع الصغير والكبير ، قال تعالى : ﴿خُذِ ٱلْعَفْوَ﴾ [الأعراف: الآية ١٩٩] . أي خذ ما صفا لك من أخلاق الخلق ، ودع عنك ما تعسر منها .. فيجالس أبناء الدنيا بالأدب والمروءة ، والأكابر بالتوقير ، والإخوان والأصحاب بالانبساط ، والفقراء بالرحمة والتواضع ، وأهل العلم والدين بما يليق بفضلهم .. فصاحب هذا الخلق الجليل تراه مبتهج النفس في حياة طيبة

وأما المادة الثانية للعقل المكتسب فهي الاشتغال بالعلوم النافعة ، فتستفيد بكل قضية رأيا جديدًا ، وعقلًا سديدًا ، ولا يزال المشتغل بالعلم يترقى في العلم والعقل والأدب

والعلم يعرفك بالله ، وكيف الطريق إليه يعرفك كيف تتوسل بالأمور المباحة إلى أن تجعلها عبادة تقربك إلى الله

والعلم يقوم مقام الرياسات والأموال ، فمن أدرك العلم فقد أدرك كل شيء ، ومن فاته العلم فاته كل شيء . وكل هذا في العلوم النافعة

وأما كتب الخرافات والمجون فإنها تحلل الأخلاق وتفسد الأفكار والقلوب ؛ بحثها على الاقتداء بأهل الشر ، وهي تعمل في الإيمان والقلوب عمل النار في الهشيم .

فلما تلا النصيح لصاحبه هذه المواضيع ، وبرهن عليها ، قال له المنصوح : والله لقد انجلى عني ما أجد في أول موضوع تلوته علي ، وانزاح عني الباطل في شرحك الأول ، وإن مجلسك يا أخي ونصيحتك بهذه الطريقة النافعة تعدل عندي الدنيا وما عليها ، فأحمد الله أولًا حيث قيضك لي ، وأشكرك شكرًا كثيرًا حيث وفيت بحق الصحبة ، ولم تصنع ما يصنعه أهل العقول الضيقة الذين إذا رأوا من أصحابهم ما يسوؤهم قطعوا عنهم حبل الوداد في الحال ، وأعانوا الشيطان عليهم ، فازداد بذلك الشر عليهم ، وضاع بينهم التفاهم

وإني لا أنسى جميل معروفك حيث رأيتني سادرًا في المهامه[1] ، مغرورًا بنفسي معجبًا برأيي فأريتني بعيني ما أنا فيه ، وأوقفتني بحكمتك على الهلاك الذي وقعت فيه ، فالآن أستغفر الله مما مضى وأتوب إليه ، وأسأله الإعانة على سلوك مرضاته ، وأفزع إليه أن يختم بالصالحات أعمالي ، وأحمد الله أولًا وآخرًا ، وظاهرًا وباطنًا ، فإنه مولي النعم ، دافع النقم ، غزير الجود والكرم .

❁❁❁

(١) المَهْمَه : القفر من الأرض ، والجمع مهامِه .(جمهرة اللغة – م–هـ–م–هـ).

الدعوة إلى الحق(١)

هذه كلمة يستلذ لها كل سامع، ويأنس بها كل متوحش نافر، وتوزن بها المذاهب والمقالات، وينقاد لها كل منصف قصده طلب الحقيقة، ويدعيها كل أحد محق أو غير محق، ولكن لكل حق حقيقة، ولكل دعوى برهان، ﴿قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ [البقرة: الآية ١١١].

فالله هو الحق، ودينه حق، وكتبه المنزلة من السماء حق، ورسله حق، ووعده ووعيده حق، وماذا بعد الحق إلا الضلال؟

والحق هو الشيء الصحيح الثابت، والشيء النافع، الذي له النتائج الطيبة، والثمرات الصالحة المصلحة.

الله تعالى هو الحق الذي قامت الأدلة العقلية والنقلية على وحدانيته، وعظمته، وسعة أوصافه، وكماله المطلق الذي لا غاية فوقه، الذي لا يستحق العبادة والحمد والثناء والمجد إلا هو. ودينه هو الحق الذي دارت أخباره على الحقائق الصادقة، والعقائد النافعة، المصلحة للقلوب والأرواح، وأحكامه على العدل المتنوع في العبادات والمعاملات في أداء حقوقه، وحقوق الخلق، باختلاف أحوالهم، وحقوقهم ومراتبهم ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا﴾ [الأنعام: الآية ١١٥]. صدقًا في إخبارها، عدلًا في أحكامها وأوامرها ونواهيها.

ورسله - صلوات الله وسلامه عليهم - صادقون مصدقون، قد تحلوا بأعلى الفضائل وأكمل الصفات، وقد تخلوا عن كل خلق دنيء ووصف ناقص. وقد دلت البراهين القواطع على صدقهم، وصحة ما جاءوا به، كما دلت على بطلان ما ناقض هذه الأصول، التي تأسست عليها الحقائق.

---

(١) مجلة اليمامة - العدد ٥ - في ٤/ ١٣٧٣ هـ.

فالدعوة إلى هذه الأصول هي الدعوة إلى الحق ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَقَالَ إِنَّنِى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ [فُصِّلَت: الآية ٣٣] . ﴿ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ ۖ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ۚ﴾ [النّحل: الآية ١٢٥] . ﴿قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى ۖ﴾ [يُوسُف: الآية ١٠٨] . فالدعوة إلى الحق هي أفرض الفروض ، وأكمل الفضائل ، وصاحبها مبارك أينما كان على نفسه وعلى غيره ، وخصوصًا إذا دعا نفسه قبل غيره ، واتصف بما دعا إليه كما في الآية السابقة وهي : ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَقَالَ إِنَّنِى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ [فُصِّلَت: الآية ٣٣] . فهذا لا أحسن قولًا منه ، ولا أكمل منه ؛ لأنه دعا الخلق إلى اللَّه ، وقام بما دعا إليه ، وانقاد للدين والطاعة من كل وجه .

وقد أمر تعالى بالدعوة إلى سبيله ، وهي طريقة الرسول ودينه الذي هو الصراط المستقيم ، بالحكمة أي : بكل دعوة وكل وسيلة يحصل بها المقصود كله أو بعضه ، وذلك متوقف على علم الداعي ، ومعرفته ، وبصيرته ، ولا يكفي هذا حتى يعرف كيف الطريق إلى دعاية الخلق ، وكيف سلوك الوسائل التي يتوصل بها إلى إيصال الحق إلى القلوب بالعلم والرفق واللين .

وأحسن الوسائل إلى ذلك وأنجحها السبل التي دعا الرسل إليها قومهم - أولياءهم وأعداءهم- فإنهم يدعون إلى اللَّه بتوضيح الحق وبيان أدلته وبراهينه ، وإبطال ما يناقضه ؛ يدعون كل أحد بما يناسب حاله ويليق بمقامه ، فالمستجيبون القابلون لما جاءوا به الذين ليس عندهم معارضات لما جاءت به الرسل يبينون لهم الحق ويخبرونهم بمواضع مراضي اللَّه ومواطن سخطه ، فإن ما معهم من الإيمان الصادق ، والانقياد الصحيح والاستعداد لطلب الحق ، أكبر داع إلى سلوك سبيله إذا بان ، والانقياد له إذا اتضح ؛ ولهذا يخبر اللَّه في كتابه في - عدة آيات - أنه

« هدى ورحمة للمؤمنين » ، و« هدى للمتقين » ، و« هدى ورحمة لقوم يوقنون » لأن هؤلاء لا يحتاجون إلى مجادلة ، فعندهم الاستعداد الكامل لسلوك الصراط المستقيم ؛ وهو الإيمان واليقين بصحة ما جاء به الرسول وصدقه .

وأما أهل الأغراض والأهواء المانعة من اتباع الحق فإنهم يدعونهم مع التعليم والتوضيح للحقائق ، بالموعظة الحسنة ؛ بذكر ما في الأوامر من المصالح والخيرات ، والثمرات العاجلة والآجلة .

وكانوا يجادلون المعارضين والمعاندين بالتي هي أحسن من الترغيب والترهيب ؛ في اتباع الحق بذكر فضائله ومحاسنه ، والترهيب من الباطل بذكر مضاره ومساوئه ، وإقامة الأدلة والبراهين المقنعة على ذلك ، بحسب الحال والمقام ، وذلك كله بالرفق واللين ؛ وعدم المخاشنة المنفرة ؛ لأن الغرض المقصود نفع الخلق ، وردهم عما هم عليه من الباطل ، قال تعالى لموسى وهارون : ﴿ٱذْهَبَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ۝٤٣ فَقُولَا لَهُۥ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ﴾ [طه : ٤٣، ٤٤] . وفسر ذلك بقوله : ﴿ٱذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ۝١٧ فَقُلْ هَل لَّكَ إِلَىٰٓ أَن تَزَكَّىٰ ۝١٨ وَأَهْدِيَكَ إِلَىٰ رَبِّكَ فَتَخْشَىٰ﴾ [النازعات : ١٧- ١٩] . فتأمل حسن هذا الخطاب ورقته ولينه .

وكانوا مع هذا كله يصبرون على أذاهم ، ويتحملون من المخالفين المعارضين ما لا تحمله الجبال الرواسي ، ويستعينون بالله على هدايتهم بالحلم والعفو والصفح ، ومقابلتهم بضد ما يقابلونهم به ، لعلمهم أن العقائد الراسخة في القلوب لا تزحزحها مجرد الدعوة ومجرد النصيحة ، بل لابد من الصبر والعفو والتأني ، والتنقل مع المخالفين شيئًا فشيئًا .

وكان النبي محمد ﷺ مع ذلك ؛ وحسن تعليمه ودعوته وصبره الذي فاق به جميع الرسل ؛ يعطي المؤلفة قلوبهم شيئًا من الدنيا ؛ لأنهم إذا كرهوا هذا مالوا

إلى هذا ، ويبقي سادات العشائر على مراتبهم ورياستهم في قومهم ، ويأمر رسله بالدعوة إلى الأهم فالأهم ، كما قال لمعاذ رضي اللَّه عنه حين بعثه إلى اليمن داعيًا ومعلمًا : «إنك تأتي قومًا من أهل الكتاب فادعهم إلى أن يشهدوا أن لا إله إلا اللَّه ، وأني رسول اللَّه ، فإن هم أطاعوك لذلك فأخبرهم أن اللَّه قد افترض عليهم خمس صلوات في كل يوم وليلة ، فإن أطاعوك بذلك فأخبرهم أن اللَّه قد افترض عليهم صدقة تؤخذ من أغنيائهم إلى فقرائهم»(١) .

وكان ﷺ يدعو كل أحد بحسب ما يناسب حاله ويليق به ، ويلاطف الضعفاء من الجهال والنساء والصبيان ؛ ترغيبًا لهم في الخير وترهيبًا لهم عن الشر .

فمتى كانت الدعوة إلى الحق على هذا الوصف الجميل ، كان لها موقعها الأكبر ، وتأثيرها الجميل ، ومنفعتها العظيمة ، وأجرها الكثير واللَّه الموفق .

❁❁❁

(١) البخاري (١٣٩٥) من حديث ابن عباس رضي اللَّه عنه .

القرآن والحديث النبوي

موقفهما من العلوم الكونية والفنون العصرية[١]

قال اللَّه تعالى : ﴿مَّا فَرَّطْنَا فِي ٱلْكِتَٰبِ مِن شَيْءٍ﴾ [الأنعام: الآية ٣٨] . وقال تعالى : ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً﴾ [النحل: الآية ٨٩] . وقال تعالى : ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ﴾ [الصافات: الآية ٩٦] . ﴿ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ ۝٣ ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ ۝٤ عَلَّمَ ٱلْإِنسَٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾ [العلق: ٣- ٥] . وقال تعالى : ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱلْفُلْكِ ٱلَّتِى تَجْرِى فِي ٱلْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ﴾ [البقرة: الآية ١٦٤] . إلى آخر الآية . ﴿وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ﴾ [الجاثية: الآية ١٣] . وقال : ﴿وَأَنزَلْنَا ٱلْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ﴾ [الحديد: الآية ٢٥] . وقال تعالى : ﴿وَٱلْخَيْلَ وَٱلْبِغَالَ وَٱلْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [النحل: الآية ٨] . إلى غير ذلك من الآيات الكثيرة الدالة على جميع علوم الكون والحث على التفكر في المخلوقات ، واستخراج منافعها الدينية والدنيوية ، بحسب الاستطاعة .

واعلم أن علوم البشر السابقة واللاحقة وما يترتب عليها من المعارف والأخلاق والأعمال والنتائج ، نوعان :

أحدهما : علوم دينية تعرف العباد باللَّه ؛ بأسمائه وصفاته وأفعاله وشرائع دينه ، وتبين الجزاء على الأعمال ، وما يتبعها من الأدلة والبراهين والمواعظ والقصص والترغيب والترهيب .

الثاني : علوم كونية ، موضوعها النظر في الكون وما سخر اللَّه للعباد من المنافع ، وفهمها وتصويرها وإبرازها بالعمل إلى الخارج واستخراج منافعها .

---

(١) صحيفة البلاد السعودية ، العدد (٩٣٨) في ١٥/١٠/١٣٦٩هـ .

والكتاب فيه بيان النوعين جملة وتفصيلًا ، كما قال : ﴿تِبۡيَٰنٗا لِّكُلِّ شَيۡءٖ﴾ [النحل: الآية ٨٩] . فلم يكن شيء يحتاج إليه العباد إلا وقد هدى إليه القرآن ، ودعا إليه الرسول ﷺ بقوله وفعله بالعلوم الدينية ؛ فصلها تفصيلًا لا يبقي فيها لبسًا ولا إشكالًا ، خصوصًا ما يحتاجه كل فرد في كل وقت ؛ في العبادات والمعاملات

ومن أحكام هذه الشريعة أن الأمور التي تتغير بتغير الأزمنة والأمكنة والأحوال جعل لها قواعد وضوابط ، ترد إليها الحوادث الجزئية ، فتطبق المعينات على القواعد الكلية المبنية على تحصيل المصالح ودفع المفاسد .

والعلوم الكونية يرشد العقول إلى التفكير فيها ، واستخراج علومها ، ويخبرهم أنه أعدها وسخرها لمنافعهم المتعددة ، وحثهم على معرفتها واستخراجها بكل وسيلة .

وقد أخبر في هذه الآيات أنه خلق لنا جميع ما في الأرض ، وسخر لنا ما في السموات والأرض ، به نستمتع وبه ننتفع بجميع الاستمتاعات وبكل الانتفاعات ، ومن لازم ذلك الحث على جميع الوسائل التي تحصل لنا هذه النعم .

وأخبر أنه خلقنا وخلق أعمالنا بما يسر ، وسخر لنا من الأسباب التي ندرك بها الأعمال والنتائج ، وأن من كرمه أنه علم الإنسان ما لم يعلم ، وجعله قابلًا لتعلم العلوم كلها الدينية والكونية .

وهذا العموم والشمول في هذه الآيات يأتي على جميع العلوم والفنون العصرية ، كما يأتي على جميع العلوم الدينية وما يترتب على هذه وهذه من الثمرات والنتائج ، وكلها نعم من اللّه تعالى ، فإن اللّه هو الذي علم الإنسان بالأسباب التي حصل له فيها العلم الديني والكوني ، كما أنه هو الذي رزقه بالأسباب التي جعل اللّه رزقه فيها ، وهو الذي أودع في الأرض المنافع المتنوعة ،

وهو الذي يسير الأسباب التي تدرك بها هذه المنافع، وأمرهم بالتفكر والتقدير الذي يرسلهم إليها ويهديهم إلى كيفية استخراجها، وربط البشر بعضهم ببعض في علومهم ومعارفهم وآثارها ونتائجها، وجعل هذا الارتباط المتنوع من أقوى الأسباب التي يدرك بها كل مقدور للبشر، وكل ما هو في إمكانهم، وهم في هذه الحالة بين أمرين:

إما أن يستعينوا بهذه النعم على شكر المنعم وعلى القيام بحقوقه وحقوق سائر النوع الإنساني؛ بل على حقوق المخلوقات كلها، وعلى العدل، والرحمة، والحكمة، والصلاح، والسعادة الحاضرة والمستقبلة.

إن فعلوا ذلك بقيت لهم النعم، وبورك لهم فيها، ولم يزالوا في صعود إلى الخيرات ومنجاة من الشرور والهلكات، وتمكنوا أن يحيوا في هذه الدنيا حياة طيبة سعيدة هنيئة، وبهذا أمر القرآن، ولهذا أرشد القرآن.

وحذرهم من ضده، وهو الأمر الثاني؛ وهو أنهم إن اشتغلوا بالنعم عن المنعم وجعلوا هذه النعم المادية غاية مطلوبهم ومرادهم، ولم يقوموا بحقوق المنعم بها، ولا حنوا بها على الخلق بالرحمة والعدل، كانت وبالًا عليهم وضررًا لازمًا، وصارت آلات ووسائل للهلاك والدَّمار والشقاء، ولم يمكنهم أن يعيشوا في هذه الدنيا عيشة هنيئة، بل عيشة شقاء، وتنقل من شر إلى أعظم منه.

وبهذا نعلم أن الرُّقِي الحقيقي الصحيح هو باستصحاب العلوم الدينية والعلوم الكونية، وامتزاج كل منهما بالآخر وتعاونهما وتساعدهما على سلوك طرق الصلاح المطلق، والسعادة الحاضرة والمستقبلة، والاستعانة بالنعم على طاعة المنعم؛ لتتم النعم وتكمل السعادة.

وعلم بذلك أن هذا هو الدين، بل روحه ولبه؛ فإنه خلقنا لعبادته، وسخر لنا ما في الكون لنستعين به على عبادته، وننتفع بما أحله لنا وأباحه.

[١]وفي إخباره سبحانه أنه سخر لنا جميع ما في الكون من المنافع دليل على أمرين :

أحدهما : أن فيها منافع عظيمة وكنوزًا وخزائن قد أعدها اللّٰه لنا وجعلها مهيأة ممكنااستخراجها وتحصيلها .

الثاني : أن فيه حثًا[٢] لنا على تعلم الفنون والصناعات والأسباب التي بها ندركها ونحصلها وننميها ونكملها . ففيها التصريح بوجود المنافع المتنوعة لكل الحاجات ، والحث على تحصيلها بكل وسيلة وطريق من علوم وأعمال واختبارات وتجارب ، وأن منافعها لا تزال توجد شيئًا بعد شيء ، فكلما تم ويتم للبشر من المستخرجات والمخترعات ، فإنه داخل في هذه الآيات ، امتنانا وحثًا على الاستكمال من نعمه التي تجلب بها المصالح وتدفع بها المضار .

وقد صرح في قوله : ﴿وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [النحل: الآية ٨] – حيث جاء بها في صيغة المستقبل– أنه يخلق فيما يستقبل من الزمان بتعليم الخلق وإقدارهم وتمكينهم من الأسباب المتنوعة ما لا يعلمه العباد وقت نزول القرآن . وهذا شامل لكل ما حدث ويحدث ، ولم يعين هذه المخترعات بأسمائها ولا أوصافها ، بل أخبرهم بلوازمها الدالة على ملزومها ؛ لحكمة يفهمها كل متأمل متدبر ، فإنه لو صرح لهم في ذلك الوقت أوصافها وقال لهم : إنه ستكون الطيارات بأنواعها ، والسيارات البرية والبحرية ، والغواصات بأجناسها ، وإن الناس سيتخاطبون من جميع الأقطار في لحظة واحدة ، وإنه سيكون كذا وكذا ؛ لو أخبرهم ببعض ذلك لم يصدقوا ولارتابوا ؛ لأن الناس لا يصدقون بالأمور التي لم يشاهدوها ولم يشاهدوا لها نظيرًا .

---

(١) تتمة المقال في صحيفة البلاد السعودية ، العدد (٩٣٩) في ١٨/١٠/١٣٦٩هـ.

(٢) في الأصل (حبا) ، ولعل الصواب ما أثبتناه .

انظر لما أخبرهم عن الإسراء بالنبي ﷺ من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى، والمعراج، والشجرة التي في النار، وهي الشجرة الملعونة، كيف اختلفوا ولجوا في طغيانهم ونفورهم، مع أن معجزات الأنبياء قد عهد الناس منها أنها مخالفة لما يعهدونه، خارقة للعوائد، فكيف لو أخبرهم أن الناس في آخر الوقت سيطيرون في الهواء، ويغوصون في البحار، ويتخاطبون من الأقطار الشاسعة؟!، إذًا لكان من أقوى الدواعي إلى تكذيبه.

ولكن ولله الحمد، أخبر بنصوص متعددة إخبارات عامة لتشمل جميع ما حدث ويحدث، وأخبر بلوازمها على وجه عام بحيث إذا حدثت الجزئيات أمكن إدخالها في تلك الكليات؛ وذلك من بلاغة القرآن وإخباره عن الغيوب المستقبلة، وعند وقوعها يزداد المؤمنون إيمانًا بالله ورسوله، ويزداد المكذبون إعراضًا ونفورًا وتمردًا، قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٩٦﴾ وَلَوْ جَآءَتْهُمْ كُلُّ ءَايَةٍ﴾ [يونس: ٩٦، ٩٧]. وقال تعالى: ﴿سَأَصْرِفُ عَنْ ءَايَٰتِيَ ٱلَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ﴾ [الأعراف: الآية ١٤٦].

وكما أخبر تعالى: أن الأرض فيها منافع وخزائن عظيمة سخرها للآدميين، كذلك أخبر أنه أنزل الحديد فيه بأس شديد ومنافع للناس، ولم يعين منفعة دون أخرى؛ ليشمل ويعم جميع المنافع التي تستخدم بالحديد سابقًا ولاحقًا

فكل منفعة استخرجت من الأرض أو من الحديد منفردة أو مقرونة بغيرها أو مساعدة بغيرها من الأسباب، فإنها داخلة في هذه الآيات.

وكل تعليم حصل للبشر في العلوم الدينية والدنيوية والكونية، فإنه داخل في قوله: ﴿عَلَّمَ ٱلْإِنسَٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾ [العلق: الآية ٥].

فلا يمكن أن يشذ عن هذه العمومات شيء من العلوم، والفنون، والمنافع، والاختراعات، والمستخرجات، والنتائج لها والثمرات، وكلها من الله بما يسره

للعباد من الوسائل التي يدركونها ويستخرجونها بها .

فمن الذي علمهم ما لم يكونوا يعلمون ؟ ومن الذي أقدرهم على ما عليه يقتدرون ؟ ومن الذي أودع في الكون المنافع والخزائن وهداهم إليها ؟ فمن الذي يسر ذلك كله إلا اللّٰه تعالى .

وكما أنه هو الذي يحيي ويميت ، ويرزق الخلائق ويصرفهم ويدبرهم بأنواع التدابير بما خلق لهم ويسر من الأسباب التي تحصل فيها هذه الأمور ، فكذلك هو الذي أوصلهم إلى العلوم الكونية واستخراج نتائجها ، ولكن الجاحد قاصر النظر يقف عند الأسباب ولا يتجاوز إلى مسببها ومقدرها والمنعم بها .

واعلم أن هذه الآيات التي فيها الحث على التفكير في أمور الكون كلها ، والنظر والتدبر . والآيات التي فيها أن سخر للعباد جميع ما في الأرض وجعلها معدة ومهيأة لمنافعهم ، ليس المقصود بها فقط مجرد النظر والتفكر ، وإنما جعل اللّٰه التفكر والنظر والتدبر مقصودًا لغيره ؛ مقصودًا لتحصيل أمرين عظيمين :

أحدهما : ثمرة ذلك التفكر والتعقل ، وهو حصول العلوم والمعارف الدالة على المطالب العالية ومعرفة قدرة اللّٰه وتوحيده وسعة رحمته وكمال علمه وشمول حكمته ، والدالة على ما فيها من أصناف المنافع التي لا تزال تستخرج شيئًا فشيئًا .

والأمر الثاني : ثمرة هذه العلوم من عبودية اللّٰه وإخلاص الدين له ، ومن تحصيل منافعها التي تفيد العباد ، وتصلح أحوالهم وتتم بها أحوالهم ، ويستجلبون بها المصالح ويدفعون المضار .

[1]لقد وضح أن علوم الكون التي تسمى في العرف العلوم العصرية داخلة في دلالة القرآن ، وأن القرآن أرشد إليها ، وهدى العباد إليها ، وحثهم على إعمال

---

(١) تتمة المقال في صحيفة « البلاد السعودية » ، العدد (٩٤٠) ، في ١٣٦٩/١٠/٢٢هـ.

أفكارهم في تحقيقها وتحصيلها ، وأن جميع الصناعات النافعة ، والمخترعات المتنوعة ؛ كلها داخلة في هذه الإرشادات الإلهية ، وأن القرآن فيه تبيان لكل شيء ، وهدى لكل مصلحة ، ورحمة تشمل خيرات الدنيا والآخرة ، وأنه لا سبيل إلى الإصلاح المطلق والسعادة والحياة الطيبة إلا بالتزام هداه ، وأنه نهى العباد عما سواه ولا يغني عنه غيره .

ومن ذلك قوله تعالى : ﴿سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ﴾ [فُصّلَت: الآية ٥٣] . فهذا خبره تعالى عن أمور مستقبلة أنه سيري عباده من البراهين والأدلة في الكون ، أي في الأفق ، وفي أنفسهم ما يدلهم على أن القرآن حق ، والرسول حق ، وما جاء به هو الحق .

وقد فعل ذلك فإنه أراهم من أثار اختراعاتهم وأعمالهم التي يسرها لهم- وخصوصًا في هذه الأوقات- ما تبين به لكل منصف أن خبر اللّٰه وخبر رسوله حق .

فإن مدار إنكار المكذبين على استبعادات يستبعدونها في عقولهم ؛ حيث لم تدخل تحت إدراكهم ولا حواسهم ولا مداركهم ، ولا يخضعون لخبر اللّٰه وخبر رسوله ويعلمون أن قدرة اللّٰه فوق ما يتوهمون وأنه لا يشذ عنها شيء فإنه على كل شيء قدير .

فهذه المخترعات الهائلة التي لو أخبروا ببعضها قبل ظهورها للجوا في تكذيبهم واستهزائهم بمن أخبر عنها ، قد شاهدوها ولمسوها وعملوها بأيديهم ، وكانت من أدل الدلائل على ما أخبر اللّٰه به من الغيوب ، وإحياء الموتى ، وأمور البعث والجزاء ، وندائه يوم القيامة الذي يسمعه القريب والبعيد ، وتخاطب أهل الجنة والنار فيما بينهم مع البعد المفرط .

كل هذا وغيره سهل على هؤلاء المكذبين التصديق به إذا قصدوا الإنصاف

والحق، ولكن ما تغني الآيات والنذر عن قوم لا يؤمنون. ﴿فَلَمَّا جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَرِحُواْ بِمَا عِندَهُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ﴾ [غافر: الآية ٨٣]- وكذبوا ما جاءت به الرسل- ﴿وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ﴾ [هود: الآية ٨].

وقد ثبت عنه ﷺ أنه قال: «لا تقوم الساعة حتى يتقارب الزمان»(١).

ومصداق هذا الحديث ما شاهده الناس من قرب المواصلات، واتصال الإخبارات في جميع الأقطار، حتى كأن الدنيا قطر واحد، بل بلد واحد، من اتصال بعضه ببعض، وتقارب الزمان من لازمه تقارب المكان.

وقد كان هذا الحديث مشكلًا قبل ذلك، فلما تم للبشر ما تم لهم من هذا التقارب الباهر لم يبق شك أن هذا مراد الحديث، وأن من لازم إخباره ﷺ وجود الأسباب المتنوعة التي يحصل فيها هذا التقريب والتقارب؛ لأن إخبار الشارع النبي إخبار به، وبما لا يتم إلا به، كما أن أمره بالشيء أمر به وبما لا يتم إلا به، والوسائل لها أحكام المقاصد.

وثبت في «صحيح مسلم»(٢) عنه ﷺ أنه قال: «لا تقوم الساعة حتى تعود جزيرة العرب مروجًا وأنهارًا». فمن ذا الذي يخطر بقلبه قبل هذا الوقت أن هذه الجزيرة القاحلة تكون بهذا الوصف حتى ظهر مصداق ذلك ومباديه بتيسير الله أمور الحراثة، واستخراج المياه بالآلات الحديثة، فخبره بذلك خبر عن الأمرين -عما يقع وعما به يقع- إخبار عن الجزيرة أنها ستكون مروجًا وأنهارًا، وآخر عن حدوث الآلات والوسائل التي تستخرج بها المياه وتحرث بها الأراضي وتتيسر الأعمال.

---

(١) الترمذي (٢٣٣٢) من حديث أنس رضي الله عنه، وأحمد (٢/ ٥٣٧) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) مسلم (١٥٧) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

وفي ضمن ذلك الحث[١] على تعلمها وعلى العمل بها ، فإنه حث على السعي بأسباب الرزق ، وهذا من الأسباب التي تكتب بها الأرزاق ، بل من الأسباب التي نفعها عام .

ومن ذلك قوله تعالى : ﴿وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ﴾ [الأنفال: الآية ٦٠] . وقوله : ﴿وَخُذُواْ حِذْرَكُمْ﴾ [النساء: الآية ١٠٢] . فهذا الأمر بإعداد[٢] المستطاع من القوة وأخذ الحذر من الأعداء ، يشمل كل زمان ومكان بما يليق ويناسب لذلك الوقت ولتلك الحال .

فجميع الأسلحة المخترعة التي حدثت والتي ستحدث ، وجميع الوقايات والتحصن والحذر من الأعداء بكل وسيلة وطريق يؤدي إليها ، كل ذلك داخل في هذه الإرشادات النافعة الحكيمة ، والأمر بها أمر بها وبما لا يتم ولا تحصل إلا به ؛ من تعلم الصناعات والفنون الحربية بأنواعها ، بحسب الحال المناسبة ؛ بل جميع الأوامر من الكتاب والسنة التي فيها الأمر بدفع عدوان الأعداء ، والحذر منهم ، وإعداد القوة لهم ، كله داخل في الجهاد ؛ جهاد المدافعة والمقاومة .

فيكون تعلم هذه الفنون والصناعات التي لا يمكن أن يتأدى الواجب إلا بها واجبًا[٣] وفرضًا ؛ لأن ما على الأمة لا يحل لهم أن يتركوا المقدور منها ، فإذا فعلوا ما يستطيعون منها زال عنهم اللوم ، وأعينوا على عدوهم ؛ لأنهم اتقوا اللّٰه ما استطاعوا .

[٤]ومن ذلك امتنانه على عباده بما يسره لهم من الفلك ؛ وإنها من أكبر نعمه الدينية والدنيوية ، فإنها تحملهم وتحمل أثقالهم وأمتعتهم وتجارتهم من قطر إلى

(١) في الأصل (الحديث).
(٢) في الأصل (فهذا في الأمر أن بإعداد) .
(٣) في الأصل (واجبة) ، ولعل الصواب ما أثبتناه .
(٤) تتمة المقال في صحيفة البلاد السعودية ، العدد (٩٤١) في ١٣٦٩/١٠/٢٥هـ.

آخر، ويتم بها التبادل بين الأقطار بالتجارات والمنسوجات والصادرات والواردات التي تعجز الأقلام عن الإحاطة بكثرة منافعها الضرورية والكمالية .

وذلك يدل دلالة واضحة أن تعلم الصناعات التي توجدها وتكملها مرغب فيها غاية الترغيب ، وأن بها تتم نعم اللَّه على العباد بهذا الجنس الذي اتصلت به الأقطار وانتفع بعضها ببعض ؛ بهذه الفلك الشاملة للسفن والمراكب البحرية ، والسيارات والقطارات البرية ، والطائرات الهوائية ، وما تفتقر إليه من الآلات والبرقيات بأنواعها .

كل هذا داخل في الإخبار بأنه أنعم على العباد بالفلك ، فما لا تتم النعم إلا به فإنه من النعم ، والآيات القرآنية في الفلك وذكر امتنان اللَّه بها في القرآن كثيرة جدًّا معروفة .

ولكن في القرآن آية تشارك تلك الآيات بهذه المقاصد الجليلة وتمتاز عنها بالتصريح بشمولها لجميع أصناف الفلك ؛ الهوائية والبحرية والبرية ، وهي قوله تعالى : ﴿وَءَايَةٌ لَّهُمْ﴾ [يس: الآية ٣٣] . أي : وآية للعباد على كمال قدرة اللَّه ، وتفرده بالوحدانية ، وسعة رحمته ، وكثرة خيراته ، وصدق رسله . ﴿أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ فِى ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ﴾ [يس: الآية ٤١] أي : الثقيل المملوء من الركاب والبضائع والأمتعة وغيرها .

فإنه لما كان القرآن خطابًا لأول هذه الأمة وآخرها ، وهو يعتني بأوسع المعاني وأشملها ، وقد علم الباري بعلمه المحيط أن الفلك ستتنوع وتتسع جدًّا في هذه الأوقات وما بعدها ، ولا يدركها الموجودون وقت نزول القرآن ، وإنما تدركها ذرياتهم إذا وجدت . قال : ﴿وَءَايَةٌ لَّهُمْ أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ﴾ [يس: الآية ٤١] . فأعم معانيها وأوسعها وأعظمها آية إنما يدركها الذرية ويشاهدونها ، فالموجودون وقت الإنزال قد عرفوا أصل الفلك وجنسه ، ولكن نهايته وتوسعه إنما يكون لمن

بعدهم من الذرية .

ولهذا فسر هذه الآية كثير من المفسرين تفاسير تخالف ظاهرها ، حتى حملوا الذرية على الآباء والأجداد ، وهذا غير معروف في العربية ، والقرآن عربي ومعانيه في غاية الوضوح ، وهو صريح فيما ذكرناه ، وهو أيضًا جاء على أسلوب القرآن ، إذ يذكر من كل نوع أعلاه وأوسعه معنى .

ومن ذلك أمره تعالى بفعل الأسباب التي تحصل بها الأرزاق من تجارات وصناعات وحراثة وحرف وغيرها ، وامتنانه على العباد بتيسيرها والاستعانة بها على القيام بواجبات اللَّه وواجبات الخلق ، مثل قوله تعالى بعدما أمر بالسعي إلى الجمعة : ﴿فَإِذَا قُضِيَتِ ٱلصَّلَوٰةُ فَٱنتَشِرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ وَٱبْتَغُواْ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ وَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرًا﴾ [الجُمُعَة: الآية ١٠] . وهذا شامل لجميع المكاسب من تجارة وصناعة وحراثة وغيرها من أسباب الرزق . وقال تعالى : ﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ ذَلُولًا فَٱمْشُواْ فِى مَنَاكِبِهَا وَكُلُواْ مِن رِّزْقِهِۦ وَإِلَيْهِ ٱلنُّشُورُ﴾ [المُلك: الآية ١٥] . أي جعلها مذللة لأسفاركم ، مذللة لحروثكم وبنائكم ، مذللة لاستخراج المعادن المودعة فيها ، مهيأة لكل ما تحتاجونه ، ﴿فَٱمْشُواْ فِى مَنَاكِبِهَا﴾ [المُلك: الآية ١٥] : أي في طلب الرزق وتحصيله ، وذلك يشمل جميع الطرق التي ينال بها الرزق من جميع المكاسب والاقتصاديات النافعة . فيدخل فيها جميع الأسباب والأرزاق التي كانت موجودة ، والتي لا تزال توجد شيئًا فشيئًا ، كلها داخل في هذه الأوامر والامتنانات من اللَّه تعالى على العباد .

فيكون تعلمها وسلوكها مما أمر اللَّه به ورسوله ، حتى إنه تعالى أمرنا أن نحجر على السفهاء في أموالهم الخاصة ، ونمنعهم من التصرفات الضارة لقصر عقولهم ومعارفهم وتجاربهم حتى نعلمهم ، ونختبرهم بالتجربة التي بها نعرف حذقهم ومهارتهم بالحفظ والكسب والمنافع . فقال : ﴿وَلَا تُؤْتُواْ ٱلسُّفَهَآءَ

أَمْوَٰلَكُمُ ٱلَّتِي جَعَلَ ٱللَّهُ لَكُمْ قِيَٰمًا﴾ [النّساء: الآية ٥] . أي لا تقوم مصالح العباد إلا بالأموال ، فهي الركن في قيام المصالح الدينية والمصالح الدنيوية ؛ في طلب المنافع وفي دفع المضار ، لا يقوم ذلك إلا بالمال .

فلقد علمنا ربنا العناية التامة بحفظ الأموال ، وتعلم طرق مكاسبها ، والاقتصاد في إنفاقها ، ولم يحرم علينا طريقًا من هذه الطرق النافعة إلا الطرق التي تضرنا في ديننا ودنيانا .فمن هذه عنايته بعباده ورحمته بهم .

أما ما نستفيد منه أنه يحب منا أن نتعلم الفنون الاقتصادية التي تنال بها الأرزاق ، وتتم النعم بالفنون الاقتصادية والفنون الحربية والصناعات والاختراعات التي تنفع العباد ، وتجلب لهم الخيرات ، وتدفع عنهم الشرور . قد علمت مرتبتها من هذا الدين وحث الكتاب والسنة على جميع المنافع منها وجعله وسائل للمقاصد

فما كان منها واجبًا فوسيلته واجبة ، وما كان مندوبًا فوسيلته كذلك . فإن الوسائل لها أحكام المقاصد ، واللَّه تعالى أباح لنا كل طيب نافع ، أباحه وأباح السعي في تحصيله .

فقد وضح وتبين أن العلوم الدينية والعلوم الكونية ممتزج بعضها ببعض ، محتاج بعضها إلى بعض ، فمتى اجتمعا حصل الكمال وتمت السعادة ، ومتى فقدا جميعًا حصل الشقاء وخسران الدنيا والآخرة ، ومتى وجد أحدهما دون الآخر حصل من النقص والخسران والشقاء بحسب ما فقد .

فطبق هذا التقسيم الحاضر على أحوال الأمم والجماعات والأفراد تجد الأمر كما ذكرنا ، وتعرف أن الصلاح المطلق والخير الكامل والسعادة الأبدية قد جاء بها الكتاب والسنة على أكمل الوجوه وأعلاها ، وباللَّه التوفيق وصلى اللَّه على محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليمًا .

تهنئة وترحيب إلى الحجاج الكرام[١]

لا تهنئة أعظم ولا أجل ولا أكمل من قوله ﷺ: «من حج هذا البيت فلم يرفث ولم يفسق خرج من ذنوبه كيوم ولدته أمه، والحج المبرور ليس له جزاء إلا الجنة»، وهذا في الصحيحين[٢].

فليهن الوافدين لبيت الله ما وعدوا به من مغفرة الذنوب، وستر العيوب، وليهنهم ما رتب على الحج المبرور من هذا الجزاء الجزيل ورضى الرب الجليل.

ليهنهم ما تضمنه هذا النسك العظيم من الخير والفضل الجسيم، وما فيه من التمتع والتعبد في تلك المشاعر الكريمة والمواقف، وما احتوت عليه هذه العبادة من الأسرار والحكم واللطائف.

أليس الإحرام ونزع اللباس المعتاد ورفض المخيط عنوانًا على الخضوع والخشوع للرب المحيط؟

أليس تكرار التلبية في تضاعيف النسك وجميع أوقاته برهانًا على ملازمة العبد طاعة ربه في حركاته وسكناته؟ وأنه فقير إليه مضطر إلى رحمته في مهماته وجميع حاجاته، يقول بلسان حاله ومقاله: «يا رب دعوتني على لسان خليلك ونبيك محمد؛ طه، فأجبتك، وناديتني لمحض مصلحتي بمنتك وفضلك فلبيتك، كلي لك؛ باطني وظاهري، عمري وبشري ومخي وعظمي، طالما وقعت في الذنوب والغفلات، وأعرضت عن سيدي وحبيبي مقبلًا على الأغراض والشهوات.

فالآن تبت إليك من الهفوات، وأنبت إليك طامعًا في عفوك عن المجرمين

(١) صحيفة البلاد السعودية العدد ٩٥٢ في ٥/ ١٢/ ١٣٦٩ هـ.

(٢) البخاري (١٥٢١)، ومسلم (١٣٥٠) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

والعصاة ، راجيًا من كرمك أن تجيب دعوتي وأن تقبل معذرتي ، وافدًا على بيتك وحرمك طامعًا في خيرك وبرك وكرمك ، لئن رددتني من يؤويني ، ولئن أقصيتني فمن يقربني ويدنيني ، لا مانع لما أعطيت ، ولا منجا ولا ملجأ منك إلا إليك ، ولا مُعوَّل لي إلا عليك .

أما الطواف بالبيت وبالمروة والصفا فبرهان والتزام التردد والتقلب في طاعة المولى ، وفي ذلك اقتداء وتذكر للمصطفين من أنبيائه وأصفيائه وأنهم حين تملقوا للّه في هذه المواطن الشريفة غمرهم من جوده وكرمه ونعمائه في تنقلهم من عرفات إلى مزدلفة ، ومنها إلى مشاعر منى ورمي الجمرات ، دليل وبرهان على خضوعهم في خدمة الرب الجليل ، وتزودهم من أسباب التعبدات والخير الجزيل

هنالك تسكب العبرات وتضج الخليقة بالدعوات المستجابات ، وينيلهم الكريم بأفضل الهبات وأكمل الكرامات ، وهنالك تنكسر النفوس وتخشع ، وتهيب القلوب إلى ربها وتخضع .

مواقف يهون النصب والتعب متى وصل العبد إليها ، ومشاعر تهوى قلوب الموفقين إليها ، وكرامات وخيرات تأتي فاز بالخير والسعادة من نالها ، ولمثلها فليعمل العاملون ، ولتلك العرصات الفاضلة فليتنافس المتنافسون .

لهذه الفضائل العظيمة تشد الرحال ، ولمثلها يسهل إنفاق نفائس الأموال ، مع أن اللّه قد وعد بالخلف العاجل وحسن الثواب في المآل . هنيئًا لكم أيها الوافدون لزيارة البيت العتيق ، القادمون من كل فج عميق .

لقد وجب أجركم على اللّه ، وحق احترامكم وإكرامكم على عباد اللّه .

فيا سكان بيت اللّه الحرام ، ويا من منَّ عليهم بجوار المشاعر الكرام ؛ كونوا -رحمكم الله- خير قدوة في الخير ليقتدي بكم إخوانكم في فعل الخيرات وترك المنكرات .

كونوا على جانب كبير من تقوى الله واحترام بيته الكريم ، فأنتم أحق وأولى من اتصف بكل خلق جميل ؛ اغتنامًا منكم لمضاعفة الأجر والثواب في هذه البقعة الشريفة ؛ واحترامًا لحرمة بيته ؛ وشكرًا لنعم الله عليكم التي لا تعد ولا تحصى .

واعلموا رحمكم الله أن من أفضل الأعمال وأشرفها مقابلة الحجاج بكل خلق جميل ومعاملتهم بكل معاملة طيبة ، واغتنام الإحسان إليهم على اختلاف مراتبهم ، فإنهم ضيوف الله ثم ضيوفكم « ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم ضيفه »[١] . فكيف بمثل هؤلاء الضيوف الكرام الذين تغتنم أدعيتهم ويرجى ما عمله العبد معهم من الإحسان القولي والإحسان الفعلي يرجو ثوابه من الله ويرجون أن ينصرفوا عنكم راضين ولمعروفكم شاكرين وبحسن أفعالكم ومكارم أخلاقكم مقتدين .

يا سكان بيت الله ما أحسن الإحسان من كل أحد وخصوصًا الإحسان الصادر منكم ، وما أقبح الإساءة فيه من كل أحد ، لا سيما إذا حصلت على الحجاج منكم ، وكم في هذا البلد الحرام من البررة الأخيار ، وكم فيها من التجار الصادقين الحائزين الشرف والاعتبار ؛ الذين يرون من أعظم الفرص الثمينة مراعاة حجاج بيت الله والقيام بحقوقهم طلبًا للثواب من الله . كم فيهم من يرعونهم عند البيع والشراء ، والأخذ والإعطاء ؟ كم فيهم من يبذل للفقراء منهم الإحسان والصدقات ، وييسر على الموسرين عند المعاملات ؟ كم فيهم من يحترمهم عند المشاعر الكريمة ، ويعتقد أن الإساءة إليهم من أقبح الخصال الذميمة ، اعلموا أن الإسلام يحث على هذه الخصال وخير منها ، وأن كل بر وإحسان يقابل به الحجاج فإنه مما حث عليه الدين ، ومما يتقرب به إلى رب العالمين ، إن من أكرم أضياف الله أكرمه الله . والله يحب المحسنين ويجزي الصادقين .

---

(١) حديث أخرجه البخاري (٦٠١٨) ، ومسلم (٤٧) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

« وأتموا الحج والعمرة للَّه »[١]

هذا من أعظم الأوامر الربانية، وأعظم الفروض الدينية، وهو الأمر بإتمام الحج والعمرة، وأن يكون الداعي لفعل هذا المأمور وتكميله إرادة اللَّه وحده وإخلاص العمل للَّه، وهذا هو الحج المبرور الذي ثبت في « الصحيح »[٢]. عن النبي ﷺ أنه قال: « الحج المبرور ليس له جزاء إلا الجنة ». وقال: « من حج هذا البيت فلم يرفث، ولم يفسق خرج من ذنوبه كيوم ولدته أمه » متفق عليه[٣].

فالحج المبرور هو الجامع لخصال البر كلها، وخصال البر فيه؛ أركانه، وشروطه، وواجباته، ومستحباته، ومكملاته. ولا بد مع هذا أن يكون خاليًا من المفسدات والمنقصات؛ من الرفث والفسوق والعصيان. فهذا هو تمام الحج الذي أمر اللَّه به ورسوله

وتوضيح ذلك أن الحج إذا جمع أمرين تم وكمل، وترتبت عليه جميع آثاره وفضائله؛ الإخلاص للَّه، والمتابعة للرسول ﷺ.

أما الإخلاص للَّه فهو أن يقصد بحجه وجه ربه وطلب رضوانه، والفوز بمغفرته وثوابه، فيكون العبد محتسبًا في جميع حركاته وسكناته، وفي جميع ما يفعله فيه من واجبات ومكملات، وفي جميع ما يتركه من محظورات ومكروهات، فيكون العبد محتسبًا في تعبه ونصبه، وفيما ينفق في هذا السبيل راجيًا لثواب ربه في حله وترحاله وسعيه وخطواته، عالمًا أنه في عبادة متصلة من خروجه من وطنه بل من عشيرته على الحج، وشروعه في الاستعداد له وجمع ما يحتاج له فيه، فهو في عبادة؛ في جميع حركاته وسكناته من مبتدأ عزمه وسعيه

(١) مجلة « الحج »، ذو القعدة ١٣٧٥هـ.

(٢) البخاري (١٥١٩)، ومسلم (١٣٤٩) من حديث أبي هريرة رضي اللَّه عنه.

(٣) البخاري (١٥٢١)، و مسلم (١٣٥٠) من حديث أبي هريرة رضي اللَّه عنه.

إلى أن يرجع إلى وطنه ومقرِّه حائزًا للسلامة والقبول والغنيمة الرابحة والنفقات المخلوفة ومضاعفة حسناته . وعبادة الحج تستغرق من عمر العبد وقتًا طويلًا ، فإنه في عبادة إن قام أو قعد ، أو مشى أو ركب ، أو استيقظ أو قام ، أو سار في سفره أو أقام ، أو كان في ذكر أو دعاء أو صلاة ، أو في راحة وإجمام نفسه . ولا فرق بين كونه سائرًا في الطريق ، أو واصلًا إلى البيت العتيق ، أو في عشرة مع الصاحب والملازم والرفيق ، فهو متقرب بذلك كله إلى مولاه ؛ راجيًا بذلك فضله ورضاه ، فهذا أحد النوعين ؛ وهو الإخلاص الملازم له في كل أحواله

وأما المتابعة للرسول ﷺ ؛ فهو أن يجتهد أن يقتدي فيه بأفعال النبي ﷺ وأقواله وإرشاداته ، فقد ثبت عنه ﷺ أنه قال : « خذوا عني مناسككم »[(١)] . أي اقتدوا بأقوالي وأفعالي في جميع متعلقات المناسك ، وذلك أنه قد ثبت عنه ﷺ في أحاديث كثيرة أنه لما وصل الميقات قال : « من شاء أن يهل بعمرة فليفعل ، ومن شاء أن يهل بحج فليفعل ، ومن شاء أن يهل بعمرة وحجة فليفعل »[(٢)] .

وأرشد إلى التنظف والاغتسال والتطيب عند الإحرام ، وأن يحرم الرجل في إزار ورداء أبيضين نظيفين . ثم بعد ذلك يلبي فيقول : « لبيك اللهم لبيك ، لبيك لا شريك لك لبيك إن الحمد والنعمة لك والملك لا شريك لك »[(٣)] . ولا يزال يلبي حتى يأتي البيت فيطوف للعمرة إن كان محرمًا بالعمرة وللقدوم إن كان محرمًا بحج مفرد أو بحج مع عمرة ، فيستلم الحجر بيده اليمنى ، ويكبر ، ويقول : « بسم اللَّه إيمانًا بك وتصديقًا بكتابك ووفاء بعهدك واتباعًا لسنة نبيك محمد ﷺ »[(٤)] .

---

(١) مسلم (١٢٩٧) من حديث جابر رضي اللَّه عنه.

(٢) مسند أحمد ١٠٢/١ من حديث عائشة رضي اللَّه عنها.

(٣) البخاري (١٥٤٩) ، ومسلم (١١٨٤) من حديث ابن عمر رضي اللَّه عنه.

(٤) ابن أبي شيبة ١٠ /٣٦٧ باسناد ضعيف . ينظر مناسك الحج للألبانى ص ٥١.

ويكثر في طوافه من الذكر والدعاء بكل ما أحب من خير الدنيا والآخرة، وليس للطواف دعاء مخصوص إلا أنه يستحب أن يقول بين الركن اليماني والحجر الأسود: ربنا آتنا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة وقنا عذاب النار[١].

فإذا فرغ من طوافه صلى ركعتين، والأفضل أن تكونا خلف مقام إبراهيم؛ يقرأ فيهما بعد الفاتحة بـ﴿قُلْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْكَـٰفِرُونَ﴾ [الكافِرون: الآية ١]. و﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾ [الإخلاص: الآية ١] [٢].

ثم بعد ما يصلي الركعتين يستلم الحجر، ويقول: «اللَّه أكبر». ويشير إليه إن تعذر استلامه

ثم يخرج المتمتع الذي أحرم بالعمرة وحدها إلى الصفا ليسعى سعي العمرة، وأما المفرد بالحج وحده أو القارن بين الحج والعمرة فهو بالخيار؛ إن شاء سعى سعي الحج بعد هذا الطواف وإن شاء أخر السعي إلى يوم النحر وما بعده.

فإذا وصل الصفا قرأ قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلصَّفَا وَٱلْمَرْوَةَ مِن شَعَآئِرِ ٱللَّهِ﴾ [البقرة: الآية ١٥٨] الآية. فيصعد على الصفا ويستقبل البيت ويكبر ويقول: «لا إله إلا اللَّه وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير، لا إله إلا اللَّه وحده، صدق وعده، ونصر عبده، وهزم الأحزاب وحده»[٣]. يكرر ذلك ثلاثًا، ثم ينزل يمشي ويسعى بين الميلين، ويكثر في سعيه من ذكر اللَّه ودعائه. وليس لذلك دعاء مخصوص، بل يذكر اللَّه ويدعو بما تيسر من الدعاء الذي يعرفه العبد. فإذا وصل إلى المروة استقبل البيت وقال عليها ما قال على الصفا.

فإذا فرغ من سعيه وكان متمتعًا حلق رأسه أو قصره وحل من عمرته. فإذا

---

(١) أبو داود (١٨٩٢).

(٢) مسلم (١٢١٨/١٥٠) من حديث جابر رضي اللَّه عنه.

(٣) مسلم (١٢١٨ /١٤٧) مختصرًا، وأبو نعيم في المستخرج (٢٨٢٧) بتمامه.

كان يوم الثامن أحرم بالحج من مكة من المحل الذي هو فيه ، وفعل عند إحرامه كما فعل في الميقات ولبى ، والمفرد والقارن يبقى على إحرامه ، ثم يخرج إلى « منى » فيصلي بها الظهر والعصر والمغرب والعشاء والفجر ، فإذا طلعت الشمس من يوم « عرفة » سار منها إلى « عرفة » فإذا صلى الظهر والعصر يوم عرفة وقف في عرفة خاشعًا للَّه خاضعًا داعيًا للَّه مكثرًا لذكره والثناء عليه حتى تغيب الشمس

ثم يدفع إلى « مزدلفة » ويبيت بها ليلة النحر ، فإذا صلى الفجر وقف عند المشعر الحرام داعيًا مستغفرًا راغبًا راهبًا ، وليس لذلك دعاء مخصوص بل يدعو اللَّه بما أحب من خير الدنيا والآخرة ، فإذا أسفر جدًّا دفع إلى « منى » فبدأ بجمرة العقبة ورماها بسبع حصيات ، يكبر مع كل حصاة ، ويلتقط الحصى إن شاء من « مزدلفة » ، وإن شاء من « منى »

فإذا رمى وحلق حل له كل شيء كان محظورًا بالإحرام إلا النساء ، ويذبح هديه إن شاء في « منى » ، وإن شاء في « مكة » ، ويبيت « بمنى » ليالي أيام التشريق

ويرمي الجمرات أيام التشريق بعد الزوال ؛ يبتديها بالجمرة القصوى عن « مكة » ، ويختمها بجمرة العقبة

ويجتهد في الاقتداء بالنبي ﷺ في جميع ما أرشد إليه وما فعله في نسكه

فمتى اجتهد الحاج في تكميل الإخلاص للمعبود والمتابعة للرسول فهو الحج التام المبرور الذي يكفر اللَّه به السيئات ويرفع به الدرجات ، وهو الحج الذي ليس له عند اللَّه جزاء إلا الجنة ، ويفيض الحاج إلى البيت إن شاء يوم النحر ، وهو الأفضل ، وإن شاء في أيام التشريق ، فيطوف طواف الحج ويسعى سعي الحج إن لم يكن سعاه قبل ذلك ، وبذلك يحل من إحرامه الحل التام . واللَّه أعلم وصلى اللَّه على محمد .

ولله على الناس حج البيت(١)

قال الله تعالى : ﴿وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًاۚ﴾ [آل عِمرَان: الآية ٩٧] .

هذه الآية هي التي صرح الله فيها بفرض الحج على الناس ، فهو فرض في رقاب الناس المكلفين كلهم ، فرض عليهم جميعًا التزامه واعتقاد فرضيته ، وأداءه مع القدرة والاستطاعة ، فكما أن المستطيع إليه سبيلًا فرض عليه هذه الأمور فسائر المكلفين يجب عليهم ذلك ، وأن يعتبروه من أعظم حقوق الله عليهم ، ولكن الفعل والأداء يختص بالقادرين المستطيعين ، وهذا المعنى من أعظم فوائد البدل في قوله : (من استطاع إليه سبيلًا) ،فالمستطيع عليه الاعتقاد والالتزام والأداء بالفعل ، وغير المستطيع من المكلفين عليهم الأمران الأولان ؛ الاعتقاد والالتزام . وهذا من بلاغة القرآن ، فإنه لو قال ولله على المستطيعين من الناس حج البيت ، لم يفد هذا المعنى الجليل ، فهذا الحق الذي لله على الناس متعلق برقابهم لا يقوم إيمانهم ودينهم حتى يعتقدوه ويلتزموه ويؤديه المستطيع منهم . وهو ولله الحمد مرة واحدة في العمر ، فمن زاد على ذلك فهو متطوع ومن تطوع خيرًا فإن الله شاكر عليم .

وتأمل ما أفاده هذا العموم وهو قوله : ﴿مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًاۚ﴾ وأن ذلك شامل لاستطاعة السبيل في كل وقت بما يناسبه من المركوبات ، وشامل لما يحصل في هذا السبيل من التسهيلات أو الصعوبات ، ففي وقت التنزيل ، وبعده بأوقات كثيرة يكون السبيل فيه المركوبات المعتادة في ذلك الوقت ، والزاد المناسب لأحواله ، ولهذا لما سئل النبي ﷺ عن هذا السبيل فسره بـ « الزاد

(١) مجلة « الحج » - ذو الحجة- ١٣٧٥هـ.

والراحلة »(١) أي : من الإبل ، وبعد ذلك لما ترقت الصناعات وظهرت المخترعات يفسر استطاعة السبيل للحج القدرة على تحصيل مركوب منها ؛ لا فرق بين المراكب البحرية ، والسيارات والقطارات البرية ، والطائرات الهوائية ، فكلها يشملها قوله تعالى : ﴿مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا﴾ [آل عِمرَان: الآية ٩٧] .

وهذا من البراهين الدالة على أن عمومات القرآن وإرشاداته وأصوله العامة صالحة لكل زمان ومكان ، فأي شيء يوصل إلى البيت الحرام لا يدخل في هذا العموم والشمول ؟ كما أن قوله تعالى في آية الجهاد : ﴿وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ﴾ [الأنفَال: الآية ٦٠] . تشمل كل مستطاع مقدور عليه من أنواع الأسلحة الحديثة والمخترعات النافعة وتنظيمات الجيوش الوحيدة وغير ذلك من القوة المادية والمعنوية ، وكم في كتاب اللّه من الآيات التي على هذا النسق الشاملة للحوادث السابقة واللاحقة ولما حدث ويحدث

وكما أن أمر الشارع بالتبليغ عنه ، وتبليغ العلوم النافعة ، وتبليغ الأخبار والأذان والقراءة ونحوها يشمل كل طريق يحصل به كمال التبليغ وعمومه ، كالبرقيات والإذاعات والتليفونات ونحوها مما يدفع الأصوات ويوصلها إلى الأمكنة البعيدة ، كلها داخل في أمر اللّه وأمر رسوله لهذه الأمة بتبليغ كل أمر نافع يقصد غنمه أو حصوله ، وتبليغهم كل أمر صار يقصد منهم معرفته وأخذ الحذر منه ، فمن أنكر شيئًا من ذلك فلجهله وسوء فهمه ، وهذا أمر ظاهر لا يحتاج في بيان فائدته بل فوائده إلى إقامة الدليل والبرهان ، فالدليل الحسي والدليل الشرعي قد تطابقا على ذلك .

والمقصود أن قوله تعالى : ﴿مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا﴾ [آل عِمرَان: الآية ٩٧] .

(١) أخرجه الترمذي (٨١٣، ٢٩٩٨) ، وابن ماجه (٢٨٩٦) من حديث ابن عمر رضي اللّه عنه . وضعفه الألباني في « الإرواء » (٩٩٨) .

يشمل جميع المركوبات الموجودة والتي ستوجد الموصلة إلى البيت الحرام

ومن نعم اللَّه على العباد وجود مركوبات تسهل لهم الوصول إلى بيته بأقرب وقت وأسرع زمان ، ولا يظن الإنسان أن هذه التسهيلات تنقص من أجر الحاج شيئًا ، فإن تسهيل العبادات من لطف اللَّه وإحسانه ، ومن الأمور المرغبة في الخيرات وحصول كثير من العبادات ، فالواجب على العباد شكرها ، فالعبادات إن تصعبت وشقت واعترضت دونها العقبات ، فالأجر على قدر المشقة ، وإن تسهلت لم ينقص من أجر صاحبها شيء .

واعلم أن التسهيلات المتعلقة بالاستطاعة نوعان :

أحدهما : في المركوبات كما ذكرنا .

والنوع الثاني : وهو من الأمور المهمة ؛ التسهيلات للحجاج في طريقهم ، والتسهيلات لهم بعد وصولهم إلى تلك البقاع الشريفة .

فإذا وفق ولاة الأمور للعناية التامة والسعي في راحة الحجاج من كل وجه وفي إزالة جميع العقبات المعترضة لهم كان هذا أكبر دعوة ودعاية للمسلمين إلى حج البيت الحرام ، وأقبل الناس على الوفود إلى بيت اللَّه أفواجًا بعد أفواج ، وكان لولاة الأمور المعنيين بهذه التسهيلات من الأجر والثواب مثل أجور العاملين من غير أن ينقص من أجورهم شيء ، وهذا شيء لا يعلم فضله إلا اللَّه ، وعكس هذا إذا سعى الولاة في وضع العراقيل والصعوبات والضرائب الفادحة وعدم العناية بالحجاج ، فإن عليهم من الجرائم والآثام والعقاب العاجل والآجل ما لا يحد ولا يوصف ، فيدخلون في قوله تعالى : ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن مَّنَعَ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ أَن يُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ وَسَعَىٰ فِى خَرَابِهَآ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ مَا كَانَ لَهُمْ أَن يَدْخُلُوهَآ إِلَّا خَآئِفِينَ ۚ لَهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا خِزْىٌ وَلَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [البقرة: الآية ١١٤] . وبهذا تتفاوت الاستطاعة تفاوتًا كبيرًا .

فانظر إلى الحكومة الحاضرة لما كانت ساعية ومهتمة أشد الاهتمام بكل ما فيه راحة للحجاج من التسهيلات المتعددة ، وهم - ولله الحمد - في كل وقت يزدادون منها ، كيف عند هذا أقبل الناس إقبالًا كبيرًا على حج بيت الله وكل عام يزيدون عما قبله ، ويؤمل إذا تمت التسهيلات كلها وهي السعي في كل ما ينفع الناس في دينهم ودنياهم ، وفي إزالة ما يضرهم في ذلك ، فإذا تمت على هذا الوجه حصلت الراحة التامة والارتياح ، وتم النجاح الكامل والفلاح ، وكان موسم الحج مضرب المثل في حصول الخيرات والثمرات الطيبة النافعة في الدين والدنيا ، وبذلك تتحقق المنافع الدينية والدنيوية التي قال الله عنها : ﴿لِّيَشْهَدُوا۟ مَنَٰفِعَ لَهُمْ﴾ [الحج: الآية ٢٨] ، وقد مر في المقال السابق الإشارة التفصيلية في بيان هذه المنافع ، والله المسئول المرجو الإجابة أن يهيئ للمسلمين كل خير يرجونه ويدافع عنهم كل شر يحذرونه . إنه جواد كريم رؤوف رحيم ، وصلى الله على محمد وسلم .

❁ ❁ ❁

علامة القصيم يدعو المسلمين إلى نصرة إخوانهم في مصر[1]

ألقى حضرة صاحب الفضيلة العلامة الجليل الشيخ عبد الرحمن الناصر السعدي خطبة جمعة الأسبوع الذي وقع فيه الاعتداء البريطاني الفرنسي الصهيوني على مصر، فحث المسلمين على نصرة إخوانهم في مصر، ولا يزال فضيلته يوالي إلقاء الخطب؛ داعيًا المسلمين إلى التناصر والتآزر في رد العدوان عنهم، وها هي إحدى خطب فضيلة الأستاذ التي ألقاها في جامع مدينة عنيزة، واستمع إليها ألوف من المصلين، وكان لها الأثر البالغ في نفوسهم:

الحمد للَّه الذي ربط الأخوة الدينية بين المؤمنين، فكانوا بذلك متحابين متناصرين، وأشهد أن لا إله إلا اللَّه الملك الحق المبين، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله سيد المرسلين، اللهم صل وسلم على محمد وعلى آله وأصحابه وعلى التابعين لهم إلى يوم الدين.

أما بعد، أيها الناس؛ اتقوا اللَّه، فإن تقواه سبب لحصول الخيرات ودافعة للشرور والهلكات.

عباد اللَّه، إن اللَّه أمركم بالجهاد بأنفسكم وأموالكم وبآرائكم وأعمالكم وأقوالكم، وخصوصًا الجهاد الذي هو فرض عين، وهو قتال المدافعة عن الوطن والدين، والمساعدة بما استطعتم لإخوانكم المسلمين.

قال ﷺ: «من مات ولم يغز ولم يحدث نفسه بالغزو مات على شعبة من النفاق»[2]. أي ومن قام بما يقدر عليه من الجهاد بنفسه أو ماله أو قوله فقد تم

---

(١) صحيفة «اليمامة» - العدد (٥٥) ربيع الثاني ١٣٧٦ هـ.

(٢) مسلم (١٩١٠) من حديث أبي هريرة رضي اللَّه عنه.

إيمانه، وبرئ من النفاق.

فهذه الدول الكافرة الظالمة قد تكالبوا على إخوانكم المصريين وأتباعهم، والجزائريين، وهاجموهم في عقر دارهم، وغرضهم الاستيلاء -لا قدر الله- على المسلمين وأقطارهم، يلقون عليهم القنابل المهلكة ليلًا ونهارًا، ويصبون عليهم العذاب والسلاح الفتاك سرًّا وجهارًا، لا يرحمون النساء ولا الرجال، ولا يرقون على الضعفاء ولا على الأطفال، ولا يبالون من وحشيتهم بإهلاك الحرث والنسل والأموال.

وإخوانكم -ولله الحمد- قد صابروهم مصابرة الأبطال، وصمدوا لهم وثبتوا ثبوت الجبال؛ مستعينين بالصبر الجميل، والتوكل على ذي العظمة والجلال، يرون فقد الأموال في هذا السبيل فخرًا وعزًّا، ويلجأون إلى الثبات ويتخذونه كهفًا وحرزًا، والله تعالى مولاهم وناصرهم، فنعم المولى ونعم النصير، والله سيخذل أعداءهم، وهو على كل شيء قدير.

إخواني، عار علينا ألا نتأثر بمصابهم، وعزيز علينا وجارح لقلوبنا ما أصابهم، فمن لم يساعد بماله ومباشرته فليساعد بتوجهه إلى ربه واستنصاره، ومن فاتته مشاركتهم في جهادهم فليقم بما عليه من المعونة بحسب اقتداره.

قال ﷺ: «إنما تنصرون وترزقون بضعفائكم»(1). بتوجههم إلى الله واستنصاره ودعائه؛ فإن الدعاء سلاح الأقوياء والضعفاء، وملاذ الأنبياء الأصفياء، وبه يستدفعون كل بلاء. قال الله تعالى: ﴿وَكَأَيِّن مِّن نَّبِيٍّ قَـٰتَلَ مَعَهُۥ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا۟ لِمَآ أَصَابَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا۟ وَمَا ٱسْتَكَانُوا۟ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلصَّـٰبِرِينَ ﴿١٤٦﴾ وَمَا كَانَ قَوْلَهُمْ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِىٓ أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَـٰفِرِينَ ﴿١٤٧﴾ فَـَٔاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ ثَوَابَ ٱلدُّنْيَا وَحُسْنَ

(1) البخاري (٢٨٩٦) من حديث سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه.

ثَوَابِ ٱلۡأٓخِرَةِۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾ [آل عمران: ١٤٦- ١٤٨].

فوصفهم بأنهم جمعوا بين الصبر والثبات والتضرع والدعاء، فجمع الله لهم بين خير الدنيا والأخرى، وكان النبي ﷺ يوم بدر وغيره يجمع بين التحريض والعمل بنافع الأسباب، وبين التضرع والاستنصار بالملك الوهاب، فأعينوا -رحمكم الله- إخوانكم بالتضرع وكثرة الدعاء، وسلوا ربكم أن يدفع عنهم الأعداء والشرور والبلاء.

اللهم منَّ علينا بالتوبة النصوح من جميع المعاصي، واكفنا الأعداء بما شئت، فأنت القوي الكافي، اللهم إن هؤلاء الكفرة قد اعتمدوا على قواتهم والعدد والعديد، وأنت يا مولانا ملجأ المؤمنين من كل كرب شديد، اللهم يا قوي يا عزيز يا فعال لما يريد، يا من بيده نواصي جميع العبيد، انصر الإسلام والمسلمين، واخذل بقوتك أعداء الدين.

اللهم إن المسلمين لا يعتمدون إلا عليك، ولا يلجأون إلا إليك، ولا يدعون ويرجون أحدًا سواك، ولا لهم ملاذ ومعاذ وناصر إلا إياك، اللهم إنك قلت في كتابك: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُدَٰفِعُ عَنِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْۗ﴾ [الحج: الآية ٣٨]. فادفع عنهم شرور الأعداء، واكشف عن المسلمين كل شر وبلاء، فإنك نعم النصير ونعم المولى، اللهم انصر عبادك المؤمنين، واكشف عنهم شرور الأعداء الكافرين، وأعنهم على عدوهم يا نعم المعين، ربنا عليك توكلنا وإليك أنبنا وإليك المصير، ربنا لا تجعلنا فتنة للذين كفروا، واغفر لنا إنك أنت العزيز الحكيم، اللهم صل وسلم على محمد، وعلى آله وأصحابه. آمين.

❁❁❁

حقوق المال في الإسلام[1]

لا ريب أن الشرع قد بين للعباد كل ما يحتاجونه ، في أمور دينهم ودنياهم ، وخصوصًا الواجبات الكبيرة التي هي أهم المهمات ؛ الواجبات على القلب ، والواجبات على البدن ، وجميع الأقوال والأفعال .

وكذلك وضَّح اللَّه ورسوله الواجبات المالية توضيحًا تامًّا ؛ مجملًا ومفصلًا . فأمرنا بأداء الحقوق المالية ، والإنفاق مما رزق اللَّه ، وأثنى على القائمين بها ، وذم المانعين لها أو لبعضها ، وفصل ذلك .

فذكر الأموال التي تجب فيها الزكاة ، من الحبوب ، والثمار والمواشي ، والعروض ، والنقود ، وذكر شروطها ، ونصبها ومقدار الواجب منها ، ولمن تدفع ؛ للمصالح المحتاج إليها ، وللمحتاجين .

فآكد الحقوق المالية هذا الحق الأكبر ؛ حق الزكاة التي هي من أعظم أركان الإسلام ومبانيه التي لا يتم إلا بها .

وفصَّل أيضًا ما في المال من النفقات الواجبة للنفس والأهل والأولاد ، والمماليك ؛ من الآدميين والبهائم .

وبين اللَّه ورسوله - أيضًا - وجوب الوفاء بالمعاملات الصحيحة ، والعقود الشرعية على اختلاف أنواعها وتباين أسبابها .

وبين أيضًا ما يتعلق بالمال من الحقوق العارضة إذا وجدت أسبابها ، كبدل النفوس والأموال المتلفة بغير حق ، وما فيه من الحقوق العارضة لحاجة الغير من ضيف ونحوه ، أو لاضطرار الغير ، فأوجب مواساة المضطرين ، ودفع اضطرارهم بإطعام الجائع ، وكسوة العاري ، وهذا من فروض الكفايات ، إذا قام به البعض

---

(١) مجلة اليمامة العدد ٧ في ٦ /١٣٧٣هـ.

سقط عن غيره .

ومن ذلك إلزام الناس بالمعاوضات ؛ منها ما هو محرم ، كإكراههم على البيع بثمن لا يرضونه ، أو منعهم مما أباحه اللّٰه لهم . ومنها ما هو عدل ، مثل إكراههم على ما يجب عليهم من المعاوضة بثمن المثل ، إذا وجب عليهم البيع أو الشراء لسبب يقتضي الوجوب ؛ إما أداء دين أو غيره . ويجب منعهم مما يحرم عليهم من أخذ الزيادة على عوض المثل ، ومثل التسعير على العمال ، ومن يحتاج الناس إليهم ، ومنعهم من أخذ الزيادة الفاحشة ، كما يمنع الناس من هضمهم لحقوقهم .

ففي أمثال هذه المسائل يجب على الناس مراعاة العدل ، ومنع أسباب الظلم . وهذه الأمور منها أشياء واضحة لكل واحد ، ومنها أشياء يكون فيها اشتباه والتباس ، يجب أن تفحص وتحقق تحقيقًا تامًّا لتعرف مرتبتها ، فما دامت مشتبهة ، فالأصل تحريم أموال الغير ، والأصل إبقاء الناس على معاملاتهم ، واحترام حقوقهم ، حتى يتضح ما يوجب الخروج عن هذا الأصل لأصل شرعي أقوى منه .

وأما ما يهذي به كثير من الناس عندما انتشرت الشيوعية ، وشاعت دعايتها ، وأثرت على كثير من العصريين ، وراجت على بعض أهل العلم ، من أنه يسوغ لأولياء الأمور أن يلزموا أهل الغنى والثروة أن يواسوا بذلك أهل الحاجة والفقراء ، وأن يفتتوا ثروتهم على أهل الحاجات ، وأن يسددوا بزائد ثروتهم جميع المصالح ، التي تحتاجها الأمة بغير رضاهم ، بل بالقهر والقسر .

فهذا معلوم فساده بالضرورة من دين الإسلام ، وأن الإسلام بريء من هذه الحالة الشيوعية أو هي مبدأ الشيوعية ، ونصوص الكتاب والسنة على ذلك وإبطال هذا القول صريحة وكثيرة جدًّا . وإجماع الأمة يبطل هذا القول المنافي لنصوص

الكتاب والسنة، والمنافي للفطرة التي فطر اللّٰه عليها العباد، والفاتح للظلمة وأرباب الجشع أبواب الظلم والشر والفساد، فاللّٰه يبسط الرزق لمن يشاء ويقدره على من يشاء، وقد جعل اللّٰه العباد بعضهم فوق بعض درجات في كل الصفات؛ في العقل والحمق، وفي العلم والجهل، وفي حسن الخلق وضده، وفي الغنى والفقر، وفي كثرة الأولاد والأموال والأتباع وضد ذلك؛ حكم بذلك قدرًا، ويسر كلاًّ لما خُلق له، وأوجب على كل من أعطاه شيئًا من هذه النعم وغيرها من واجبات حددها وفصلها تفصيلا، وجعل لنيل المطالب الدنيوية والأخروية أسبابًا وطرقًا، من سلكها أفضت به إلى مسبباتها، وأوصلته إلى نتائجها، وهؤلاء المنحرفون يريدون أن يبطلوا[1] قدر اللّٰه وشرعه، ويبرروا آراءهم الفاسدة، بشبه لا تسمن ولا تغني من جوع، وقد يضيفون ذلك إلى بعض نصوص الشريعة، تحريفًا منهم، يعرفه كل من له أدنى معرفة بالشريعة.

وكثُر الدعاة إلى هذه الطريقة الشنيعة؛ تغريرًا من بعضهم، واغترارًا من آخرين، يقلدونهم على غير بصيرة، والبصير لا يخفى عليه الأمر، وقد يروجون باطلهم بأن تضخم المال في أيد قليلة سبب لمفسدة الترف المفسد للأخلاق، وسبب لإثارة الأحقاد من الفقراء والمعدمين، وهذا غلط فاحش وضعف نظر، فإن الغنى قد يكون سببًا للطغيان، وقد يكون سببًا للتواضع، والتزود من طاعة اللّٰه، والقيام بحقوق المال الشرعية، وعلى فرض ما فيه من الترف ونحوه، فإن ما حاولوه من القضاء على ثروة المثرين سبب لشرور عظيمة، لا تنسب إليها أي مفسدة، وسبب لإثارة فتن كثيرة عكس ما قالوه، وهل هذه الشرور والحروب الطاحنة إلا من آثار ذلك - كما هو معلوم لكل أحد - وما قالوه في زيادة ثروة المال، يقال مثله في زيادة قوة الجسد، وصحة البدن، فإنه قد يبعث على شرور،

(١) في الأصل (يبطروا).

كما قد يبعث إلى خير ويتوسل به إلى خيرات ، فنعم اللَّه المتنوعة على العباد إما أن يشكروها ويتوسلوا بها إلى ما خلقوا له ، من عبادة اللَّه وشكره والقيام بحقه ، وإما أن تكون بعكس ذلك ، واللَّه تعالى قد كفى عباده أضرار الثروة بما شرعه في الأموال من الحقوق الواجبة والمستحبة التي لو قام بها أرباب الأموال لكانوا من خير البرية أخلاقًا وأعمالًا ، وأشرفهم وأعظمهم اعتبارًا ، ولما ترتب على ذلك من الشر شيء ، ولكن لما منع أكثر الخلق ما أوجب اللَّه عليهم في أموالهم وخصوصًا الزكاة سلط عليهم أنواع الظلمة من ولاة ظالمين ، ومن فتاوى الجاهلين المتجرئين ﴿وَكَذَٰلِكَ نُوَلِّي بَعْضَ ٱلظَّٰلِمِينَ بَعْضًۢا بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ﴾ [الأنعام: الآية ١٢٩] .

واعلم أن الشبه التي تثار لنصر كل باطل ، إذا فرض صحة بعضها فإنها نظريات ضئيلة جدًّا ، ونظر قاصر ، حيث نظروا نظرًا جزئيًّا ، وحكموا حكمًا كليًّا ، وعموا عن الأصول التي تبنى عليها الأحكام ويعتبرها الشرع ، وتتولد عنها المصالح العامة الكلية ، وتنغمر فيها المفاسد الجزئية ، وتوافق الشريعة والحكمة وفطرة اللَّه التي فطر عليها العباد وتدع الخليقة هادئة ، والأسباب قائمة والارتباط بين الناس وثيقًا ﴿وَلِكُلٍّ دَرَجَٰتٌ مِّمَّا عَمِلُوا۟ۚ وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ﴾ [الأنعام: الآية ١٣٢] .

❁❁❁

«كتاب فضيلة الشيخ عبد الرحمن الناصر السعدي»[١]

من المحب عبد الرحمن الناصر السعدي إلى جناب الأخ المكرم حمد العبد اللَّه البادي – مدير مدرسة الدفاع في عنيزة وزملائه الكرام.

السلام عليكم ورحمة اللَّه وبركاته، أما بعد؛ فإنا سررنا كثيرًا حين زرناكم في مدرسة الدفاع أمس، سررنا بما رأينا من علامات الإقبال والنشاط من المعلمين والعاملين والمتعلمين وما يرجى لهذا النشاط من النتائج الجميلة والآثار الحميدة

ذلك بأن مدارس الدفاع هي قوة البلاد والحكومة، وهي روح العز والطريق الأعظم إلى مقاومة الأعداء، وينبوع التقدم الديني والمعنوي والمادي، والضرورة داعية إليها، والواجب الديني والاجتماعي يلجئ إليها، وهي إذا تمت شروطها الدينية والمادية والتعاليم التي لا تستقيم إلا بها فهي أعظم المدارس نفعًا وأكبرها وقعًا وأكثرها فائدة، إذ بها حصول كل خير واندفاع كل شر، قال اللَّه تعالى: ﴿وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ﴾ [الأنفال: الآية ٦٠]. فأمرنا ربنا أن نعد للأعداء جميع ما نستطيعه من قوة معنوية وسياسية ومادية ونظم حربية

وهذا الإعداد يختلف باختلاف الأوقات والأحوال؛ ففي هذه الأوقات من أهم الأمور السعي في التعاليم والتداريب العسكرية والفنون الحربية والقوة والشجاعة

وقد تكفلت هذه المدارس الحربية بكل أسرة؛ وإن حكومتنا -أيدها اللَّه بتوفيقه- قد أولتها العناية التامة من جهات عديدة؛ من جهة الدين والأخلاق، ومن جهة حفظ التلاميذ وصيانتهم عن الأمور الضارة بكل طريق، ومن جهة

---

(١) مجلة المنهل ١٦/ ٧.

العناية الكبيرة بالصحة وملاحظتهم بالأطباء الماهرين الناصحين، ومن جهة ملاحظة النظافة في أبدانهم ولباسهم ومحالهم، فإن النظافة من أهم شروط الصحة، ومن جهة القيام بمؤونتهم ومعاشهم قيامًا تامًّا تطمئن له نفوسهم ولا يتطلعون إلى شيء آخر، ومن جهة المعاشات والرواتب الشهرية التي لا يوجد لها نظير في الأقطار، ومن جهة اختيار الأساتذة الماهرين والضباط الناصحين الذين قد جمعوا مع مهارتهم التامة الشفقة والنصح والرأفة بتلاميذهم، فما كأنهم إلا أبناؤهم أو أبلغ. وإذا اجتمع الأمران الكفاءة والنصح تمت الأمور وصلحت الأحوال حيث تكون التعاليم الدينية والأخلاق المرضية هي الأساس الأكبر الذي إليه يرجعون، ويعتبرون النصح للدين والنصح للحكومة والنصح للشعب والتكافل بين الجميع هو الأصل الذي لا صلاح إلا به، ويجمعون للتلاميذ بين التعاليم القولية والدراسية والتداريب الفعلية ما يتم به نجاحهم وتقوى قلوبهم وأبدانهم، ويكتسبون الشجاعة وعلو الهمة والترقي إلى كل صلاح وإصلاح

فالمدارس التي على هذا الوصف المذكور بها صلاح الدين والدنيا، وبها القيام بفرض العين وفرض الكفاية من الجهاد. أعانكم اللَّه على القيام بهذه الأمور الجليلة ووفقكم لكل خير. إنه جواد كريم وصلى اللَّه على محمد وسلم.

❁❁❁

الشيخ

عبد الله بن حسن آل الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ

مقالات الشيخ عبد الله بن حسن آل الشيخ[1]

(١) هو صاحب السماحة العلامة الشيخ عبد الله بن الشيخ حسن بن الشيخ حسين بن الشيخ علي ابن الشيخ حسين بن شيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب ،رئيس القضاة في حياته - رحمه الله - .

ولد هذا العالم الشهير ببلدة الرياض سنة ١٢٨٧هـ ، ونشأ في أحضان والده الشيخ حسن فقرأ القرآن حتى حفظه ، وشرع بعد ذلك في القراءة وطلب العلم ، فأخذ العلم عن علماء أجلاء منهم والده علامة زمانه الشيخ حسن بن حسين ، والشيخ عبد الله بن عبد اللطيف ، والشيخ حمد بن فارس ، والشيخ سعد بن عتيق وغيرهم .

عين في أول حياته إماما لمسجد الإمام عبد الرحمن بن فيصل المشهور بمسجد الديوانية وذلك سنة ١٣٢٣هـ واستمر يصلي به إلى سنة ١٣٣٧هـ ثم عينه جلالة الملك عبد العزيز قاضيًا للجيوش ، فباشر ذلك وغزا مع الملك غزوات كثيرة . ولما استولت جيوش الملك عبد العزيز على الطائف ومكة المكرمة سنة ١٣٤٣هـ عينه الملك عبد العزيز إماما وخطيبًا للمسجد الحرام فشغل هذا المنصب واستمر فيه إلى أن تم تعيينه رئيسًا للقضاة بالحجاز وذلك سنة ١٣٤٦هـ ثم أسند إليه الملك زيادة على ذلك الإشراف على الحرمين والمدرسين فيهما ، وأسند إليه وظائف الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، وملاحظة المساجد والإشراف عليها ، واختيار الأئمة وتعيينهم ، وتوزيع الكتب المطبوعة على نفقة الملك عبد العزيز على المستحقين من طلاب العلم والمعرفة .وأسند إليه مع هذا مهمة اختيار الوعاظ والمرشدين وبعثهم إلى القرى والبوادي لإرشادهم وتعليمهم واجبات الإسلام وأمور الدين ، فقام -رحمه الله تعالى- بأعباء كل ما أسند إليه خير قيام .وكان إلى جانب كل ما ذكرناه من الأعمال قائما بنشر العلم وتدريسه في الرياض ثم في الحجاز ، وقد أخذ عنه العلم في نجد وفي الحجاز خلق لا يحصون منهم أخوه العلامة الشيخ عمر بن حسن ، والشيخ العلامة محمد بن عثمان الشاوي ، والشيخ فالح الصغير ، والشيخ عبد الرحمن بن داود ، والشيخ عبد الرحمن بن عقلا ، والشيخ عبد العزيز بن محمد الشثري الملقب بأبي حبيب ، وغيرهم.

وأخذ عنه العلم بالحجاز عدد كثير منهم الشيخ محمد عبد الظاهر أبو السمح ، والشيخ سليمان أباظة الأزهري ، والشيخ علي بن محمد الهندي وغيرهم.

وقد كان الشيخ -رحمه الله- من خيرة البقية الباقية من علماء دعوة التوحيد والدين ، وقورا ، مهيبا ، أمارا بالمعروف نهاءا عن المنكر ، لا تأخذه في الله لومة لائم ، وكان على سمت علماء السلف الصالح وهديهم ، بعيدا عن مفاتن الحياة والتهالك على الدنيا ، مثابرا على أعمال البر =

حديث اختلاف أمتي رحمة لا أصل له ومعناه غير صحيح[١]

بسم اللّٰه الرحمن الرحيم

وصلى اللّٰه على أشرف المرسلين نبينا محمد وآله وصحبه والتابعين.

أما بعد:

فإني قد اطلعت على مقالة لبعض العلماء نشرتها جريدة «البلاد السعودية» في عددها (٧١٤) يوم الأحد الموافق ٢٣ جمادى الثانية ١٣٦٧هـ يؤيد في مقالته شهرة حديث: «اختلاف أمتي رحمة»، وأنه حديث مذكور في كتب الأمة، وأن معناه صحيح لأدلة قوية ثابتة، واستدل على رفعه إلى النبي ﷺ بأن ابن الحاجب في المختصر ذكره، وأن البيهقي رواه بسند منقطع عن ابن عباس، وأن الطبراني أخرجه والديلمي في مسند الفردوس[٢].

وذكر صاحب المقالة أن الاختلاف في المسائل الفرعية المستنبطة من الأدلة الشرعية غير مذموم، بلا نزاع بين العلماء، وذكر أنه لم يزل العلماء يختلفون في المسائل الفرعية ولم يعدوا هذا الاختلاف ضلالًا، وذكر اختلافهم في بعض مسائل في الفرائض وغيرها، يريد بذلك تأييد صحة معنى حديث «اختلاف أمتي رحمة».

= والخير وواجبات العلم والدين، وقائمًا بكل ما وكل إليه من أمور المسلمين على الطريقة السوية، والوجه الأكمل إلى أن توفاه اللّٰه سنة ١٣٧٨هـ عن واحد وتسعين عاما أمضاها في نشر العلم، وبث الدعوة، وخدمة الإسلام ونصرة الدين، وقد وجم الناس لموته، وحزنوا عليه حزنا شديدا، وصلوا عليه بالمسجد الحرام، ودفن بمقابر العدل بمكة المكرمة، فرحمه اللّٰه رحمة واسعة. انظر ترجمته في «مشاهير علماء نجد» (ص١٢١).

(١) صحيفة البلاد السعودية العدد ٧١٥ في ٢٦/ ٦/ ١٣٦٧ هـ.

(٢) انظر المقاصد الحسنة (٢٦)، والسلسلة الضعيفة للألباني (٥٧).

وحيث إن هذا الحديث لا أصل له، ومعناه مصادم للآيات القرآنية والأحاديث الصحيحة النبوية، رأيت من الواجب علي بيان ما يجب اعتقاده في هذه المسألة لأنها ترتكز على أصل من أصول الدين، وهو الأمر باعتصام المسلمين بحبل الله جميعًا ولزوم الجماعة، وترك التفرق والاختلاف، قال الله تعالى: ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ قِيلًا﴾ [النساء: الآية ١٢٢]. ﴿وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ * إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ﴾. وقال تعالى: ﴿وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا﴾ [آل عمران: الآية ١٠٣]. وقال تعالى: ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِن بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ﴾ [آل عمران: الآية ١٠٥]. وقال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا لَّسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ﴾ [الأنعام: الآية ١٥٩]. فهذه الآيات فيها إطلاق ذم الاختلاف وذم أهله.

وفي الحديث(١) «افترقت اليهود على إحدى وسبعين فرقة، وافترقت النصارى على اثنتين وسبعين فرقة، وستفترق هذه الأمة على ثلاث وسبعين فرقة كلها في النار إلا واحدة». وفي الحديث: «أوصيكم بتقوى الله والسمع والطاعة وإن كان عبدا حبشيًا مجدعًا، فإنه من يعش منكم فسيرى اختلافًا كثيرًا، فعليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين من بعدي عضوًا عليها بالنواجذ»(٢) الحديث.

وعن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنه قال: هجرت إلى رسول الله ﷺ يومًا، فسمع أصوات رجلين اختلفا في آية، فخرج رسول الله ﷺ يرى في وجهه الغضب، فقال: «إنما أهلك من كان قبلكم اختلافهم في الكتاب». أخرجه مسلم(٣).

---

(١) أبو داود (٤٥٩٦)، والترمذي (٢٦٤٠)، وابن ماجه (٣٩٩١).

(٢) مسلم (١٨٣٨) من حديث أم الحصين.

(٣) مسلم (٢٦٦٦).

فهذه الآيات الكريمات، وهذه الأحاديث النبويات دلت على ذم الاختلاف وعيبه وتحريمه والتشديد فيه والوعيد عليه بالنار، وبلغت هذه الأحاديث من الشهرة والتواتر وقبول أهل العلم لها واحتجاجهم بها ما يورث العلم الضروري أن رسول اللّه ﷺ قالها وصدرت عنه.

فإذا تقرر ذلك علمنا قطعًا لا شك فيه أن حديث «اختلاف أمتي رحمة» حديث باطل مصادم للآيات القرآنية والأحاديث النبوية، ويقطع سليم الفطرة أن هذا الحديث لم يخرج من مشكاة النبوة.

فإن قال قائل: المراد الاختلاف في العلوم الفرعية.

فيقال: حتى ولو سلمنا ذلك لهذا القائل فإن مقالته هذه خطأ؛ لأن ما تقدم من النصوص القرآنية والأحاديث النبوية عام لكل اختلاف وقع في الأصول والفروع؛ وغاية ما يقال في ذلك: إنه إذا لم يكن في المسألة نص من كتاب أو سنة أو إجماع واختلف المجتهدون في تلك المسألة، فإن خلافهم في ذلك مغفور لهم، فالمصيب منهم له أجران، والمخطئ له أجر، ولا يقال حينئذ: إن اختلافهم رحمة. ولم يقل أحد من أهل العلم الذين يعتد بقولهم إن اختلاف المجتهدين رحمة.

وقد تكلم السيوطي على هذا الحديث بما فيه كفاية[1]، وكذا السخاوي في «المقاصد الحسنة» والديبع في «تمييز الطيب من الخبيث فيما جرى على ألسنة الناس من الحديث» بل صرح جمع من صيارفة الفن بأن هذا الحديث لا أصل له، بل أورد الديبع في مختصر المقاصد ما حاصله: خرَّج عبد اللّه بن أحمد من حديث النعمان بن بشير مرفوعًا بإسناد لا بأس به: «الجماعة رحمة والفرقة عذاب»[2].

(١) انظر «الدررالمنتثرة في الأحاديث المشتهرة» (حرف الألف).

(٢) أخرجه أحمد (٤/ ٢٧٨، ٣٧٥).

أورده مستشهدًا به على رد حديث « اختلاف أمتي رحمة » .

قال شيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب رحمه الله[١] : وأما قولهم « واختلافهم رحمة » فهذا باطل ، بل الرحمة في الجماعة ، والفرقة عذاب ، قال تعالى : ﴿وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ * إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ﴾ ولما سمع عمر بن الخطاب رضي الله عنه أن ابن مسعود وأُبيًّا اختلفا في صلاة الرجل في الثوب الواحد ؛ صعِد المنبر وقال « اثنان من أصحاب رسول الله ﷺ ، فمن أي فتياكم يصدر المسلمون ؟ لا أجد اثنين اختلفا بعد مقامي هذا إلا فعلت وفعلت »[٢] لكن قد روي عن بعض التابعين[٣] أنه قال : ما أحسب اختلاف أصحاب رسول الله ﷺ إلا رحمة للناس ؛ لأنهم لو لم يختلفوا لم تكن رخصة .

ومراده غير ما نحن فيه ، ومع هذا فهو قول مستدرك ؛ لأن الصحابة أنفسهم ذكروا أن اختلافهم عقوبة وفتنة . انتهى كلام شيخ الإسلام .

وقد استدل بعض من لا تحقيق عنده بحديث « أصحابي كالنجوم بأيهم اقتديتم اهتديتم »[٤] .

وهذا الحديث قد نص الأئمة على أنه موضوع[٥] ، كما حققه البزار والعلامة ابن القيم وأبو محمد بن حزم .

قال البزار بعد كلام سبق : والنبي ﷺ لا يبيح الاختلاف بعده بين أصحابه .

إذا تقرر هذا فإن اختلاف الأمة ليس برحمة ، وليس هذا مما يحبه الله ورسوله قال تعالى : ﴿يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ﴾ [آل عِمرَان: الآية ١٠٦] قال ابن عباس :

---

(١) الدرر السنية (٩/٤).
(٢) مصنف عبد الرزاق (٣٥٦/١) ، الأحكام للآمدى (٩/٤) ، والمستصفى للغزالى (٢٩٧/١) .
(٣) هو عمر بن عبدالعزيز - رحمه الله - (الإبانة الكبرى لابن بطة ٢٢١/٢ برقم ٧١٠).
(٤) ذكره ابن عبد البر في التمهيد (٢٦٣/٤) ، وانظر الإحكام لابن حزم (٦١/٥) .
(٥) انظر : (سلسلة الأحاديث الضعيفة والموضوعة) (رقم ٥٨ و٥٩ و٦١).

تبيض وجوه أهل السنة والائتلاف، وتسود وجوه أهل البدع والاختلاف[١]، وقد ثبت عن الصحابة ومن بعدهم من الأئمة من الإنكار في مسائل الخلاف والتعزير على ذلك ما يعز حصره، كما أنكروا على من منع من التمتع بالعمرة، وعلى من أتم في السفر، وعلى من أباح وطء المرتدة بملك اليمين، وعلى من حرق الغالية، وقد قال ابن عباس رضي الله عنه: يوشك أن تنزل عليكم حجارة من السماء؛ أقول: قال رسول الله ﷺ. وتقولون قال أبو بكر وعمر»[٢]. مع أن القائلين بهذه الأقوال هم أفضل الأمة وخيرها، ولا يدانيهم من بعدهم في علم ولا غيره، فلو كان الخلاف رحمة لم ينكر الصحابة بعضهم على بعض في مسائل الخلاف لأنهم أجل علمًا وأرفع قدرًا من أن ينكروا مسألة والخلاف فيها رحمة - على زعم هذا القائل-

واستدل صاحب المقالة لصحة معنى حديث «اختلاف أمتي رحمة» بأن العلماء ما زالوا يختلفون في المسائل الفرعية، وأن الأئمة الأربعة خالف بعضهم بعضًا، كما في توريث المطلقة ثلاثًا إذا كان الطلاق في مرض الموت، وذكر في مقالته مسائل مما حصل الخلاف فيها بين الصحابة.

وهذا الاستدلال وقع من صاحب المقالة في غير محله؛ لأن الاستدلال بمسائل الخلاف التي وقعت بين الصحابة فمن بعدهم لا يستدل بها إلا على من نفى وقوع الخلاف بين الصحابة فمن بعدهم في شيء من مسائل العلم، فحينئذ يحسن الاستدلال بإيراد مسائل الخلاف التي وقعت بينهم، ويكون الاستدلال بذلك والجواب به على محل النزاع مطابقًا، على ألا يعتقد أن هذا الاختلاف الذي وقع بينهم أحب إلى الله ورسوله من الاتفاق، وعلى ألا يعتقد أن هذا

(١) تفسير القرطبي (٤/ ١٦٧).
(٢) المحلى لابن حزم (١١/ ٣٥٥).

الاختلاف رحمة .

وإنما يقال : إذا كان هذا الاختلاف وقع في مسألة اجتهادية ليس فيها نص من كتاب ولا سنة ولا إجماع ، فإن كلا المجتهدين مغفور لهما ، فالمصيب منهما له أجران ، والمخطئ له أجر واحد ، ولا يقال مع ذلك : إن خلافهما رحمة . فتفطن يا من نور الله بصيرته لذلك ، وأنه لا يلزم من حصول الأجر للمجتهدين في مسائل الخلاف التي وقعت بينهم أن يسمى اختلافهم رحمة ، لما قدمنا من الآيات القرآنية والأحاديث النبوية .

وقد استدل بهذا الحديث الذي لا أصل له بعض المعاندين لهذه الدعوة الإسلامية التي جددها شيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب رحمه الله . فقد قال عثمان بن منصور النجدي بعد كلام له سبق على هذه المسألة : وما ذكرنا هو الذي أوجب قول العلماء : لا إنكار في مسائل الاختلاف . فبهذا صح أن اختلاف الصحابة رحمة ، وكذلك الائمة ؛ لأن اختلافهم تابع لاختلاف الصحابة . انتهى كلام ابن منصور .

قال الشيخ الإمام العلامة عبد اللطيف ابن الشيخ الإمام عبد الرحمن بن حسن رحمهم الله على قول ابن منصور هذا[1] : « فهذا الكلام كلام واه ساقط ، هجنته تكفي عن جوابه ، ولا يقوله من شم رائحة العلم ، وعرف شيئًا مما هنالك ، فأما زعمه أن العلماء قالوا : لا إنكار في مسائل الاختلاف . فالحكاية غير صحيحة والمعنى فاسد .

ومع عدم الصحة فالمعروف من بعضهم قول : لا إنكار في مسائل الاجتهاد . ولم يقل : مسائل الاختلاف . فالنقل غير صحيح ، وفي عبارته أنه أضاف القول بذلك إلى العلماء ، وهذا مفرد مضاف ، فيعم جميع العلماء ، والجمهور على

(١) الدرر السنية (٤/٩٩).

إنكار هذا، فكيف ينسب إليهم؟ سبحان الله فما أحسن الحياء!

ثم اعلم أن المحققين منعوا من قول: لا إنكار في مسائل الاجتهاد. وأوردوا عن الصحابة فمن بعدهم من الأئمة وعلماء الأمة من الإنكار ما لا يمكن حصره.

قال شيخ الإسلام أبو العباس رحمه الله(١): قولهم: مسائل الاجتهاد لا إنكار فيها ليس بصحيح، فإن الإنكار إما أن يتوجه إلى القول بالحكم، أو العمل، أما الأول فإذا كان القول يخالف سنة أو إجماعًا قديمًا وجب إنكاره وفاقًا، وإن لم يكن كذلك فإنه منكر، بمعنى ضعفه عند من يقول: المصيب واحد. وهم عامة السلف والفقهاء. وأما العمل إذا كان على خلاف سنة أو إجماع، وجب الإنكار أيضًا بحسب درجات الإنكار، وكما ينقض حكم الحاكم إذا خالف كتابًا أو سنة أو إجماعًا، وأما إذا لم يكن في المسألة سنة ولا إجماع، وللاجتهاد فيها مساغ فلا ينكر على من عمل بها مجتهدًا أو مقلدًا. انتهى.

وقول ابن منصور: فبهذا صح أن اختلاف الصحابة رحمة، وكذا الأمة... إلى آخره. فالمقدمة باطلة، والتأصيل فاسد، والتفريع عليه أبطل وأفسد....

إلى أن قال الشيخ عبد اللطيف: وقوله وكذا الأئمة اختلافهم رحمة. يدخل فيه كل خلاف في الأصول والفروع، حتى من أفتى بجهل وقال على الله ما لا يعلم، كل هذا رحمة لرأي هذا المفتي وقد قال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَٱلْإِثْمَ وَٱلْبَغْىَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَأَن تُشْرِكُوا۟ بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا وَأَن تَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف: الآية ٣٣] فجعل القول عليه تعالى بغير علم في الدرجة العليا، كما في الآية الانتقال من الأدنى إلى الأعلى، فهو أكبر من الشرك. وهذا يقول: وكذا اختلاف الأمة رحمة» انتهى كلام الشيخ عبد اللطيف رحمه الله تعالى.

---

(١) الفتاوى الكبرى (٦/ ٩٢).

ويقال لمن قال: اختلاف الأمة رحمة كيف يكون رحمة، وقد حذر الله منه ورسوله، وعامة الشقاق بين الأمة إنما بدأ من الاختلاف.

قال ابن القيم[١] بعد كلام سبق: الوجه الثاني أن الاختلاف سببه اشتباه الحق وخفاؤه، وهذا لعدم العلم الذي يميز بين الحق والباطل. الثالث: أن الله سبحانه ذم الاختلاف في كتابه ونهى عن التفرق والتنازع فقال: ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ أَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا۟ فِيهِ﴾ [الشورى: الآية ١٣].

وقال: ﴿وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ تَفَرَّقُوا۟ وَٱخْتَلَفُوا۟ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ﴾ [آل عمران: الآية ١٠٥].

وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ فَرَّقُوا۟ دِينَهُمْ وَكَانُوا۟ شِيَعًا لَّسْتَ مِنْهُمْ فِى شَىْءٍ﴾ [الأنعام: الآية ١٥٩].

وقال تعالى: ﴿وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَا تَنَٰزَعُوا۟ فَتَفْشَلُوا۟ وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ﴾ [الأنفال: الآية ٤٦].

وقال تعالى: ﴿فَتَقَطَّعُوٓا۟ أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ زُبُرًا ۖ كُلُّ حِزْبٍۭ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ﴾ [المؤمنون: الآية ٥٣]. والزبر: الكتب. أي كل فرقة صنفوا كتبًا أخذوا بها وعملوا بها ودعوا إليها دون كتب الآخرين كما هو الواقع سواء.

وقال: ﴿يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ﴾ [آل عمران: الآية ١٠٦].

قال ابن عباس: تبيض وجوه أهل السنة والائتلاف، وتسود وجوه أهل الفرقة والاختلاف[٢].

وقال النبي ﷺ: «لا تختلفوا فتختلف قلوبكم»[٣]. وقال: «اقرءوا القرآن

---

(١) «إعلام الموقعين» (١/ ٢٥٨).

(٢) تفسير القرطبي (٤/١٦٧).

(٣) أبو داود (٦٦٤)، وابن ماجه (٩٧٦) من حديث أبي مسعود الأنصاري رضي الله عنه.

ما ائتلفت عليه قلوبكم فاذا اختلفتم فقوموا »[(١)]

وكان التنازع والاختلاف أشد شيء على رسول ﷺ، وكان إذا رأى من الصحابة اختلافًا يسيرًا في فهم النصوص يظهر في وجهه حتى كأنما فقئ فيه حب الرمان. ويقول: بهذا أمرتم؟[(٢)]

ولم يكن أحد بعده ﷺ أشد عليه الاختلاف من عمر رضي اللّه عنه، وأما الصديق فصان اللّه خلافته عن الاختلاف المستقر في حكم واحد من أحكام الدين، وأما خلافة عمر فتنازع الصحابة تنازعًا يسيرًا في قليل من المسائل جدًّا، وأقر بعضهم بعضًا على اجتهاده من غير ذم ولا طعن، فلما كانت خلافة عثمان اختلفوا في مسائل يسيرة صحب الاختلاف فيها بعض الكلام واللوم كما لام علي عثمان في أمر المتعة وغيرها، ولامه عمار بن ياسر وعائشة في بعض مسائل قسمة الأموال والولايات، فلما أفضت الخلافة إلى علي كرم اللّه وجهه صار الاختلاف بالسيف.

والمقصود أن لا خلاف مناف لما بعث اللّه به رسوله، قال عمر رضي اللّه عنه[(٣)]: لا تختلفوا فإنكم إن اختلفتم كان من بعدكم أشد اختلافًا. ولما سمع أبي بن كعب وابن مسعود يختلفان في صلاة الرجل في الثوب الواحد أو الثوبين صعد المنبر وقال: رجلان من أصحاب النبي ﷺ اختلفا! فمن أي فتياكم يصدر المسلمون؟! لا أسمع اثنين اختلفا بعد مقامي هذا إلا صنعت وصنعت. وقال علي كرم اللّه وجهه في خلافته لقضاته: اقضوا كما كنتم تقضون فإني أكره

---

(١) البخاري (٥٠٦٠)، ومسلم (٢٦٦٧) من حديث جندب رضي اللّه عنه.

(٢) أحمد (٦٨٢٨)، وابن ماجه (٩٠)، وقال الألباني :حسن صحيح. « المشكاة » (٩٨، ٩٩، ٢٣٧)، الظلال (٤٠٦)، « التعليق الرغيب » (١/٨١ - ٨٢).

(٣) مصنف ابن أبي شيبة (١٩).

الخلاف وأرجو أن أموت كما مات أصحابي[١].

وقد أخبر النبي ﷺ أن هلاك الأمم من قبلنا إنما كان باختلافهم على أنبيائهم[٢]. وقال أبو الدرداء وأنس وواثلة بن الأسقع رضي اللّه عنهم: خرج علينا رسول اللّه ﷺ ونحن نتنازع في شيء من الدين فغضب غضبًا شديدًا لم يغضب مثله. قال: ثم انتهرنا قال: يا أمة محمد لا تهيجوا على أنفسكم وهج النار. ثم قال: بهذا أمرتم. أو - ليس عن هذا نهيتم - إنما هلك من كان قبلكم بهذا[٣]. انتهى كلام ابن القيم رحمه اللّه تعالى.

وأما قول صاحب المقالة: إن معنى حديث: «اختلاف أمتي رحمة»: صحيح. فليس الأمر كذلك، بل معناه فاسد؛ لأن القول بصحة معناه يستلزم الترغيب في الاختلاف والتفرق وعدم الاتفاق حتى تحصل الرحمة لكل مخالف، وهذا مضاد لقوله تعالى: ﴿وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ * إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ﴾ [هود: الآية ١١٨، و١١٩] فجعل سبحانه الرحمة في الطرف الآخر وهو المتفق لا المختلف، وهذا بعكس ما فهمه صاحب المقالة، ونسأل اللّه أن يهدينا جميعًا لما فيه صلاح ديننا ودنيانا، وأن يتولى إعانتنا وأن يسلك بنا صراطه المستقيم صراط الذين أنعم اللّه عليهم من النبيين والصديقيين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقًا. آمين.

❁❁❁

---

(١) البخاري (٣٧٠٧).

(٢) أحمد (١٠١٤٤) وصححه الألباني. انظر حديث رقم: (٣٤٣٠) في «صحيح الجامع».

(٣) «المعجم الكبير» للطبراني (٧٦٦٠)، «الإبانة الكبرى» لابن بطة (٥٣٠).

فتوى

حول غسل الرجل لزوجته المتوفاة[(١)]

بناء على طلب مدير ورئيس تحرير «البلاد السعودية» الإجابة على استفتاء أحد القراء للجريدة عما إذا كان يجوز للرجل أن يقوم بغسل زوجته المتوفاة وبالعكس، نظرًا لما هو معتاد لدى العامة أن الرجل إذا توفيت زوجته التي هي في عصمته يمنع من الدخول عليها حين غسلها أو حين تكفينها، وكذلك تمنع المرأة من الدخول على زوجها حين الاحتضار أو الغسل أو التكفين؛ بدعوى أنه بحصول الوفاة حرم كل واحد منهما على الآخر، فنقول وبالله التوفيق:

* **الجواب:**

يجوز شرعًا أن تغسل المرأة زوجها إذا مات؛ لقول عائشة رضي الله عنها: «لو استقبلت من أمري ما استدبرت، ما غسل رسول الله ﷺ إلا نساؤه»[(٢)].

وقد أوصى أبو بكر الصديق أن تغسله امرأته أسماء[(٣)]، وروى مالك في «الموطأ»[(٤)] أنها غسلته. وغسل أبا موسى رضي الله عنه امرأته[(٥)]، وأوصى جابر بن زيد أن تغسله امرأته[(٦)]. وقد حكى ابن المنذر[(٧)] الإجماع على جواز ذلك.

كما يجوز أيضًا أن يغسل الرجل زوجته إذا ماتت؛ لقول عائشة رضي الله

---

(١) صحيفة البلاد السعودية ،العدد (١٢٦٧) الخميس ١ ربيع الأول ١٣٧٢ هـ.

(٢) أبو داود (٣١٤١)، وابن ماجه (٣/ ١١) وحسنه الألباني في الإرواء (٧٠٢).

(٣) مصنف ابن أبي شيبة (١٣٦/٣) ،السنن الكبرى للبيهقي (٣٩٧/٣).

(٤) الموطأ (١/ ٢٢٣).

(٥) مصنف ابن أبي شيبة (١٣٧/٣)،.

(٦) ينظر الاستذكار (٣/ ١١)، وسنن البيهقي (٣/ ٣٩٧).

(٧) الإجماع (ص ٤٢).

عنها أن النبي ﷺ قال لها: «لو مت قبلي لغسلتك وكفنتك»[(١)]. وجاء أن فاطمة رضي الله عنها أوصت أن يغسلها زوجها علي رضي الله عنه[(٢)]

والقول بجواز ذلك هو مذهب مالك والشافعي وأحمد رحمهم الله[(٣)].

ودخول المرأة على زوجها حين الاحتضار لا محذور فيه شرعًا، فقد قالت عائشة رضي الله عنها: «مات رسول الله ﷺ بين حاقنتي وذاقنتي»[(٤)].

فعلم مما تقدم أن هذه العادة الجارية التي ذكرها المستفتي مخالفة لسنة رسول الله ﷺ وسنة خلفائه الراشدين وما كان عليه السلف الصالح رضوان الله عليهم. والله يهدينا جميعًا إلى سواء السبيل.

●●●

---

(١) أحمد (٢٤٧٢٠)، وابن ماجه (١٤٥٤)، وصححه الألباني في الإرواء (٧٠٠).
(٢) أخرجه الدارقطني (٢/٧٩)، والبيهقي (٣/٣٩٦).
(٣) انظر الشرح الكبير (٦/٤٣) ت / د. التركي.
(٤) أخرجه البخاري (٤٤٣٨، ٤٤٤٦).

إلى محرري الجرائد [١]

الحمد للَّه وحده، والصلاة والسلام على من لا نبي بعده محمد وآله وصحبه. **وبعد**:

فإن جريدة المدينة كانت نشرت في العدد (٢٥٧) مقالًا معنونًا (رجل مات) ذكرت فيه ما نصه:

(انتقل إلى الرفيق الأعلى العلامة الشيخ علي مالكي) وحيث إن ذلك مخالف للعقيدة السلفية؛ وهي أنه لا يشهد لمعين من أهل القبلة بجنة أو نار، إلا من شهد له رسول اللَّه ﷺ، فقد كتبنا لإدارة الجريدة المذكورة بنشر تصحيح لذلك، ونبهناها على الخطأ المذكور، ونشرت التصحيح في عددها الصادر بعدد (٢٥٩) في ١٨ / ١٠/ ١٣٦٧

ولما كان بعض المحررين في الجرائد يغلطون في هذه المسألة، فيذكرون عن المتوفى أنه مرحوم، أو يذكرون أنه منتقل إلى الجنة، أو إلى الرفيق الأعلى، أو ما شابه ذلك، والحال أن مثل هذه العبارات لا تطلق؛ لأنها تدل على الشهادة بأنه من أهل الجنة. وعقيدة السلف أنه لا يشهد لمعين من أهل القبلة بجنة ولا نار إلا من شهد له الرسول ﷺ، ولكن نرجو للمحسن، ونخاف على المسيء؛ فلذلك أحببنا التنبيه إلى ما ذكر، وإلى أن الموافق للشرع في مثل ذلك أن يدعو الإنسان للميت بقوله: (رحمه الله) أو (غفر اللَّه له) أو (تجاوز اللَّه عن سيئاته) أو (نسأل اللَّه تعالى أن يسكنه الجنة) وما شابه ذلك مما هو دعاء للميت. وخوفًا من الوقوع في المحذور جرى نشر هذا. واللَّه ولي التوفيق.

❁ ❁ ❁

(١) صحيفة أم القرى العدد ١٢٢٥ في ٢٩ شوال ١٣٦٧ هـ.

خسوف القمر وكسوف الشمس[١]

س : قارئ يسأل عن كسوف القمر هل هو من غضب الله أو من إشارة الساعة ؟

ج : الخسوف والكسوف لهما أوقات مقدرة كما لطلوع الهلال وقت مقدر ، وذلك من آيات الله تعالى ، كما قال سبحانه : ﴿هو الذي خلق الليل والنهار والشمس والقمر كل في فلك يسبحون﴾ .

وقال تعالى : ﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلشَّمْسَ ضِيَآءً وَٱلْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُۥ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا۟ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ ۚ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ ذَٰلِكَ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ۚ﴾ [يُونس: الآية ٥] .

وقال تعالى : ﴿ٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ﴾ [الرَّحمٰن: الآية ٥] .

وقال تعالى : ﴿فَالِقُ ٱلْإِصْبَاحِ وَجَعَلَ ٱلَّيْلَ سَكَنًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ حُسْبَانًا ۚ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ﴾ [الأنعَام: الآية ٩٦] .

وقد أجرى الله تعالى العادة أن الشمس لا تكسف إلا وقت الاستسرار ، وأن القمر لا يخسف إلا وقت الإبدار ، ووقت إبداره هي الليالي البيض التي يستحب صيام أيامها ؛ ليلة الثالث عشر ، والرابع عشر ، والخامس عشر ، فالقمر لا يخسف إلا في هذه الليالي ، والشمس لا تكسف إلا وقت استسرار القمر ، والشمس والقمر ليال معتادة من عرفها عرف الكسوف والخسوف ، وإنما يعرف ذلك من يعرف حساب جريانه وليس خبر الحاسب بذلك من باب علم الغيب .

واستفاض عن النبي ﷺ أنه صلى بالمسلمين صلاة الكسوف يوم مات ابنه إبراهيم ، وكان بعض الناس ظن أن كسوفها كان لأن إبراهيم مات ، فخطبهم النبي ﷺ : « إن الشمس والقمر آيتان من آيات الله لا يخسفان لموت أحد ولا

---

(١) صحيفة « البلاد السعودية » . العدد (٩٢٤) في ١٨/٩/١٣٦٩هـ.

لحياته ، فإذا رأيتموهما فافزعوا إلى الصلاة »[١] .

وفي رواية في الصحيح[٢] : « ولكنهما آيتان من آيات اللّه يخوف بهما عباده » .

وهذا بيان منه ﷺ أنهما سبب لنزول عذاب بالناس ؛ فإن اللّه إنما يخوف عباده بما يخافونه إذا عصوه وعصوا رسله ، وإنما يخاف الناس مما يضرهم ، فلولا إمكان حصول الضرر بالناس عند الخسوف ما كان ذلك تخويفًا ، قال تعالى : ﴿وَءَاتَيْنَا ثَمُودَ ٱلنَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُوا۟ بِهَا ۚ وَمَا نُرْسِلُ بِٱلْـَٔايَٰتِ إِلَّا تَخْوِيفًا﴾ [الإسراء: الآية ٥٩] وأمر النبي ﷺ بما يزيل الخوف ؛ أمر بالصلاة ، والدعاء ، والاستغفار ، والصدقة ، والعتق ، حتى يكشف ما بالناس . انتهى ملخصًا من كلام شيخ الإسلام ابن تيمية[٣] رحمه اللّه تعالى .

وقال شمس الدين ابن القيم[٤] رحمه اللّه تعالى : « وسبب كسوف الشمس توسط القمر بين جرم الشمس وبين أبصارنا ، فإن القمر عند أهل الهيئة جسم كثيف مظلم ، وفلكه دون فلك الشمس فإذا كان على مسامتة[٥] إحدى نقطتي الرأس أو الذنب ، أو قريبًا منهما حالة الاجتماع من تحت الشمس ، حال بيننا وبين نور الشمس كسحابة تمر تحتها إلى أن يتجاوزها من الجانب الآخر ، فإن لم يكن للقمر عرض ستر عنا نور الشمس ، وإن كان له عرض فبقدر ما يوجبه عرضه .

وأما سبب خسوف القمر ؛ فهو توسط الأرض بينه وبين الشمس ، حتى يصير

(١) البخاري (١٠٤٧) ، ومسلم (٩٠١) من حديث عائشة رضي اللّه عنها .
(٢) البخاري (١٠٤٨) من حديث أبي بكرة رضي اللّه عنه .
(٣) مجموع الفتاوى ٣٥/ ١٦٨.
(٤) مفتاح دار السعادة ٣/ ٢١٩.
(٥) في الأصل « إذا كان على مساحة » والمثبت من « مفتاح دار السعادة ».

القمر ممنوعًا من اكتساب النور من الشمس ويبقى ظلام ظل الأرض في ممرِّه ، لأن القمر لا ضوء له أبدًا ، وأنه يكتسب الضوء من الشمس .

وأطول ما يمتد زمان الخسوف القمرى أربع ساعات ، وأما زمان الكسوف الشمسي فلا يزيد على ساعتين .

وبدء الخسوف في القمر يكون من طرفه الشرقي إذ هو الذاهب إلى الاستقبال نحو المشرق ، والدخول في الظل بحركته ، ثم ينحرف قليلًا قليلًا إلى الشمال أو الجنوب في بدء انجلائه أيضًا من طرفه الشرقي . وأما في الشمس فبدء الكسوف من طرفها الغربي ، إذ الكاسف لها يأتي إليها من ناحية الغرب ، وكذلك الانجلاء أيضًا من الطرف الغربي لكن بانحراف منه إلى الشمال أو الجنوب .

وإنما ذكرنا هذا -ولم يكن من غرضنا- لأن كثيرًا من هؤلاء الأحكاميين يموهون على الجهال بأمر الكسوف ويوهِّمونهم أن قضاياهم وأحكامهم النجومية من[1] السعد والنحس والظفر والغلبة وغيرها من العلوم المحرمة هي من جنس الحكم بالكسوف ، فيصدق لذلك الأغمار والرعاع ، ولا يعلمون أن الكسوف يعلم بحساب سير النيرين في منازلهما ، وذلك أمر قد أجرى الله العادة المُطَّرِدة به كما أجراها في الإبدار والسرار[2] .

وأما أن الكسوف يقتضي من التأثيرات في الخير والشر والسعد والنحس والإماتة والإحياء وكذا وكذا -كما يحكم به المنجمون- فقول على الله بما لا يعلمون . نعم لا ننكر أن الله سبحانه يحدث عند الكسوفين من أقضيته وأقداره[3] ما يكون بلاء لقوم ومصيبة لهم ، ويجعل الكسوف سببًا لذلك ، ولهذا أمر

---

(١) في الأصل « بين ».

(٢) في الأصل « الإنذار والاستسرار » والمثبت من « مفتاح دار السعادة ».

(٣) في الأصل « وإنذاره » والمثبت من « مفتاح دار السعادة ».

النبي ﷺ عند الكسوف بالفزع إلى ذكر اللّٰه والصلاة والعتاقة والصدقة والصيام، لأن هذه الأشياء تدفع موجب الكسوف الذي جعله اللّٰه سببًا لما جعله، فلولا انعقاد سبب التخويف لما أمر بدفع موجبه بهذه العبادات.

وللّٰه تعالى في أيام دهره أوقات يحدث فيها ما يشاء من البلاء والنعماء، ويقضي من الأسباب بما يدفع موجب تلك الأسباب لمن قام به أو يقللّه، فمن فزع إلى تلك الأسباب أو بعضها اندفع عنه الشر الذي جعل اللّٰه الكسوف سببًا له أو بعضه.

ولما كسفت الشمس على عهد النبي ﷺ قام فزعًا مسرعًا يجر رداءه، ونادى فى الناس: الصلاة جامعة. وخطبهم خطبة بليغة، وأخبر أنه لم ير كيومه ذلك في الخير والشر، وأمرهم عند حصول مثل تلك الحالة بالعتاقة والصدقة والصلاة والتوبة، فصلوات اللّٰه وسلامه على أعلم الخلق باللّٰه وبأمره وشأنه وتعريفه أمور مخلوقاته وتدبيره، وأنصحهم للأمة، ومن دعاهم إلى ما فيه سعادتهم في معاشهم ومعادهم، ونهاهم عما فيه هلاكهم في معاشهم ومعادهم.

إذا تقرر هذا فإنه لا يلزم من معرفة الرجل هيئة الأفلاك والطب والهندسة والحساب أن يكون عالمًا باللّٰه وأسمائه وصفاته، وما ينبغي له وما يستحيل عليه.

وبعض من ينتصر إلى الشرع يرى مقابلة هؤلاء برد كل ما قالوه من حق وباطل، ويظن أن من ضرورة تصديق الرسل ورد ما علمه هؤلاء بالعقل الضروري؛ كمكابرته إياهم في كون الأفلاك كروية الشكل، والأرض كذلك، وأن نور القمر مستفاد من نور الشمس، وأن الكسوف القمري عبارة عن انمحاء ضوء القمر بتوسط الأرض بينه وبين الشمس من حيث إنه يقتبس نوره منها، والأرض كرة والسماء محيطة بها من الجوانب، فإذا وقع القمر في ظل الأرض انقطع عنه نور الشمس -كما قدمناه- وكقولهم: إن الكسوف الشمسي معناه

وقوع جرم القمر بين الناظر[١] وبين الشمس عند اجتماعهما في العقدتين[٢] على دقيقة واحدة، وكقولهم بتأثير الأسباب المحسوسة في مسبباتها وإثبات القوى والطبائع والأفعال مما تقوم عليه الأدلة العقلية والبراهين اليقينية، فيخوض هذا معهم في إبطاله، فيغريهم ذلك بكفرهم وإلحادهم، والوصية لأصحابهم بالتمسك بما هم عليه، فإذا قال لهم: هذا الذي تذكرونه على خلاف الشرع، والمصير إليه كفر وتكذيب للرسل. لم يستريبوا في ذلك، ولم يلحقهم فيه شك، ولكنهم يستريبون الشرع، وتنقص مرتبة الرسل من قلوبهم.

وضرر الدين وما جاءت به الرسل بهؤلاء من أعظم الضرر، وهو كضرره بهؤلاء الملاحدة، فهما ضرران على الدين؛ ضرر من يطعن فيه، وضرر من ينصره بغير طريقه، وقد قيل: إن العدو العاقل أقل ضررًا من الصديق الجاهل، فإن الصديق الجاهل يضرك من حيث يظن أنه ينفعك. انتهى ملخصًا، وفيما ذكرناه كفاية والله أعلم.

❁❁❁

---

(١) في الأصل «الأرض» والمثبت من «مفتاح دار السعادة».

(٢) في الأصل «المقدمتين» والمثبت من «مفتاح دار السعادة».

فتوى

بوجوب الجهاد على جميع المسلمين ضد اليهود المعتدين على فلسطين(١)

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

الحمد للَّه نحمده ونستعينه ونستغفره ونتوب إليه ، ونستنصره ونتوكل عليه ، ونصلي على نبينا محمد الذي أظهر اللَّه دينه على يديه ، وعلى أصحابه ومن يواليه .

أما بعد :

فإن اللَّه تبارك وتعالى جعل الجهاد في سبيله سببًا لنصرة دينه ، وإقامة شرعه وتمكينه ، وقد تظاهرت نصوص الكتاب والسنة في فضله والحث عليه والترغيب فيه ، قال اللَّه جل ذكره : ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ ۚ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ﴾ [التوبة: الآية ١١١] إلى قوله : ﴿وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾ [التوبة: الآية ١١١] .

وقال عز وجل : ﴿أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ ٱلْحَآجِّ وَعِمَارَةَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ كَمَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَجَٰهَدَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ﴾ [التوبة: الآية ١٩] إلى قوله : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥٓ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴾ .

وقال تعالى : ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَٰرَةٍ تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿١٠﴾ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١١﴾ يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةً فِى جَنَّٰتِ

(١) صحيفة أم القرى العدد ١١٨٨في ١/٢٩/ ١٣٦٧ هـ.

عَدۡنٖۚ ذَٰلِكَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ ﴿١٢﴾ وَأُخۡرَىٰ تُحِبُّونَهَاۖ نَصۡرٞ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَتۡحٞ قَرِيبٞۗ وَبَشِّرِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ [الصف : ١٠- ١٢] .

وقال تعالى : ﴿أَمۡ حَسِبۡتُمۡ أَن تَدۡخُلُواْ ٱلۡجَنَّةَ وَلَمَّا يَعۡلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ مِنكُمۡ وَيَعۡلَمَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ [آل عِمرَان: الآية ١٤٢] . والآيات في هذا المعنى كثيرة .

وأما الأحاديث فمنها ما في الصحيحين[(١)] عن أبي ذر رضي اللَّه عنه قال : قلت : يا رسول اللَّه أي الأعمال أفضل ؟ قال : « الإيمان باللَّه ورسوله » . قلت : ثم ماذا ؟ قال : « الجهاد في سبيله » . ولهما[(٢)] عن أبي هريرة رضي اللَّه عنه قال : سئل رسول اللَّه ﷺ أي الأعمال أفضل ؟ قال : « الإيمان باللَّه ورسوله » . قيل : ثم ماذا ؟ قال : « الجهاد في سبيل اللَّه » . الحديث . وعن أنس رضي اللَّه عنه أن رسول اللَّه ﷺ قال : « لغدوة في سبيل اللَّه أو روحة خير من الدنيا وما فيها » أخرجاه في الصحيحين[(٣)] ، ولهما[(٤)] أيضًا عن أبي سعيد الخدري رضي اللَّه تعالى عنه قال أتى رجل رسول اللَّه ﷺ فقال : يا رسول اللَّه أي الناس أفضل ؟ قال : « مؤمن يجاهد بنفسه وماله في سبيل اللَّه عز وجل » . وعن أبي هريرة رضي اللَّه عنه قال : قال رسول اللَّه ﷺ : « تضمن اللَّه لمن خرج في سبيله لا يخرجه إلا إيمان بي وجهاد في سبيلي وتصديق برسلي فهو علي ضامن أن أدخله الجنة أو أرجعه إلى مسكنه الذي خرج منه نائلًا ما نال من أجر أو غنيمة ، والذي نفس محمد بيده ما من مكلوم يكلم في سبيل اللَّه إلا جاء يوم القيامة كهيئة يوم كلم ، لونه لون الدم وريحه ريح المسك ، والذي نفس محمد بيده ، لولا أن أشق على المسلمين ما قعدت خلف سرية تغزو في سبيل اللَّه أبدًا ، والذي نفس محمد

---

(١) البخاري (٧١١٥) ، ومسلم (٨٤) .
(٢) البخاري (١٤٤٧) ، ومسلم (٨٣) .
(٣) البخاري (٢٦٣٩) ، ومسلم (١٨٨٠) .
(٤) البخاري (٢٦٣٤) ، ومسلم (١٨٨٨) .

بيده ، لوددت أن أغزو في سبيل الله فأقتل ثم أغزو فأقتل ثم أغزو فأقتل » رواه مسلم[١] .

وعن معاذ بن جبل رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال : « من قاتل في سبيل الله فواق ناقة وجبت له الجنة ، ومن جرح جرحًا في سبيل الله أو نكب نكبة فإنها تجيء يوم القيامة أغزر ما كانت ، لونها لون الزعفران وريحها ريح المسك » . رواه أبو داود والترمذي[٢] . « والفواق : ما بين الحلبتين »[٣] .

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال : مر رجل من أصحاب النبي ﷺ بشعب فيه عيينة من ماء عذبة فأعجبته ، فقال : لو اعتزلت الناس وأقمت في هذا الشعب ، ولن أفعل حتى أستأذن رسول الله ﷺ فقال : « لا تفعل فإن مقام أحدكم في سبيل الله أفضل من مقامه في بيته سبعين عامًا ، ألا تحبون أن يغفر الله لكم ويدخلكم الجنة ؟ اغزوا في سبيل الله ، من قاتل في سبيل الله فواق ناقة وجبت له الجنة » . رواه الترمذي[٤] .

وعن عبد الرحمن بن جبر رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « ما اغبرت قدما عبد في سبيل الله عز وجل فتمسه النار أبدًا »[٥] . وقال ﷺ : « من لم يغز ولم يحدث نفسه بالغزو مات على شعبة من النفاق »[٦] .

وعن سهل بن سعد رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : « رباط يوم في

(١) مسلم (١٨٧٦) .
(٢) أبو داود (٢٥٤١) ، والترمذي (١٦٥٧) .
(٣) فواق ناقة ، وفيقة ناقة : أي قليلًا ، وذلك أن الناقة تحلب في اليوم خمس مرات أو ست مرات فما اجتمع بين الحلبتين فهو فيقة . « أساس البلاغة » - (ف و ق).
(٤) الترمذي (١٦٥٠) .
(٥) البخاري (٢٦٥٦) .
(٦) مسلم (١٩١٠) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه .

سبيل الله خير من الدنيا وما عليها ، وموضع سوط أحدكم من الجنة خير من الدنيا وما عليها ، والروحة يروحها العبد في سبيل الله أو الغدوة خير من الدنيا وما عليها »(١) . وفي الحديث الذي رواه مسلم(٢) : « إن المرابط في سبيل الله إذا مات في الجهاد أجري عليه عمله الذي كان يعمل ، وأجري عليه رزقه وأمن الفتانين » . وعن فضالة بن عبيد رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال : « كل ميت يختم على عمله إلا المرابط في سبيل الله ، فإنه ينسأ له عمله إلى يوم القيامة ، ويأمن فتنة القبر »(٣) .

والأحاديث في فضل الجهاد والترغيب فيه أكثر من أن تحصر وأشهر من أن تذكر . و« الجنة تحت ظلال السيوف »(٤) .

إذا تقرر هذا فاعلموا -معاشر المسلمين- أن جميع الشعوب العربية والأمم الإسلامية قد بذلوا نفوسهم وأموالهم في المدافعة عن الأرض المقدسة ، واستنقاذ مسجده الشريف المقدس -الذي هو ثالث المساجد التي فضلها النبي ﷺ ، وأمر بزيارتها وشد الرحال إليها والصلاة فيها- من أيدي تلك الأمة الغضبية اليهودية الملعونة التي نزلت بأرضه المقدسة ، والتي لا تريد إلا محو الإسلام والمسلمين

فهذه الأمة المغضوب عليها من قديم الزمان وحديثه هي التي نصبت العداوة والبغضاء للأمم الإسلامية ، وليس للمسلمين عذر في التخلف عن الدفاع عن دينهم وأوطانهم بأموالهم وأنفسهم ؛ لأن ذلك واجب ومتعين على كل مسلم ، فاغتنموا معاشر المسلمين هذه الفرصة الثمينة ، وجاهدوا بأموالكم وأنفسكم في

---

(١) البخاري (٢٧٣٥) .

(٢) مسلم (١٩١٣) من حدث سلمان رضي الله عنه .

(٣) أحمد (٦/٢٠) ، وأبو داود (٢٥٠٠) .

(٤) البخاري (٢٦٦٣) ومسلم (١٧٤٢) من حديث ابن أبي أوفى رضي الله عنه .

سبيل الله ، واستعينوا بربكم وأخلصوا نياتكم واستنصروه ، فإن الله ناصر من نصره ﴿وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ [الحج: الآية ٤٠] . ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَنصُرُواْ ٱللَّهَ يَنصُرۡكُمۡ وَيُثَبِّتۡ أَقۡدَامَكُمۡ﴾ [محمد: الآية ٧] .

فنسأل الله بأسمائه الحسنى وصفاته العليا أن ينصر دينه ويعلي كلمته ويحفظ إمام المسلمين وولي عهده ويجعلهما هداة مهتدين ، سلمًا لأوليائه وحربًا لأعدائه ، إنه سميع الدعاء قريب مجيب . وصلى الله على أشرف المرسلين وخاتم النبيين نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين .

❁ ❁ ❁

الشيخ

محمد حامد الفقي رحمه الله

مقالات الشيخ محمد حامد الفقي(١)

تفسير القرآن الحكيم(٢)

﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا ﴿٩﴾ وَأَنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾

---

(١) ولد الشيخ محمد حامد الفقي بقرية « نكلا العنب » بمصر في سنة ١٣١٠هـ ونشأ في كنف والدين كريمين. ترعرع وحفظ القرن وسنّه وقتذاك اثني عشر عامًا.
بدأ دراسته بالأزهر في عام ١٣٢٢هـ فتفتح بصره وبصيرته بهدي رسول الله ﷺ وتمسك بسنته لفظًا وروحًا.
ولما أمعن الشيخ في دراسة الحديث على الوجه الصحيح ومطالعة كتب السلف الصحيح والأئمة الكبار أمثال ابن تيمية وابن القيم وابن حجر والإمام أحمد بن حنبل والشاطبي وغيرهم، بدأ دعوته إلى التمسك بسنة الرسول الصحيحة والبعد عن البدع ومحدثات الأمور وأن ما حدث لأمة الإسلام بسبب بعدها عن السنة الصحيحة وانتشار البدع والخرافات والمخالفات.
تخرج من الأزهر عام ١٩١٧ بعد أن نال الشهادة العالمية وهو مستمر في الدعوة وكان عمره عندها ٢٥ سنة.
وظل بعد ذلك يدعو حتى تهيئت الظروف وتم إشهار ثمرة هذا المجهود وهو إنشاء جماعة « أنصار السنة المحمدية » التي هي ثمرة سنوات الدعوة، ثم إنشاء مجلة « الهدي النبوي » التي كان من كتابها: الشيخ أحمد محمد شاكر، والشيخ محب الدين الخطيب، والشيخ محيي الدين عبد الحميد، والشيخ عبد الظاهر أبو السمح، والشيخ خليل هراس.
ولقد كانت جهوده في التأليف والتحقيق والتصحيح معروفة عند الخاص والعام خصوصا كتب الشيخين ابن تيمية وابن القيم والتي منها »اقتضاء الصراط المستقيم« ، « القواعد النورانية » ،« المسائل الماردينية » ، « إغاثة اللفهان » ، « المنار المنيف » « مدارج السالكين ».
توفي رحمه الله سنة ١٣٧٨هـ على إثر عملية جراحية أجراها بمستشفى العجوزة، وبعد أن نجحت العملية أصيب بنزيف حاد وعندما اقترب أجله طلب ماء للوضوء ثم صلى ركعتي الفجر بسورة الرعد كلها، وبعد ذلك طلب من إخوانه أن ينقل إلى دار الجماعة حيث توفى بها رحمه الله. مصدر الترجمة: « موقع جماعة أنصار السنة المحمدية » على الشبكة العنكبوتية.

(٢) مجلة الإصلاح - العدد الأول - ١٣٤٧/٢/١٥هـ.

لقد جاء رسول الله ﷺ والعرب على حالة من اتباع الهوى والافتراق والتنافر والتباغض وسوء الأخلاق، تستدعي الرحمة والإشفاق، فرفع بينهم ﷺ منار القرآن وشرع لهم من عذب موارده وتلا عليهم من محكم آياته، ما رفع عن قلوبهم حجب الجهل وظلمات الهوى، وأحلهم من العلم دار كرامته وهدايته، وطهر أخلاقهم وزكاها حتى أصبحت المثل الأعلى للسجايا الكريمة، والآداب الفاضلة، ورقق من قلوبهم، ما كان كالحجارة أو أشد قسوة، حتى أصبحوا بحمد الله رحماء بينهم تراهم ركعًا سجدًا يبتغون فضلًا من الله ورضوانًا، وسل من قلوبهم سخيمة العداوة، وأطفأ نيران البغضاء، وألف بينهم فأصبحوا بنعمة الله إخوانًا، وكانوا على شفا حفرة من النار فأنقذهم منها.

فبنور ذلك العلم وكرم هذه الأخلاق، ورقة تلك القلوب، وتآلف هذه الأرواح، تبوأت الأمة العربية من العز والسلطان والسعادة مقعدًا لا يناله إلا من جعل القرآن له إمامًا وهاديًا.

القران خير واعظ، وأفضل معلم، تغلغل في نفس العربي الذي لم يكن يعلم من الحياة إلا غنمه يرعاها. والجبال والقفار يرتادها، والحروب الأهلية يوقد نارها، فتكسبه جفاء في طبعه وغلظة في نفسه، وشراسة في أخلاقه، فخرج القرآن من ذلك البدوي جنديًا باسلًا وقائدًا محنكًا، وسياسيًا مجربًا، ومهندسًا دقيقًا، وحاكمًا رفيقًا، وعالمًا ضليعًا، ومؤمنًا قوّامًا بالليل صوامًا بالنهار، وواعظًا محركًا للقلوب، وأخيرًا خرجت جامعة الإسلام من تلك الأمة العربية البدوية سعاة إلى الحياة على جواد طرقها، وبناة لصروح المدنية والحضارة النافعة على أمتن وأنفع أسسها، وأساتذة للأمم في كل فن من فنون الحياة الطيبة.

ولم لا تخرج جامعة القرآن الكريم أولئك الهداة المفلحين وبانيها وواضع نظمها الحكيم العليم اللطيف الخبير، وأستاذها الأعظم والقائم على تنفيذ

أساليبها وتشريع مناهلها هو أشرف الخلق روحًا وأبرهم قلبًا وأزكاهم نفسًا وأرحبهم صدرًا وأهداهم سبيلًا (محمد بن عبد الله) صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم تسليمًا كثيرًا.

مِن ثَمَّ كان أوضح المناهج إلى الإصلاح، وأقرب الطرق إلى الفلاح، وأعذب الموارد لمادة حياة الأرواح، هو ذلك القرآن الكريم والتنزيل الحكيم الذي نزل به الروح الأمين على قلب أشرف الأنبياء وأكرم والمرسلين؛ هدى ورحمة وبشرى للمؤمنين.

فكان حقًّا على كل ساع إلى إرشاد الأمة الإسلامية وإخراجها من ظلمات الجهل، وضلالات العوائد الوثنية والعقائد الشركية، أن يقودها بالقرآن ويسوقها بسنن من تنزل عليه الفرقان من قوله المؤيد، وعمله الموفق الذي حفظه لنا خيار هذه الأمة، وعلماؤها في كتبهم التي بذلوا قيم حياتهم، ونفيس أوقاتهم في تهذيبها وتخليصها من إلحاد الملحدين، وتحريف المبطلين، وغلو الجاهلين، فإذا استطاع الداعي الناصح أن يكون كذلك على بصيرة من أمره، ووفق أن يضع في يد أمته هذا السبب الأقوى فهو الذي تكتب للأمة على يده آية الفلاح وينادي عليها منادي الحق ﴿إِذَا جَآءَ نَصۡرُ ٱللَّهِ وَٱلۡفَتۡحُ﴾ [النصر: الآية ١].

وهذه الصحيفة (صحيفة الإصلاح) لا هم لها إلا نشر شرائع الإسلام وتقريبها لمتناول الناس على أحسن وجه ومن أخصر طريق، وسبيلها في ذلك سبيل أشرف الأئمة وخير المهتدين صلوات الله وسلامه عليه، متأسية في ذلك بسلف هذه الأمة من الصحابة والتابعين والأئمة الراشدين رضوان الله عليهم أجمعين.

فنحن بمشيئة الله تعالى وحسن معونته جاعلون لتفسير القرآن الحكيم من هذه الصحيفة أوسع مجال وأرحب مكان؛ ابتغاء أن ينتشر نوره في قلوب إخواننا ليهتدوا به إلى مثل ما اهتدى به سلفنا الصالح؛ فتنهض الأمة من كبوتها وتقال

العقول من عثرتها ويتهيأ للمسلمين من حياة العز والسعادة ما تفضل اللّٰه به على آبائنا الأولين رحمة اللّٰه عليهم أجمعين .

والتفسير الذي ستقوم الصحيفة بنشره هو فهم القران من حيث هو دين يرشد الناس إلى ما فيه سعادتهم في حياتهم الأولى والآخرة .

وطريقنا إلى ذلك أن نستخلص من كلام سلف الأئمة مثل ابن جرير وابن كثير والبغوي وغيرهم ممن يصل إلى يدنا تفسيرهم خلاصة بعيدة عن الحشو والتكرار والمباحث اللفظية غير المجدية التي كثيرًا ما تصرف القارئ عما في الآية من حكمة وعظة ، وتبعده عما تنزل القرآن له من هداية وتبصرة ، متوخين في ذلك الأسلوب السهل والمنهج المألوف الذي يتيسر به الانتفاع من ذلك التفسير ، مجتهدين قدر طاقتنا في تطبيق مواعظ القرآن وعبره على حوادث زمننا وما عليه الناس اليوم من تقدم وتأخر وهدى وضلالة ، آخذين من العلوم الكونية الحديثة ما تدعو إليه الحاجة الماسة في إيضاح آيات اللّٰه ، مجانفين من ذلك ما لا يتفق مع نصوص القرآن ولا يكون لنا فيه سلف من خيار علمائنا المهتدين ، ناظرين إلى ما في كثير من التفاسير من قصص وإسرائيليات نظر الاعتدال والإنصاف ، وازنين لها بميزان المحدثين في الجرح والتعديل ، لا بميزان الهوى والرأي . فما صح سنده سقناه ، وما لم يصح سنده نبذناه ، وهذا في الحقيقة لا فائدة فيه ولا حاجة بنا إلى معرفته ، معتمدين على حسن معونة اللّٰه تعالى ، راجين من علمائنا وإخواننا ، بل معاهدين لهم أن يردونا عما نقع فيه من خطأ ، وأن يبينوا لنا وجه الحق والصواب في ذلك ؛ قيامًا منهم بواجب التعاون على البر والتقوى وخروجًا عن إثم السكوت عن باطل ينتشر في الناس فيكون شره مستطيرًا ، فإنه ما أصيب المسلمون إلا من سكوت عارف الحق عن بيان حقه ورد المبطل عن باطله ، والتهاون في ذلك هو الداء الذي قتل علومنا وقضى على حياتنا وأخلاقنا ،

وشر منه أن لا يرجع المبطل عن باطله وأن يصر عليه استكبارًا وعنادًا بعد أن قامت عليه الحجة التي لم تبق له من عذر مقبول .

وإننا بمشيئة اللّٰه تعالى نعاهد إخواننا أن يكون مبدؤنا الذي لا نحيد عنه قيد شعرة (الرجوع إلى الحق خير من التمادي في الباطل) وقدوتنا في ذلك أبو بكر رضي اللّٰه تعالى عنه حيث يقول في خطبته : (فإن أحسنت فأعينوني وإن أسأت فقوموني)[1] ، وأن نقبل النصح والحق من الصغير قبل الكبير ما دام معتمدًا على برهان من قول اللّٰه أو قول رسوله ، متأسين في ذلك بعمر بن الخطاب رضي اللّٰه عنه الذي قال : (أصابت امرأة وأخطأ عمر)[2] .

وإن في هؤلاء لخير أسوة وأحسن قدوة وفي اتباعهم الكرامة والعزة والفضل الذي لا يعدل عنه إلا الجاهلون .

ولنقدم بين يدي ذلك بعض ما ورد في فضل القرآن العظيم وتفسيره ناقلين ذلك عن الإمام الشوكاني رحمة اللّٰه عليه ، قال[3] :

اعلم أن الأحاديث في فضائل القرآن كثيرة جدًّا ، ولا يتم لصاحب القرآن ما يطلبه من الأجر الموعود به في الأحاديث الصحيحة حتى يفهم معانيه ، فإن ذلك هو الثمرة من قراءته . قال القرطبي : ينبغي له أن يتعلم أحكام القرآن فيفهم عن اللّٰه مراده ، وما فرض عليه فينتفع بما يقرأ ويعمل بما يتلو ، فما أقبح بحامل القرآن أن يتلو فضائله وأحكامه عن ظهر قلب وهو لا يفهم معنى ما يتلوه ، فكيف يعمل بما لا يفهم معناه ، وما أقبح به أن يسأل عن فقه ما يتلوه ولا يدريه ، فما مثل من هذه حالته إلا كمثل الحمار يحمل أسفارًا .

---

(١) أخرجه ابن إسحاق في السيرة - كما في سيرة ابن هشام ٦٦١/٢، والدارقطني في المؤتلف والمختلف ، وفي غرائب مالك - كما في تخريج الأحاديث والآثار للزيلعي ٤٠٦/٢ .

(٢) ذكره القرطبي في تفسيره ٩٩/٥ .

(٣) فتح القدير ١٣/١ .

وينبغي له أن يعرف المكي من المدني ليفرق بين ما خاطب اللَّه به عباده في أول الإسلام، وما ندبهم إليه في آخر الإسلام، وما فرض عليهم في أول الإسلام، وما زاد عليهم من الفرائض في آخره .. وقال أيضًا : قال علماؤنا : وأما ما جاء في فضل التفسير عن الصحابة والتابعين فمن ذلك أن علي بن أبي طالب ذكر جابر بن عبد اللَّه ووصفه بالعلم فقال له رجل : جعلت فداك، تصف جابرًا بالعلم وأنت أنت؟ فقال إنه كان يعرف تفسير قوله تعالى : ﴿إِنَّ ٱلَّذِى فَرَضَ عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لَرَآدُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍۚ﴾ [القَصَص: الآية ٨٥] .

وقال مجاهد : أحب الخلق إلى اللَّه أعلمهم بما أنزل اللَّه . قال الحسن : واللَّه ما أنزل اللَّه آية إلا أحب أن تعلم فيمن نزلت وما يعني بها .

وقال الشعبي : رحل مسروق في تفسير آية إلى البصرة، فقيل له : إن الذي يفسرها رحل إلى الشام، فتجهز ورحل إلى الشام حتى علم تفسيرها[١] .

وقال إياس بن معاوية : مثل الذين يقرؤون القرآن ولا يعلمون تفسيره كمثل قوم جاءهم كتاب من عند مليكهم ليلًا وليس عندهم مصباح فتداخلتهم روعة ولا يدرون ما في الكتاب، ومثل الذي يعرف التفسير كمثل رجل جاء هم بمصباح فقرأوا ما في الكتاب[٢] .

وقال صديق حسن خان في تفسيره « فتح البيان » :

وعن عثمان رضي اللَّه عنه قال : قال رسول اللَّه ﷺ : « خيركم من تعلم القرآن وعلمه »[٣] .

وعن عائشة رضي اللَّه عنها قالت : قال رسول اللَّه ﷺ : « الماهر بالقرآن مع

---

(١) إلى هنا انتهى النقل عن الشوكاني .
(٢) ذكره ابن عطية في المحرر الوجيز ١/ ٤٠ .
(٣) أخرجه البخاري (٥٠٢٧) .

السفرة الكرام البررة والذي يقرأ القرآن ويتتعتع فيه وهو عليه شاق له أجران »[١] .

وقد وردت في ذلك الباب أي فضائل القرآن أحاديث كثيرة . فأما أحاديث فضائل القرآن سورة سورة ، فلا خلاف بين من يعرف الحديث أنها موضوعة مكذوبة ، وقد أقر بذلك واضعها أخزاه الله . وليس بعد الإقرار شيء ولا اغترار بذكر الزمخشري لها في آخر كل سورة وهو قد نقلها عن تفسير الثعلبي .

وقد أخطأ من قال إنه يجوز التساهل في الأحاديث الواردة في فضائل الأعمال ، وذلك لأن الأحكام الشرعية متساوية الإقدام لا فرق بين واجبها ومحرمها ، ومسنونها ومكروهها ومندوبها ، فلا يحل إثبات شيء منها إلا بما تقوم به الحجة وإلا فهو من التقول على الله بما لم يقل ، ومن التجرئ على الشريعة بإدخال ما لم يكن منها فيها . وقد تواتر أن النبي ﷺ قال : « من كذب علي متعمدًا فليتبوأ مقعده من النار »[٢] . انتهى ببعض تصرف .

أقول : إن الضعيف ليس كله في درجة واحدة ، فكلام الشيخ صديق إنما يصدق على ما كان شديد الضعف لأن في إسناده من يرمى بالكذب ، وأما ما كان في درجة الحسن فلا شك في صحة الاستدلال به .

❁❁❁

(١) أخرجه مسلم (٧٩٨) من حديث عائشة رضي الله عنها .

(٢) أخرجه البخاري (١٠٦، ١٠٧، ١٢٩١) ، ومسلم في مقدمة صحيحة (٢، ٣، ٤) من حديث علي والمغيرة والزبير وأبي هريرة وأنس ، رضي الله عنهم جميعًا .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ[1]

تفسير القرآن الحكيم

قد أمر اللَّه سبحانه وتعالى بالاستعاذة من الشيطان الرجيم قبل القراءة . فقال تعالى : ﴿فَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ﴾ [النحل: الآية ٩٨] .

واختلفوا بأي الألفاظ تكون ؟ وخيرها ما صح عن النبي ﷺ : « أعوذ باللَّه السميع العليم من الشيطان الرجيم ، من همزه ونفخه ، ونفثه » كما رواه أبو سعيد الخدري[2] . قال الترمذي : هو أصح شيء في هذا الباب .

والهمز : الموتة ، وهي الخنق ، والنفخ : الكبر ، والنفث : قول الزور والباطل ، ومعنى « أعوذ باللَّه » ألتجئ إليه وأمتنع به مما أخافه وأحاذره و(الشيطان) من شطن بمعنى بعد عن الرحمة لأنه تمرد وتعدى حدوده ، وهو اسم لكل عات من الجن والإنس والحيوان (والرجيم) المطرود باحتقار وتصغير .

والاستعاذة تطهر القلب من كل شاغل عن اللَّه ، وهي إقرار بالعجز والضعف والحاجة والفقر إلى حفظ اللَّه ورعايته ، وإنما ينتفع المستعيذ بها إذا صدرت عن قلب أحس بحاجته إلى العياذ وأحسن اللجأ إلى السميع العليم .

وقد افتتح اللَّه كتابه الكريم ببسم اللَّه الرحمن الرحيم ، وهو قدوتنا وإمامنا ، فليكن من شأننا نحن أيضًا أن نبدأ باسم اللَّه الكريم كل أعمالنا وجميع شئوننا .

ومعناه إننا نعمل الأعمال متبرئين من أن تكون باسمنا بل هي باسم ربنا ، ولأن القوة التي تعيننا على العمل أمدّنا اللَّه بها وأعطانا إياها ، ونحن نرجو من أعمالنا

---

(١) مجلة الإصلاح - العدد الثاني - ١٣٤٧/٣/١٥هـ .

(٢) أخرجه أحمد ٣/٥٠، وأبو داود (٧٧٥) ، والترمذي (٢٤٢) ، وقال الترمذي : وحديث أبي سعيد أشهر حديث في هذا الباب . وصححه الألباني .

وجه اللّٰه وإحسانه ومثوبته ، فلولا اللّٰه تعالى لم نقدر على عمل ، ولو قدرنا فلا نعمل لولا أمره ورجاء فضله .

ومعنى (البسملة) على هذا أن كل ما يقرر في القرآن الذي بدئ بالفاتحة كله من عند اللّٰه ، وهو للّٰه ليس لأحد من الخلق فيه شيء لا ابتداء ولا غاية .

وقال ابن جرير[1] : إن معناه في ذلك عند ابتدائه في فعل أو قول أبتدئ بتسمية اللّٰه قبل فعلي وقبل قولي ، وكذلك معنى قول القائل عند ابتدائه بتلاوة القرآن « بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ » إنما معناه أقرأ مبتدئًا بتسمية اللّٰه تعالى ، أو ابتدئ قراءتي باسم اللّٰه . (الله) هو الذي يؤلهه كل شيء ويعبده كل مخلوق ، أصله : الإله . أسقطت الهمزة التي هي فاء الاسم فالتقت اللام التي هي عين الاسم فصارت في اللفظ لامًا واحدةً مشددة ، كما في قول اللّٰه عز وجل : ﴿لَّٰكِنَّا۠ هُوَ ٱللَّهُ رَبِّي﴾ [الكهف: الآية ٣٨] . أصله لكن أنا هو اللّٰه ربي .

﴿ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ [الفاتحة: الآية ١] اسمان مشتقان من الرحمة ، وفرق ما بينهما أن الرحمن هو المتصف بالرحمة العامة الشاملة لأهل الدنيا والآخرة ، لا فرق في ذلك بين مؤمن وكافر ، وطائع وعاص ، وإنسان وحيوان ، من الإفضال والإحسان إلى جميعهم في البسط في الرزق ، وتسخير السحاب بالغيث . وإخراج النبات من الأرض . وصحة الأجسام والعقول ، وسائر النعم التي لا تعدّ ولا تحصى . التي يشترك فيها جميعهم بلا تفضيل واحد عن الآخر . وفي الآخرة سوى بينهم في عدله وقضائه ، فلا يظلم أحدًا منهم مثقال ذرة .

و(الرحيم) هو المتصف بالرحمة الخاصة بالمؤمنين في الدنيا بهدايتهم وتوفيقهم إلى سبيل مرضاته ، وفي الآخرة بالإحسان إليهم ، وعظيم المثوبة برضاه ، وجنات تجري من تحتها الأنهار . وقد قال جل شأنه : ﴿وَكَانَ

---

(١) تفسير ابن جرير الطبري ١/٥١ .

بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا﴾ [الأحزاب: الآية ٤٣].

وقال الشيخ محمد عبده: إن صيغة فعلان تدل على وصف فعلي فيه معنى المبالغة. كفعال وهو في استعمال اللغة للصفات العارضة. كعطشان. وغرثان. وغضبان. وأما صيغة فعيل فإنها تدل في الاستعمال على المعاني الثابتة كالأخلاق. والسجايا. كعليم، وحليم، وجميل...

فلفظ «الرحمن» يدل على من تصدر عنه آثار الرحمة بالفعل. وهي إفاضة النعم والإحسان.

ولفظ «الرحيم» يدل على منشأ هذه الرحمة والإحسان وعلى أنها من الصفات الثابتة الواجبة.

ولا يستغنى بأحد الوصفين عن الآخر، ولا يكون الثاني مؤكدًا للأول. فإذا سمع العربي وصف اللّه تعالى بالرحمن وفهم منه أنه المفيض للنعم فعلًا لا يعتقد أن الرحمة من الصفات الواجبة له دائمًا لأن الفعل قد ينقطع إذا كان لم يكن عن صفة لازمة ثابتة، وإن كان كثيرًا. فعندما يسمع لفظ الرحيم يكمل اعتقاده على الوجه الذي يليق باللّه تعالى ويرضيه سبحانه، ويعلم أن للّه صفة ثابتة هي صفة الرحمة التي عنها يكون أثرها وإن كانت تلك الصفة على غير مثال صفات المخلوقين، ويكون ذكرها بعد الرحمن كذكر الدليل بعد المدلول ليقوم برهانًا عليه. اهـ.

(سورة الفاتحة)

السورة طائفة من القرآن لها أول وآخر، وترجمة باسم خاص بها.

وأسماء السور توقيفية وكذا ترتيب آيات السور، أي يتوقف على النقل عن النبي ﷺ.

وأما ترتيب السور ففيه خلاف، والراجح أنه من الصحابة بالاجتهاد لا بالتوقيف.

وأسماء السور لم يثبتها الصحابة في المصاحف، وإنما أثبتها الحجاج بن يوسف، كما أثبت الأعشار والأسباع، والنقط والشكل وغيره؛ خوفًا على القرآن من التحريف لمّا شاعت العجمة في زمنه بكثرة اختلاط العرب بغيرهم من أهل اللغات الأخرى.

﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ ﴿١﴾ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٢﴾ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ ﴿٣﴾ مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ ﴿٤﴾ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴿٥﴾ اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ﴿٦﴾ صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ﴾.

تسمى فاتحة الكتاب؛ لأن الصحابة رضي اللّٰه عنهم افتتحوا بها كتابة المصحف، ولأنها تفتتح بها القراءة في الصلاة، وتسمى أم الكتاب؛ لأنها جمعت ما تضمن القرآن الكريم من مقاصد توحيد الربوبية والإلهية والعبادة بأنواعها، والاعتبار بمن مضى من السابقين على الهدى المستقيم فنالوا سعادة الأولى والآخرة، فيقتدى بهم، أو على الصراط المعوج فنالوا من عقوبة اللّٰه وسخطه في الدنيا والآخرة ما به العبرة، وفيه العظة الكافية، فيتنكب عن سبيلهم، ويبتعد عن خبيث أعمالهم، وهذا إجمال ما في القرآن من أغراض جاءت بعد في السور الأخرى مفصلة مبينة على أحسن وجه وأكمله. ليس المقصود من أنها أم القرآن كما يذكره جماعة من غلاة المتصوفة مما يسمونه بالإشارة، ودلالة الحروف، فيقولون: أسرار القرآن جمعت في الفاتحة. وأسرار الفاتحة جمعت في البسملة، وأسرار البسملة جمعت في الباء، وأسرار الباء جمعت في النقطة. فإن هذا القول لا يقوم عليه برهان من صحيح منقول، ولا صريح معقول، وما هو إلا اختراع صدر عن عقول شغفت بالغرائب والتمويهات لمآرب وأغراض لا تتفق مع ما جاء به الإسلام وكتابه المبين. ولقد أدى نشوء ذلك عند بعض الناس إلى

ذهاب ما أنزل القرآن من أجله من هداية الناس إلى الطريق الأقوم في كل ما هم بحاجة إليه من معاشهم ومعادهم ، وعاد القرآن بعد ذلك آلة للدجالين والمخرفين الذين يسمون ذلك - كذبًا وباطلًا - بركة القرآن ، وما بركة القرآن إلا لطائفة المؤمنين المهتدين بهدي القرآن قولًا وعملًا وحكمًا ، الذين جدوا في الحياة بما هداهم إليه القرآن من الأخذ بأسبابها المشروعة ، وطرقها الممهدة ، من صناعات واختراعات اكتسبوا بها من مادة الحياة ما نالوا به عز الدنيا وسعادة الآخرة ﴿أُوْلَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدٗى مِّن رَّبِّهِمۡۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ﴾ [البقرة: الآية ٥] .

وتسمى أيضًا بالسبع المثاني ؛ والمثاني جمع مثناة ، وإنما توصف بذلك لأن بعضها يثنى بعضًا بفصول تفصل بينها فيعرف انقضاء الآية وابتداء التي تليها ، كما وصفها به تعالى ذكره فقال : ﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحۡسَنَ ٱلۡحَدِيثِ كِتَٰبٗا مُّتَشَٰبِهٗا مَّثَانِيَ تَقۡشَعِرُّ مِنۡهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخۡشَوۡنَ رَبَّهُمۡ﴾ [الزُّمَر: الآية ٢٣] ، وقد يجوز أن يكون معنى المثاني المتكررة مرة بعد مرة ، أو معناها التي استثناها اللَّه تعالى لمحمد ﷺ دون غيره من الأنبياء ، وادخرها له . وقيل سميت بذلك لأنها يثنى بها في كل ركعة من ركعات الصلاة ، وتعاد في كل ركعة .

قال أبو الهيثم : سميت آيات الحمد مثاني ، واحدتها مثناة . وهي سبع آيات .

ويجوز أن يكون واللَّه أعلم معنى المثاني ما أثني به على اللَّه تبارك وتقدس ؛ لأن فيها حمد اللَّه وتوحيده ، وذكر ملكه يوم الدين .

وقال الفراء(١) : في قوله عز وجل : ﴿كِتَٰبٗا مُّتَشَٰبِهٗا مَّثَانِيَ﴾ [الزُّمَر: الآية ٢٣] أي مكررًا كرر فيه الثواب والعقاب .

وقد نزلت الفاتحة بمكة ، وقيل بالمدينة ، وقال كثيرون : إنها أول سورة أنزلت بتمامها ، وقد رجح الشيخ محمد عبده أنها أول ما نزل على الإطلاق . ولم

---

(١) معاني الفراء ١١٦/٤ .

يستتش قوله تعالى : ﴿ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ﴾ [العَلق: الآية ١] ، ونزع في ذلك منزعًا غريبًا في حكمة القرآن وفقه الدين وتكلم بكلام حسن في ذلك ، لولا ما يعكر عليه من الأحاديث الصحيحة التي صرحت تصريحًا لا مجال للشك فيه بأن أول ما نزل على النبي ﷺ في غار حراء ﴿ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ﴾ [العَلق: الآية ١] ، ولا يعدل عما أفادته هذه الأحاديث الصحيحة .

وهي سبع آيات على أصح الأقوال ، ليس منها البسملة ، وهي على ما يترجح من مجموع ما ورد آية من القرآن قائمة بنفسها جعلت للفصل بين السور ، وللفقهاء في ذلك خلاف طويل ليس هذا موضع تنقيحه .

❁❁❁

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

تفسير القرآن الحكيم(١)

﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٢ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝٣ مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ ۝٤ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝٥ ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ۝٦ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ﴾ [الفَاتِحَة: الآيات ٢ - ٧].

﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ الحمد على المشهور هو الثناء باللسان على الجميل الاختياري، والفرق بينه وبين المدح أن الحمد لا يكون إلا على الاختياري. أما المدح فيكون على الاختياري وغيره ويكون للحي والميت والجماد. الحمد فيه من التعظيم والتفخيم ما ليس في المدح. الحمد لا يكون إلا مع المحبة والإجلال بخلاف المدح. ولذلك فإن المدح إخبار محض أما الحمد ففيه معنى الإنشاء.

أما الشكر فهو الثناء على المحسن بما أولاه من المعروف وهو لذلك خاص بالأعمال، وذلك أن تحمد باللسان وتعمل بالجوارح والأركان وتعتقد بالقلب والجنان، وظاهر الكتاب والسنة يدل على ذلك، فمنه قوله تعالى: ﴿ٱعْمَلُوٓا۟ ءَالَ دَاوُۥدَ شُكْرًا﴾ [سبأ: الآية ١٣] على كل حال، فمن حمد اللّٰه تعالى فقد شكره باستعمال نعمة اللسان بالثناء على اللّٰه وذكره بما يليق به من صفات المحبة والكمال، ومن شكر اللّٰه تعالى باستعماله نعمه فيما يحب اللّٰه ويرضى فقد أثنى على ربه إذ أظهر هذه النعمة باستعمالها وذلك تحدث بنعمة اللّٰه الكريم، فإذا قال العبد «إن اللّٰه على كل شيء قدير» فقد حمده بالثناء عليه بوصفه بالقدرة على كل شيء، وكذلك إذا قال «اللّٰه عزيز حكيم» أثنى عليه، وهكذا..

---

(١) مجلة الإصلاح - العدد الثالث - ١٣٤٧/٣/٣٠هـ.

ولكن قوله : ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ [الفَاتِحَة: الآية ٢] معناه الثناء التام على اللَّه بكل أسمائه الحسنى وصفاته العلى ، وإنما جيئ بالحمد معرفًا بالألف واللام ليدل على العموم والشمول لكل المحامد بخلاف ما لو جاء بغير ذلك . ولقد حمد اللَّه جل ذكره نفسه وأثنى عليها بما هو له أهل ، ثم علم عباده ذلك وفرض عليهم تلاوته اختبارًا منه جل شأنه وابتلاء فقال لهم : قولوا : ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الفَاتِحَة: الآية ٢] ، وقولوا : ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [الفَاتِحَة: الآية ٥] مما علمهم جل ذكره أن يقولوه وأن يدينوا اللَّه بمعناه .

﴿رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ الرب في الأصل مصدر بمعنى التربية ، وهي إبلاغ الشيء إلى كماله حسب استعداده وهو في كلام العرب بمعنى السيد المطاع ، وبمعنى المصلح للشيء ، وبمعنى المالك للشيء ، فربنا جل ثناؤه السيد الذي لا شبه له ولا مثل له في سؤدده ، والمصلح أمر خلقه بما أسبغ عليهم من نعمه الظاهرة والباطنة ، والمالك الذي له الخلق والأمر سبحانه وتعالى عما يقول الظالمون علوًا كبيرًا .

والعالمون جمع عالم لا واحد له من لفظه ، والعالم اسم لكل صنف من أصناف المخلوقات ، فالإنسان عالم ، والجن عالم ، والشجر عالم ، والهواء عالم ، وعالم الكواكب ، وعالم الملائكة ، وغير ذلك كثير لا يحصيه إلا اللَّه الذي هو ربه وسيده ومليكه .

﴿ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ [الفَاتِحَة: الآية ١] تقدم الكلام عليهما ﴿مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ﴾ [الفَاتِحَة: الآية ٤] قرئ بروايات عدة وأشهرها « مالك » و« ملك » ، ورجح ابن جرير الطبري الثانية لأن في الإقرار له بالانفراد بالملك إيجابًا لانفراده بالملك وفضيلة زيادة الملك على المالك إذ كان معلومًا أن لا ملك إلا وهو مالك .

﴿يَوْمِ ٱلدِّينِ﴾ [الفَاتِحَة: الآية ٤] الدين في هذا الموضع الحساب والمجازاة

بالأعمال ومن ذلك قوله : ﴿كَلَّا بَلْ تُكَذِّبُونَ بِالدِّينِ﴾ [الانفطار: الآية ٩] ، وقوله : ﴿فَلَوْلَا إِن كُنتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ﴾ [الواقعة: الآية ٨٦] أي : مجزيين ، هو يوم القيامة ، ﴿يوم تجزي كل نفس بما كسبت لا ظلم اليوم﴾ والمعنى أن للَّه تعالى ملكًا خالصًا دون جميع خلقه الذين كانوا في الدنيا ملوكًا جبابرة ينازعونه الملك ويدافعونه الانفراد بالكبرياء والعظمة كما قال جل ذكره : ﴿يَوْمَ هُم بَارِزُونَ لَا يَخْفَىٰ عَلَى اللَّهِ مِنْهُمْ شَيْءٌ لِّمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ﴾ [غافر: الآية ١٦] فأخبر أنه عز شأنه المنفرد يومئذ بالملك دون ملوك الدنيا الذين صاروا يوم الدين من ملكهم إلى صغار ، ومن دنياهم إلى خسار .

وأما على قراءة (مالك) فمعناه كما قال ابن عباس رضي اللَّه عنهما : لا يملك أحد في ذلك اليوم معه حكمًا كملكهم في الدنيا ، ثم قال : ﴿لَّا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَٰنُ وَقَالَ صَوَابًا﴾[1] [النبأ: الآية ٣٨] .

﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [الفاتحة: الآية ٥] العبادة في اللغة : من الذلة . يقال : طريق معبَّد أي : مذلل .

وفي الشرع : حقيقة متكونة من كمال المحبة مع كمال الخضوع والتذلل ، فمن أحب ولده فليس بعابد له لأنه لم يخضع له ، ومن خضع لملك أو أمير فليس بعابد له لأنه لم يحبه مع هذا الخضوع ، فكل ما تحقق فيه كمال الحب مع كمال الخضوع فهو عبادة سواء كان قولًا أو عملًا ، فالدعاء في الشدائد ولطلب الحاجات والتوكل والاستغاثة والنذر والحلف والخوف والرجاء ، كل هذا عبادة فمعنى ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ أي نخصك يا رب العالمين ويا مالك يوم الدين بكل أنواع خضوعنا القلبي وذلنا ومحبتنا ؛ لأنك بصفة ربوبيتك للعالمين استحققت

---

(١) انظر الطبري في تفسيره ٦٥/١ من طريق الضحاك عن ابن عباس ، ولم يسمع التفسير منه على ما قاله غير واحد كشعبة وأبي حاتم وأبي زرعة وابن حاتم وغيرهم .

نهاية الخضوع والخشوع والخوف والذل ؛ وبصفة أنك الرحمن الرحيم استحققت نهاية المحبة لما نرى وتفيض علينا من آثار رحمتك من النعم ما لا يعد ولا يحصى ، وبصفة ملكك ليوم الدين نخاف عقوبتك ولا نعصاك ونرجو رضاك فنسارع إلى طاعتك .

﴿وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ﴾ الإعانة قسمان ؛ ظاهرية ومعنوية ، فالحسية ؛ ما تكون بما يدرك ويشاهد بإحدى الحواس كإعانة الناس بعضهم بعضًا ، وفيما يثقل حمله ويعييهم أمره ، فيشهدون من بعضهم هذه المعونة ، أو بجاههم ، وكل أمر محسوس ، فهذه الاستعانة الظاهرية ، وهي أمر لابد من تبادله بين الناس فيما ليس فيه معصية للّٰه تعالى ؛ قال تعالى : ﴿وَتَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلۡبِرِّ وَٱلتَّقۡوَىٰۖ وَلَا تَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلۡإِثۡمِ وَٱلۡعُدۡوَٰنِۚ﴾ [المائدة: الآية ٢] .

أما الإعانة المعنوية ؛ فهي ما تكون بأسباب غير مشاهد مصدرها ، وهذه لا تكون إلا ممن يكون عنده من القدرة العظيمة والرحمة الواسعة ما يؤهله لها ، ولذلك فلا تطلب إلا من اللّٰه جل شأنه لأنه هو الذي له القدرة ما به يعطي العبد من القوة التي تعينه على عمله ، وله الرحمة الواسعة التي بها يتفضل على عبده بهذه المعونة ، فالمعونة على شفاء الأمراض تكون بالطبيب بتشخيص المرض ووصف العلاج ظاهرية وعلى تحقيق الشفاء ورفع الداء بذلك الدواء أو بغيره ، وهذه معنوية حقيقية .

فالأولى جاء الشرع بطلبها ممن يقدر عليها . والثانية جاء الشرع ببيان أن طلبها من غير اللّٰه تعالى شرك ؛ لأن ذلك اعتقاد بأن غير اللّٰه تعالى له من القدرة والرحمة ما لا يصح أن يكون إلا لرب العالمين الرحمن الرحيم .

وبهذا يتبين الفرق بين الاستعانة الجائزة الشرعية والاستعانة المحرمة الشركية ، فما يطلبه كثير من الناس من الموتى من حاجات ؛ هذا من الشركية

لأنها من قسم المعنوية ، لأن الميت ليس عنده من الأسباب ما يمكنه أن يوصل هذه الإعانة إلى السائل الداعي من طريق محسوس ، لأنه قد زالت كل علاقة بالأحياء من أهل الدنيا من هذا القبيل ، وإن كان كثير من الناس يدعي أنه لم يعتقد في هذا الميت هذه القدرة ولا الرحمة فهو كاذب في دعواه يخدعه الشيطان فيلبس عليه الأمر حتى يورده بذلك موارد الشرك والهلاك ، يتبين ذلك عندما ينذر أحدهم نذرًا لأحد أولئك الموتى وينهاه أحد عن الوفاء بذلك النذر الذي هو في محاربة اللَّه تعالى ، فإنك تراه يصفر صفرة الوجل ويضطر ويقول : « كيف أصنع مع سيدي فلان وهو غيور ؟ » .

فهذا إن كان لا يسمى شركًا فليس في الدنيا شرك ، وإن جعلت هذه من الاستعانة الجائزة الشرعية ، فهذا من الخلط المفسد ، بل هو تحريف للكلم عن مواضعه .

قال ابن كثير[1] : وتحول الكلام من الغيبة إلى المواجهة بكاف الخطاب ، وهو مناسبة ، لأنه لما أثنى على اللَّه تعالى فكأنه تقرب وحضر بين يدي ربه تعالى فلذا قال : ﴿إِيَّاكَ نَعۡبُدُ وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ﴾ [الفَاتِحَة: الآية ٥] ، وفي هذا دليل على أن أول السورة خبر من اللَّه تعالى بالثناء على نفسه الكريمة بجميل صفاته الحسنى ، وإرشاده لعباده أن يثنوا عليه بذلك ، ولهذا لا تصح صلاة من لم يقل ذلك وهو قادر عليه كما جاء في « الصحيحين » عن عبادة بن الصامت رضي اللَّه عنه قال : قال رسول اللَّه ﷺ : « لا صلاة لمن لم يقرأ بفاتحة الكتاب »[2] ، وفي « صحيح مسلم »[3] عن أبي هريرة رضي اللَّه عنه عن النبي ﷺ قال : « يقول اللَّه تعالى : قسمت الصلاة بيني وبين عبدي نصفين فنصفها لي ونصفها لعبدي

(١) تفسير ابن كثير ١/٢٦ .
(٢) أخرجه البخاري (٧٥٦) ، ومسلم (٣٩٤) .
(٣) أخرجه مسلم (٣٩٥) .

ولعبدي ما سأل ؛ فإذا قال العبد : الحمد لله رب العالمين . قال الله : حمدني عبدي . وإذا قال : الرحمن الرحيم . قال الله : أثنى علي عبدي . وإذا قال العبد : مالك يوم الدين . قال الله : مجدني عبدي . وإذا قال العبد : إياك نعبد وإياك نستعين . قال الله : هذه بيني وبين عبدي ولعبدي ما سأل . فإذا قال العبد : اهدنا الصراط المستقيم . قال الله : هذه لعبدي ولعبدي ما سأل » .

وقال ابن جرير الطبري(١) : وفي أمر الله جل شأنه عباده أن يقولوا : ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ بمعنى مسألتهم إياه المعونة على العبادة أدلُّ الدليل على فساد قول القائلين بالتفويض من أهل القدر الذين أحالوا أن يأمر الله أحدًا من عبيده بأمره ، أو يكلفهم بعمل إلا بعد إعطائه المعونة على فعله لا على تركه ، ولو كان الذي قالوا من ذلك كما قالوا لبطلت الرغبة إلى الله في المعونة على طاعته إذ كان – على قولهم مع وجود الأمر والنهي والتكليف – حقًّا واجبًا على الله للعبد أو إعطاؤه المعونة عليه ، سأله عبده ذلك أو ترك مسألة ذلك ، بل ترك إعطائه ذلك عندهم منه جور . ولو كان الأمر في ذلك على ما قالوا لكان القائل : ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ إنما يسأل ربه أن لا يجور .

وفي إجماع أهل الإسلام جميعًا على تصويب قول القائل : « اللهم إنا نستعينك » وتخطئتهم قول القائل : « اللهم لا تجر علينا » دليل واضح على خطأ ما قال الذين وصفت قولهم .

❁❁❁

(١) تفسير الطبري ١/٧٠ .

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

تفسير القرآن الحكيم(١)

قول الله تعالى: ﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ۝٦ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ﴾ [الفاتحة: ٦، ٧].

جاء في الكتاب العزيز ﴿هُدًى﴾ [البقرة: الآية ٥] على ثلاثة أوجه: معدى بنفسه، كقوله تعالى: ﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ﴾ [الفَاتِحَة: الآية ٦]، وقوله: ﴿وَهَدَيْنَٰهُ ٱلنَّجْدَيْنِ﴾ [البَلَد: الآية ١٠]، ومعدى باللام، كقوله تعالى: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى هَدَىٰنَا لِهَٰذَا﴾ [الأعرَاف: الآية ٤٣]، وقوله: ﴿قُلِ ٱللَّهُ يَهْدِى لِلْحَقِّ﴾ [يُونس: الآية ٣٥]، ومعدى بـ «إلى» كقوله: ﴿وَٱهْدِنَآ إِلَىٰ سَوَآءِ ٱلصِّرَٰطِ﴾ [ص: الآية ٢٢].

والهداية تطلق على معنيين:

هداية بمعنى الدلالة والإرشاد، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿إِنَّا هَدَيْنَٰهُ ٱلسَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا﴾ [الإنسَان: الآية ٣]، وقوله: ﴿وَهَدَيْنَٰهُ ٱلنَّجْدَيْنِ﴾ [البَلَد: الآية ١٠]، والنجد الطريق المرتفع، أي الطريقين طريق الخير وطريق الشر.

وهداية بمعنى التوفيق والسير بالفعل في الطريق ومن ذلك قوله تعالى: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ﴾ [القَصَص: الآية ٥٦].

وقد يراد منها المعنيان مثل ما هنا، وهو قوله تعالى: ﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ﴾ [الفَاتِحَة: الآية ٦] فإن معناه طلب الدلالة والإرشاد، والتعريف للصراط المستقيم، ثم التوفيق والإلهام للاستقامة على ذلك الصراط والسير فيه.

وفي الواقع أن الثاني يستلزم الأول، لأن التوفيق لا يكون إلا بعد البيان، وإن كان الأول لا يستلزم الثاني؛ لأنه لا يلزم من وجود الإرشاد وجود التوفيق، وإلا

(١) مجلة الإصلاح - العدد الرابع - ١٣٤٧/٤/١٥هـ.

لكان كل من سمع القرآن مهتديًا بمعنى موفقًا ومستقيمًا ، وهذا غير صحيح .

قال ابن القيم[1] رحمه اللّه : وهما هدايتان مستقلتان لا يحصل الفلاح إلا بهما ، وهما متضمنتان تعريف ما لم نعلمه من الحق تفصيلًا وإجمالًا ، وإلهامنا له ، وجعلنا مريدين لاتباعه ظاهرًا وباطنًا ، ثم خلق القدرة لنا على القيام بموجب الهدى بالقول والعمل والعزم ، ثم إدامة ذلك لنا وتثبيتنا عليه إلى الوفاة . ومن ههنا يعلم اضطرار العبد إلى سؤال هذه الدعوة فوق كل ضرورة وبطلان قول من يقول : إذا كنا مهتدين فكيف نسأل الهداية ؟ فإن المجهول لنا من الحق أضعاف المعلوم ، وما لا نريد فعله تهاونًا وكسلًا مثل ما نريده أو أكثر منه أو دونه ، وما لا نقدر عليه مما نريده كذلك ، وما نعرف جملته ولا نهتدي لتفاصيله فأمر يفوق الحصر . ونحن محتاجون إلى الهداية التامة ، فمن كملت له هذه الأمور كان سؤال الهداية له سؤال التثبيت والدوام .

وللهداية مرتبة أخرى ، وهي آخر مراتبها ، وهي الهداية يوم القيامة إلى طريق الجنة ، وهو الصراط الموصل إليها ، فمن هُدي في هذه الدار إلى صراط اللّه المستقيم الذي أرسل به رسله وأنزل به كتبه هُدي هناك إلى الصراط المستقيم الموصل إلى جنته ودار ثوابه ، وعلى قدر ثبوت قدم العبد على هذا الصراط الذي نصبه اللّه لعباده في هذه الدار يكون ثبوت قدمه على الصراط المنصوب على متن جهنم ، وعلى قدر سيره على هذا الصراط يكون سيره على ذلك الصراط . فمنهم من يمر كالبرق ، ومنهم من يمر كالطرف ، ومنهم من يمر كالريح ، ومنهم من يمر كشد الركاب ، ومنهم من يسعى سعيًا ، ومنهم من يمشي مشيًا ، ومنهم من يحبو حبوًا ، ومنهم المخدوش المسلم ، ومنهم المكردس في النار .

فلينظر العبد سيره على ذلك الصراط من سيره على هذا حذو القُذَّة بالقُذَّة

---

(١) مدارج السالكين ١/ ٩ .

جزاء وفاقًا: ﴿هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [النَّمل: الآية ٩٠]؟ ولينظر الشبهات والشهوات التي تعوقه عن سيره على هذا الصراط المستقيم؛ فإنها الكلاليب التي بجنبتي ذاك الصراط تخطفه وتعوقه عن المرور عليه، فإن كثرت هنا وقويت فكذلك هنالك ﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ﴾ [فُصِّلَت: الآية ٤٦] فسؤال الهداية متضمن لحصول كل خير والسلامة من كل شر. اهـ.

وقال ابن جرير[١]: ومعناه نظير معنى قوله: ﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [الفَاتِحَة: الآية ٥] في أنه مسألة العبد ربه التوفيق للثبات على العمل بطاعته وإصابة الحق والصواب فيما أمره به ونهاه عنه فيما يستقبل من عمره دون ما قد مضى من أعماله وتقضى فيما سلف من عمره إلى أن قال: وفي صحة ذلك فساد قول أهل القدر الزاعمين أن كل مأمور بأمر أو مكلف فرضًا فقد أعطى من المعونة عليه ما قد ارتفعت معه في ذلك الفرض حاجته إلى ربه لأنه لو كان الأمر على ما قالوا في ذلك، لبطل معنى قول الله جل ثناؤه: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝٥ ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ﴾.

﴿ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ﴾ [الفَاتِحَة: الآية ٦] الصراط هو الطريق و﴿ٱلْمُسْتَقِيمِ﴾ [الإسرَاء: الآية ٣٥] الواضح الذي لا اعوجاج فيه ولا ميل، ثم يستعار لكل قول وعمل وصف باستقامة، وللمفسرين في معنى ذلك أقوال:

فعن علي وابن مسعود رضي الله عنهما أنه كتاب الله تعالى. وعن جابر بن عبد الله أنه الإسلام. وعن ابن عباس هو دين الله الذي لا عوج فيه.

وفي الحديث الصحيح عن النبي ﷺ قال: «ضرب الله مثلًا صراطًا مستقيمًا، والصراط الإسلام»[٢].

---

(١) تفسير ابن جرير الطبري ٧٢/١.

(٢) أخرجه أحمد ١٨٢/٤ من حديث النواس بن سمعان رضي الله عنه مطولًا، وصححه الألباني في صحيح الترغيب والترغيب (٢٣٤٨).

والصراط المستقيم يجمع كل هذه المعاني على اعتبار أنه كل قول وعمل وقصد ارتضاه اللَّه لعباده وألهمهم إياه ، سواء من ذلك ما يكون من أمور الدنيا أو من أمور الآخرة .

فما كان من أمور الدنيا ، كأن يوفق التاجر في تجارته مثلًا إلى خطة حميدة يأتي له من ورائها الربح الوافر ويسلم من أكل أموال الناس بالباطل ؛ وكذلك الزارع يهدى في زراعته إلى طريقة من الحذق في الزراعة والنشاط في العمل والقيام بما أوجب اللَّه من الحقوق في الزرع بما يكفل له نجاح زراعته وجني الثمرات الطيبة من عمله وغير ذلك .

وما كان من أمور الآخرة كتوفيق العالم إلى العلم الصحيح النافع . وأن ينفع به نفسه بالعمل به وغيره بنشره وتعليمه ، وكذلك توفيق المصلي والصائم وغير هؤلاء من العابدين أن يهدوا من هذه الأعمال الصالحة إلى أكملها وأخلصها ويحفظوا من العوائق والموانع الحائلة دونها .

قال ابن القيم(١) رحمه اللَّه : ولا تكون الطريق صراطًا حتى تتضمن خمسة أمور : الاستقامة ، والإيصال إلى المقصود ، والقرب ، وسعته للمارين عليه ، وتعيّنه طريقًا للمقصود . ولا يخفى تضمن الصراط المستقيم لهذه الأمور الخمسة . فوصفه بالاستقامة يتضمن قربه لأن الخط المستقيم هو أقرب خط فاصل بين نقطتين ، وكلما تعوج طال وبعد ، واستقامته تتضمن إيصاله إلى المقصود ، ونصبه لجميع من يمر عليه يستلزم سعته ، وإضافته إلى المنعم عليهم ووصفه بمخالفة صراط أهل الغضب والضلال يستلزم تعينه طريقًا .

والصراط تارة يضاف إلى اللَّه ، إذ هو الذي شرعه ونصبه كقوله تعالى : ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا﴾ [الأنعام: الآية ١٥٣] ، وقوله : ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ

---

(١) مدارج السالكين ١/١٠ .

﴿صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ * صِرَٰطِ ٱللَّهِ﴾ . وتارة يضاف إلى العباد كما في الفاتحة لكونهم أهل سلوكه وهو منصوب لهم وهم المارون عليه .

وقد أخبر اللَّه جل شأنه أن الصراط عليه سبحانه في قوله : ﴿قَالَ هَٰذَا صِرَٰطٌ عَلَيَّ مُسْتَقِيمٌ﴾ [الحِجر: الآية ٤١] قال الحسن البصري : معناه إليّ مستقيم على معنى إقامة على مقام إلى ، أو على معنى أنه صراط موصل إليّ . وقال مجاهد : الحق يرجع إلى اللَّه ، وعليه طريقه لا يعرج على شيء ، وهو أصح ما قيل في الآية . وقيل : (عليّ) للوجوب أي واجب علي بيانه والدلالة عليه وتعريفه . وقال الكسائي إنه على التهديد والوعيد نظير قوله تعالى : ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَبِٱلْمِرْصَادِ﴾ [الفَجر: الآية ١٤] ، وهو قول بعيد وغير مستقيم .

وقد أخبر اللَّه تعالى أيضًا أنه سبحانه على الصراط المستقيم ، وذلك في موضعين من القرآن الكريم : في سورة هود وسورة النحل ، قال في هود : ﴿مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلَّا هُوَ ءَاخِذٌۢ بِنَاصِيَتِهَآ ۚ إِنَّ رَبِّى عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [هُود: الآية ٥٦] ، وقال في سورة النحل : ﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا رَّجُلَيْنِ أَحَدُهُمَآ أَبْكَمُ لَا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَىْءٍ وَهُوَ كَلٌّ عَلَىٰ مَوْلَىٰهُ أَيْنَمَا يُوَجِّههُّ لَا يَأْتِ بِخَيْرٍ هَلْ يَسْتَوِى هُوَ وَمَن يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ ۙ وَهُوَ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [النّحل: الآية ٧٦] ، ومعنى آية هود أن اللَّه على صراط مستقيم ، وهو أحق من كان على صراط مستقيم ، فإن أقواله كلها صدق ورشد وهدى وعدل وحكمة : ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا ۚ﴾ [الأنعَام: الآية ١١٥] ، وأفعاله كلها مصالح وحكم ورحمة وعدل وخير ، فالشر لا يدخل في أفعاله ، ولا أقواله البتة ، لخروج الشر عن الصراط المستقيم ، فكيف يدخل في أفعال من هو على الصراط المستقيم أو أقواله ، وتأمل كيف ذكر هذا عقيب قوله : ﴿إِنِّى تَوَكَّلْتُ عَلَى ٱللَّهِ رَبِّى وَرَبِّكُم﴾ [هُود: الآية ٥٦] أي هو ربي فلا يسلمني إليكم تؤذونني بدون حق ولا يضيعني بل ينصرني وفاء بوعده وقيامًا بمقتضى عدله

وحكمته ، وهو ربكم فلا يسلطكم علي ولا يمكنكم مني ، فإن نواصيكم بيده ، لا تفعلون شيئًا إلا بمشيئته وإرادته فإن ناصية كل دابة بيده ، لا يمكنها أن تتحرك إلا بإذنه ومع هذا فهو في تصرفه فيها وتحريكه لها ونفوذ قضائه وقدره فيها على صراط مستقيم ، لا يفعل ما يفعل من ذلك إلا بحكمة وعدل ومصلحة ، ولو سلطكم علي فله من الحكمة في ذلك ما له الحمد عليه ، لأنه تسليط من هو على صراط مستقيم ، لا يظلم ولا يفعل شيئًا عبثًا بغير حكمة .

وأما آية النحل فمثل ضربه اللّه للأصنام التي لا تسمع ولا تنطق ولا تعقل مما كان يتخذه المشركون في كل زمن من قبر ميت ، أو شجرة كان تحتها صالح ، أو حجر كان له علاقة بأحد الصالحين ، أو ميت من الخلق يعتمدون عليها ويلتجئون في الشدائد إليها ويقولون إنها تقربهم إلى اللّه زلفى وتكون واسطة بينهم وبين ربهم وشافعة في إجابة السؤال وحصول المأمول وقد ذكر اللّه في أول هذه السورة سورة النحل من ذلك قوله : ﴿أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لَّا يَخْلُقُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿١٧﴾ وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا إِنَّ اللَّهَ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٨﴾ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَ ﴿١٩﴾ وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ ﴿٢٠﴾ أَمْوَاتٌ غَيْرُ أَحْيَاءٍ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ ﴿٢١﴾ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ﴾ ، وتلك الأوثان والأصنام عاجزة عن أن تنفع عابدها بشيء ، بل هو كلٌّ وحمل عليه تحتاج إلى من يحملها ويقيمها ويضعها ويخدمها ، فكيف يسوونها في العبادة مع اللّه الذي يأمر بالعدل والتوحيد وهو قادر وغني ومتكلم وهو الخالق لهم والمنعم عليهم ﴿وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا﴾ [إبراهيم: الآية ٣٤] ، وهو على صراط مستقيم في قوله وفعله ، فقوله صدق ورشد ونصح وهدى ، وفعله حكمة وعدل ورحمة ومصلحة ؟ !

وقد ضرب اللّه جل شأنه لنفسه هذا المثل يرد به على المشركين الذين كانوا

يضربون له سبحانه الأمثال التي لا تليق بمقام ربوبيته وجلال إلهيته، فكانوا يقولون: إن مثله كمثل الملك لا يوصل إليه إلا بالحجاب، ولا تقضى الحاجة منه إلا بشفاعة الوزراء والوجهاء من أعيان مملكته وأصفياء خاصته، ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِۚ قُلْ أَتُنَبِّـُٔونَ ٱللَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [يونس: الآية ١٨] يعني أن أولئك الملوك الذين تضربونهم مثلًا لله لا يرون ولا يسمعون من شئون مملكتهم إلا ما يصلهم من أولئك الحجاب والوزراء والخاصة، فهل الله تعالى لا يصل إليه من علمكم وعلم شئونكم إلا ما كان بواسطة هؤلاء الموتى من الصالحين؟ ﴿فَلَا تَضْرِبُوا۟ لِلَّهِ ٱلْأَمْثَالَۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [النحل: الآية ٧٤]، ﴿وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطْوِيَّٰتٌۢ بِيَمِينِهِۦۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [الزُّمَر: الآية ٦٧].

﴿صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾ [الفاتحة: الآية ٧] لما كان كل الناس وجميع الطوائف يدعون أنهم سالكون للصراط المستقيم وسائرون على المنهج القويم جعل الله تعالى لذلك الصراط علامة تميزه عن غيره وتكون كالمصباح لمن وفق لذلك الصراط المستقيم، تكشف له عما يضعه دعاة الطرق الضالة والسبل الزائغة من عقبات يريدون بها تحويله عن منهجه الحق إلى ما اختطوه من سبل الشهوات والشبهات، تلك العلامة وهذا المصباح هي القدوة الصالحة والأسوة الطيبة ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّۦنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَۚ﴾ [النساء: الآية ٦٩].

دلت الآية على أن الناس أقسام ثلاثة: المنعم عليهم، المغضوب عليهم، الضالون. لأن العبد إما أن يكون عالمًا بالحق، أو جاهلًا به، والعالم بالحق إما أن

يعمل بموجبه أو لا . فالعالم بالحق العامل به هو المنعم عليه وهو الذي زكى نفسه بالعلم النافع والعمل الصالح ، وهو المفلح ، قال اللّٰه تعالى : ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا﴾ [الشمس: الآية ٩] ، والعالم بالحق التارك له المتبع لهواه هو المغضوب عليه . والجاهل بالحق هو الضال . والمغضوب عليه ضال عن هداية العمل ، والضال مغضوب عليه لضلاله عن العلم الموجب للعمل ، فكل منهما ضال مغضوب عليه ، ولكن تارك العمل بالحق بعد معرفته أولى بالغضب وأحق به . ومن ههنا كان اليهود أحق به ، وهو متغلظ في حقهم كقوله تعالى : ﴿بِئْسَمَا ٱشْتَرَوْا۟ بِهِۦٓ أَنفُسَهُمْ أَن يَكْفُرُوا۟ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بَغْيًا أَن يُنَزِّلَ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۖ فَبَآءُو بِغَضَبٍ عَلَىٰ غَضَبٍ﴾ [البقرة: الآية ٩٠] .

وقال تعالى : ﴿قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَٰلِكَ مَثُوبَةً عِندَ ٱللَّهِ ۚ مَن لَّعَنَهُ ٱللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمُ ٱلْقِرَدَةَ وَٱلْخَنَازِيرَ وَعَبَدَ ٱلطَّٰغُوتَ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضَلُّ عَن سَوَآءِ ٱلسَّبِيلِ﴾ [المائدة: الآية ٦٠] .

والجاهل بالحق أحق باسم الضلال وأولى به ، ومن ثم وصفت النصارى به في قوله تعالى : ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لَا تَغْلُوا۟ فِى دِينِكُمْ غَيْرَ ٱلْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعُوٓا۟ أَهْوَآءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا۟ مِن قَبْلُ وَأَضَلُّوا۟ كَثِيرًا وَضَلُّوا۟ عَن سَوَآءِ ٱلسَّبِيلِ﴾ [المائدة: الآية ٧٧] فالآيتان الأوليان في سياق الخطاب مع اليهود في سورة البقرة والمائدة ، والآية الآخرة في سياق الخطاب مع النصارى في سورة المائدة .

وفي جامع الترمذي وصحيح ابن حبان من حديث عدي بن حاتم رضي اللّٰه عنه قال : قال رسول اللّٰه ﷺ : « اليهود مغضوب عليهم والنصارى ضلال »(١) .

وكل حائد عن السبيل وسالك غير المنهج القويم فضال عند العرب لإضلاله

(١) أخرجه الترمذي (٢٩٥٣، ٢٩٥٤) ، وابن حبان (٦٢٤٦، ٧٢٠٦) من حديث عدي بن حاتم رضي اللّٰه عنه ، وصححه الألباني .

وجه الطريق ، فلذلك سمى اللّٰه تعالى النصارى ضالين لخطاهم في الحق منهج السبيل ، وأخذهم من الدين في غير الطريق المستقيم . وقال سفيان بن عيينة : من فسد من علمائنا ففيه شبه من اليهود ، ومن فسد من عبادنا ففيه شبه من النصارى .

قال ابن القيم[١] رحمه اللّٰه : ولما كان طالب الصراط المستقيم طالبًا أمرًا أكثر الناس متنكب عنه ، مريدًا لسلوك طريق مرافقه فيها في غاية الندرة والعزة ، والنفوس مجبولة على الوحشة من التفرد والأنس بالمرافقة ، نبه اللّٰه سبحانه على الرفيق في هذه الطريق ، وأنهم هم الذين أنعم اللّٰه عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقًا .

فأضاف الصراط إلى الرفيق السالكين له ، وهم الذين أنعم اللّٰه عليهم ، ليزول عن الطالب للهداية والسالك للصراط المستقيم وحشة تفرده عن أهل زمانه وبني جنسه ، وليعلم أن رفيقه في هذا الصراط هم الذين أنعم اللّٰه عليهم ، فلا يكترث بمخالفة الناكبين عنه له ، فإنهم هم الأقلون قدرًا وإن كانوا الأكثرين عددًا ، كما قال بعض السلف : عليك بطريق الحق ولا تستوحش لقلة السالكين، وإياك وطريق الباطل ولا تغتر بكثرة الهالكين ، وكلما استوحشت في تفردك فانظر إلى الرفيق السابق واحرص على اللحاق بهم ، وغض الطرف عمن سواهم فإنهم لن يغنوا عنك من اللّٰه شيئًا . وإذا صاحوا بك في طريق سيرك فلا تلتفت إليهم ، فإنك متى التفت إليهم أخذوك وعاقوك .

والقصد أن في ذكر هذا الرقيق ما يزيل وحشة التفرد ويحث على السير والتشمير على اللحاق بهم .

قال ابن جرير[٢] رحمه اللّٰه : وفي هذه الآية دليل واضح على أن طاعة اللّٰه جل

---

(١) مدارج السالكين ٢١/١ .

(٢) تفسير الطبري ٧٦/١ .

ثناؤه لا ينالها المطيعون إلا بإنعام الله بها عليهم وتوفيقه إياهم ، أو لا يسمعونه يقول : ﴿صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾ [الفَاتِحَة: الآية ٧] فأضاف كل ما كان منهم من اهتداء وطاعة وعبادة إلى أنه إنعام منه عليهم . اهـ .

وقال ابن القيم رحمه الله : أضاف النعمة إليه وحذف فاعل الغضب لوجوه :

منها : أن النعمة هي الخير والفضل ، والغضب من باب الانتقام والعدل ؛ والرحمة تغلب الغضب ، فأضاف إلى نفسه أكمل الأمرين وأسبقهما وأقواهما . وهذه طريقة القرآن في إسناد الخيرات والنعم إليه ، وحذف الفاعل في مقابلتهما كقول مؤمني الجن ﴿وَأَنَّا لَا نَدْرِىٓ أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَن فِى ٱلْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا﴾ [الجنّ: الآية ١٠] . وفي تخصيصه لأهل الصراط المستقيم بالنعمة ما دل على أن النعمة المطلقة الموجبة للفلاح الدائم ، وأما مطلق النعمة فعلى المؤمن الكافر ، فكل الخلق في نعمة .

وهذا فصل النزاع في مسألة هل لله على الكافر من نعمة أم لا ؟ فالنعمة المطلقة لأهل الإيمان ، ومطلق النعمة يكون للمؤمن والكافر ، كما قال تعالى : ﴿وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ﴾ [إبراهيم: الآية ٣٤] .

الوجه الثاني : أن الله سبحانه هو المنفرد بالنعمة ﴿وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ﴾ [النّحل: الآية ٥٣] فأضيف إليه ما هو منفرد به ، وإن أضيف إلى غيره فلكونه طريقًا ومجرًى للنعمة . وأما الغضب على أعدائه فلا يختص به تعالى ، بل ملائكته وأنبياؤه ورسله وأولياؤه يغضبون لغضبه ، فكان في لفظة « المغضوب عليهم » بموافقة أوليائه له من الدلالة على التفرد بالإنعام وأن النعمة المطلقة منه وحده هو المنفرد بها ما ليس في لفظة المنعم عليهم .

الوجه الثالث : أن في حذف فاعل الغضب من الإشعار بإهانة المغضوب

عليهم وتحقيرهم وتصغير شأنهم ما ليس في ذكر فاعل النعمة من إكرام المنعم عليهم والإشادة بذكرهم ورفع قدرهم ما ليس في حذفه .

وتأمل سرًّا بديعًا في ذكر السبب والجزاء للطوائف الثلاثة بأوجز لفظ وأخصره ، فإن الإنعام عليهم يتضمن إنعامه بالهداية التي هي العلم النافع والعمل الصالح ، وهي الهدى ودين الحق ، ويتضمن كمال الإنعام بحسن الثواب والجزاء فهذا تمام النعمة ، ولفظ ﴿أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾ [الفاتِحة: الآية ٧] يتضمن الأمرين ، وذكر غضبه على المغضوب عليهم يتضمن أيضًا أمرين : الجزاء بالغضب الذي موجبه غاية الهوان والعذاب ، والسبب الذي استحقوا به غضبه سبحانه ، فإنه أرحم وأرأف من أن يغضب بلا سبب ولا جناية منهم ولا ضلال ، وكان الغضب عليهم مستلزم لضلالهم ، وذكر الضالين مستلزم لغضبه عليهم وعقابه لهم ، فإن من ضل استحق العقوبة التي هي موجب ضلاله وغضب اللَّه عليه . فاستلزم وصف كل واحدة من الطوائف الثلاث للسبب والجزاء أبين استلزام .

وذكر الصراط المستقيم مفردًا معرفًا باللام والإضافة يفيد تعينه واختصاصه وأنه طريق واحد ، وأما طرق أهل الغضب والضلال فإنه سبحانه يجمعها ويفردها كقوله : ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ ۚ﴾ [الأنعَام: الآية ١٥٣] فوحد لفظ الصراط وسبيله وجمع السبل المخالفة له . وقال عبد اللَّه بن مسعود رضي اللَّه عنه : خط لنا رسول اللَّه ﷺ خطًا وقال : « هذا سبيل اللَّه » ثم خط خطوطًا عن يمينه ويساره وقال : « هذه سبل على كل سبيل شيطان يدعو إليه » ثم قرأ قوله تعالى : ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [الأنعَام: الآية ١٥٣] ، وهذا لأن الطريق الموصل إلى اللَّه طريق واحد وهو ما بعث به رسله وأنزل به كتبه ، لا يصل إليه أحد إلا من هذه الطريق ولو أتى الناس

من كل طريق واستفتحوا كل باب فالطرق عليهم مسدودة والأبواب أمامهم مغلقة إلا من هذا الطريق الواحد، فإنه متصل بالله موصل إلى الله.

وقد علم الله عباده كيفية سؤاله وأمرهم أن يقدموا بين يدي دعائهم وسؤالهم له الثناء عليه بحمده وتمجيده، ثم ذكر عبوديتهم وتوحيدهم، وهاتان وسيلتان إلى مطلوبهم، توسل إلى الله بأسمائه وصفاته، وتوسل إليه بعبوديته، وهاتان الوسيلتان لا يكاد يرد معهما دعاء. ويؤيد ذلك حديث عبد الله بن بريدة عن أبيه قال: سمع النبي ﷺ رجلًا يدعو ويقول: اللهم إني أسألك بأني أشهد أنك أنت الله الذي لا إله إلا أنت الأحد الصمد الذي لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوًا أحد. فقال: «والذي نفسي بيده لقد سأل الله باسمه الأعظم الذي إذا دعي به أجاب وإذا سئل به أعطى»[1]. قال الترمذي: حديث حسن صحيح.

فهذا توسل إلى الله بتوحيده والشهادة له بذلك، وثبوت الصفات الحسنى المدلول عليها باسم الصمد، وبنفي التمثيل والتشبيه عنه بقوله: «لم يلد ولم يولد ... إلخ» والتوسل بالإيمان بذلك والشهادة به هو الاسم الأعظم.

وقد جمعت الفاتحة الوسيلتين وهما التوسل إلى الله بالحمد والثناء عليه وتمجيده والتوسل إليه بعبوديته وتوحيده، ثم جاء سؤال أهم المطالب وأنجح الرغائب وهو الهداية بعد الوسيلتين. فالداعي به حقيق بالإجابة. والله سبحانه وتعالى أعلم. ونسأل الله أن يجعلنا من المهتدين إلى صراطه المستقيم.

❁❁❁

(١) أخرجه الترمذي (٣٤٧٥). وصححه الألباني.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

تفسير القرآن الحكيم[١]

سورة البقرة

آياتها مائتان وثمانون وسبع آيات أو ست آيات ، جميعها مدنية بالإجماع ، منها آية (٢٨١) ﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ﴾ [البقرة: الآية ٢٨١] ... إلخ . قال ابن عباس : إنها آخر القرآن نزولًا ، حكاه ابن جرير .

وسورة البقرة أطول سور القرآن كلها ، وتليها بقية السبع الطوال ، بتقديم المدني على المكي ، لا الطولى فالطولى .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿الٓمٓ﴾ [البقرة: الآية ١] تقرأ هذه الحروف مقطعة بالسكون لا بتحريك الإعراب . فنقول : ألفْ ، لامْ ، ميمْ ، لأنها لم تسق في جملة حتى تحرك بحركة الإعراب .

وقد اختلف في هذه الحروف الموضوعة في أوائل بعض سور القرآن الكريم .

فحكى القرطبي عن أبي بكر وعمر وعثمان وعلي وابن مسعود رضي الله عنهم أنها مما استأثر الله تعالى بعلمه ، وأنهم ردوا علمها إلى الله فلم يفسروها ، واختار هذا القول أبو حاتم بن حبان .

ومنهم من فسرها ، واختلفوا في معناها .

فقال بعضهم : هي أحرف من كلمات تدل على معنى ، فالألف من « أنا » ، واللام من « الله » ، والميم من « أعلم » ، فمعنى ﴿الٓمٓ﴾ (أنا الله أعلم) حكي

---

(١) مجلة الإصلاح - العدد الخامس - ١/٥/١٣٤٧.

ذلك عن ابن عباس .

وقال آخرون : هي فواتح يفتتح اللّه بها السور ، حكي عن مجاهد .

وقال آخرون : هي أسماء للسور التي فتحت بها ، قال الزمخشري : وعليه إطباق الأكثر ، ونقله عن سيبويه أنه نص عليه ، ويُعتضد لهذا بما روي في الصحيحين عن أبي هريرة أن النبي ﷺ كان يقرأ في صلاة فجر الجمعة : « الم » السجدة ، وهل أتى على الإنسان .

وروي عن ابن عباس أنها أقسام ، وقال الأخفش : إنما أقسم اللّه بهذه الحروف لشرفها وفضلها لأنها مباني كتبه المنزلة ومبادئ أسمائه الحسنى .

أما الحكمة التي اقتضت سوق هذه الحروف على هذا الوجه في أوائل هذه السور ، فقال بعضهم : هي معرفة أوائل السور ، حكاه ابن جرير ، قال ابن كثير : وهذا ضعيف لأن الفصل حاصل بدونها مما لم تذكر فيه .

وقال آخرون : هي بيان إعجاز القرآن الكريم ، وأن الخلق عاجزون عن معارضته بمثله مع أنه مركب من هذه الأحرف التي يتخاطب بها كلهم . وهذا القول محكي عن المبرد وجمع من المحققين ، وقرره الزمخشري ونصره أتم نصره . وإليه ذهب الإمام العلامة المجتهد شيخ الإسلام تقي الدين أحمد بن تيمية وأيده ابن كثير .

قال الزمخشري(١) : ولم ترد كلها مجموعة في أول القرآن وإنما كررت ليكون أبلغ في التحدي والتبكيت كما قررت قصص كثيرة .. قال : وجاءت على حرف وعلى حرفين وثلاثة وأربعة وخمسة لأن أساليب كلامهم على هذا من الكلمات ما هو على حرف وعلى حرفين وعلى ثلاثة وعلى أربعة وعلى خمسة لا أكثر من ذلك .

---

(١) الكشاف عن حقائق التنزيل ١٢٩/١ .

وقال آخرون : بل ابتدأ بها هذه السور لتنبيه المشركين الذين كانوا يتواصون بالإعراض عن القرآن ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَا تَسْمَعُواْ لِهَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ وَٱلْغَوْاْ فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ﴾ [فُصِّلَت: الآية ٢٦] حتى إذا استمعوا لها والتفتوا إليها هجم عليهم ﴿ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾ [البقرة: الآية ٢] ، ونحوها قبل أن يكون ثم مجال للانصراف .

قال الفخر الرازي(١) : إن الكفار لما قالوا : ﴿لَا تَسْمَعُواْ لِهَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ وَٱلْغَوْاْ فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ﴾ [فُصِّلَت: الآية ٢٦] ، وتواصوا بالإعراض عنه أراد اللَّه تعالى لما أحب من صلاحهم ونفعهم - أن يورد عليهم ما لا يعرفونه ليكون سببًا لإسكاتهم واستماعهم لما يرد عليهم من القرآن ، فأنزل اللَّه عليهم هذه الحروف ، فكانوا إذا سموها قالوا كالمتعجبين : اسمعوا إلى ما يجيء به محمد (عليه السلام) فإذا أصغوا هجم عليهم القرآن فكان ذلك سببًا لاستماعهم وطريقًا لانتفاعهم . اهـ .

وقد عزا الرازي هذا إلى محمد بن الحسن بن عبد اللَّه بن روق المحدث المتوفى سنة ١٦٨هـ وإلى محمد بن المستنير الشهير بقطرب النحوي المتوفى سنة ٢٠٦هـ .

وأضعف ما قيل في هذه الأحرف وأسخفه أن المراد بها الإشارة بحساب الجمل إلى مدة معينة لهذه الأمة أو ما يشابه ذلك .

قال الحافظ ابن كثير(٢) : وأما من زعم أنها دالة على معرفة المدد ، وأنه يستخرج من ذلك أوقات الحوادث والفتن والملاحم ، فقد ادعى ما ليس له ، وطار في غير مطاره . وقد روي في ذلك حديث ضعيف وهو مع ذلك أدل على بطلان هذا المسلك من التمسك به على صحته ، وهو ما رواه محمد بن إسحاق

(١) تفسير الرازي ١/١٨١ .

(٢) تفسير ابن كثير ١/٣٩ .

ابن يسار صاحب المغازي عن الكلبي عن أبي صالح عن ابن عباس عن جابر بن عبد اللّٰه بن رئاب قال : مر أبو ياسر ابن ياسر بن أخطب في رجال من يهود برسول اللّٰه ﷺ وهو يتلو فاتحة سورة البقرة .. وساق الحديث ، وهو طويل ، ثم قال : فهذا الحديث مداره على محمد بن السائب الكلبي ، وهو ممن لا يحتج بما انفرد به . اهـ .

بل الكلبي متهم بالكذب كما صرحوا به .

وأسخف من هذا القول وأشنع زعم بعض الشيعة أنها بعد حذف المكرر منها لمدح علي بن أبي طالب رضي اللّٰه عنه ، أو تفضيله ، وترجيح خلافته على غيره من الخلفاء الراشدين .

وقال الأستاذ صاحب المنار : إنه لا يزال يوجد في الناس حتى علماء التاريخ من يرى أن في هذه الحروف رموزًا إلى بعض الحقائق الدينية والتاريخية ستظهره الأيام .

قوله تعالى : ﴿ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ﴾ [البقرة: الآية ٢] ذلك بمعنى هذا في قول ابن عباس ومجاهد وعكرمة وغيرهم ، إشارة إلى ما أنزله اللّٰه تعالى على نبيه ﷺ من القرآن كله أو إلى ما نزل من السور قبل البقرة . والعرب تعاقب بين اسمي الإشارة فتجعل كل واحد منهما مكان الآخر ، وهذا معروف في كلامهم قال ابن جرير : فإن قال قائل وكيف يجوز أن يكون ذلك بمعنى هذا ، وهذا لا شك إشارة إلى حاضر معاين ، وذلك إشارة إلى غائب غير حاضر ولا معاين ؟ قيل : جاز ذلك لأن كلَّ ما تقضَّى وقرُب تقضِّيه من الأخبار فهو وإن صار بمعنى غير الحاضر فكالحاضر عند المخاطب . اهـ .

وقال الأستاذ صاحب المنار : والإشارة البعيدة بالكاف يراد بها بعد مرتبته في الكمال ، وعلوها عن متناول قريحة شاعر أو مقول خطيب قوال ، والبعد والقرب

في الخطاب الإلهي إنما هو بالنسبة إلى المخلوقين . اهـ .

و﴿ٱلْكِتَٰبُ﴾ مصدر وهو بمعنى المكتوب كما يقال للمخلوق خلق . وأصل الكتب الجمع والضم ، ويقال للجند كتيبة لاجتماعها ، وسمي الكتاب كتابًا لأنه جمع أحرف إلى أحرف . والإشارة إليه تعينه تعيينًا شخصيًا أو نوعيًا ، والمراد : كتاب معروف معهود للنبي ﷺ بوصفه . وذلك العهد مبني على صدق الوعد من اللَّه تعالى بأن يؤيده بكتاب مبين ﴿يَهْدِى بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِهِۦ وَيَهْدِيهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [المائدة: الآية ١٦] . وإنما أشار اللَّه جل شأنه إلى الكتاب كله مع أنه لم يكن وقت الإشارة قد نزل جميعه إشارة إلى أن اللَّه لابد متم ذلك الكتاب إنجازًا لوعده وتصديقًا لقوله .

﴿لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ [البقرة: الآية ٢] الريب مصدر من قولك رابني الشيء يريبني ريبًا وريبة . والريب والريبة الشك والظنة بمعنى التهمة .

والمعنى أن ذلك الكتاب بريئ من العيوب والنقص فلا شك فيه ، ولا ريبة تعتريه ، لا من حيث كونه تنزيل العزيز الحميد على نبيه الكريم ، ولا من حيث إنه هاد إلى الصراط القويم الكافل لسعادة الدنيا والآخرة . وأن مجيئه على ذلك الأسلوب البليغ على لسان ذلك النبي الأمي الذي لم يسبق منه قبل النبوة معاناة تلك الفنون من ضروب القول فضلًا عن هذه الدرجة التي تقاصرت دونها فحول الكلام ، ذلك الكتاب الذي جاء على هذه الصفة من نظر إليه بعين الاتصاف ، أو ترفع عن عمى الظلم والاعتساف لا يسعه إلا أن يقول : ﴿ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾ [البقرة: الآية ٢] .

ومن القراء من يقف على ﴿لَا رَيْبَ﴾ ، والمعنى على ذلك : ذلك الكتاب الحقيق بالإجلال والإكبار والإعظام لما جمع من صفات الصدق والحق والهدى

بما لم يحظ شيء من الكتب بعشر معشاره ، وذلك مثل قولك : هذا الرجل ، لمن تريد تعظيمه وإجلاله ، ويرجح قراءة الجمهور أول سورة السجدة ﴿الٓمٓ ۝١ تَنزِيلُ ٱلْكِتَـٰبِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِن رَّبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ﴾ ، وأنه على قراءة الجمهور يكون هدى وذلك أبلغ من وصفه بأن فيه هدى .

﴿هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾ الهدى هنا مصدر من قولك : هديت فلانًا الطريق . إذا أرشدته إليه ودللته عليه وبينته له أهديه هدى وهداية .

وكلمة ﴿ٱلْمُتَّقِينَ﴾ من الاتقاء . والاسم التقوى وأصل مادتها وقئ يقي ، والوقاية معروفة المعنى . ومعنى التقوى منع وقوع عذاب اللَّه تعالى ودفعه ، وعذاب اللَّه تعالى يكون في الدنيا ، كما يكون في الآخرة ، وإن اختلفت مادته في الحالتين . ففي القرآن الكريم كثير من قصص الأمم التي عذبها اللَّه تعالى في الدنيا بالخسف والمسخ والإغراق والإحراق وتسليط الأعداء الذين يسومونهم سوء العذاب ، وبين اللَّه جل شأنه أسباب هذا العذاب الذي سلكوه حتى أدى بهم إلى العذاب الأليم ، وكذلك ذكر اللَّه جل شأنه في وصف عذاب الآخرة - نسأل اللَّه العافية - ما يذيب القلوب ، ويفتت الأكباد ، كما يبين الطريق المؤدي إليه .

وينحصر سبب العذابين في مخالفة سنن اللَّه الكونية أو سنن اللَّه التشريعية .

فأمة بني إسرائيل خالفت سنة اللَّه الكونية في أن القوى الموزعة والقلوب المتفرقة والأيادي الفارغة من السلاح لا ترد عدوًا ولا تدفع صائلًا مهما كان عدد هذه الأمة كثيرًا وسوادها عظيمًا فكله غثاء كغثاء السيل لا يغني فتيلًا ولا يفيد نقيرًا ، هذا مع مخالفتها لسننه التشريعية وعدوانهم على حدوده وإفسادهم في الأرض بالظلم والفسوق ، فعذبهم اللَّه تعالى بعبادٍ أولى بأس شديد فجاسوا خلال الديار وكان وعدًا مفعولًا .

فالتقوى هي أن يبتعد الناس أفرادًا ومجتمعين عن هذه الأسباب ، فيطيعوا أمره ويجتنبوا نهيه ، من قلوب مخلصة بذلك ، قد خلصت نيتهم وصدقت عزيمتهم في سرهم والإعلان . وفي الحقيقة فالتقوى أصلها الخوف والخشية لله سبحانه وتعالى وحسن مراقبته : مراقبة تجعل العبد دائمًا حاضرًا بين يدي ربه في كل حين وعلى كل حال . « فإنك إن لم تكن تراه فإنه يراك » . وتلك التقوى هي التي تقوم من خلق المؤمن وتهذب من نفسه وتزكيه وتطهره من كل خلق خبيث وطبع ذميم .

هذه التقوى هي الأتون الذي يصهر فيه القلب ووقوده الخوف والخشية فيخرج وقد تطهر من صدأ القسوة وخبائث الجفوة ونقائص الأطماع والحظوظ الشهوانية والشهوات الشيطانية التي كلها تتراكم عليه إذا حرم ذلك الوقود فانطفأ ذلك الأتون .

يظن بعض الناس أن التقوى هي مجرد الحركات الظاهرية في الأعمال الشرعية إيجابًا وسلبًا ، فيظنون أن التقوى في الصلاة هي أن يصلي الخمسة الأوقات بوضوئها وركوعها وسجودها مكتفيًا بتلك المظاهر عن البحث عما وراء ذلك من حقائق ما في الصلاة مع الجماعة مثلًا من أن القصد جمع كلمة المسلمين وربط قلوبهم برباط المودة والإخاء، وجعل ذلك الموقف موقف الخشوع بين يدي الكبير المتعال شافعًا فيما عساه يكون في قلوبهم من أثر شحناء أو بغضاء قضت سنة الحياة وحركتها بأن يحدث شيء منها من مشادة في بيع أو شراء مثلًا ، يزول ذلك في موقف الجماعة ، فيخرجون إخوانًا متحابين قد صفت قلوبهم وخلصت مما لو طال بقاؤه لقضى عليهم وعلى قوتهم كما هو مرئي ومحسوس الآن بين الجماعات التي لا ترعى ولا تحقق حكمة صلاة الجماعة التي أشار إليها الرسول ﷺ بقوله : « لتسوُّن صفوفكم أو

ليخالفن اللَّه بين قلوبكم »(١) .

ويقاس على هذا غيره من كل الأعمال الشرعية التي هي في حقائق أمرها لمن يتأملها أنهار عذبة ترد على القلوب فتغسلها وتطهرها من الأدران والقاذورات ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ﴾ [ق: الآية ٣٧] .

قال الأستاذ صاحب المنار : إن العقاب الإلهي الذي يجب على الناس اتقاؤه قسمان : دنيوي ، وأخروي ، وكل منهما يتقى باتقاء أسبابه . وهي نوعان : مخالفة دين اللَّه وشرعه ، ومخالفة سننه في نظام خلقه ، فأما عقاب الآخرة فيتقى بالإيمان الصحيح ، والتوحيد الخالص ، والعمل الصالح ، واجتناب ما ينافي ذلك من الشرك والكفر والمعاصي والرذائل ، وذلك مبين في كتاب اللَّه تعالى وسنة رسوله ﷺ . وأفضل ما يستعان به على فهمهما واتباعهما سيرة السلف الصالح رضي اللَّه عنهم من الصحابة والتابعين والأئمة الأولين من آل الرسول وعلماء الأمصار .

وأما عقاب الدنيا فيجب أن يستعان على اتقائه بالعلم بسنن اللَّه تعالى في هذا العالم ، ولا سيما سنن اعتدال المزاج ، وصحة الأبدان ، وأمثلتها ظاهرة ، وسنن الاجتماع البشري .

فاتقاء الفشل والخذلان في القتال يتوقف على معرفة نظام الحرب وفنونها وإتقان آلاتها وأسلحتها التي ارتقت في هذا العصر ارتقاء عجيبًا وهو المشار إليه بقوله : ﴿وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِۦ

---

(١) أخرجه البخاري (٧١٧) ، ومسلم (٤٣٦) من حديث النعمان بن بشير رضي اللَّه عنه ، بلفظ : « وجوهكم » . بدل : « قلوبكم » ، وأخرجه أحمد ٢٧٦/٤، وأبو داود (٦٦٢) بلفظ : « لتقيمن صفوفكم أو ليخالفن اللَّه بين قلوبكم » .

عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ﴾ [الأنفال: الآية ٦٠] كما يتوقف على أسباب القوة المعنوية من اجتماع الكلمة واتحاد الأمة والصبر والثبات والتوكل على الله واحتساب الأجر عنده ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَٱثْبُتُواْ وَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٤٥﴾ وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَا تَنَٰزَعُواْ فَتَفْشَلُواْ وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْۖ وَٱصْبِرُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ . اهـ .

❁❁❁

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

تفسير القرآن الحكيم[١]

قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ﴾ [البقرة: الآية ٣].

الإيمان إفعال من الأمن المتعدي إلى واحد، يقال آمنته، وبالنقل تعدى إلى اثنين، يقال: آمنينه غيري. ثم استعمل في التصديق، لأن المصدق يؤمن المصدَّق، أي يجعله أمينًا من التكذيب والمخالفة، واستعماله بالباء لتضمينه معنى الاعتراف. وقد يطلب على الوثوق، فإن الواثق يصير ذا أمن وطمأنينة.

وهو شرعًا مجموع ثلاث أمور: اعتقاد الحق، والإقرار به، والعمل بموجبه.

قال ابن جرير: الإيمان كلمة جامعة للإيمان بالله وكتبه ورسله، وتصديق ذلك الإقرار بالفعل.

وقال ابن كثير[٢]: أما الإيمان في اللغة فيطلق على التصديق المحض، وقد يستعمل في القرآن. والمراد به ذلك كما في قوله تعالى: ﴿وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [التوبة: الآية ٦١]، وكما قال إخوة يوسف لأبيهم: ﴿وَمَآ أَنتَ بِمُؤْمِنٍ لَّنَا وَلَوْ كُنَّا صَٰدِقِينَ﴾ [يوسف: الآية ١٧]، وكذلك إذا استعمل مقرونًا بالأعمال كقوله تعالى: ﴿الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّٰلِحَٰتِ﴾ [البقرة: الآية ٢٥]. فأما إذا استعمل مطلقًا فالإيمان الشرعي المطلوب، ولا يكون إلا اعتقادًا وقولًا وعملًا؛ هكذا ذهب إليه أكثر الأئمة بل قد حكاه الشافعي وأحمد وأبو عبيدة وغير واحد إجماعًا، وقد ورد فيه آثار وأحاديث كثيرة.

---

(١) تفسير ابن كثير ٤١/١.

(٢) مجلة الإصلاح - العدد السادس - ١٣٤٧/٥/١٥هـ.

« والغيب » مصدر أقيم مقام اسم الفاعل كالصوم بمعنى الصائم والزور بمعنى الزائر ، وهو ما غاب عن الحس والعقل غيبة كاملة بحيث لا يدرك بواحد منهما ابتداء بطريق البداهة . وذلك الغائب إما أن لا ينصب عليه دليل يمكن من الوصول إليه ، وذلك هو المعنى بقوله تعالى : ﴿وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ﴾ [الأنعام: الآية ٥٩] ، وإما أن يكون قد نصب عليه من الدلائل المحسوسة أو المعقولة ما يمكن من الوصول إليه ، وذلك كالله وصفاته ، والملائكة ، والجن ، والنبوات وما يتعلق بها من أحكام وشرائع ، واليوم الآخر والبعث بعد الموت والجنة والنار وما إلى ذلك من حساب وجزاء وغيره .

قال أبو مسلم الأصفهاني : معناه إنهم يؤمنون بالله حال الغيب كما يؤمنون به حال الحضور لا كالمنافقين الذين إذا لقوا الذين آمنوا قالوا آمنا وإذا خلوا إلى شياطينهم قالوا إنا معكم إنما نحن مستهزئون ، ونظيره قوله تعالى : ﴿ذَٰلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِٱلْغَيْبِ﴾ [يوسف: الآية ٥٢] ، ويقول الرجل لغيره : نعم الصديق لك فلان بظهر الغيب . وكل ذلك مدح للمؤمنين يكون ظاهرهم موافق لباطنهم ، ومباينتهم لحال المنافقين الذين يقولون بأفواههم ما ليس في قلوبهم . اهـ .

وقال ابن عباس رضي الله عنهما : الغيب هنا كل ما أمرت بالإيمان به فيما غاب عن بصرك من الملائكة والبعث والجنة والنار والصراط والميزان .

وقال عبد الرحمن بن يزيد : كنا عند ابن مسعود فذكرنا أصحاب محمد ﷺ وما سبقوا به ، فقال عبد الله . إن أمر محمد كان بينا لمن رآه ، والذي لا إله غيره ما آمن أحد قط إيمانًا أفضل من إيمان بغيب ، ثم قرأ : ﴿الٓمٓ ۝١ ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ۝٢ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ۝٣ وَٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ وَبِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ۝٤ أُو۟لَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ .

وقال ابن كثير[١] : اختلفت عبارات السلف فيه وكلها صحيحة ترجع إلى أن الجميع مراد ، وقد رجح ابن جرير أن هاتين الآيتين نزلتا في مؤمني العرب دون مؤمني أهل الكتاب ، مستدلًا على ذلك بأن المؤمنين الذين ذكروا في هاتين الآيتين والأوصاف التي وصفهم الله بها فيهما غير الذين وصفهم في قوله : ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ﴾ [البقرة: الآية ٤] ... إلخ بالإيمان بما أنزل على محمد ﷺ وما أنزل على من سبقه من الرسل . وقد استدل على ذلك أيضًا بأنه تعالى قسم الكفار إلى قسمين : مظهر لكفره ، ومنافق . فكذلك قسم المؤمنين إلى قسمين ، وقد نعت الله لعباده كل صنف وجزاءه .

وقال الأستاذ صاحب المنار : وجمهور المفسرين على أن هذه الآية في المسلمين من العرب أو مطلقًا ، وما بعدها فيمن أسلم من أهل الكتاب خاصة . وفسرهما شيخنا (الشيخ محمد عبده) تفسيرًا هو أقرب إلى مدلول النظم وإن كان أبعد عن الروايات فقال ما مثاله :

الناس قسمان مادي لا يؤمن إلا بالحسيات ، وغير مادي يؤمن بما لا يدركه الحس ، أي بما غاب عن المشاعر متى أرشد إليه الدليل أو الوجدان السليم ، ولا شك أن الإيمان بالله وملائكته ، وهي جنود غائبة لها مزايا وخواص يعلمها الله سبحانه وتعالى ، وباليوم الآخر ، إيمان بالغيب ، ومن لا يؤمن بالله لا يمكن أن يهتدي بالقرآن ، ومن يتصدى لهدايته لابد أن يقيم الحجة العقلية على أن لهذا العالم إلهًا متصفًا بصفات الكمال التي لا تتحقق الإلهية إلا بها ، ثم يقنعه بأن هذا القرآن هداية من لدنه تعالى ، لذلك وصف الله المتقين الذين يهتدون بالقرآن بقوله : ﴿ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْغَيْبِ﴾ [البقرة: الآية ٣] ، والإيمان بالغيب هو الاعتقاد بموجود وراء الحس . وصاحب هذا الاعتقاد واقف على طريق الرشاد ، وقائم

(١) تفسير ابن كثير ١/٤٢ .

على أول النهج ، لا يحتاج إلا إلى من يدله على المسلك ويأخذ بيده إلى الغاية . فإن من يعتقد أن وراء المحسوسات موجودات يصدق بها العقل ، وإن كانت لا يأتي عليها الحس ، إذا أقمت له الدليل على وجود فاطر السموات والأرض ، المستعلي عن المادة ولواحقها ، المتصف بما وصف به نفسه على ألسنة رسله سهل عليه التصديق وخف عليه النظر في جلي المقدمات وخفيها ، وإذا جاء الرسول بذكر اليوم الآخر أو بذكر عالم من العوالم التي استأثر اللَّه تعالى بعلمها ، كعالم الملائكة مثلًا لم يشق على نفسه تصديق ما جاء به الخبر بعد ثبوت النبوة ، لهذا جعل اللَّه هذا الوصف في مقدمة أوصاف المتقين الذين يجدون في القرآن هدى لهم .

وأما من لا يعرف من الموجود إلا المحسوس ، ويظن أن لا شيء وراء المحسوسات وما اشتملت عليه ، فنفسه تنفر من ذكر ما وراء مشهوده أو ما يشبه مشهوده ، وقلما تجد السبيل إلى قلبه إذا بدأته بدعواك ، نعم قد توصلك المجاهدة بعد مرور الزمان في إيراد المقدمات البعيدة ، والأخذ به في الطرق المختلفة إلى تقريبه مما تطلب ، ولكن هيهات أن ينصرك الصبر ، ويخضعه القهر ، حتى يتم لك منه الأمر . فمثل هذا إذا عرض عليه القرآن نبا عنه سمعه ، ولم يجمل من نفسه وقعه ، فكيف يجد فيه هداية ، أو منقذًا من غواية ؟

ولما كان الإيمان بالغيب يطلق عند الناس (من العامة وأشباههم) على ذلك الاستسلام التقليدي الذي لم يأخذ من النفس إلا مأخذ اللفظ من اللسان ، وليس له أثر في الأفعال ، لأنه لم يقع تحت نظر العقل ، ولم يلحقه وجدان القلب ، بل أغلقت عليه خزانة الوهم ومثل هذا الذي يسمونه إيمانًا لا يفيد في إعداد القلب للاهتداء بالقرآن ، لمَّا كان هذا شأنهم مَنَّ اللَّه علينا ببيان يشعر بحقيقة ما أراد اللَّه تعالى من معنى الإيمان ، فذكر علامات المؤمنين بالغيب الذين ينتفعون بهداية

القرآن بالجمل الآتية :

قال : ﴿وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ [البقرة: الآية ٣] إقامتها عبارة عن تعديل أركانها بالاطمئنان والخشوع واستقامة الأعضاء في كل ركن بحسبه ، وحفظها من أن يقع في شيء من فرائضها وسننها وآدابها زيغ أو تقصير ، وإيقاعها في أوقاتها التي جعلها اللَّه لها والتي لا تسمى صلاة مشروعة ولا تنفع عند اللَّه ولا تقبل بحال إلَّا إذا كانت فيها .

قال ابن عباس : يقيمون الصلاة بفروضها . وقال الضحاك عن ابن عباس : إقامة الصلاة إتمام الركوع والسجود والتلاوة والخشوع والإقبال عليها فيها . وقال قتادة : إقامة الصلاة المحافظة على مواقيتها ووضوئها وركوعها وسجودها .

وقال صاحب المنار : الصلاة إظهار الحاجة والافتقار إلى المعبود بالقول أو العمل أو كليهما ، وهو المراد بقولهم « الصلاة معناها الدعاء » لأن إظهار الحاجة إلى العظيم الكريم ولو بالفعل فقط التماس للحاجة واستدرار للنعمة ، أو طلب لدفع النقمة ، أرأيتم أولئك الذين يقفون بين أيدي الملوك ناكسي رؤوسهم حاني ظهورهم ، وتارة يقعون على أقدامهم يقبلونها ، أليس الباعث على هذا العمل إما خوف من عقوبة يطلبون دفعها ، وإما حذر من نعمة يتوقعون سلبها ورفعها ، فيلتمسون بقاءها ، ويرجون زيادتها ونماءها ؟

هذه الصلاة كانت توجد عند بعض الجاهليين ، وهم الذين كانوا يعرفون بالحنفاء والحنيفيين ، وعند بعض أهل الكتاب . وكتب الأستاذ الشيخ محمد عبده في وصفها ما نصه :

والصلاة بالمعنى الذي ذكرناه قد ظهرت في الإسلام في أفضل أشكالها ، وهي تلك الصلاة التي فرضها اللَّه على المسلمين ، فإن هذه الأقوال والأفعال المفتتحة بالتكبير المختتمة بالتسليم على النحو الذي جاءت به السنة المتواترة من

أفضل ما يعبر به عن الإحساس بالحاجة إلى المعبود ، وشعور الأنفس بعظمته لو أقامها المصلون وأتوا بها على وجهها ، فإذا خلت الصلاة من هذا المعنى ، الذي هو التوجه إلى اللَّه تعالى ، والخشوع الحقيقي له ، والإحساس بالحاجة والافتقار إليه ، لم يصدق على المصلي أنه أقام الصلاة ، فإنه قد هدمها بإخلائها من عمادها ، وقتلها بسلبها روحها .

ومن غريب مزاعم من يسمون أنفسهم بالمسلمين أن حضور القلب في جميع أجزاء الصلاة واستشعار الخشية من أصعب ما تتجشم النفس ؛ بل يكاد يكون مستحيلًا لغلبة الخواطر على ذهن المصلي ، هذا ، وأخشى أن يكون هذا جحودًا لمعنى الصلاة ، وإنما عرض لهم هذا الوهم الباطل من شدة الغفلة ، واستحكام العلة . وإني أدلهم على طريقة لو أخذوا بها لشغلوا بمعنى الصلاة عن كل شيء دونها ، تلك الطريقة هي أن لا ينطق المصلي بلفظ إلا وهو يستورد معناه على ذهنه . فإذا قال ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الفَاتِحَة: الآية ٢] يستحضر معنى الحمد وإضافته إلى ذات اللَّه تعالى ، مع وصفه بالربوبية لجميع الأكوان العلوية والسفلية ، وإذا قال مثل ﴿مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ﴾ [الفَاتِحَة: الآية ٤] تصور معنى الملك وتعلقه بذلك اليوم ، يوم الجزاء ، وهكذا . فإذا أخذ المصلي على نفسه أن يتصور المعاني من ألفاظها التي ينطق بها فقد أقام الصلاة ، أما وهو ينطق ولا يفقه ولا يلحظ بذهنه معنى لفظ ما يقول فكيف يزعم أنه يصلي فضلًا عن أنه يقيم الصلاة .

قوله تعالى : ﴿وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ﴾ [البقرة: الآية ٣] الرزق في اللغة الحظ قال تعالى : ﴿وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ﴾ [الواقِعَة: الآية ٨٢] أي حظكم من هذا الأمر . والحظ هو نصيب الشخص وما هو خاص له دون غيره ويطلق على الحسي والمعنوي كالمال والولد ، والعلم والتقوى . ويخص بأمور المعاش بقرينة

الحال أو المقال . وهو عند أهل السنة ما انتفع به من حلال أو حرام . وخصه المعتزلة بالحلال ؛ وحجتهم على ذلك باطلة بالكتاب والسنة ، أما الكتاب فقوله تعالى : ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا﴾ [هُود: الآية ٦] ، وأما السنة فما روي عنه عليه السلام في حديث عمرو بن قرة حين أتاه فقال : يا رسول اللَّه إن اللَّه كتب عليَّ الشقوة ، فلا أرى أرزق إلا من دُفيٍّ بكفي ، فائذن لي في الغناء من غير فاحشة . فقال عليه السلام : « لا آذن لك ولا كرامة ولا نعمة ، كذبت أي عدو اللَّه ، واللَّه لقد رزقك اللَّه حلالًا طيبًا فاخترت ما حرم اللَّه عليك من رزقه مكان ما أحل اللَّه لك من حلاله » .

وأصل الإنفاق إخراج اليد من المال ، ومنه نفق المبيع نفاقًا ، إذا كثر المشتري له ، ونفقت الدابة إذا خرجت روحها . ونفاق الشيء كنفاده خلا أن في الثاني معنى الإذهاب بالكلية دون الأول ، والإنفاق مما رزقهم يشمل الزكاة ، والإنفاق على النفس وعلى من تجب عليه نفقته من ذوي القربى واليتامى والمساكين والسائلين وفي الرقاب والغارمين وفي سبيل اللَّه وابن السبيل .

وأدخل من التبعيضية ليكون الإنفاق بعض ما يملكون كفًّا لهم وصونًا عن الإسراف والتبذير المؤدي إلى الهلاك بالجوع والفقر المنهي عنه .

وقال الإمام ابن جرير[1] رحمة اللَّه عليه : وأولى التأويلات بالآية وأحقها بصفة القوم أن يكونوا لجميع اللازم لهم في أموالهم مؤدين ؛ زكاة كان ذلك ، أو نفقة من لزمته نفقته من أهل وعيال وغيرهم ممن تجب عليهم نفقته بالقرابة والملك وغير ذلك ، لأن اللَّه جل ثناؤه عمَّ وصفهم إذ وصفهم بالإنفاق مما رزقهم ، فمدحهم بذلك من صفتهم . فكان معلومًا أنه إذا لم يخصص مدحهم ووصفهم بنوع من النفقات المحمود عليها صاحبها دون نوع بخبر ولا غيره أنهم

(١) تفسير ابن جرير ١/١٠٥ .

موصوفون بجميع معاني النفقات المحمود عليها صاحبها من طيب ما رزقهم ربهم من أموالهم وأملاكهم، وذلك الحلال منه الذي لم يشبه حرام. اهـ.

وقال الأستاذ صاحب المنار: قال شيخنا شارحًا ذلك على طريقته بما مثاله:

هذا الوصف أقوى أمارات الإيمان بالغيب لأن كثيرًا من الناس يأتون بضروب العبادات البدنية كالصلاة والصوم، ومتى عرض لهم ما يقتضي بذل شيء من المال للَّه تعالى يمسكون ولا تسمح أنفسهم بالبذل، وليس المراد بالإنفاق هنا ما يكون على الأهل والولد، ولا ما يسمونه بالجود والكرم كقرى الضيف ابتغاء عوض؛ كالشهرة والجاه، أو الإنس بالأصحاب، لأن هذا ليس من آثار الإيمان بالغيب، وإنما هو الإنفاق الناشئ عن شعور بأن اللَّه تعالى هو الذي رزقه وأنعم عليه به، وأن الفقير المحروم عبد للَّه مثله، وأنه حرم من سعة العيش لضعف أو حرمان من الأسباب التي توصل إلى الرزق، أو عن إحساس بأن مصلحة من مصالح المسلمين، ومنفعة من منافعهم العامة لا تقوم أو لا تصل إليهم إلا ببذل المال. وقد أوجب اللَّه على من أوتي المال أن ينفق منه في ذلك السبيل، وهو أفضل سبل اللَّه. فمن يجد من نفسه داعية لبذل أحب الأشياء إليه وهو ماله ابتغاء مرضاة اللَّه تعالى، وقيامًا بشكره ورحمة لأهل العوز والبائسين من خلقه، فهو لا شك مستعد لقبول هداية القرآن أتم استعداد حتى إذا ما دعي إليه لبى وأجاب، وأسلم إلى اللَّه تعالى وأناب. اهـ.

قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ وَبِٱلْـَٔاخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ﴾ [البقرة: الآية ٤].

قال الرازي[1]: اعلم أن قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْغَيْبِ﴾ [البقرة: الآية ٣] ... إلخ، عام يتناول كل من آمن بمحمد ﷺ سواء كان قبل ذلك مؤمنًا

(١) تفسير الرازي ١/٢٠١.

بموسى وعيسى عليهما السلام، أو ما كان مؤمنًا بهما.

ودلالة اللفظ العام على بعض ما دخل فيه التخصيص أضعف من دلالة اللفظ الخاص على ذلك البعض لأن العام يحتمل التخصيص والخاص لا يحتمله فلما كانت هذه السورة مدنية، وقد شرف الله تعالى المسلمين بقوله: ﴿هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ۝ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ﴾ فذكر بعد ذلك أهل الكتاب الذين آمنوا بالرسول ﷺ كعبد الله بن سلام وأمثاله بقوله: ﴿وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ﴾ [البقرة: الآية ٤] لأن في هذا التخصيص بالذكر مزيد تشريف لهم كما في قوله تعالى: ﴿مَن كَانَ عَدُوًّا لِّلَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَرُسُلِهِ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَالَ﴾ [البقرة: الآية ٩٨]. ثم تخصيص عبد الله بن سلام رضي الله عنه وأمثاله بهذا التشريف ترغيب لأمثاله في الدين. فهذا هو السبب في ذكر هذا الخاص بعد ذلك العام؛ تصديق إذعان ومعرفة وانقياد بما جئت به وما جاء به من قبلك من الرسل لا يفرقون.

قوله: ﴿يُؤْمِنُونَ﴾ أي يصدقون بينهم ولا يجحدون ما جاءوهم به من عند ربهم.

وقوله: ﴿بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ﴾ [البقرة: الآية ٤] أي بالقرآن الكريم والشريعة المحكمة التي جاء بها محمد ﷺ. المراد من إنزال القرآن وكونه منزولًا به أن جبريل عليه السلام سمع في السماء كلام الله تعالى ثم نزل به على الرسول ﷺ.

❁❁❁

بسم الله الرحمن الرحيم

تفسير القرآن الحكيم(١)

قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ وَبِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ﴾ [البقرة: الآية ٤] عطف على الموصول الأول الذي وصف الله به المتقين الذين يهتدون بالقرآن الكريم. وقد روي عن ابن عباس وابن مسعود رضي الله عنهم أنهم مؤمنوا أهل الكتاب، وقد دل كثير من الآيات والأحاديث على أن لمؤمني أهل الكتاب أجرين بسبب جمعهم بين الإيمان بما أنزل على محمد ﷺ وما أنزل على غيره من الأنبياء السابقين. نعم هذا الجمع حاصل أيضًا ممن آمن من العرب بمحمد ﷺ، لأن أصل الإيمان به الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله ﴿آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِ﴾ [البقرة: الآية ٢٨٥]، ولكن لمؤمني أهل الكتاب فضل سبق العمل بما أنزل من الكتب السابقة، وأنهم كانوا ينتظرون مجيء النبي ﷺ بما عندهم من العلم به ومعرفة صفاته من التوراة والإنجيل. فبهذا يمتازون، وإن كانت الآية بعموم ظاهرها شاملة لكل من آمن بأنبياء الله وكتبه سواء في ذلك أهل الكتاب وغيرهم.

والمراد من الإيمان الذي به يستحق صاحبه هذا المدح والثناء هو التصديق القلبي الذي ينبعث عنه الإذعان والانقياد لكل ما يستلزمه ذلك الإيمان من قول وعمل واعتقاد ونية، وذلك لا يكون إلا عن معرفة صادقة بحقيقة ذلك الإيمان وبصيرة تامة فيه بحيث يتجلى تجليًا صحيحًا يمتاز به عن ضده من الكفر والشرك وما يتبعهما من قول وعمل ونية. ولا ينجلي الإيمان ذلك الانجلاء حتى يصل إلى

---

(١) مجلة الإصلاح - العددان السابع والثامن - ١٣٤٧/٦/١٥هـ.

القلب من طريق العلم الصحيح الصادق، الذي خلص من شوائب الكدورات وطهر من أدران التشكيكات، وما يتبع ذلك إلا من تنزيل الحكيم الحميد الذي نزل به الروح الأمين على قلب محمد ﷺ ليكون من المؤمنين.

الإيمان بما أنزل على محمد ﷺ هو الاعتقاد بأنه ما اخترعه من عند نفسه ولا تلقاه من بشر مثله، وإنما هو تنزيل من عند ربه، ما أنزله اللَّه ليسلي به نبيه محمدًا، ولا ليجعله فقط عالمًا ومحيطًا بأخبار الماضين وقصص السابقين، بل أنزله هدى ورحمة وشفاء للمؤمنين ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَآءٌ لِّمَا فِى ٱلصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ [يُونس: الآية ٥٧].

كثير من الناس يزعم أنه مؤمن بما أنزل على محمد ﷺ، ثم يأتي من الأعمال من الشرك والكذب والبهتان وشهادة الزور وقول الباطل وأكل الأموال وترك الصلاة ومنع الزكاة وغير ذلك ما يتنافى مع حقيقة ذلك الإيمان الذي إذا صدق صاحبه هداه إلى خير الأقوال والأعمال والأخلاق، ونهاه عن الفحشاء والمنكر والبغي والعدوان ﴿كَبُرَ مَقْتًا عِندَ ٱللَّهِ أَن تَقُولُوا۟ مَا لَا تَفْعَلُونَ﴾ [الصَّف: الآية ٣].

﴿وَبِٱلْـَٔاخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ﴾ [البقرة: الآية ٤] أي بالدار الآخرة، والآخرة تأنيث الآخر، اسم فاعل من أخر الثلاثي بمعنى تأخر وإن لم يستعمل، وهي صفة في الأصل، كالدار الآخرة. وينشئ النشأة الآخرة، ثم غلبت على الوقت المعلوم كالدنيا.

واليقين قال الجوهري: هو العلم وزوال الشك. وذهب الواحدي وجماعة إلى أنه ما يكون عن نظر واستدلال.

وقيل: هو العلم الذي لا يحتمل النقيض. وقال الراغب: إن اليقين من صفة العلم فوق المعرفة والدراية وأخواتها، يقال علم يقين؛ ولا يقال معرفة يقين، وهو

سكون النفس مع ثبات الحكم.

وفي الإحياء: أن اليقين مشترك بين معنيين: الأول عدم الشك، فيطلق على كل ما لا شك فيه، سواء حصل بنظر أو حس، أو غريزة عقل، أو بتواتر، أو بدليل وهذا لا يتفاوت. والثاني هو ما صرح به الفقهاء والصوفية وكثير من العلماء هو ما لا ينظر فيه إلى التجويز والشك، بل إلى غلبته على القلب، حتى يقال: فلان ضعيف اليقين بالموت، قوي اليقين بإثبات الرزق، فكل ما غلب على القلب واستولى عليه فهو اليقين، وتفاوت هذا ظاهر.

وقال في لسان العرب: العلم وإزاحة الشك وتحقيق الأمر. واليقين نقيض الشك، والعلم نقيض الجهل، وتقول علمته يقينًا، وفي التنزيل العزيز ﴿وَإِنَّهُۥ لَحَقُّ ٱلْيَقِينِ﴾ [الحاقَّة: الآية ٥١] أضاف الحق إلى اليقين وليس هو من إضافة الشيء إلى نفسه، لأن الحق هو غير اليقين، إنما هو خالصه وأصحه، فجرى مجرى إضافة البعض إلى الكل.

وقال سبحانه: ﴿وَبِٱلْـَٔاخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ﴾ [البقرة: الآية ٤] ولم يقل يؤمنون لكثرة غرائب متعلقات الآخرة وما أعد فيها من الثواب والعقاب، وتفصيل أنواع ذلك مع إثبات المعاد الجثماني كيفما كان، إلى غير ذلك مما هو أغرب من الإيمان بالكتاب المنزل، حتى أنكره كثير من الناس؛ وخلت التوراة والإنجيل من تفصيله كما جاء في القرآن الكريم. فناسب أن يقرن هذا الأمر المهم الغريب الذي كثر منكروه لحيرة عقولهم في كنهه وحقيقته بالإيقان.

وتقديم المجرور إشارة إلى قصر إيقانهم على حقيقة الدار الآخرة بما فيها من ثواب للمطيع وعقاب للفاسق، فهم لما عندهم من عظيم الإيقان بالآخرة، وشدة إيمانهم ملكت عليهم كل أمرهم، وكانت الشاغل لهم في كل شأنهم، فيقينهم بها معيارهم في كل أمر، فأصبحوا لذلك مقصورًا يقينهم على الدار الآخرة؛

ليسوا من أهل الأماني الذين يقولون بألسنتهم : إنا مؤمنون بالدار الآخرة وهم أشد الناس فيها شكًا وفي حقيقتها ارتيابًا بما يأتون من أعمال الفسق والعصيان ، والغفلة عن الموت وما بعده ، وامتلائهم بالغرور الكاذب والفتنة المغرية ، فمثلهم في ذلك مثل أهل الكتاب الذين هم أشد الناس محاربة للَّه وتكذيبًا لأنبيائه وحرصًا على طاعة الشيطان ، وهم مع ذلك يقولون : ﴿نَحْنُ أَبْنَـٰٓؤُا۟ ٱللَّهِ وَأَحِبَّـٰٓؤُهُۥ﴾ [المائدة: الآية ١٨] ، ﴿لَن تَمَسَّنَا ٱلنَّارُ إِلَّآ أَيَّامًا مَّعْدُودَةً﴾ [البقرة: الآية ٨٠] ، ﴿لَن يَدْخُلَ ٱلْجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصَـٰرَىٰ ۗ تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ﴾ [البقرة: الآية ١١١] .

وفي ذلك القصر والتأكيد بقوله (هم) تعريض بذم الشاكين المرتابين الذين هم بشكهم كافرون بما أنزل اللَّه من الكتب وأوحى من الشرائع فهم في ضلالهم يعمهون .

وليس المراد باليقين بالدار الآخرة وجزائها إلا ما يحمل صاحبه على العمل بما شرع من أحكام وعبادات تقي صاحبها خزي يوم القيامة ﴿يَوْمَ يَنظُرُ ٱلْمَرْءُ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ وَيَقُولُ ٱلْكَافِرُ يَـٰلَيْتَنِى كُنتُ تُرَٰبًۢا﴾ [النبإ: الآية ٤٠] ، وتجعله أهلًا لدار الكرامة التي أعدها اللَّه للمجتبين الصادقين . وفي الأثر : « يا عجبًا كل العجب من الشاك في اللَّه وهو يرى خلقه ، وعجبًا ممن يعرف النشأة الأولى ثم ينكر النشأة الآخرة ، وعجبًا ممن ينكر البعث والنشور وهو في كل يوم وليلة يموت ويحيا (يعني النوم واليقظة) ، وعجبًا ممن يؤمن بالجنة وما فيها من النعيم ثم يسعى لدار الغرور ، وعجبًا من المتكبر الفخور وهو يعلم أن أوله نطفة مذرة وآخره جيفة قذرة » .

وقال الشيخ محمد عبده ما معناه :

لا يعتد بما دون اليقين في الإيمان . وقد قال تعالى في اعتقاد قوم : ﴿وَمَا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ ۖ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ ۖ وَإِنَّ ٱلظَّنَّ لَا يُغْنِى مِنَ ٱلْحَقِّ شَيْـًٔا﴾ [النجم: الآية ٢٨] ،

وإذا لم يكن الظان موقنًا وعلى نور من ربه في اعتقاده ، فما حال من هو دونه من الشاكين والمرتابين ؟

ويعرف اليقين في الإيمان باللَّه واليوم الآخر بآثاره في الأعمال .. إننا نرى الرجل يأتي إلى المحكمة بدعوى زور يريد أن يأكل بها حق أخيه بالباطل ، أو يجامل آخر بشهادة زور ، أو ينتقم بها من ثالث وهو يعلم أنه مزور ومبطل فيقال له : اتق اللَّه إن أمامك يومًا يعض الظالم فيه على يديه ، فيقول : أعوذ باللَّه ، أنا أعلم أن أمامي يومًا ، وإن أمامي شبرًا من الأرض (يعني القبر) ، والدنيا لا تغني عن الآخرة ، ويحلف اليمين الغموس باسم اللَّه تعالى إنه محق في دعواه ، أو في شهادته ، ثم يظهر التحقيق أنه مزور ، ويضطره إلى الاعتراف والإقرار بذلك ، فكان الإيمان باللَّه واليوم الآخر عنده خيال يلوح في ذهنه عندما يريد الخلابة والخداع لأجل أكل الحقوق وإرضاء الهوى ولا يظهر له أثر في أعماله وأحواله كأثر الاعتقاد (الشركي) ببعض المشايخ الميتين .

فمثل هذا الإيمان وإن تعارف الناس على تسميته إيمانًا ليس من الإيمان الذي يقوم على ذلك المعنى من الإيقان ، ويظهر أثره في الجوارح والأركان .

ثم قال بعد كلام في آثار اليقين : اليقين إيمانك بالشيء والإحساس به من طريق وجدانك كأنك تراه ، بأن يكون قد بلغ بك العلم به أن صار مالكًا لنفسك ، مصرفًا لها في أعمالها ، ولا يكون العلم محققًا للإيمان على هذا الوجه حتى تكون أصبته من إحدى طريقتين :

الأولى : النظر الصحيح فيما يحتاج فيه إلى النظر ، كالإيقان بوجود اللَّه ، ورسالة الرسل ، وذلك بتخليص المقدمات والوصول بها إلى حد الضروريات ، فأنت بعد الوصول إلى ما وصلت إليه كأنك تراه ما استقر رأيك عليه .

والطريقة الأخرى : خبر الصادق المعصوم بعد أن قامت الدلائل على صدقه

وعصمته عندك ولا يكون الخبر طريقًا لليقين حتى تكون سمعت الخبر من نفس المعصوم ﷺ، أو جاءك عنه من طريق لا يحتمل الريب .

فالإيقان بالمغيبات كالآخرة وأحوالها والملأ الأعلى وأوصافه وصفات اللَّه تعالى لا يمكن تحصيله إلا من الكتاب العزيز ، وهو الحق الذي جاءنا من اللَّه لا ريب فيه ، فعلينا أن نقف عند ما أنبأ به من غير خلط ولا زيادة ولا نقصان[1] .

قوله تعالى : ﴿أُولَٰئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ﴾ [البقرة: الآية ٥] أي المتصفون بما تقدم من الإيمان بالغيب . وإقامة الصلاة ، والإنفاق مما رزقهم اللَّه ، والإيمان بما أنزل إلى الرسول ﷺ وإلى الرسل من قبله ، والإيقان باليوم الآخر إيقانًا يستلزم الاستعداد له بصالح الأعمال وترك المحرمات .

﴿عَلَىٰ هُدًى﴾ [البقرة: الآية ٥] أي : على نور وبرهان واستقامة وسداد بتسديد اللَّه إياهم وتوفيقه لهم . والإشارة بالبعيد للإشعار بعلو درجتهم ورفعة منزلتهم . وتنكير ﴿هُدًى﴾ [البقرة: الآية ٥] للتفخيم ، كأنه قيل على هدى أيَّ هدى ، هدى لا يبلغ كنهه ولا يقدر قدره .

﴿وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [البقرة: الآية ٥] أي المنجحون المدركون عند اللَّه ما طلبوا بأعمالهم وإيمانهم باللَّه وكتبه ورسله من الفوز بالثواب والخلود في الجنات ، والنجاة مما أعد اللَّه لأعدائه من العذاب الأليم والعقاب الشديد ، ويكون الفلاح بمعنى البقاء ، أي باقون في النعيم المقيم . وأصل الفلاح القطع والشق ، ومنه سمى الزارع فلاحًا ؛ لأنه يشق الأرض ، وفي المثل : الحديد

---

(١) وجد في هامش المجلة ما نصه : وذلك - طبعًا - بعد تطبيق ما صح من أحاديث رسول اللَّه ﷺ التي بيَّن بها للناس ما نزل إليه من عند ربه ، فإن فيها من تفصيل ما أجمله القرآن ما لا غنى عنه بحال ، ولا يلتفت إلى النفر القليل الذين يزعمون بسخف عقولهم أنهم لا يأخذون إلا بالكتاب العزيز معرضين عن السنة التي لا توافق أهواءهم حتى ولو جاءت من أصح الطرق وأعدلها . ونسأل اللَّه العصمة من الزلل .

بالحديد يفلح ، أي يشق .. فهم المقطوع لهم بالخير والفوز والسعادة في الدنيا والآخرة .

وإنما أعاد اسم الإشارة لإظهار مزيد العناية بشأن المشار إليه وللتنبيه على أن اتصافهم بتلك الصفات يقتضي نيل كل واحدة من تينك الصفتين وأن كلاًّ منهما كاف في تميزهم بها عمن عداهم ، ويؤيد ذلك توسط حرف العطف بين الجملتين . وذلك لأن الفلاح عبارة عن الفوز بالمطلوب فهو نتيجة للهدى مغاير له ، وكل من الهدى والفلاح من أجل الأمور وأعز ما يتنافس فيه المتنافسون لذلك غاير بينهما بتكرير اسم الإشارة مع الفصل بحرف العطف .

قال الشيخ محمد عبده : ويطلق الفلاح على الفوز بالمطلوب ، ولكن لا يقال أفلح الرجل إذا فاز بمرغوبه عفوًا من غير تعب ولا معاناة ، بل لابد في تحقيق المعنى اللغوي لهذه المادة من السعي إلى الرغبة والاجتهاد لإدراكها ، فهؤلاء ما كانوا مفلحين إلا باتباع الإيمان بامتثال الأوامر واجتناب النواهي التي يناط بها الوعد والوعيد فيما أنزل إليه ﷺ مع اليقين بالجزاء على جميع ذلك في الآخرة ، ويدخل في هذا كله ترك الكذب والزور ، وتزكية النفس من سائر الرذائل كالشره والطمع والجبن والهلع ، والبخل والجور ، والقسوة وما ينشأ عن هذه الصفات من الأفعال الذميمة ، وارتكاب الفواحش والمنكرات ، والانغماس في ضروب اللذات ، كما يدخل فيه الفضائل التي هي أضداد هذه الرذائل المتروكة ، وجميع ما سماه القرآن عملًا صالحًا من العبادات وحسن المعاملات مع الناس والسعي في توفير منافعهم العامة والخاصة مع التزام العدل والوقوف عند ما حدده الشارع القويم والاستقامة على طريقه المستقيم .

❁ ❁ ❁

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

تفسير القرآن الحكيم[1]

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ سَوَآءٌ عَلَيۡهِمۡ ءَأَنذَرۡتَهُمۡ أَمۡ لَمۡ تُنذِرۡهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ ۝٦ خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ وَعَلَىٰ سَمۡعِهِمۡۖ وَعَلَىٰٓ أَبۡصَٰرِهِمۡ غِشَٰوَةٞۖ وَلَهُمۡ عَذَابٌ عَظِيمٞ﴾.

قال في لسان العرب: قال بعض أهل العلم: الكفر على أربعة أنحاء: كفر إنكار، بأن لا يعرف اللَّه أصلًا ولا يعترف به، وكفر جحود، وكفر معاندة، وكفر نفاق، من لقي ربه بشيء من ذلك لم يغفر له، ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء.

فأما كفر الإنكار فهو أن يكفر بقلبه ولسانه ولا يعرف ما يذكر له من التوحيد، وكذلك روي في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ سَوَآءٌ عَلَيۡهِمۡ ءَأَنذَرۡتَهُمۡ أَمۡ لَمۡ تُنذِرۡهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ﴾ [البقرة: الآية ٦] أي الذين كفروا بتوحيد اللَّه.

وأما كفر الجحود فأن يعترف بقلبه ولا يقر بلسانه، فهو كافر جاحد ككفر إبليس وكفر أمية بن أبي الصلت ومنه قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا جَآءَهُم مَّا عَرَفُواْ كَفَرُواْ بِهِۦۚ﴾ [البقرة: الآية ٨٩] يعني كفر الجحود.

وأما كفر المعاندة فهو أن يعرف اللَّه بقلبه ويقر بلسانه، ولا يدين به حسدًا وبغيًا، ككفر أبي جهل وأضرابه. وفي التهذيب: يعترف بقلبه ويقر بلسانه ويأبى أن يقبل كأبي طالب، حيث يقول:

ولقد علمت بأن دين محمد ... من خير أديان البرية دينًا
لولا الملامة أو حذار مسبة ... لوجدتني سمحًا بذاك مبينًا

(١) مجلة الإصلاح - العدد الحادي عشر - ١٣٤٧/٨/١هـ.

وأما كفر النفاق فأن يقر بلسانه ولا يعتقد بقلبه .

وكتب عبد الملك إلى سعيد بن جبير يسأله عن الكفر ، فقال : الكفر على وجوه : فكفر هو شرك ؛ يتخذ مع اللَّه إلهًا آخر . وكفر بكتاب اللَّه ورسوله . وكفر بادعاء ولد للَّه . وكفر مدعي الإسلام ، وهو أن يعمل أعمالًا بغير ما أنزل اللَّه ويسعى في الأرض فسادًا ، ويقتل نفسًا محرمة بغير حق . ثم نحو ذلك من الأعمال كفران : أحدهما كفر نعمة اللَّه ، والآخر التكذيب باللَّه .

وأصل الكفر تغطية الشيء تغطية تستهلكه ، وقال الليث يقال : إنما سمي الكافر كافرًا لأن الكفر غطى قلبه كله . قال الأزهري : وفيه قول آخر أحسن مما ذهب إليه ، وذلك أن الكافر لما دعاه اللَّه إلى توحيده فقد دعاه إلى نعمه وأحبها له إذا أجابه إلى ما دعاه إليه ، فلما أبى ما دعاه إليه من توحيده كان كافرًا نعمة اللَّه أي مغطيًا لها بإبائه حاجبًا لها عنه . قال : وكل من ستر شيئًا فقد كفَّره وكفره (بالتشديد) . والكافر الزارع لستره البذر بالتراب . والكفار الزراع ومنه ، قوله تعالى : ﴿كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ ٱلْكُفَّارَ نَبَاتُهُۥ﴾ [الحديد: الآية ٢٠] أي أعجب الزراع نباته . اهـ .

القرآن من حيث هو هدى لكل الناس في مقدور كل أحد وميسوره أن ينتفع بما فيه من الهدى وأن يكون به من المفلحين . وقد ذكر اللَّه جل شأنه في الآيات السابقة أنه قد انتفع بهذا الهدى وأفلح به وفاز بخير الدنيا والآخرة المؤمنون الذين رفعوا عن أبصارهم وبصائرهم غشاوة التقليد الأعمى لآبائهم وشيوخهم وخلصوا عقولهم وقلوبهم من أغلال العصبية والهوى والحسد واتباع الشهوات ﴿أُوْلَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ [البقرة: الآية ٥] .

وفي هاتين الآيتين يذكر أولئك الذين أركسوا في هذه المهلكات وأوثقوا عقولهم بوثاق من التقليد الأعمى بدون نظر في حجة أو استعمال لما وهبهم اللَّه

من مدارك ، فأصبحوا لا يسمعون إلا بسمع سادتهم وطواغيتهم ولا يبصرون إلا ببصرهم ، ولا يدركون إلا بعقولهم ، فكفروا بما أنعم اللَّه عليهم من هذه المدارك والإحساسات التي كرم اللَّه بها بني آدم وجعلها لهم ليميزوا بها بين الطيب والخبيث والحق والباطل والضار والنافع ، وإنها لمن أجل النعم وأعظمها استحقاقًا لشكر ربنا عليها ، ولا ريب أن شكرها هو استعمالها فيما خلقت له مما يعود على الإنسان بالكمال والتفضيل . وتقييدها بقيد التبعية المطلقة العمياء يجعلها معطلة كل التعطيل ، فلا جرم كان ذلك كفرانًا لهذه النعم ، ولما لم يعرفوا للَّه فضله في هذه النعم ، ولم يقوموا بواجب شكره عليها زادهم اللَّه عمى على عماهم وغيًّا على غيهم ، وختم على قلوبهم وسمعهم ، وجعل على أبصارهم غشاوة في الدنيا لا يرون ولا يصلون إلى شيء من طيبها الصحيح النافع . وأولئك لهم في الآخرة عذاب عظيم .

لقد كان النبي ﷺ يبذل منتهى جهده في إيصال هداية القرآن إلى نفوس قومه ، شفقة عليهم ورحمة لهم مما هم فيه من الشقاء العظيم والشرك الكبير . وحرصًا على نجاتهم من بحور الضلال والكفر التي كانوا غارقين فيها ، فما كان يستجيب له بادئ الأمر إلا النزر اليسير وكان رؤوس الكفر وطواغيته يحولون بين الرسول ﷺ وبين الناس خوفًا أن يصل إلى سمعهم صوت الحق الصريح فيؤمنوا ويخلصوا من وثنية الجاهلين ، فيبقى أولئك الطواغيت وحدهم ، ولذلك كانوا يحجرون على النبي ﷺ وعلى من آمن معه أن يعلنوا بدعوتهم ويقرأوا القرآن على مجمع الناس ، ويضيقون عليهم في ذلك كثيرًا ، كما جاء ذلك في قصة رجوع أبي بكر رضي اللَّه عنه من الهجرة الأولى في حمى ابن الدُّغنة ، على شروط أخذتها قريش ، وهي في صحيح البخاري[1] ونصها :

---

(١) البخاري (٤٧٦، ٢٢٩٧) .

«أن عائشة رضي الله عنها قالت : لم أعقل أبوَّي قط إلا وهما يدينان الدين ، ولم يمر علينا يوم إلا يأتينا فيه رسول الله ﷺ طرفي النهار بكرة وعشية . فلما ابتلى المسلمون خرج أبو بكر مهاجرًا قبل الحبشة ، حتى إذا بلغ برك الغماد لقيه ابن الدغنة وهو سيد القارة فقال : أين تريد يا أبا بكر ؟ فقال أبو بكر أخرجني قومي فأنا أريد أن أسيح في الأرض فأعبد ربي . قال ابن الدغنة : إن مثلك لا يخرج ولا يخرج ، فإنك تكسب المعدوم ، وتصل الرحم ، وتحمل الكل ، وتقري الضيف ، وتعين على نوائب الحق ، وأنا لك جار ، فارجع فاعبد ربك ببلادك . فارتحل ابن الدغنة فرجع مع أبي بكر فطاف في أشراف كفار قريش فقال لهم : إن أبا بكر لا يخرج مثله ولا يخرج ، أتخرجون رجلًا يكسب المعدوم ، ويصل الرحم ، ويحمل الكل ، ويقري الضيف ، ويعين على نوائب الحق ؟ فأنفذت قريش جوار ابن الدغنة وأمنوا أبا بكر وقالوا لابن الدغنة : مر أبا بكر فليعبد ربه في داره فليصل وليقرأ ما شاء ولا يؤذينا بذلك ولا يستعلن به ، فإنا قد خشينا أن يفتن أبناءنا ونساءنا ، قال ذلك ابن الدغنة لأبي بكر فطفق أبو بكر يعبد ربه في داره ولا يستعلن بالصلاة ولا القراءة في غير داره ، ثم بدا لأبي بكر فابتنى مسجدًا بفناء داره وبرز فكان يصلي فيه ويقرأ القرآن ، فيتقصف عليه نساء المشركين وأبناؤهم يعجبون وينظرون إليه ، وكان أبو بكر رجلًا بكاء لا يملك دمعه حين يقرأ القرآن ، فأفزع ذلك أشراف قريش من المشركين فأرسلوا إلى ابن الدغنة فقدم عليهم فقالوا له إنا كنا أجرنا أبا بكر على أن يعبد ربه في داره وإنه جاوز ذلك فابتنى مسجدًا بفناء داره وأعلن الصلاة والقراءة وقد خشينا أن يفتن أبناءنا ونساءنا فائتة فإن أحب أن يقتصر على أن يعبد ربه في داره فعل وإن أبى إلا أن يعلن ذلك فله أن يرد إليك ذمتك فإنا كرهنا أن نخفرك ولسنا مقرين لأبي بكر الاستعلان .

قالت عائشة : فأتى ابن الدغنة أبا بكر ، فقال : قد علمت الذي عقدت لك

عليه فإما أن تقتصر على ذلك وإما أن ترد إليَّ ذمتي ، فإني لا أحب أن تسمع العرب أني أخفرت في رجل عقدت له . فقال أبو بكر : إني أرد إليك جوارك وأرضى بجوار اللَّه .

فلذا كان النبي ﷺ حريصًا الحرص كله على إيمان أولئك الرؤوس الذين كانوا حجر عثرة في سبيل انتشار الدعوة الإسلامية ، ولا شك أن النبي ﷺ كان لشدة شفقته على الناس وتغلغل حب اللَّه ودينه في أعماق نفسه يريد أن يكون انتشار نور الإسلام وعموم هدايته سريعًا ، فلذا كان يحب ويحرص على إسلام أولئك الرؤساء فكان يدعوهم ويلح عليهم في الدعوة ، فيقابلونه بالهزء والسخرية ، فيألم لإعراضهم ويجد في نفسه من الحزن ، فكان اللَّه تعالى يسليه في كثير من الأحيان عند ذلك ، وينزل عليه من الآيات ما يملؤه سرورًا واطمئنانًا على دعوته ؛ وأنها لن تفشل مهما حال أولئك الطواغيت دونها ومهما وضعوا في سبيلها من عقبات ، وهم مع ذلك لن ينتفعوا بهذا الهدى ولن تصل إلى نفوسهم ولا ذرة من رحمته ونوره ، ذلك لأنهم يعلمونه الحق من ربهم ، ولكن هي الكبرياء والتمرد اللذان هما أكبر مرض إذا استعصى في النفس أهلكها لا محالة الهلاك المبين ، وأشقاها لابد الشقاء المؤبد في الدنيا والآخرة .

تأمل نفسية الطاغية أبي جهل البالغة في الخبث والكبرياء والتمرد النهاية القصوى إذ سأله سائل عن النبي ﷺ وعما يدعو إليه فقال : واللَّه ما جربنا عليه من كذب ، وهو واللَّه صادق ، وما جاء به الحق ، ولكن : أكون رئيس قريش ، ثم أصبح تابعًا له ؟ عظم عليه وكبر على نفسه المتمردة أن تنقاد للحق وأن ترجع عن غيها بدعاية ذلك اليتيم الفقير ، وأعماه شيطان كبره عن شامخ شرف النبي ﷺ ورفيع نسبه الهاشمي ، وأن ذلك يتضاءل دونه كل ميزة جاهلية أخرى ، وأصمه شيطانه بعد هذا عن استماع صوت الحق الذي ينادي ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُنَزِّلُ عَلَىٰ

عَبْدِهِۦٓ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ لِّيُخْرِجَكُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ بِكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [الحديد: الآية ٩] .

وليس هذا القدر من الكفر والعناد بخاص بأولئك الطغاة من قريش واليهود وما إليهم ممن كانوا يناوؤن النبي ﷺ عند نزول الوحي ، ولكن لا يزال كثير من ورثة أولئك المجرمين يقف خصمًا عنيدًا للدعوة الإسلامية الصحيحة في كل وقت وحين ، وتأبى نفسه الخبيثة إلا أن تكون كلمة الشرك ودعاء غير اللَّه والتوكل على غيره هي العليا ، وكلمة التوحيد وإخلاص العبودية للَّه هي السفلى ، ويرمي من يقوم بهذه الدعوة الخالصة بهجر القول وزوره وينبزه بكل لقب شنيع ، ولكن والحمد للَّه سيكون مآلهم مآل أسلافهم ، ولتظهرن كلمة الحق رغم أنف أولئك الجاحدين ولينصرن اللَّه جند التوحيد المجاهدين وليظهرن اللَّه دينه ولو كره المشركون ﴿يُرِيدُونَ أَن يُطْفِـُٔوا۟ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ وَيَأْبَى ٱللَّهُ إِلَّآ أَن يُتِمَّ نُورَهُۥ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ [التوبة: الآية ٣٢] .

بلى : لينبعثن صوت هذه الدعوة من قلب جزيرة العرب كما انبعث أولًا ، وليعمن نورها المشرقين إن شاء اللَّه تعالى بفضل أولئك العرب الصناديد الذين قد امتزجت حلاوة التوحيد بحبات قلوبهم ، مصداقًا لقوله ﷺ : « لا تزال طائفة من أمتي قائمين على الحق ظاهرين لا يضرهم من خالفهم ولا من خذلهم حتى تقوم الساعة » .

قال الإمام محمد بن جرير(١) رحمه اللَّه : عن ابن عباس رضي اللَّه عنهما : إن صدر سورة « البقرة » إلى المائة منها ، نزل في رجال سماهم بأعيانهم ، وأنسابهم من أحبار اليهود ومن المنافقين من الأوس والخزرج ، كرهنا تطويل الكتاب بذكر أسمائهم . وقد روي عن ابن عباس في تأويل ذلك قول آخر قال :

(١) تفسير ابن جرير ١/١٠٩ .

كان رسول الله ﷺ يحرص على أن يؤمن جميع الناس ويتابعوه على الهدى، فأخبره الله جل شأنه أنه لا يؤمن إلا من سبق له من الله السعادة في الذكر الأول. ولا يضل إلا من سبق له الشقاء في الذكر الأول وعن الربيع بن أنس قال: آيتان في قادة الأحزاب ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ سَوَآءٌ عَلَيۡهِمۡ ءَأَنذَرۡتَهُمۡ﴾ [البقرة: الآية ٦] الآيتين. قال: وهم الذين ذكرهم الله في هذه الآية: ﴿۞ أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ بَدَّلُواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ كُفۡرٗا وَأَحَلُّواْ قَوۡمَهُمۡ دَارَ ٱلۡبَوَارِ ٢٨ جَهَنَّمَ يَصۡلَوۡنَهَاۖ وَبِئۡسَ ٱلۡقَرَارُ﴾ فهم الذين قتلوا يوم بدر.

قال ابن جرير: وأولى القولين قول ابن عباس؛ لأن قول الله جل ثناؤه: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ سَوَآءٌ عَلَيۡهِمۡ﴾ [البقرة: الآية ٦] إلخ، عقيب خبر الله جل ثناؤه عن مؤمني أهل الكتاب وعقيب نعتهم وصفتهم وثنائه عليهم بإيمانهم به وبكتبه ورسله، فأولى الأمور بحكمة الله أن يتلو ذلك الخبر عن كفارهم ونعوتهم وذم أسبابهم وأحوالهم، وإظهار شتمهم والبراءة منهم، لأن مؤمنيهم ومشركيهم وإن اختلفت أحوالهم باختلاف أديانهم فإن الجنس يجمع جميعهم بأنهم بنو إسرائيل. وإنما احتج الله جل ثناؤه بأول هذه السورة لنبيه ﷺ على مشركي اليهود من أحبار بني إسرائيل الذين كانوا مع علمهم بنبوته منكرين نبوته بإظهار نبيه ﷺ على ما كانت تسره الأحبار منهم وتكتمه، فيجهله عظيم اليهود وتعلمه الأحبار منهم ليعلموا أن الذي أطلعه على علم ذلك هو الذي أنزل الكتاب على موسى، إذ كان ذلك من الأمور التي لم يكن محمد ﷺ ولا قومه ولا عشيرته يعلمونه ولا يعرفونه من قبل نزول الفرقان على محمد ﷺ. فيمكنهم ادعاء اللبس في أمره عليه السلام أنه نبي وأن ما جاء به فمن عند الله.

وأنى يمكنهم ادعاء اللبس في صدق أمي نشأ بين أميين لا يكتب ولا يقرأ ولا يحسب؟ فيقال: قرأ الكتب فعلم، أو حسب فنجم، وانبعث على أخبار قراء

كتب قد درسوا الكتب، ودارسوا الأمم، يخبرهم عن مستور عيوبهم؛ ومصون علومهم، ومكتوم أخبارهم، وخفيات أمورهم التي جهلها من هو دونهم من أحبارهم؟ إن أمر من كان كذلك لغير مشكل، وإن صدقه والحمد للَّه لبين.

ومما ينبئ عن صحة ما قلنا أن الذين عنى اللَّه تعالى ذكره بقوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا سَوَآءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [البقرة: الآية ٦] هم أحبار اليهود الذين قتلوا على الكفر وماتوا عليه، اقتصاصه تعالى ذكره، نبأهم وتذكيره إياهم ما أخذ عليهم من العهود والمواثيق في أمر محمد ﷺ بعداقتصاصه تعالى ذكره ما اقتص من أمر المنافقين، واعتراضه بين ذلك بما اعترضه به من الخبر عن إبليس وآدم في قوله: ﴿يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱذْكُرُوا نِعْمَتِىَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ﴾ [البقرة: الآية ٤٠] الآيات. واحتجاجه لنبيه ﷺ بما احتج به عليهم فيها عند جحودهم نبوته. فإذا كان الخبر أولًا عن مؤمني أهل الكتاب وآخرًا عن مشركيهم فأولى أن يكون وسطًا عنهم، إذ كان الكلام بعضه لبعض تبع، إلا أن تأتيهم دلالة واضحة يعول بعض ذلك عما ابتدئ به من معانيه فيكون معروفًا حينئذ انصرافه عنه. اهـ.

قوله تعالى ذكره: ﴿سَوَآءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [البقرة: الآية ٦] الإنذار الإخبار والإعلام بالشيء المقترن بالتخويف مما يترتب عليه من فعل يتضمن ذمه وطلب تركه، أو تركًا لأمر يتضمن مدحه وطلب فعله، نصًّا أو اقتضاء وسواء اسم مصدر بمعنى الاستواء.

والمعنى إذًا: معتدل على هؤلاء الذين جحدوا نبوتك بعد علمهم بها واتضاحها لهم، وكتموا بيان أمرك للناس بأنك رسول اللَّه حقًّا إلى الخلق أأنذرتهم أم لم تنذرهم؛ لا يؤمنون ولا يرجعون عما هم فيه من الضلال إلى الحق، ولا يتبعونك فيما جئتهم به من الهدى، فإن الذي يعرض عن النور مع

العلم به ويغمض عينيه بغضًا له ، أو تأذيًا به ، أو عنادًا وعداوة لمن دعا إليه ، ما يفيده ذلك النور . وماذا يعيب النور من إعراضه ؟

وقوله : ﴿لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [النساء: الآية ٦٥] جملة مفسرة لتساوي الإنذار وعدمه بالنسبة إلى الكافرين ، لا إلى النبي ﷺ وورثته الدعاة إلى دينه فإنهم يدعون كل ضال ومعرض إلى الدين ، لا يميزون في هذه الدعوة بين مستعد وغير مستعد ، لأن ذلك أمر خفي في النفوس ، وباطن في الطبائع لا يعلمه إلا اللَّه وحده ، وكذلك هم لا يعلمون من من الناس سبقت له السعادة فيخصونه بالدعوة ، ولا من منهم سبقت عليه الشقاوة فلا يبلغوه ويدعوه . فلا شك لذلك كانت الدعوة منذ رسول اللَّه ﷺ واجب أن يقوم بها أهلها على وجه العموم وللناس كافة في كل وقت وبلد .

ويدخل في هذا الباب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فإنه واجب القيام به على كل مسلم يميز بين المعروف والمنكر ، ولا يصح القعود عنه وتركه في أي وقت ، وما يعتذر به بعضهم من أعذار لا قيمة لها ، بل تنص النصوص الصريحة من الكتاب والسنة على بطلانها فأمر من اتباع الهوى وضعف الإيمان وفقد الغيرة عليه من النفوس . فلذلك اختلقت هذه الأعذار الواهية ، تعليلًا لهذه النفوس وتغريرًا وخداعًا واللَّه عليم بذات الصدور .

ولننقل للقراء هنا لمناسبة هذه الآية ما كتبه العالم النحرير المحقق المدقق الموفق الشيخ عبد اللطيف بن الشيخ عبد الرحمن بن الشيخ حسن ابن شيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب رحمهم اللَّه تعالى في رسالة له في معنى الكفر . قال :

الأصل الثاني : أن الإيمان أصل له شعب متعددة كل شعبة منها تسمى إيمانًا ، فأعلاها شهادة أن لا إله إلا اللَّه . وأدناها إماطة الأذى عن الطريق . فمنها

ما يزول الإيمان بزواله إجماعًا كشعبة الشهادتين ، ومنها ما لا يزول بزوالها إجماعًا كترك إماطة الأذى عن الطريق . وبين هاتين الشعبتين شعب متفاوتة ، منها ما يلحق بشعبة الشهادتين ويكون إليها أقرب . ومنها ما يلحق بشعبة إماطة الأذى عن الطريق ويكون إليها أقرب ، والتسوية بين هذه الشعب في اجتماعها مخالف للنصوص وما كان عليه سلف هذه الأمة وأئمتها .

وكذلك الكفر أيضًا ذو أصل وشعب ، فكما أن شعب الإيمان إيمان ، فشعب الكفر كفر ، والمعاصي كلها من شعب الكفر ، كما أن الطاعات كلها من شعب الإيمان ، ولا يسوى بينهما في الأسماء والأحكام . وفرق بين من ترك الصلاة والزكاة والصيام وأشرك باللّٰه ، أو استهان بالمصحف . وبين من سرق ، أو زنى ، أو شرب الخمر ، أو انتهب ، أو صدر منه نوع من موالاة المشركين أو الكفار أو العصاة كما جرى لحاطب ابن أبي بلتعة ، فمن سوى بين شعب الإيمان في الأسماء والأحكام وسوى بين شعب الكفر في ذلك فهو مخالف للكتاب والسنة ، خارج عن سبيل سلف الأمة ، داخل في عموم أهل البدع والأهواء .

الأصل الثالث : أن الإيمان مركب من قول وعمل . والقول قسمان : قول القلب ، وهو اعتقاده . وقول اللسان ، وهو التكلم بكلمة الإسلام . والعمل قسمان : عمل القلب وهو قصده واختياره ومحبته ورضاه وتصديقه . وعمل الجوارح ، كالصلاة والزكاة والحج والجهاد ، ونحو ذلك من الأعمال الظاهرة . فإذا زال تصديق القلب ورضاه ومحبته للّٰه وصدقه زال الإيمان بالكلية ، وإذا زال شيء من الأعمال كالصلاة والحج والجهاد مع بقاء تصديق القلب وقبوله فهذا محل خلاف ، هل يزول الإيمان بالكلية إذا ترك أحد الأركان الإسلامية كالصلاة والحج والزكاة والصيام ، أو لا يكفر؟ وهل يفرق بين الصلاة وغيرها ، أو لا يفرق ؟ وأهل السنة مجمعون على أنه لابد من عمل القلب الذي هو محبته ورضاه

وانقياده . والمرجئة تقول يكفي التصديق فقط ، ويكون به مؤمنًا . والخلاف في أعمال الجوارح ، هل يكفر أو لا يكفر ، واقع بين أهل السنة . والمعروف عند السلف تكفير من ترك أحد المباني الإسلامية كالصلاة والزكاة والصيام والحج . والقول الثاني أنه لا يكفر إلا من جحدها . والثالث الفرق بين الصلاة وغيرها . وهذه الأقوال معروفة .

وكذلك المعاصي والذنوب التي هي فعل المحظورات فرقوا فيها بين ما يصادم أصل الإسلام وينافيه وما دون ذلك ، وبين ما سماه الشارع كفرًا وما لم يسمه . هذا ما عليه أهل الأثر المتمسكون بسنة رسول اللّٰه ﷺ . وأدلة هذا مبسوطة في أماكنها .

الأصل الرابع ، أن الكفر نوعان : كفر عمل ، وكفر جحود وعناد ، وهو أن يكفر بما علم أن الرسول جاء به من عند اللّٰه جحودًا وعنادًا من أسماء الرب وصفاته وأفعاله وأحكامه التي أصلها توحيده وعبادته وحده لا شريك له ، وهذا مضاد للإيمان من كل وجه . وأما كفر العمل فمنه ما يضاد الإيمان كالسجود للصنم ، والاستهانة بالمصحف ، وقتل النبي وسبه .

وأما الحكم بغير ما أنزل اللّٰه وترك الصلاة فهذا كفر عمل لا كفر اعتقاد . وكذلك قوله : « لا ترجعوا بعدي كفارا يضرب بعضكم رقاب بعض »(١) . وقوله : « من أتى كاهنا فصدقه أو أتى امرأة في دبرها فقد كفر بما أنزل على محمد ﷺ »(٢) . فهذا من الكفر العملي ، وليس كالسجود للصنم والاستهانة بالمصحف وقتل النبي وسبه .

وإن كان الكل يطلق عليه اسم الكفر .

---

(١) أخرجه البخاري (١٢١) ، ومسلم (٦٥) من حديث جرير رضي اللّٰه عنه .

(٢) أخرجه أحمد ٤٢٩/٢، وأبو داود (٣٩٠٤) من حديث أبي هريرة .

وقد سمى اللَّه من عمل ببعض كتابه وترك العمل ببعضه مؤمنًا بما عمل به وكافرًا بما ترك العمل به . قال تعالى : ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَكُمْ لَا تَسْفِكُونَ دِمَآءَكُمْ وَلَا تُخْرِجُونَ أَنفُسَكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ﴾ [البقرة: الآية ٨٤] إلى قوله : ﴿أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ ٱلْكِتَٰبِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ﴾ [البقرة: الآية ٨٥] الاية ، فأخبر سبحانه أنهم آمنوا بميثاقه الذي أمرهم به والتزموه . وهذا يدل على تصديقهم به ، وأخبر أنهم عصوا أمره وقتل فريق منهم فريقًا آخر وأخرجوهم من ديارهم ، وهذا كفر بما أخذ عليهم ، ثم أخبر أنهم يفدون من أسر من ذلك الفريق ، وهذا كفر بما أخذ عليهم في الكتاب(١) ، وكانوا مؤمنين بما عملوا به من الميثاق ، كافرين بما تركوه منه .

فالإيمان العملي يضاده الكفر العملي ، والإيمان الاعتقادي يضاده الكفر الاعتقادي . وفي الحديث الصحيح : « سباب المسلم فسوق وقتاله كفر »(٢) فرق بين سبابه وقتاله ، وجعل أحدهما فسوقًا لا يكفر به والآخر كفرًا . ومعلوم أنه إنما أراد الكفر العملي لا الاعتقادي . وهذا الكفر لا يخرجه من الدائرة الإسلامية والملة بالكلية ، كما لم يخرج الزاني والسارق والشارب من الملة ، وإن زال عنهم اسم الإيمان .

وهذا التفصيل هو قول الصحابة الذين هم أعلم الأمة بكتاب اللَّه وبالإسلام والكفر ولوازمهما . فلا تتلقى هذه المسألة إلا عنهم . والمتأخرون لم يفهموا مرادهم فانقسموا فريقين : فريقًا أخرجوا من الملة بالكبائر وقضوا على أصحابها بالخلود في النار ، وفريقًا جعلوهم مؤمنين كاملي الإيمان . فأولئك غلوا ، وهؤلاء جفوا . وهدى اللَّه أهل السنة للطريقة المثلى والقول الوسط ، الذي هو في

---

(١) قال في هامش المجلة : كذا بالأصل . والذي في تفسير ابن جرير يدل على أن هذا مما آمنوا به من الكتاب .

(٢) أخرجه البخاري (٤٨) ، ومسلم (٦٤) من حديث ابن مسعود رضي اللَّه عنه .

المذاهب كالإسلام في الملل.

فههنا كفر دون كفر، ونفاق دون نفاق، وشرك دون شرك وظلم دون ظلم. فعن ابن عباس في قوله تعالى: ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَـٰفِرُونَ﴾ [المائدة: الآية ٤٤].

قال: ليس هو الكفر الذي تذهبون إليه. رواه عنه سفيان وعبد الرزاق. وفي رواية أخرى: كفر لا ينقل عن الملة. وعن عطاء: كفر دون كفر، وظلم دون ظلم، وفسق دون فسق. وهذا بين في القرآن لمن تأمله. فإن اللَّه سبحانه وتعالى سمى الحاكم بغير ما أنزل اللَّه كافرًا، وسمى الجاحد لما أنزل اللَّه على رسوله كافرًا، وسمى الكافر ظالمًا في قوله: ﴿وَٱلْكَـٰفِرُونَ هُمُ ٱلظَّـٰلِمُونَ﴾ [البقرة: الآية ٢٥٤]، وسمى من يتعدى حدوده في الطلاق والنكاح والرجعة والخلع ظالمًا. وقال: ﴿وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ ٱللَّهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُۥ﴾ [الطّلَاق: الآية ١].

وقال يونس عليه السلام: ﴿وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ ٱللَّهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُۥ﴾ [الطّلَاق: الآية ١]، وقال يونس عليه السلام: ﴿إِنِّى كُنتُ مِنَ ٱلظَّـٰلِمِينَ﴾ [الأنبيَاء: الآية ٨٧]، وقال آدم: ﴿رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا﴾ [الأعرَاف: الآية ٢٣]، وقال موسى: ﴿رَبِّ إِنِّى ظَلَمْتُ نَفْسِى﴾ [النّمل: الآية ٤٤]، وليس هذا الظلم مثل ذلك الظلم.

وسمي الكافر فاسقًا في قوله: ﴿وَمَا يُضِلُّ بِهِۦٓ إِلَّا ٱلْفَـٰسِقِينَ﴾ [البقرة: الآية ٢٦]، وقوله: ﴿وَلَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ءَايَـٰتٍۭ بَيِّنَـٰتٍ ۖ وَمَا يَكْفُرُ بِهَآ إِلَّا ٱلْفَـٰسِقُونَ﴾ [البقرة: الآية ٩٩]، وسمى العاصي فاسقًا في قوله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِن جَآءَكُمْ فَاسِقٌۢ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوٓا۟﴾ [الحُجرَات: الآية ٦]، وقال في الذين يرمون المحصنات: ﴿وَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَـٰسِقُونَ﴾ [النّور: الآية ٤]، وقال: ﴿فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِى ٱلْحَجِّ﴾ [البقرة: الآية ١٩٧]، وليس الفسوق (هنا) كالفسوق (هناك).

وكذلك الشرك شركان: شرك ينقل عن الملة، وهو الشرك الأكبر، وشرك

لا ينقل عن الملة، وهو الشرك الأصغر، كشرك الرياء، وقال تعالى في الشرك الأكبر: ﴿إِنَّهُۥ مَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ ٱلْجَنَّةَ وَمَأْوَىٰهُ ٱلنَّارُ ۖ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ﴾ [المائدة: الآية ٧٢]، وقال: ﴿وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَتَخْطَفُهُ ٱلطَّيْرُ﴾ [الحج: الآية ٣١] الآية، وقال في شرك الرياء: ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُوا۟ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا﴾ [الكهف: الآية ١١٠]، وفي الحديث: «من حلف بغير اللَّه فقد أشرك»(١) ومعلوم أن حلفه بغير اللَّه لا يخرجه عن الملة ولا يوجب له حكم الكفار. ومن هذا قوله ﷺ: «الشرك في هذه الأمة أخفى من دبيب النمل».

فانظر كيف انقسم الشرك والكفر والفسوق إلى ما هو ناقل عن الملة وإلى ما ليس ناقلًا عنها.

وكذلك النفاق نفاقان: نفاق اعتقاد، ونفاق عمل. ونفاق الاعتقاد مذكور في القرآن في غير موضع، أوجب لهم تعالى به الدرك الأسفل من النار. ونفاق العمل جاء به قوله ﷺ: «أربع من كن فيه كان منافقًا خالصًا، ومن كان فيه خصلة منهن كان فيه خصلة من النفاق حتى يدعها: إذا حدث كذب، وإذا عاهد غدر، وإذا خاصم فجر، وإذا ائتمن خان»(٢). وكقوله ﷺ: «آية المنافق ثلاث. إذا حدث كذب، وإذا ائتمن خان، وإذا وعد أخلف»(٣).

قال بعض الأفاضل: وهذا النفاق قد يجتمع مع أصل الإسلام، ولكن إذا استحكم وكمل قد ينسلخ صاحبه عن الإسلام بالكلية، وإن صلى وصام وزعم

---

(١) أخرجه أحمد ٦٩/٢، وأبو داود (٣٢٥١)، والترمذي (١٥٣٥) من حديث ابن عمر رضي اللَّه عنهما.

(٢) أخرجه أحمد ٤٠٣/٤ من حديث أبي موسى الأشعري. وصححه الألباني في صحيح الجامع (٦٠٤٣).

(٣) أخرجه البخاري (٣٣، ٢٦٨٢)، ومسلم (٥٩) من حديث أبي هريرة رضي اللَّه عنه.

أنه مسلم ، فإن الإيمان ينهى عن هذه الخلال ، فإذا كملت في العبد لم يكن له ما ينهاه عن شيء منها فهذا لا يكون إلا منافقًا خالصًا .

الأصل الخامس : أنه لا يلزم من قيام شعبة من شعب الإيمان بالعبد أن يسمى مؤمنًا ، ولا يلزم من قيام شعبة من شعب الكفر بالعبد أن يسمى كافرًا ، وإن كان ما قام به كفر ، كما أنه لا يلزم من قيام جزء من أجزاء العلم به أو من أجزاء الطب أو من أجزاء الفقه أن يسمى عالمًا أو طبيبًا أو فقيهًا ، وأما الشعبة نفسها فيطلق عليها اسم الكفر كما في الحديث : « ثنتان في أمتي هم بهما كفر . الطعن في الأنساب ، والنياحة على الميت »[(١)] . وحديث : « من حلف بغير اللَّه فقد كفر »[(٢)] . ولكنه لا يستحق اسم الكفر على الإطلاق .

فمن عرف هذا عرف فقه السلف وعمق علومهم وقلة تكلفهم . قال ابن مسعود : « ومن كان متأسيًا فليتأس بأصحاب محمد ﷺ فإنهم أبر هذه الأمة قلوبًا ، وأعمقها علمًا ، وأقلها تكلفًا . قوم اختارهم اللَّه لصحبة نبيه ، فاعرفوا لهم حقهم ، فإنهم كانوا على الهدى المستقيم »[(٣)] .

وقد كاد الشيطان بني آدم بمكيدتين عظيمتين لا يبالي بأيهما ظفر : إحداهما الغلو ومجاوزة الحد والإفراط . والثانية هي الإعراض والترك والتفريط .

قال ابن القيم رحمه اللَّه ، لما ذكر شيئًا من مكائد الشيطان : قال بعض السلف : ما أمر اللَّه بأمر إلا وللشيطان فيه نزغتان ؛ إما إلى تفريط وتقصير ، وإما إلى مجاوزة وغلو . ولا يبالي بأيهما ظفر . وقد اقتطع أكثر الناس إلا القليل في هذين الواديين ؛ وادي التقصير ، ووادي المجاوزة والتعدي ، والقليل منهم جدًّا

---

(١) أخرجه البخاري (٣٨٥٠) من حديث ابن عباس ، ومسلم (٦٧) من حديث أبي هريرة رضي اللَّه عنه .

(٢) تقدم في الصفحة السابقة بلفظ : « فقد أشرك » . وفي بعض مصادر التخريج بلفظ : « كفر » .

(٣) أخرجه أبو نعيم في الحلية ٣٠٥/١، وابن عبد البر في جامع بيان العلم وفضله (٩٢٦) .

الثابت على الصراط الذي كان عليه رسول الله ﷺ وأصحابه .

وعد رحمه الله كثيرًا من هذا النوع - إلى أن قال : وقصر بقوم حتى قالوا : إيمان أفسق الناس وأظلمهم كإيمان جبريل وميكائيل ، فضلًا عن أبي بكر وعمر ، وتجاوز بآخرين حتى أخرجوا من الإسلام بالكبيرة الواحدة . اهـ .

***

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

تفسير القرآن الحكيم[١]

قوله تعالى: ﴿خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ وَعَلَىٰٓ أَبْصَٰرِهِمْ غِشَٰوَةٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [البقرة: الآية ٧].

قال الراغب: الختم والطبع يقال على وجهين: مصدر ختمت وطبعت، وهو تأثير الشيء، كنقش الخاتم والطابع، والثاني؛ الأثر الحاصل عن النقش، ويتجوز بذلك تارة في الاستيثاق من الشيء والمنع منه اعتبارًا بما يحصل من المنع بالختم على الكتب والأبواب، نحو: ﴿خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ﴾ [البقرة: الآية ٧]، و« ختم على قلبه وسمعه » إلى أن قال:

فقوله تعالى: ﴿خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ﴾ [البقرة: الآية ٧] إشارة إلى ما أجرى الله به العادة أن الإنسان إذا تناهى في اعتقاد باطل، وارتكاب محظور - ولا يكون منه تلفت بوجه إلى الحق - يورثه ذلك هيئة تمرنه على استحسان المعاصي، وكأنما يختم بذلك على قلبه، وعلى ذلك ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَسَمْعِهِمْ وَأَبْصَٰرِهِمْ﴾ [النحل: الآية ١٠٨]. اهـ.

وقال ابن جرير[٢]: وأصل الختم: الطبع، والخاتم هو الطابع، يقال منه: ختمت الكتاب إذا طبعته. ثم قال عن الأعمش، قال: أرانا مجاهد بيده فقال: كانوا يرون أن القلب مثل هذا - يعني الكف - فإذا أذنب العبد ذنبًا ضم منه - وقال بإصبعه الخنصر هكذا - فإذا أذنب ضم، وقال بإصبع أخرى. فإذا أذنب ضم، وقال بإصبع أخرى. فإذا أحنى أصابعه كلها قال: ثم يطبع عليه بطابع.

---

(١) مجلة الإصلاح - العدد الثاني عشر - ١٣٤٧/٨/١٥هـ.

(٢) تفسير ابن جرير ١١٢/١.

قال مجاهد : وكانوا يرون أن ذلك الرين - إلى أن قال - قال مجاهد : تنبت الذنوب على القلب ، تحف به من نواحيه حتى تلتقي عليه ، فالتقاؤها عليه الطبع ، والطبع الختم . وعن مجاهد : الران أيسر من الطبع ، والطبع أيسر من الأقفال ، والأقفال أشد ذلك كله .

وقال بعضهم : إنما معنى قوله تعالى : ﴿خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ﴾ [البقرة: الآية ٧] الآية . إخبار من اللَّه جل ثناؤه عن تكبرهم وإعراضهم عن الاستماع لما دعوا إليه من الحق ، كما يقال : إن فلانًا لأصم عن هذا الكلام ، إذا امتنع من سماعه ، ورفع نفسه عن تفهمه تكبرًا .

قال ابن جرير : والحق في ذلك عندي ما صح بنظيره الخبر عن رسول اللَّه ﷺ وهو ما روي عن أبي هريرة قال : قال رسول اللَّه ﷺ : « إن المؤمن إذا أذنب الذنب كانت نكتة سوداء في قلبه ، فإن تاب ونزع واستغفر صقل قلبه ، فإن زاد زادت حتى يغلف قلبه ، فذلك الران الذي قال اللَّه جل ثناؤه : ﴿كَلَّا ۖ بَلْ ۜ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ﴾ [المطفّفين: الآية ١٤] » . فأخبر ﷺ أن الذنوب إذا تتابعت على القلوب غلفتها ، وإذا غلفتها أتاها حينئذ الختم من قبل اللَّه عز وجل والطبع . فلا يكون للإيمان إليها مسلك . ولا للكفر منها مخلص . فذلك هو الطبع والختم الذي ذكره اللَّه تعالى في قوله : ﴿خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ﴾ [البقرة: الآية ٧] الآية . نظير الختم والطبع على ما تدركه الأبصار من الأوعية والظروف التي لا يوصل إلى ما فيها إلا بفض ذلك عنها ثم حلها . اهـ .

وقال القرطبي[1] : أجمعت الأمة على أن اللَّه عز وجل قد وصف نفسه بالختم والطبع على قلوب الكافرين ؛ مجازاة لكفرهم كما قال : ﴿بَلْ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ﴾ [النّساء: الآية ١٥٥] ، وذكر حديث : « يا مقلب القلوب ثبت قلبي

(١) تفسير القرطبي ١/١٨٧ .

على دينك »[١] ، وذكر حديث حذيفة الذي في الصحيح[٢] عن رسول الله ﷺ قال : « تعرض الفتن على القلوب كالحصير عودًا عودًا فأي قلب أشربها نكتت فيه نكتة سوداء ، وأي قلب أنكرها نكت فيه نكتة بيضاء ، حتى يصير على قلبين : على أبيض مثل الصفا . فلا تضره فتنه ما دامت السماوات والأرض ، والآخر أسود مربادًا كالكوز مجخيًا لا يعرف معروفًا ولا ينكر منكرًا » .

وقوله تعالى : ﴿وَعَلَىٰٓ أَبۡصَٰرِهِمۡ غِشَٰوَةٞۖ﴾ [البقرة: الآية ٧] كلام مبتدأ بعد تمام الخبر عما ختم الله جل ثناؤه عليه من جوارح الكفار الذين مضت قصصهم ، وذلك أن ﴿غِشَٰوَةٞۖ﴾ [البقرة: الآية ٧] مرفوعة بقوله : ﴿وَعَلَىٰٓ أَبۡصَٰرِهِمۡ﴾ [البقرة: الآية ٧] ، فذلك دليل على أنه كلام مبتدأ ، وأن الكلام قد تناهى عند قوله : ﴿وَعَلَىٰ سَمۡعِهِمۡۖ﴾ [البقرة: الآية ٧] ، وذلك هو القراءة الصحيحة ، لأن هذا هو الذي اتفق عليه الحجة من القراء ولأن الختم لا توصف به العيون ولم يرد ذلك في شيء من كتاب الله ولا من سنة رسوله ولا من كلام العرب ، وقد قال تعالى : ﴿وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمۡعِهِۦ وَقَلۡبِهِۦ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِۦ غِشَٰوَةٗ﴾ [الجاثية: الآية ٢٣] فلم يدخل البصر في معنى الختم ، وذلك هو المعروف من كلام العرب ، فلا يجوز إذا القراءة بنصب غشاوة لما ذكر . والغشاوة في كلام العرب الغطاء ، ومنه قول الحارث بن خالد بن العاص :

هويتك إذ عيني عليها غشاوة فلما انجلت قطعت نفسي ألومها

ومنه يقال : تغشاه الهم إذا تجللّه وركبه . وإنما أخبر الله تعالى ذكره عن الذين كفروا أنه قد ختم على قلوبهم وطبع عليها فلا يعقلون لله موعظة وعظهم بها ، وعلى سمعهم فلا يسمعون تحذيرًا ولا تذكيرًا ولا حجة تقوم عليهم

---

(١) أخرجه أحمد ١١٢/٣، ٩١/٦، والترمذي (٢١٤٠) ، وابن ماجه (٣٨٣٤) من حديث أنس وعائشة رضي الله عنهما . وانظر السلسلة الصحيحة (٢٠٩١) .

(٢) أخرجه مسلم (١٤٤) من حديث حذيفة رضي الله عنه .

فيتذكروا ويحذروا عقوبة الله تعالى على كفرهم وتكذيبهم محمدًا ﷺ الذي يعلمون أنه رسول الله ، وأن ما جاء به هو الحق من عند الله ، وكذلك جعل على أبصارهم غشاوة تحول دون رؤيتهم سبيل الهدى فيعلموا قبح ما هم عليه من الضلالة والردى .

وقوله : ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [البقرة: الآية ٧] العذاب اسم لما يؤلم ، ويذهب بعذوبة الحياة : من ضرب ووجع وجوع وظمأ . قال الراغب : واختلف في أصله ، فقال بعضهم : هو من قولهم عَذَب الرجل إذا ترك المأكل - زاد غيره من شدة العطش والنوم - فهو عاذب وعذوب . فالتعذيب في الأصل هو حمل الإنسان أن يعذب أي يجوع ويسهر . وقيل : أصله من العذب ، فعذبته أزلت عذب حياته ، على بناء مرضته وقذيته . وقيل أصل التعذيب : إكثار الضرب بعذبة السوط أي طرفه . اهـ .

وقال الرازي(١) : العذاب مثل النكال بناء ومعنى ؛ لأنك تقول : أعذب عن الشيء ، إذا أمسك عنه كما تقول : نكل عنه . ومنه العذب ؛ لأنه يقمع العطش ويردعه بخلاف الملح فإنه يزيده . ويدل عليه تسميتهم إياه نقاخًا ؛ لأنه ينقخ العطش أي يكسره ، وفراتًا ؛ لأنه يفرته عن القلب ثم اتسع فيه فسمي كل ألم فادح عذابًا ، وإن لم يكن نكالًا أي عقابًا يرتدع به الجاني عن المعاودة .

والفرق بين العظيم والكبير : أن العظيم نقيض الحقير ، والكبير نقيض الصغير ، فكان العظيم فوق الكبير ، كما أن الحقير دون الصغير . والتنكير فيه للتعظيم والتهويل ، ووصفه مع ذلك بعظيم يدل على أنه بالغ حد العظمة كمًّا وكيفًا فهو شديد الإيلام ، وطويل الزمان .

وهل هذا العذاب في الدنيا والآخرة ، أم في الآخرة فقط ؟

---

(١) تفسير الرازي ٢١٩/١ .

المتتبع لآيات القرآن الكريم غير هذه الآية يتبين له أن من أعرض عن هدي القرآن ونوره وما أرشد إليه من إصلاح المعاش والمعاد جزاؤه الضنك والشقاء وفقد العزة والسلطة في الدنيا، والعذاب العظيم في الأخرى.

قوله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ ﴿٨﴾ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴿٩﴾ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ ٱللَّهُ مَرَضًا ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌۢ بِمَا كَانُوا۟ يَكْذِبُونَ﴾.

الكلام من أول السورة يبين حال القرآن وما فيه من الهدى، وحال الناس أمام القرآن وهذه الهداية؛ وأن منهم من انتفع بذلك، وهم من آمن من مشركي العرب الذين كانوا يدعون الحنيفيين، والمخلصون من أهل الكتاب الذين كانوا ينتظرون إشراق نور نبوة من بشر به موسى وعيسى ليهتدوا به، ومنهم من لا ترجى هدايته بالقرآن ولا ينتظر انتفاعه منه وهولاء الذين ذكرهم الله بقوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ سَوَآءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ﴾ [البقرة: الآية ٦] ... إلخ، وقوله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ﴾ [البقرة: الآية ٨] إلى آخر الآيات عند قوله: ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَٰرِهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ [البقرة: الآية ٢٠] يبين فيها الفرقة الثالثة من الناس، وهم الذين يظهرون بألسنتهم وأعمالهم موافقة المؤمنين، ويضمرون في قلوبهم من العقيدة الفاسدة والزيغ عن الحق، وعدم تقدير الله وصفاته وآياته وأوامره حق قدره، وأولئك هم المنافقون. فهم في الحقيقة مع الكافرين الجاحدين الخاسرين، فهم في الدرك الأسفل من النار.

وليست الآيات خاصة بالمنافقين الذين كانوا على عهد النبي ﷺ؛ بل هي عامة شاملة لهم ولغيرهم من منافقي الأزمنة الأخرى، ولذلك ساقها بلفظ العموم بقوله: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ﴾ [البقرة: الآية ٨]. وأصل ناس أناس، حذفت همزته تخفيفًا، وهو من النوس وهو الحركة، يقال: ناس ينوس أي: تحرك، وهو من أسماء

الجموع ، جمع إنسان وإنسانة على غير لفظه ، واللام الداخلة عليه للجنس ، ومن تبعيضية ، أي : بعض الناس ، ومَن موصوفة أي : ومن الناس ناس يقول .

والمراد باليوم الآخر : الوقت الذي لا ينقطع ، بل هو دائم أبدًا .

قال ابن جرير رحمه اللّٰه تعالى(١) : وتأويل ذلك أن اللّٰه جل ثناؤه لما جمع لرسوله محمد ﷺ أمره في دار هجرته واستقر بها قراره ، وأظهر اللّٰه بها كلمته ، وفشا في دور أهلها الإسلام ، وقهر المسلمون من فيها من أهل الشرك من عبدة الأوثان ، وذل بها من فيها من أهل الكتاب ، وأظهر أحبار يهودها لرسول اللّٰه ﷺ الضغائن وأبدوا له العداوة والشنآن ؛ حسدًا وبغيًا ، إلا نفرًا منهم هداهم اللّٰه للإسلام فأسلموا كما قال جل ثناؤه : ﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّنۢ بَعْدِ إِيمَٰنِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْحَقُّ﴾ [البقرة: الآية ١٠٩] ، وطابقهم سرًّا على معاداة النبي ﷺ وأصحابه وبغيهم الغوائل ، قوم من أرهاط الأنصار الذين آووا النبي ﷺ ونصروه ، كانوا قد عتوا في شركهم وجاهليتهم ، قد سموا لنا بأسماء كرهنا تطويل الكتاب بذكر أسمائهم وأنسابهم ، وظاهروهم على ذلك في خفاء غير جهار ؛ حذار القتل على أنفسهم والسباء من رسول اللّٰه ﷺ وأصحابه ؛ وركونا إلى اليهود لما هم عليه من الشرك وسوء البصيرة بالإسلام ، فكانوا إذا لقوا رسول اللّٰه ﷺ وأهل الإيمان من أصحابه قالوا لهم حذارًا على أنفسهم إنا مؤمنون باللّٰه وبرسوله وبالبعث ، وأعطوهم بألسنتهم كلمة الحق ؛ ليدرأوا عن أنفسهم حكم اللّٰه فيمن اعتقد ما هم عليه مقيمون من الشرك لو أظهروا بألسنتهم ما هم معتقدون من شركهم ، وإذا لقوا إخوانهم من اليهود قالوا : ﴿إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِءُونَ﴾ [البقرة: الآية ١٤] .

قال : وفي هذه الآية دلالة واضحة على بطلان ما زعمته الجهمية من أن

(١) تفسير ابن جرير ١١٧/١ .

الإيمان هو التصديق بالقول دون سائر المعاني غيره ، وقد أخبر اللَّه جل ثناؤه عن الذين ذكرهم في كتابه من أهل النفاق أنهم قالوا بألسنتهم : آمنا باللَّه وباليوم الآخر ، ثم نفى عنهم أن يكونوا مؤمنن إذ كان اعتقادهم غير مصدق قيلهم . اهـ .

وإنما نفى اللَّه عنهم الإيمان نفيًا مطلقًا مؤكدًا بقوله : ﴿وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ﴾ [البقرة: الآية ٨] مع أن منهم من كان من اليهود الذين يؤمنون باللَّه واليوم الآخر ؛ لأن اعتقادهم التقليدي الضعيف لم يكن له أثر في أخلاقهم وأعمالهم ، فلو حصل ما في صدورهم ومحص ما في قلوبهم وعرفت مناشئ الأعمال من نفوسهم لوجد أن ما كان لهم من عمل يظن أنه صالح كصلاة وصدقة فليس مبعثها حب هذه الأعمال ؛ لأنها طاعة للَّه ومحبوبة له وتقرب إليه وتثمر حبه وخشيته والفوز بالسعادة عنده ، وإنما مبعثها رئاء الناس وحب السمعة ، وتحدث الناس عنهم بها لمآرب في نفوسهم ، أو شهوة عندهم لذلك ، وهم بعد منغمسون في أعظم الشرور كالغش والكذب والخيانة والطمع ، والإفساد بين الناس بالنميمة والسعايات الكاذبة ، وغير ذلك من الرذائل التي حكاها عنهم اللَّه في كتابه الكريم ، وبينت في السنة النبوية ، وهذه الخصال الذميمة لا تتفق مع الإيمان باللَّه كما يحب ويرضى إيمانًا يشعر المؤمن بعظيم سلطان اللَّه وكبير جلاله ومهابته وخشيته ؛ إيمانًا أثمرته معرفة اللَّه معرفة حقة عن اقتناع بالبرهان الصادق وتأمل في الآيات البينة ، فإن هذا الإيمان يطبع في النفس أن اللَّه سبحانه وتعالى مطلع على السر والعلانية ، مهيمن على السرائر ، عليم بذات الصدور ﴿وَإِن تَجْهَرْ بِالْقَوْلِ فَإِنَّهُ يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى ۝٧ اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ﴾ .

ومن انطبع في قلبه ذلك ثمرة هذه المعرفة فهو لابد باذل منتهى جهده في إرضاء اللَّه تعالى بظاهره ؛ عملًا صالحًا وانقيادًا واستسلامًا ، لا تفريط فيه ولا تقصير ، ولا إفراط ولا غلو ، وبباطنه ؛ عقيدة طيبة ، وخشية خالصة ، وحبًا مع

تعظيم وإجلال وتذلل وخضوع يمتزج بكل ذرة من ذرات دمه.

فأما المنافقون فشأنهم غير ذلك، فإنهم يكتفون بظواهر الأعمال مع مصاحبة تلك الرذائل التي تنبئ عما في قلوبهم من خبث العقيدة وزيغها ولذلك قال فيهم: ﴿يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ﴾ [البقرة: الآية ٩] ... إلخ.

والخداع في اللغة: الفساد، حكاه ثعلب عن ابن الأعرابي وأنشد:

أبيض اللون رقيق طعمه طيب الريق إذا الريق خدع

وقيل أصله الإخفاء، ومنه مخدع البيت الذي يحرز فيه الشيء، حكاه ابن فارس وغيره وضب خادع: إذا أوهم حارسه إقباله عليه ثم خرج من باب آخر.

والمراد من مخادعتهم الله أنهم صنعوا معه صنع الخادعين، وإن كان العالم الذي لا يخفى عليه شيء لا يخدع.

وصيغة فاعل تفيد الاشتراك في أصل الفعل، فكونهم يخادعون الله والذين آمنوا يفيد أنَّ الله سبحانه والذين آمنوا يخادعونهم.

والمراد بالمخادعة من الله أنه لما أجرى عليهم أحكام الإسلام مع أنهم ليسوا منه في شيء فكأنه خادعهم بذلك كما خادعوه بإظهار الإسلام وإبطان الكفر، مشاكلة لما وقع منهم بما وقع منه.

والمراد بمخادعة المؤمنين لهم هو أنهم أجروا عليهم ما أمرهم الله تعالى به من أحكام الإسلام ظاهرًا وإن كانوا يعلمون فساد بواطنهم كما أن المنافقين خادعوهم بإظهار الإسلام وإبطان الكفر.

والمراد بقوله تعالى: ﴿وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ﴾ [البقرة: الآية ٩] الإشعار بأنهم لما خادعوا من لا يخدع كانوا مخادعين لأنفسهم، لأن الخداع إنما يكون مع من لا يعرف البواطن. وأما من عرف البواطن فمن دخل معه في الخداع فإنما يخدع نفسه وما يشعر بذلك. ومن هذا قول من قال: من خادعته فانخدع لك

فقد خدعك .

وذلك أن المنافق يخادع اللّٰه جل ثناؤه ويكذبه بلسانه واللّٰه تبارك اسمه خادعه بخذلانه عن حسن البصيرة بما فيه نجاة نفسه في آجل معاده ، كالذي أخبر اللّٰه في قوله : ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ خَيْرٌ لِّأَنفُسِهِمْۚ إِنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدَادُوٓاْ إِثْمًاۚ﴾ [آل عِمران: الآية ١٧٨] ، وبالمعنى الذي أخبر أنه فاعله بهم يوم القيامة بقوله : ﴿يَوْمَ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتُ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱنظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِن نُّورِكُمْ قِيلَ ٱرْجِعُواْ وَرَآءَكُمْ فَٱلْتَمِسُواْ نُورًا فَضُرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ لَّهُۥ بَابٌۢ بَاطِنُهُۥ فِيهِ ٱلرَّحْمَةُ وَظَٰهِرُهُۥ مِن قِبَلِهِ ٱلْعَذَابُ﴾ [الحَديد: الآية ١٣] ... الآية . وقد تكون المفاعلة من واحد كقولك عاقبت اللص .

قال في تفسير المنار :

العمل الظاهر الذي لا يصدقه الباطن إذا قصد به إرضاء آخر يسمى في اللغة مداجاة ومداراة ومخادعة . فإن كان يقصد به المخادعة فظاهر وإلا فيكفي لصحة الإطلاق أن العمل عمل المخادع لا عمل الطائع الخاضع . وهذا مراد القرآن من مخادعة هؤلاء الذين هم من أهل الكتاب الذين لم يقدروا اللّٰه حق قدره ، ومستحيل أن يقصد المومن باللّٰه مخادعته ، ولكنهم لجهلهم باللّٰه ظنوا به ما سوغ وصفهم بما ذكر عنهم . اهـ .

وقال العلامة الشوكاني في تفسيره(١) : أخرج ابن المنذر عن ابن سيرين قال : لم يكن عندهم شيء أخوف من هذه الآية ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلْيَوْمِ ٱلْأَخِرِ وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ﴾ [البقرة: الآية ٨] ، وأخرج ابن سعد عن حذيفة أنه قيل له ما النفاق ؟ قال : أن تتكلم بالإسلام ولا تعمل به .

وأخرج أحمد بن منيع في مسنده بسند ضعيف عن رجل من الصحابة ، أن

(١) فتح القدير ٤١/١ .

قائلًا من المسلمين قال: يا رسول اللّه ما النجاة غدًا؟ قال: «لا تخادع اللّه» قال: وكيف يخادع اللّه؟ قال: «أن تعمل بما أمرك اللّه به تريد به غيره. فاتقوا الرياء فإنه الشرك باللّه، فإن المرائي ينادى يوم القيامة على رؤوس الخلائق بأربعة أسماء: يا كافر؛ يا فاجر؛ يا خاسر؛ يا غادر؛ ظل عملك وبطل أجرك، فلا خلاق لك اليوم عند اللّه فالتمس أجرك ممن كنت تعمل له يا مخادع» وقرأ آيات من القرآن: ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُوا لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا﴾ [الكهف: الآية ١١٠] ﴿إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَهُوَ خَٰدِعُهُمْ﴾ [النّساء: الآية ١٤٢] الآية.

وقرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو (يخادعون) في الموضعين وقرأ حمزة وعاصم والكسائي وابن كيسان في الثاني (يخدعون) وهو نص في أن مخادعتهم للّه وللمؤمنين لا تأثير لها، وما هي إلا أمر صوري. وفي الحقيقة أن القوم بفعلهم هذا ما خدعوا إلا أنفسهم، يمنونها الأماني الباطلة وهي كذلك تمنيهم، وضرر ذلك إنما يعود عليهم، ووباله فوق رؤوسهم وحدهم، ولم تنقص هداية القرآن ونوره، ولا رحمة اللّه ونعمته شيئًا بأمانيهم هذه ومخادعتهم لأنفسهم.

وقد رجح ابن جرير رحمه اللّه قراءة (يخدعون) بأن المنافق ما يخدع إلا نفسه، ولم تثبت منه مخادعة اللّه ولا المؤمنين؛ لأن الخادع هو الذي ختل غيره عن شبهة والمخدوع غير عالم بموضع خديعة خادعه، فأما والمخادع عارف بخداع صاحبه وغير لاحقه من خداعه مكروه، وإنما يظهر له أنه مخادع استدراجًا ليبلغ غاية يتكامل له عليه الحجة للعقوبة التي هي موقع عند بلوغه إياها، والمستدرج غير عالم بحال نفسه عند مستدرجه ولا عارف باطلاعه على ضميره فإنما هو خادع نفسه لا شك دون من حدثت نفسه أنه له مخادع. ولذلك نفى اللّه جل ثناؤه عن المنافق أن يكون خدع غير نفسه.

وإذا كان الأمر على ما وصفنا فالواجب إذًا أن يكون الصحيح من القراءة ﴿وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ﴾ [البقرة: الآية ٩] دون (وما يخادعون) قال: ومن الدلالة أيضًا على أن قراءة من قرأ (وما يخدعون) أولى بالصحة أن اللَّه جل ثناؤه قد أخبر عنهم أنهم يخادعون اللَّه والذين آمنوا في أول الآية، فمحال أن ينفي عنهم ما قد ثبت أنهم فعلوه لأن ذلك تضاد في المعنى، وذلك غير جائز من اللَّه عز وجل.

وقال في تفسير المنار: إذا رجع الإنسان إلى نفسه وأصغى لمناجاة سره يجد عند ما يهم بعمل أي شيء أن في قلبه طريقين، وفي نفسه خصمين مختصمين: أحدهما يأمره بالعمل وسلوك الطريق الأعوج. والآخر ينهاه عن العوج ويأمره بالاستقامة على المنهج، ولا يترجح عنده باعث الشر ولا يجيب داعي السوء إلا إذا خدع نفسه بعد المشاورة والمذاكرة المطوية فيها، وصرفها عن الحق، وزين لها الباطل، وهذه الشئون النفسية في غاية الخفاء، تكون المنازعة ثم المخادعة ثم الترجيح، ويمر ذلك كلمح البصر؛ وربما لا يلتفت الإنسان بفكره إليه، ولذلك قال: ﴿وَمَا يَشْعُرُونَ﴾ [النحل: الآية ٢١]. اهـ.

قال أهل اللغة: شعرت بالشيء: فطنت له وأدركته. وقال في الكشاف: الشعور علم الشيء علم حس، من الشعار (بالكسر) الكساء الباطن الذي يمس شعر الإنسان. وقال الراغب: وشعرت أصبت الشعر. ومنه استعير شعرت كذا؛ أعلمت علمًا هو في الدقة كإصابة الشعر. والفطنة إدراك الأمور الدقيقة. فيكون الشعور: إدراك ما دق من حسي وعقلي. وما ورد في القرآن يدل على هذا المعنى.

فمعنى نفي الشعور عن المنافقين في مخادعتهم أنهم يجرون في كذبهم وتلبيسهم على ما ألفوا وتعودوا من التلبيس والتغرير والرياء، فلا يحاسبون أنفسهم

عليه ولا يراقبون اللَّه فيه ؛ وما كلهم يؤمنون بوجود اللَّه وإحاطة علمه ، ومن لم يؤمن بوجوده لم يترتب على خشيته ومراقبته فيما يرضيه وفيما يبغضه ، فهو يعمل عمل المخادع له وما يشعر بذلك .

وقد فسر في المنار سر مخادعتهم فقال :

هؤلاء المغرورون إذا عرض زاجر الدين بينهم وبين شهواتهم قام لهم من أنفسهم ما يسهل لهم أمره من أمل في الغفران ، أو تأويل إلى غير المراد ، أو تحريف إلى ما يخالف القصد من الخطاب ، وذلك بما رسخ في نفوسهم من ملكات السوء المنشأة بصور من العقائد الملونة بما قد يتجلى للأعين فيما يسمونه إيمانًا ، وما هم في الحقيقة بمؤمنين ، وإنما هم خادعون مخدوعون ، ولكنهم لما عمي عليهم من أمر أنفسهم لا يشعرون ، لأن ذلك يمر في أنفسهم وهم عنه غافلون - إلى أن قال : فإن كان مات من كانوا سبب النزول فالقران حي لا يموت ، ينطبق حكمه ، ويحكم سلطانه على الناس في كل زمان ، فكل من يزعم أنه مؤمن باللَّه واليوم الآخر ومع ذلك يصدر في عمله عن شهواته ، ولا يمنعه إيمانه عن ركوب خطيئاته ، فلا يفكر في توبة عند معصية ، ولا تدعوه نفسه إلى ندم بعد جريمة ، فاعتقاده إنما هو خيال لا يعلو عن لفظ في مقال ، ودعوى عند جدال ، فإذا ركن إلى هذا المعتقد فهو خادع لنفسه مخادع لربه يظن أن علام الغيوب لا ينظر إلى ما في القلوب .

وقال الإمام ابن جرير رحمه الله(١) : وهذه الآية من أعظم الدليل على تكذيب اللَّه جل ثناؤه قول الزاعمين : إن اللَّه لا يعذب عباده إلا من كفر به عنادًا بعد علمه بوحدانيته ، وبعد تقرر صحة ما عاند ربه تبارك وتعالى عليه من توحيده والإقرار بكتبه ورسله عنده ؛ لأن اللَّه جل ثناؤه قد أخبر عن الذين وصفهم بما وصفهم به

(١) تفسير ابن جرير ١١٨/١ . وفيه : « من أوضح الدليل » .

من النفاق وخداعهم إياه والمؤمنين أنهم لا يشعرون : أنهم مبطلون فيما هم عليه من الباطل مقيمون ، وأنهم بخداعهم الذي يحسبون أنهم به يخادعون ربهم وأهل الإيمان به مخدوعون .

ثم أخبر تعالى ذكره أن لهم عذابًا أليمًا بتكذيبهم بما كانوا يكذبون من نبوة نبيه ، واعتقاد الكفر به ، وبما كانوا يكذبون في زعمهم أنهم هم مؤمنون ، وهم على الكفر مصرون .

❁ ❁ ❁

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

تفسير القرآن الحكيم(١)

قوله تعالى: ﴿فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ ٱللَّهُ مَرَضًاۖ وَلَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمُۢ بِمَا كَانُواْ يَكۡذِبُونَ﴾ [البقرة: الآية ١٠].

المرض: كل ما يخرج الإنسان به عن حد الصحة واعتدال المزاج، فتختل به بعض وظائف الأعضاء وأعمالها، وذلك في كل عضو من أعضاء الإنسان بحسبه، فكما أن للعين مثلًا نوعًا من الأمراض تختل به وظيفة العين التي هي الإبصار، فكذلك لليد وللرجل وللأذن، من أنواع المرض ما يعطلها عن وظيفتها، وكذلك للقلب الذي يعبر به عن العقل الذي هو القوة المحركة للإنسان والمصرفة له، والذي قال فيه النبي ﷺ: «إن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله، وإذا فسدت فسد الجسد كله، ألا وهي القلب» وكان يكثر أن يقول: «لا ومقلب القلوب».

وقد خلق الله تعالى للإنسان هذا القلب ليكون أهلًا للخطاب، وصالحًا لحمل الأمانة التي أبت السماوات والأرض أن يحملنها وأشفقن منها، وهي الأمر والنهي والشرائع والأحكام، فللقب وظيفة هي أم الوظائف وأعلاها، تلك هي تسيير الإنسان في حياته الدنيا على صراط مستقيم يكفل له الخير والصلاح والسعادة الروحانية، والفوز بالنعيم المقيم في الدار الآخرة، كما أن وظيفة الأعضاء والجوارح الظاهرة توفير أسباب الراحة والهناء الجسماني للإنسان.

ولن يستطيع القلب أن يقوم بوظيفته هذه ويحقق لصاحبه ما يرتجيه من سعادة ونعيم حتى يكون قلبًا سليمًا من العلل، صحيحًا من الأمراض، قويًّا على تحمل

---

(١) مجلة الإصلاح – العدد الثالث عشر – ١٣٤٧/٩/١.

أعباء هذه الوظيفة التي على خطرها يقوم نظام العالم أجمع، وبقاء هذه الأعضاء وصحتها موقوف على مقدار تغذيها من مادة حياتها التي خلقها اللَّه لها، فصحة اليد إنما تكون على قدر ما تستمد من الدم السوي في الجسم المتحلل من الأطعمة والشراب. فإذا ضعف شريان أو وريد عن جذب أو دفع هذه المادة بمقدار كاف، أو كان في هذه المادة نوع فساد اعتل من اليد على قدر ضعف هذا الشريان أو الوريد، أو ما في المادة من نوع الفساد، وقد يزداد هذا الضعف فتبطل حركة اليد مرة واحدة وتصير أشلاء لا عمل لها بل تكون ضررًا على صاحبها لأنها ميتة.

وكذلك القلب جعل اللَّه له غذاء، فعلى قدر استمداده من ذلك الغذاء خلو هذا الغذاء من فساد مادته على قدر ما يكون في القلب من صحة ومرض وصلاح وفساد وقوة وضعف، ومادة غذاء القلوب وسبب حياتها هو الإيمان بتوحيد اللَّه وإخلاص العبودية والذل والخضوع له وحده، وذلك إنما ينزل به جبريل عليه السلام من عند اللَّه تعالى على من يصطفيهم اللَّه تعالى ويختارهم لطب القلوب وإحيائها، وهم المرسلون صلوات اللَّه وسلامه عليهم أجمعين.

ومما يدل دلالة لا سبيل للشك إليها أن مادة حياة القلوب إنما هي التوحيد الموضح في آيات اللَّه المنزلة قوله تعالى: ﴿ٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يُحْىِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ۚ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ ٱلْءَايَـٰتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [الحديد: الآية ١٧] بعد قوله: ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ ٱللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ ٱلْحَقِّ وَلَا يَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ مِن قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ ٱلْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ ۖ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَـٰسِقُونَ﴾ [الحديد: الآية ١٦] فإن أهل الكتاب إنما طال عليهم الأمد في اشتغالهم بما كتبوا بأيديهم من الكتب الخرافية التي صرفتهم عما نزل من الحق من عند اللَّه، فكان هذا سببًا لقسوة قلوبهم وتحجرها لانقطاع مادة الحياة عنها، كالأرض تقسو وتتحجر إذا

انقطعت المياه عنها ، فكما أن اللّٰه يحيي الأرض بعد موتها بما ينزل من السماء من ماء فكذلك يحيي القلوب بعد موتها بما ينزل من السماء من حق وآيات وهدى ، ولذلك ختم الآية بقوله : ﴿قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ ٱلْأَيَـٰتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [الحديد: الآية ١٧] .

وقد ذكر اللّٰه تعالى هذه الآيات من سورة الحديد بعد ذكر المنافقين وما يلاقون يوم القيامة من ظلمة وعذاب ؛ لأنهم حرموا قلوبهم في الدنيا من نور العلم الإلهي والهدى النبوي فحرموا من نور الإيمان الذي يملأ القلب في الدنيا هناء ومسرة وسعادة ، ويسعى يوم القيامة بين أيدي المؤمنين وبأيمانهم ، فيأمنون العثرات وينجون من المهلكات فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون ، فكانت لذلك قلوب المنافقين أشقى القلوب وأكثرها ألمًا وعذابًا . نسأل اللّٰه العافية والوقاية من ذلك بمنه وكرمه .

فإذا أخذت القلوب من هذا الغذاء القدر الكافي لحياتها وقوتها كانت قلوبًا سليمة ، وكان لصاحبها السعادة والخير في الدنيا والآخرة . وقد يعمل عدو الإنسان (الشيطان) على وضع مادة قاتلة من شرك وضلال وطغيان وعصيان في هذا الغذاء لإهلاك الإنسان ، فبتعاطيها يصاب القلب بفساد على قدر ما تناول من هذه المادة القاتلة ، والشأن في ذلك كشأن من يضع السم في الطعام أو الشراب لبعض الناس ليورده موارد الهلاك ، ولكن شتان بين هذه المادة الشيطانية وما يترتب عليها من هلاك وشقاء وبين المادة السمية التي لا يعدو شرها إصابة الجسم الفاني الذي ليس إلا وعاء للقلب بل خادمًا له .

والشرط في الانتفاع بالغذاء :

(١) خلوه من الغش والفساد .

(٢) إقبال النفس على تعاطيه بشهية واعتقاد فائدته .

(٣) الاعتدال في القدر المتناول . فإذا اختل شرط من هذه الشروط لم ينتفع بالغذاء الانتفاع المطلوب ، فإذا شيب الحق المنزل من عند الله بالخرافات من آراء الرجال وعوائد الناس من شرك وغيره ، أو شك الإنسان وارتاب في هذا الحق المنزل ؛ في صدقه ، أو تحقق الانتفاع به ، أو غلا فيه بالإفراط ، أو قصر بالتفريط ، كان لابد من وراء هذه مجتمعة أو متفرقة فساد القلب واعتلاله ، بل ربما إذا تكاثرت عليه قتلته فأصبح كالحجارة أو أشد قسوة .

وأولئك الذين يظهرون الإسلام ويبطنون الكفر من المنافقين الذين يحكي الله تعالى صفتهم في هذه الآيات قد حرموا قلوبهم من الانتفاع بهدي القرآن الكريم وعذب مورد الرسول الرؤوف بالمؤمنين الرحيم ، وغذوا قلوبهم من غذاء ﴿إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّقْتَدُونَ﴾ [الزخرف: الآية ٢٣] ، واكتفوا بما عليه قومهم من الأوهام والخيالات ، وران على قلوبهم فأركسها ما كسبوا من عداوة الحق ، وما لبسوا من خزي التقليد والعادات ؛ لا يعتنون بما أمر الله من تمزيق ظلمات هذه الحجب ، وإزالة كثيف هذه السحب ، للاطلاع على ما وراء ذلك من أنوار الفرقان . وشموس الإيمان ؛ وأقمار القرآن ﴿فَزَادَهُمُ ٱللَّهُ مَرَضًا﴾ [البقرة: الآية ١٠] فإنهم لما لم يقبلوا نصيحة الصادق الأمين ، واستمروا على حالهم من الإعراض عن الحق المنزل ، ومضوا في شكهم وارتيابهم وحيرتهم زادهم الله مرضًا على مرضهم ؛ لأن ما يتعاطونه من غذاء قلوبهم كله فساد في فساد . ولا شك أنه كلما ازداد قدر ذلك الفساد استعصى ما نشأ عنه من المرض ، واستوثق ما نتج من العلة والألم .

وعلى هذه القاعدة يزداد المؤمنون الذين يغذون قلوبهم كل ساعة من الحق المنزل من عند الله على النبي ﷺ ، فإنهم بذلك يزدادون إيمانًا على إيمانهم ، وهدى إلى هداهم ، وهناء وسعادة إلى سعادتهم ﴿وَٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْاْ زَادَهُمْ هُدًى

﴿وَءَاتَىٰهُمْ تَقْوَىٰهُمْ﴾ [محمد: الآية ١٧] .

قال الإمام ابن جرير رحمه الله(١) :

فالمرض الذي أخبر اللَّه جل ثناؤه عنهم أنه زادهم على مرضهم هو نظير ما كان في قلوبهم من الشك والحيرة قبل الزيادة ، فزاد اللَّه بما أحدث من حدوده وفرائضه التي لم يكن فرضها قبل الزيادة التي زادها المنافقين من الشك والحيرة ، إذ شكوا وارتابوا في الذي أحدث لهم من ذلك المرض والشك الذي كان في قلوبهم في السالف من حدوده وفرائضه التي كان فرضها قبل ذلك ، كما زاد المؤمنين إلى إيمانهم الذي كانوا عليه قبل ذلك بالذي أحدث لهم من الفرائض والحدود ، إذ آمنوا به إلى إيمانهم بالسالف من حدوده وفرائضه إيمانًا ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَزَادَتْهُمْ إِيمَـٰنًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ * وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَىٰ رِجْسِهِمْ وَمَاتُوا۟ وَهُمْ كَـٰفِرُونَ﴾ فالزيادة التي زيدها المنافقون من الرجاسة ما وصفنا . والزيادة التي زيدها المؤمنون إلى إيمانهم هو ما بينا . وذلك هو التأويل المجمع عليه . اهـ .

وقال ابن كثير رحمه اللَّه :

قال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم ﴿فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾ [البقرة: الآية ١٠] قال : هذا مرض في الدين وليس مرضًا في الأجساد ، وهم المنافقون . والمرض : الشك الذي دخلهم في الإسلام ﴿فَزَادَهُمُ ٱللَّهُ مَرَضًا﴾ [البقرة: الآية ١٠] قال : زادهم رجسًا . وقرأ ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَزَادَتْهُمْ إِيمَـٰنًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ * وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا﴾ قال : شرًّا إلى شرهم وضلالة إلى ضلالتهم ، وهذا الذي قاله عبد الرحمن - رحمه اللَّه - حسن وهو جزاء من جنس العمل . وكذلك قاله الأولون . وهو نظير قوله تعالى : ﴿وَٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْا۟ زَادَهُمْ

---

(١) تفسير ابن جرير ١٢٢/١ .

هُدًى وَءَاتَنٰهُمْ تَقْوَىٰهُمْ﴾ [محمد: الآية ١٧] . اهـ .

قوله تعالى : ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [البقرة: الآية ١٠] مؤلم يخلص وجعه إلى قلوبهم ، لما يجدون من شقاء ما هم فيه من حيرة وشك في الدنيا ، حيث هم كالريشة في مهب الرياح تتقاذفهم الأهواء فتلقي بهم ذات اليمين وذات الشمال ، فلا يقر لهم قرار ، ولا يثبتون علي حال ، فهم دائمًا منزعجون منغصون بهذه الحالة المطربة المقلقة ، وأيضًا هم دائمًا على وجل أن تبدر منهم بادرة ، أو تنزل من عند اللَّه آية تكشف عن خبية ما في نفوسهم من الشر والفساد ، وعند ذلك الطامة الكبرى والداهية العظمى ، فأي عذاب هذا العذاب ؟ وأي شقاء هذا الشقاء ؟ وأي حياة هذه الحياة الدائمة التنغيص والنكد ؟ حياة الخائفين الوجلين الذين تغشاهم جيوش الرعب من كل ناحية ، وتقع عليهم صواعق الفزع من كل صوب ، وهذا كله لا يذكر بجانب عذاب الآخرة الذي أعده اللَّه لهم في الدرك الأسفل من النار ، اللهم أجرنا واحفظنا واملأ قلوبنا بسعادة اليقين وحلاوة الإيمان .

وقوله : ﴿بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ﴾ [البقرة: الآية ١٠] قرئ بتشديد الذال من « يكذبون » وضم الياء ، وهي قراءة معظم أهل المدينة والحجاز والبصرة ، أي : بتكذيبهم النبي ﷺ ، وقرئ بتخفيفها وفتح الباء ، وهي قراءة معظم أهل الكوفة ، أي : بسبب كذبهم في دعواهم الإيمان باللَّه واليوم الآخر وما هم بمؤمنين .

والقراءتان تدلان على أن أولئك الخبثاء جمعوا بين هاتين الصفتين الذميمتين بتكذيبهم النبي ﷺ وكذبهم في دعوى الإيمان ، وهم إنما كذبوا لأنهم كذبوا النبي فالتكذيب سبب للكذب ، إذ إنهم لو صدقوا النبي ﷺ ما نافقوا ، وهم ما كانوا يكذبونه جهارًا وعلانية وإنما كان ذلك إذا خلوا إلى شياطينهم إذ يقولون : ﴿إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِءُونَ﴾ [البقرة: الآية ١٤] ، وتعذيب اللَّه لهم هو علي

الصفتين : التكذيب والكذب .

وقد رجح الإمام ابن جرير رحمه اللّٰه قراءة التخفيف فقال :

وذلك أن اللّٰه جل ثناؤه أنبأ عن المنافقين في أول النبأ عنهم في هذه السورة بأنهم يكذبون بدعواهم الإيمان وإظهار ذلك بألسنتهم خداعًا للّٰه عز وجل ولرسوله وللمؤمنين فقال : ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ ۝٨ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ [البقرة : ٨، ٩] ، وذلك من قيلهم مع استسرارهم الشك والريبة ﴿وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ﴾ [البقرة: الآية ٩] بصنيعهم ذلك دون رسول اللّٰه ﷺ والمؤمنين ﴿وَمَا يَشْعُرُونَ﴾ [النحل: الآية ٢١] بموضع خديعتهم أنفسهم واستدراج اللّٰه عز وجل إياهم بإملائه لهم. ﴿فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾ [البقرة: الآية ١٠] نفاق وريبة ، واللّٰه زائدهم شكًا وريبة ﴿بِمَا كَانُوا۟ يَكْذِبُونَ﴾ [البقرة: الآية ١٠] اللّٰه ورسوله والمؤمنين بقولهم بألسنتهم ﴿ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ﴾ ، وهم في قيلهم ذلك كذبة لاستسرارهم الشك والمرض في اعتقاد قلوبهم في أمر اللّٰه وأمر رسوله ﷺ . فأولى أن يكون الوعيد منه لهم على ما افتتح به الخبر عنهم من قبيح أفعالهم وذميم أخلاقهم ، دون ما لم يجر له ذكر من أفعالهم .

ثم استدل على صحة ذلك أيضًا بقوله تعالى في سورة المنافقين : ﴿إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُنَٰفِقُونَ قَالُوا۟ نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُۥ وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَكَٰذِبُونَ ۝١ ٱتَّخَذُوٓا۟ أَيْمَٰنَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ إِنَّهُمْ سَآءَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ ، والآية الأخرى في سورة المجادلة : ﴿ٱتَّخَذُوٓا۟ أَيْمَٰنَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ فَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾ [المجادلة: الآية ١٦] فأخبر جل ثناؤه أن المنافقين بقيلهم هذا ما قالوا لرسول اللّٰه ﷺ مع اعتقادهم فيه ما هم معتقدوه كاذبون ، ثم أخبر أن العذاب المهين لهم على ذلك من كذبهم .

ولو كان الصحيح من القراءة ما قرأه القراء في سورة البقرة لكانت القراءة في السورة الأخرى ﴿وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَكَٰذِبُونَ﴾ [المنافقون: الآية ١] ليكون الوعيد لهم الذي هو عقيب ذلك وعيدًا على التكذيب على الكذب. اهـ.

❁❁❁

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

تفسير القرآن الحكيم(١)

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ ﴿١١﴾ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلَٰكِن لَّا يَشْعُرُونَ﴾ [البقرة: ١١، ١٢].

الضمير في (لهم) يعود على المنافقين السابقي الذكر في قوله: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ﴾ [البقرة: الآية ٨] ... إلخ، وفسادهم الذي نهوا عنه وأصروا عليه، زاعمين أنه صلاح، هو ما كانوا عليه في حقيقة أمرهم ودخائل نفوسهم من الكفر بالله، وتكذيب محمد ﷺ، فإن هذا الكفر والتكذيب شر أنواع الفساد في الأرض، إذ الكافر الذي تجرد قلبه مرة من معرفة الله تعالى بصفات جلاله وكماله وقهره وقوته وبطشه وعظيم غيرته، لن يكون عنده - ما دام كذلك - رهبة من الله ولا رغبة إليه، ومتى كان كذلك فقلبه في القسوة والغلظة بالغ النهاية، فالأموال والأعراض والدماء عند هذا القلب القاسي الغليظ منتهكة الحرمات، شائعة الملك، بل إنه لا يهدأ ولا يستريح إلا بأن يؤتي نهمة نفسه الخبيثة من ذلك ما لا تقف فيه عند حد ولا تنتهي إلى غاية، فلا شك كان ما هم عليه من شر ما يملأ الأرض فسادًا وظلمًا؛ فإن الوازع الديني الذي ينشأ من خشية الله تعالى، والخوف من عقوبته بعد أن عرف أنه لا تخفى عليه خافية، وأنه سريع الحساب وشديد العقاب، ذلك الوازع الذي يملأ قلب المؤمن ويسيطر على إرادته وحواسه ومشاعره، قوي السلطان نافذ الكلمة، إذا وسوس الشيطان للنفس وزين لها أن تقدم على جريمة في العرض أو المال أو الدم صرخ في وجه ذلك الشيطان فرده وقمع شره، وصاح بالنفس: أين أنت من عين الذي يعلم السر وأخفى؟ أين أنت من غيرته على دينه

(١) مجلة الإصلاح - العدد الرابع عشر - ١٥/٩/١٣٤٧.

وحرماته ؟ أين أنت من خزي يوم القيامة وفضيحته على رؤوس الأشهاد يوم يقوم الناس لرب العالمين ؟ فإذا سمعت النفس تلك القوارع ثابت إلى رشدها ، وتنبهت من غفلتها ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ إِذَا مَسَّهُمۡ طَٰٓئِفٞ مِّنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ تَذَكَّرُواْ فَإِذَا هُم مُّبۡصِرُونَ ۝٢٠١ وَإِخۡوَٰنُهُمۡ﴾ أي إخوان الشياطين الذين حرموا من ذلك الوازع ؛ لأنهم حرموا قلوبهم من معرفة الله بصفاته ، وركنوا إلى الشياطين باغترارهم وافتتانهم وغفلتهم وجهلهم ﴿يَمُدُّونَهُمۡ﴾ [الأعراف: الآية ٢٠٢] أي يمدهم أولئك الشياطين بأنواع التزيينات والتحسينات ﴿فِي ٱلۡغَيِّ﴾ [الأعراف: الآية ٢٠٢] أي في السفه والعمى والفساد والعصيان والفسوق ﴿ثُمَّ لَا يُقۡصِرُونَ﴾ [الأعراف: الآية ٢٠٢] لأن قلوبهم قد أصبحت في قبضة الشياطين يتصرفون فيها كيف يشاؤون بالإهلاك والإشقاء ، فأين لهؤلاء الفكاك ؟ وأين لهم الإنابة والرجوع عن ذلك الغي إلى الرشد والإصلاح ، وقد أصبحوا أسرى في يد عدوهم يقودهم بسلاسل إغوائه وإضلاله إلى حيث لا يفلحون .

وهل تظن أن الشيطان الخبيث يترك لهم - وهم في قبضته وأغلاله - فرصة يتمكنون بها أن يتميزوا ما هم فيه من الفساد ، وأن يروا وجهه الشنيع القبيح ؟ إنه إن مكنهم من ذلك لم يكن قد صنع شيئًا ، لأنهم لا يلبثون أن يروا نور الحق وجماله ، وأنه لا يحصل لهم إلا بالفرار من ذلك الأسر ، فيعملون جهدهم ، بل فوق جهدهم للوصول إليه والخلاص مما هم فيه من أغلال الفساد والشقاء ؟

لكن الشيطان يعمل دائمًا علي تزيين الباطل بإلباسه أثوابًا مزخرفة واستعارة الأسماء الحسنة ، والصفات الخلابة ، حتى يخفي على أولئك الذين عميت أبصارهم ما وراء هذه الأسماء والصفات من خبث وشر وفساد .

ومثله في ذلك مثل الظلمة المستبدين الذين يغتصبون الناس ويسلبونهم حريتهم بظلمهم وجبروتهم ، ويجتهدون دائمًا في إبقاء نير الاستعباد على أعناق

أولئك الضعفاء المظلومين ، فيسلكون بهم ما استطاعوا من طرق الجهل ، وتفريق الكلمة ، وإيقاد نار العداوة والبغضاء بين أفرادهم ، ويوهمون كل فريق منهم أنهم يحبونه ويسعون في خيره فلذلك ينصرونه على الآخرين من بني جنسه ، من إخوانه في الدين والوطن ، فيبقى أولئك المغفلون الضعفاء تحت نير أولئك المستعبدين المستعمرين ما داموا مغرورين ومفتونين بما يزينون لهم .

وكذلك مثله في ذلك مثل الدجالين الذين يستعبدون قلوب الناس ويخضعونهم لسلطانهم الوهمي الذي به يتصرفون في أجسامهم وأموالهم حسب أهوائهم ، ويحرصون على بقاء ذلك بواسطة طمس معالم الحقائق الدينية ، وحجب عقول الناس وأبصارهم عن نور المعارف التي تكشف عن إفساد أولئك الدجالين ، فيلبسون لهم الباطل ثوب الحق ، كأن يسموا لهم الشرك الذي لا يغفره اللَّه توسلًا أو تبركًا أو كرامات للأولياء ، أو احترامًا وتعظيمًا ، وحبًّا للأنبياء والصالحين . وكأن يسموا الرقص والخلاعة والتثني والإلحاد في أسماء اللَّه وصفاته ذكرًا . ومجامع اللهو واللعب (حلقات ذكر) .

وبجانب هذا يسمون الداعي إلى توحيد اللَّه - تنفيرًا عنه - منكرًا لكرامات الأولياء ، غير محب للصالحين ، إلى غير ذلك من نبزه بالألقاب الشنيعة مما سلكه كل مفسد وكل ضال يسعى في الأرض فسادًا ، ويزعم تغريرًا للبسطاء والسفهاء - ترويجًا لخبثه ومكره - إنه من المصلحين ﴿أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلْمُفْسِدُونَ وَلَٰكِن لَّا يَشْعُرُونَ﴾ [البقرة: الآية ١٢] أي لا يشعرون أن حقيقة حالهم وخبيئة أمرهم لابد ظاهرة مفضوحة ، أما بالنسبة إلى من كان من أولئك في وقت النبي ﷺ فبإطلاع اللَّه له على حقيقتهم ، وإظهاره على ما يبيتون من شر ، وما يضمرون من كيد ، كما كان ذلك بالنسبة إلى عبد اللَّه بن أبي ابن سلول رأس المنافقين لما نفث في حزبه في غزوة تبوك روح التمرد والعصيان على النبي ﷺ فانهزموا من

الطريق ، وكان ذلك هو النصر والتأييد للنبي ﷺ ولحزبه ، فإن أولئك الجبناء المرتابين لو كانوا في جيش المؤمنين ما زادوهم إلا خبالًا ، وبذلك أعلم الله نبيه ﷺ قال الله تعالى : ﴿يَعْتَذِرُونَ إِلَيْكُمْ إِذَا رَجَعْتُمْ إِلَيْهِمْ قُل لَّا تَعْتَذِرُوا لَن نُّؤْمِنَ لَكُمْ قَدْ نَبَّأَنَا اللَّهُ مِنْ أَخْبَارِكُمْ﴾ [التوبة: الآية ٩٤] .

وأما بالنسبة إلى من سلك مسلكهم ممن جاءوا بعد عصر النبي ﷺ ، فإن الله سبحانه وتعالى يجعل في كل عصر من أهل العلم والنصيحة من يفضح أولئك الظالمين ، ويخزي بالحق أولئك الدجالين ، ويحذر الناس من شرورهم وإفسادهم . والمفسدون يظنون أن حيلهم في تلبيس الباطل قد راجت على الجميع ، والله لا يهدي كيد الخائنين .

يقول تعالى : ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ﴾ [البقرة: الآية ١١] اختلفت في المعني في القائل لهم ، فقيل هو الله تعالى ؛ على معنى أن أمره لهم بإخلاص الطاعة لله ولرسوله هو نهي عن الفساد الذي هو معصية الله ورسوله التي يترتب عليها عدوان الناس على بعضهم في الأموال والأعراض والدماء . وقيل هو الرسول ﷺ . وقيل هم المؤمنون .

قال بعضهم : والأقرب هو أن القائل من شافههم بذلك . فإما أن يكون الرسول ﷺ بلغه عنهم النفاق ولم يقطع بذلك فنصحهم ، فأجابوا بما يحقق إيمانهم وأنهم في الصلاة بمنزلة سائر المؤمنين . وإما أن يقال : إن بعض من كانوا يلقون إليهم الفساد كان لا يقبله منهم وينقلب واعظًا لهم ، قائلًا لهم : لا تفسدوا في الأرض ، وجائز أن يكون أولئك من المؤمنين وكانوا إذا سمعوا هذا من المنافقين وردوا عليهم ينقلون ذلك إلى النبي ﷺ ، فإذا سأل النبي ﷺ أولئك المنافقين ، وعاتبهم عادوا إلى إظهار الإسلام وكذبوا الناقلين عنهم ، وحلفوا بالله كما أخبر الله تعالى عنهم في قوله : ﴿وَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ إِنَّهُمْ لَمِنكُمْ وَمَا هُم

مِّنكُمْ وَلَٰكِنَّهُمْ قَوْمٌ يَفْرَقُونَ﴾ [التوبة: الآية ٥٦] ، وقد جاءت هذه الآية عقب ما ذكر الله عنهم في سورة براءة من اعتذارهم بالأعذار الواهية عن حضور القتال مع النبي ﷺ ، وتواصيهم بخذله رجاء أن ينتصر المشركون فيخلصوا منه ﷺ ويرجعوا إلى حياتهم الكفرية الظاهرة ويستريحوا من مرض المداهنة الذي لا يرضاه إلا خسيس سافل . وقال تعالى : ﴿يَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ مَا قَالُوا۟ وَلَقَدْ قَالُوا۟ كَلِمَةَ ٱلْكُفْرِ وَكَفَرُوا۟ بَعْدَ إِسْلَٰمِهِمْ﴾ [التوبة: الآية ٧٤] .

وقال : ﴿سَيَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ لَكُمْ إِذَا ٱنقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ لِتُعْرِضُوا۟ عَنْهُمْ ۖ فَأَعْرِضُوا۟ عَنْهُمْ ۖ إِنَّهُمْ رِجْسٌ ۖ وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ﴾ [التوبة: الآية ٩٥] ، ﴿يَحْلِفُونَ لَكُمْ لِتَرْضَوْا۟ عَنْهُمْ ۖ فَإِن تَرْضَوْا۟ عَنْهُمْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يَرْضَىٰ عَنِ ٱلْقَوْمِ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾ [التوبة: الآية ٩٦] .

وجائز أن يكون بعضهم سأل بعضًا لما كانوا عليه من اختلاف الحال وتباين الآراء كما قال تعالى : ﴿تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّىٰ ۚ﴾ [الحشر: الآية ١٤] ، وأن ذلك البعض لم يكن يرضى عن فعل الآخرين من تأليب المشركين على النبي ﷺ كما فعل كعب بن الأشرف في غزوة الأحزاب نكثًا لما كان بين يهود المدينة وبين النبي ﷺ ، فإن بعض المنافقين من اليهود حذروا الناكثين المؤلبين المفسدين عاقبة الحرب وأنه فساد عظيم لا يؤمن أن يتطاير من شرره ما يحترقون به . فأجابهم أولئك المفسدون : إن هذا إصلاح ؛ لأن انتصار قوم محمد عليه لا نخشى معه منهم ما نخشاه من ظفر محمد وانتصاره ، فإننا قد مضت علينا أزمنة متطاولة ونحن مع أولئك المشركين ولم نجد أحدًا منهم نازعنا في صحة ديننا ، بل كثير منهم رضي به له دينًا وانضم إلى صف اليهودية ، وهم لا يدعون إلى شركهم كما يدعو محمد إلى دينه ، ولا شك أن مثابرة محمد على الدعوة إلى دينه ، ومعه من الحجج والبراهين ما بهر الناس تلاشى دين اليهودية الذي ليس له

من الدعوة ولا من الحجج والبراهين ما لدين محمد ، وهو مع هذا لا يفتأ يعيب علينا ويصمنا بأن أسلافنا وأخلافنا غيروا وحرفوا في دين موسى ، وأننا اتخذنا أحبارنا ورهباننا أربابًا من دون اللَّه حيث أطعناهم هذه الطاعة العمياء ، وقلدناهم هذا التقليد الذي ليس فيه رائحة هدى ولا بصيرة ، ويصفنا بالقسوة والغلظة ، وأننا لذلك قتلنا الأنبياء ، وحاربنا الدعاة إلى الحق ، فلهذا كانت مصلحتنا في انتصار قوم محمد عليه حتى نكون على ديننا من الآمنين ، ونحن بتأليب قومه عليه ونكث العهد إنما نبتغي الصلاح لنا ولديننا ودنيانا .

وقال الإمام ابن جرير رحمه الله(١) :

قول اللَّه تبارك اسمه : ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ﴾ [البقرة: الآية ١١] نزلت في المنافقين الذين كانوا على عهد رسول اللَّه ﷺ وإن كان معنيًا بها كل من كان بمثل صفتهم من المنافقين بعدهم إلى يوم القيامة .

ثم قال : والإفساد في الأرض : العمل فيها بما نهى اللَّه جل ثناؤه عنه ، وتضييع ما أمر اللَّه تعالى بحفظه ، فذلك جملة الإفساد كما قال جل ثناؤه في كتابه - مخبرًا عن قيل ملائكته - ﴿قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ﴾ [البقرة: الآية ٣٠] ، يعنون بذلك : أتجعل في الأرض من يعصيك ويخالف أمرك ؟

فكذلك صفة أهل النفاق مفسدون في الأرض بمعصيتهم فيها ربهم ، وركوبهم فيها ما نهاهم عن ركوبه ، وتضييعهم فرائضه ، وشكهم في دين اللَّه الذي لا يقبل من أحد عملًا إلا بالتصديق به ، والإيقان بحقيته ، وكذبهم على المؤمنين بدعواهم غير ما هم عليه مقيمون من الشك والريب ، وبمظاهرتهم أهل التكذيب باللَّه وكتبه ورسله على أولياء اللَّه إذا وجدوا إلى ذلك سبيلًا فذلك إفساد

---

(١) تفسير ابن جرير ١/١٢٥، ١٢٦ .

المنافقين في أرض اللَّه وهم يحسبون أنهم بفعلهم ذلك مصلحون فيها ، فلم يسقط اللَّه جل ثناؤه عنهم عقوبته ، ولا خفف عنهم أليم ما أعد من عقابه لأهل معصيته بحسبانهم أنهم فيما أتوا من معاصي اللَّه مصلحون ، بل أوجب لهم الدرك الأسفل من ناره ، والأليم من عذابه ، والعار العاجل بسب اللَّه إياهم وشتمه لهم فقال تعالى : ﴿أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلْمُفْسِدُونَ وَلَٰكِن لَّا يَشْعُرُونَ﴾ [البقرة: الآية ١٢] .

وذلك من حكم اللَّه جل ثناؤه أدل دليل تكذيبه تعالى قول القائلين : إن عقوبات اللَّه تعالى لا يستحقها إلا المعاند ربه فيما لزمه من حقوقه وفروضه بعد علمه وثبوت الحجة عليه بمعرفته بلزوم ذلك إياه . اهـ .

وقال الشوكاني رحمه اللَّه في « تفسيره »(١) : والمراد في الآية ؛ لا تفسدوا في الأرض بالنفاق وموالاة الكفرة ، وتفريق الناس عن الإيمان بمحمد ﷺ والقرآن ، فإنكم إذا فعلتم ذلك فسد ما في الأرض بهلاك الأبدان وخراب الديار وبطلان الزروع ، كما هو مشاهد عند ثوران الفتن والتنازع . والصلاح ضد الفساد ، ولما نهاهم اللَّه عن الفساد الذي هو دأبهم ، أجابوه بهذه الدعوى العريضة ، ونقلوا أنفسهم من الاتصاف بما هم عليه حقيقة وهو الفساد إلى الاتصاف بما هو ضد لذلك ، وهو الصلاح . ولم يقفوا عند هذا الكذب البحت والزور المحض حتى جعلوا صفة الصلاح مختصة بهم خالصة لهم . فرد اللَّه عليهم أبلغ رد ، كما يفيده حرف التنبيه من تحقق ما بعده ، ولما في إنَّ من التأكيد ، وما في تعريف الخبر مع توسيط ضمير الفصل من الحصر المبالغ فيه بالجمع بين أمرين من الأمور المفيدة له ، وردهم إلى صفة الفساد التي هم بها متصفون في الحقيقة ردًّا مؤكدًا مبالغًا فيه بزيادة على ما تضمنته دعواهم الكاذبة من مجرد الحصر المستعار من إنَّما .

---

(١) فتح القدير ٤٢/١ .

وأما نفي الشعور عنهم فيحتمل أنهم لما كانوا يظهرون الصلاح مع علمهم أنهم على الفساد الخالص ظنوا أن ذلك ينفق على النبي ﷺ ويكتم عنه بطلان ما أظهروه ، ولم يشعروا بأنه عالم به ، وأن الخبر يأتيه بذلك من السماء ، فكان نفي الشعور عنهم من هذه الحيثية . لا من جهة أنهم لا يشعرون بأنهم على الفساد . ويحتمل أن فسادهم كان عندهم صلاحًا لما استقر في قلوبهم من محبة الكفر وعداوة الإسلام . اهـ .

أقول : الآية جاءت بصفة جماعة من الناس توجد في كل أمة من الأمم كما تقدم بيان ذلك ، فعلى كل مسلم يؤمن بأن القرآن هو الحكم الفصل والقدوة الصالحة أن يحاسب نفسه بهذه الآية في كل حال من أحواله ، فإن في الآية الحجة البالغة على قوم زعموا إنهم مسلمون وهم بأعمالهم الفاسدة من موالاة أعداء اللّٰه ومداهنتهم واتخاذهم أحبابًا وإخوانًا يظهرونهم على مكنون أسرارهم ويطلعونهم على خفي أمورهم ، بل ويعاونوهم على إيصال الأذى والشر لعباد اللّٰه المؤمنين .

في الآية هذه وفي غيرها من آيات القرآن الحكيم ما يدل صراحة أن فعل ذلك ليس من الإسلام في شيء ، بل إن ذلك من أعمال أعداء اللّٰه ورسوله الذين كانوا يقولون بألسنتهم ما ليس في قلوبهم ، فمن كان يرجو لقاء ربه ويؤمن باللّٰه واليوم الآخر فليجانب تلك الأعمال المفسدة وليكن عند قوله تعالى : ﴿لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَوْ كَانُوٓاْ ءَابَآءَهُمْ أَوْ أَبْنَآءَهُمْ أَوْ إِخْوَٰنَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ كَتَبَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْإِيمَٰنَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ ۖ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ رَضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُواْ عَنْهُ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ حِزْبُ ٱللَّهِ ۚ أَلَآ إِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ [المجادلة: الآية ٢٢] .

تفسير القرآن الحكيم(١)

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

قوله تعالى : ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُوا۟ كَمَآ ءَامَنَ ٱلنَّاسُ قَالُوٓا۟ أَنُؤْمِنُ كَمَآ ءَامَنَ ٱلسُّفَهَآءُ ۗ أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلسُّفَهَآءُ وَلَٰكِن لَّا يَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: الآية ١٣] .

يقول تعالى ذكره : وإذا قيل لأولئك الذين يقولون بألسنتهم آمنا بالله وباليوم الآخر وما هم بمؤمنين بقلوبهم آمنوا إيمانًا يقينيًا وصدقوا تصديقًا قلبيًا ، وذلك هو الإيمان الحق الذي يصفي النفس من كدورات الأغيار ، ويطهرها من أقذار الأوضار ، ويبوؤها عرش الكمال ، ويرفعها إلى عز درجات القرب من ذي الجلال ، ولا يتهيأ ذلك الإيمان إلا باطراح ما علق بالقلوب من عادات تقليد الأسلاف بدون نظر ولا تفكير ، والتخلي عن غوايات الأهواء ، والالتجاء إلى حصن الحق الذي تؤيده البراهين والمعجزات ، وينطق بصدقه أهل الأرض والسموات ، كما آمن المهاجرون والأنصار إيمانًا رفعهم من حضيض الشرك والجهل والشر إلى أوج التوحيد والعلم والصلاح ، وعرفهم كيف يشكرون لله نعمته في أنفسهم ببذلها في سبيله ، وفي أموالهم في مواساة إخوانهم وإنفاقها فيما يحب الله ويرضى ، وشدة موالاتهم وحنوهم على بعضهم ولو كانوا قبل ألد الأعداء ، وشدة معاداتهم وحربهم لمن خالفهم ولو كان قبل أقرب الأقرباء وأصدق الأصدقاء .

ولكن أبت على أولئك المنافقين نفوسهم المريضة أن ترضى بهذا الهدى ، وأن تقبل تلك السعادة بعد أن طمس الشيطان على أبصارهم وبصائرهم وأوهمهم أنهم من العقل والحكمة بحيث يميزون بين الطيب والخبيث ، وأن حكمهم هو

---

(١) مجلة الإصلاح - العدد الخامس عشر - ١/١٠/١٣٤٧.

الفصل في ذلك ، وأراهم الحق باطلًا والباطل حقًّا ، والطيش والسفه حكمة وعقلًا . فقال لسان قالهم وحالهم : ﴿أَنُؤْمِنُ﴾ ذلك الإيمان ونخلص ذلك الإخلاص الذي يجعلنا نحب غيرنا ممن شاركنا في هذا الإيمان حبًّا يحملنا على مشاركته لنا في أموالنا ، وعلى بذل أنفسنا رخيصة في سبيل الدفاع عنه ، وأموالنا ما حصلنا عليها إلا بعظيم ما نالنا من مشقة وعناء وبلاء ، وأنفسنا ليست من الرخص ولا الهون بهذه الدرجة ﴿كَمَآ ءَامَنَ﴾ أولئك الذين صدقوا في حبهم لمحمد ﷺ وفي طاعته ، فغير من عوائدهم وأخلاقهم وانتزعهم من طباعهم انتزاعًا بدلهم من حال إلى حال ، فهؤلاء هم ﴿ٱلسُّفَهَآءُ﴾ الذين ينقادون هذا الانقياد ويطيعون هذه الطاعة .

وفي الحقيقة والواقع الذي يحكم به العقل السليم والفطرة المستقيمة أن الحكمة والرشاد فيما فعله أولئك الذين صدقوا في إيمانهم وأخلصوا في أقوالهم وأفعالهم ، لأنهم ما صاروا إلى ذلك إلا بعد ما قامت لهم الحجة القاطعة والبرهان الساطع على صدق محمد ﷺ ، وأن ما جاء به هو الهدى ، وأن الخير والسعادة والرشاد في اتباعه وطاعته وحبه وموالاة من والاه ومعاداة من عاداه ، وأن ضد ذلك هو المعاندة بدون حجة والمناقضة بلا برهان ، بل بمحض الحسد والعدوان ، أما الطيش والسفه فحقيق بهما من أصم أذنه وأعمى بصره عن نور الحق وهدايته وخنس في رجس المعاندة والكراهية والبغضاء لمن جاء به . فحرم بذلك من الخير والرشد والسعادة في الدنيا والآخرة ، ولذلك قال الله : ﴿أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلسُّفَهَآءُ وَلَٰكِن لَّا يَعْلَمُونَ﴾.

واللام في قوله : ﴿ٱلنَّاسِ﴾ إما أن تكون للعهد ، والمعهود إما رسول الله ﷺ ومن آمن معه ، أو عبد الله بن سلام وأشياعه لأنهم من أبناء جنسهم ، وإما أن تكون للجنس ، ولما كان الأوس والخزرج أكثرهم كانوا مسلمين صح إطلاق

الناس عليهم من إطلاق لفظ العموم على الأكثر، أو لأن المؤمنين هم الناس حقيقة لأنهم هم الذين أعطوا الإنسانية حقها بإيمانهم وتصديقهم واهتدائهم.

و﴿ٱلسُّفَهَآءُ﴾ جمع سفيه، كعلماء وعليم وحكماء وحكيم. والسفيه: الجاهل الضعيف الرأي القليل المعرفة بمواضع المنافع والمضار. ولذلك سمى الله عز وجل النساء والصبيان سفهاء فقال: ﴿وَلَا تُؤْتُوا۟ ٱلسُّفَهَآءَ أَمْوَٰلَكُمُ ٱلَّتِى جَعَلَ ٱللَّهُ لَكُمْ قِيَٰمًا﴾ [النِّساء: الآية ٥].

قال الإمام ابن جرير رحمه الله(١):

وهذا خبر من الله تعالى عن المنافقين الذين تقدم نعته لهم ووصفه إياهم بما وصفهم به من الشك والتكذيب أنهم هم الجاهلون في أديانهم الضعفاء الآراء في اعتقاداتهم واختياراتهم التي اختاروها لأنفسهم، من الشك والريب في أمر الله وأمر رسوله وأمر نبوته، وفيما جاء به من عند الله وأمر البعث؛ لإساءتهم إلى أنفسهم بما أتوا من ذلك وهم يحسبون أنهم إليها يحسنون، وذلك هو عين السفه؛ لأن السفيه إنما يفسد من حيث يرى أنه يصلح، ويضيع من حيث يرى أنه يحفظ، فكذلك المنافق يعصي ربه من حيث يرى أنه يطيعه؛ ويكفر به من حيث يرى أنه يؤمن به؛ ويسيء إلى نفسه من حيث يرى أنه يحسن إليها؛ كما وصفهم ربنا جل ذكره فقال: ﴿أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلْمُفْسِدُونَ وَلَٰكِن لَّا يَشْعُرُونَ﴾ [البقرة: الآية ١٢]. اهـ.

وقال الشوكاني رحمه الله(٢): أي: وإذا قيل للمنافقين آمنوا كما آمن أصحاب محمد ﷺ من المهاجرين والأنصار أجابوا بأحمق جواب؛ وأبعده عن الحق والصواب، فنسبوا إلى المؤمنين السفه استهزاءً واستخفافًا؛ فتسببوا بذلك

---

(١) تفسير ابن جرير ١٢٨/١.

(٢) فتح القدير ٤٣/١.

إلى تسجيل اللَّه عليهم السفه بأبلغ عبارة وآكد قول ، وحصر السفاهة - وهي رقة الحلوم وفساد البصائر وسخافة العقول - فيهم مع كونهم لا يعلمون أنهم كذلك ، إما حقيقة أو مجازًا ؛ تنزيلًا لإصرارهم على السفه منزلة عدم العلم بكونهم عليه وإنهم متصفون به .

ولما ذكر اللَّه هنا السفه ناسب نفي العلم عنهم ؛ لأنه لا يتسافه إلا جاهل .

والكاف في موضع نصب لأنها نعت لمصدر محذوف ؛ أي إيمانًا كإيمان الناس . اهـ .

وفي قوله : ﴿وَلَٰكِن لَّا يَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: الآية ١٣] إشارة إلى حالهم وما هم عليه من التقليد الذي يحسبونه علمًا وهو في الحقيقة جهل وعمى ؛ لأنهم ليسوا على بصيرة ولا هدى مما كان عليه سالفوهم المتقدمون ؛ إذ لو كانوا على شيء من البصيرة والهدى لاتبعوا ما كان عليه صالحوا سالفهم من الإيمان الصادق والعمل الصالح وسارعوا إلى طاعة النبي ﷺ ؛ الذي وصى صالحوا سالفيهم بالإيمان به وطاعته ونصره وتعزيره ، كما فعل عبد اللَّه بن سلام وشيعته رضي اللَّه عنهم ، فالمنافقون على جهل عظيم بما كان عليه من يزعمون تقليدهم واقتفاء أثرهم .

وكذلك منافقوا هذا الزمان الذين سلكوا طريق أولئك ويزعمون أنهم مسلمون مقلدون للسالفين ، وهم مع ذلك يشركون باللَّه أعظم الشرك ، ويحاربونه أعظم المحاربة ، ويخالفون صريح كتابه وصحيح سنة نبيه ، مقدمين لقول الرجال على ذلك النص الصريح . ولا وربك ما كان صالحوا السلف على ذلك ، بل كانوا يخلصون دينهم كله للَّه ؛ دعاء وتوسلًا والتجاء ، وتوكلًا وعملًا ، ويسمعون ويطيعون لما جاء عن اللَّه ورسوله ، ويتركون قولهم وقول غيرهم كائنًا من كان عند مجيء النص الصريح ، ولا ينتحلون لأنفسهم أوهى المعاذير في معارضة النصوص ، بقولهم : هذا قاله فلان ، أو فهمه فلان ، أو أجمع عليه فلان

وعلان . ولقد كان السلف الصالح رضي اللّٰه عنهم يعلمون حق العلم ويعرفون حق المعرفة أن الشرك والضلال وكل فساد ما جاء شيء منها إلا بسبب التقليد بلا علم ولا بصيرة ، بل بمجرد شيوع ذلك عن فلان أو فلان ممن يعظمهم الناس ويحلونهم من قلوبهم بالحق أو بالباطل المحل الرفيع ؛ ولذلك ترى الكتب طافحة بنهي الأئمة الأربعة وغيرهم من خيار سلف هذه الأمة وخلفها عن هذا التقليد الذي عادت به الأمة الإسلامية إلى ما كان عليه اليهود والنصارى والوثنيون .

ومن العجيب المؤسف أن الناس يزعمون أنهم مقلدون للأئمة الأربعة ، وفي الوقت نفسه يخالفون نهيهم هذا ، ويأبون إلا أن يكونوا في دينهم كالأعمى الذي ليس له قائد ، أو كمن قال اللّٰه فيه : ﴿أَفَمَن يَمْشِى مُكِبًّا عَلَىٰ وَجْهِهِۦٓ﴾ [الملك: الآية ٢٢] فيعلم بذلك أنهم في الحقيقة لا يقلدون أولئك الأئمة المهتدين ، ولكنهم يتبعون أهواءهم ، فما وافق أهواءهم من قول هؤلاء الأئمة أخذوه وعملوا به ، وما لم يوافق بحثوا عن غيره من قول من لا يساوي فتيلًا ولا قطميرًا مع هؤلاء الأئمة ، وسووا قوله بقول الأئمة ، بل قدموه عليه وجعلوا منزلته أعلا من منزلته ، بل قدموه على قول اللّٰه وقول رسوله وانتحلوا لأنفسهم من المعاذير ما لا يقبله اللّٰه ولا يقره الدين ولا العقل الصحيح كما انتحل سلفهم من المخالفين الأعذار الواهية ، يعللون بها أنفسهم عما هم فيه من الباطل فإن كانوا قد رضوا بأولئك الأئمة المهتدين - رضي اللّٰه عنهم - أئمة لهم وقدوة فالواجب أن يقلدوهم في كل ما قالوه ولا يخرجوا قيد شعرة عما قرروه .

هذا هو الحق وما عداه دعوى بلا دليل . وقد قال العلماء جميعًا وقرروا : أن كل أحد يؤخذ من قوله ويرد عليه إلا رسول اللّٰه ﷺ . وإن صح الحديث فهو مذهبهم وإذا وافق قولهم قول رسول اللّٰه ﷺ فاعملوا به وإلا فاضربوا به عرض

الحائط . والواجب أن يأخذ من يريد العلم من مشكاة رسول الله ﷺ ، وأن لا يعتمد على قول أحد من البشر غيره فالبشر يخطئ ويصيب ويقول القول اليوم ويرجع عنه غدًا . إلى غير ذلك من الأقوال التي يجب على كل مسلم ينصح لنفسه ويرجو لقاء ربه أن يجعلها نصب عينيه وأن لا يغفل عنها طرفة عين .

قال ابن القيم رحمه الله في الرسالة التبوكية(١) :

وقد حكى الشافعي رضي الله عنه إجماع الصحابة والتابعين ومن بعدهم على أن من استبانت له سنة رسول الله ﷺ لم يكن له أن يدعها لقول أحد . ولم يسترب أحد من أئمة الإسلام في صحة ما قاله الشافعي رضي الله عنه ، فإن الحجة الواجب اتباعها على الخلق كافة إنما هو قول المعصوم الذي لا ينطق عن الهوى ، وأما أقوال غيره فغايتها أن تكون سائغة الاتباع فضلًا عن أن يعارض بها النصوص ونقدم عليها عياذًا بالله من الخذلان . اهـ .

هذا ونسأل الله أن يوفق المسلمين إلى طريق الاستقامة ، وأن يهديهم سبيل السلام ، وأن يردهم جميعًا إلى الأمر الأول الذي كان عليه خير هذه الأمة وصفوتها .

●●●

---

(١) الرسالة التبوكية (زاد المهاجر) ص٣٧ .

تفسير القرآن الحكيم[1]

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا لَقُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْا۟ إِلَىٰ شَيَٰطِينِهِمْ قَالُوٓا۟ إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِءُونَ﴾ [البقرة: الآية ١٤].

يذكر اللَّه تعالى في هذه الآية صفة من صفات المنافق الدالة على خبث نفسه ولؤم طبعه وتسفل أخلاقه، وهي صفة المداهنة والمداجاة؛ يكون صاحبها ذا ألوان عدة ووجوه مختلفة، يقابل هذا بلون وهذا بلون، وتلك الصفة من علامات الجبن وذلة النفس وصغارها؛ لأنه لو كان عند صاحبها شيء من الشجاعة والشهامة لكان صريحًا في التعبير عما يكنه الضمير ويحتويه الصدر بدون مداهنة ولا مداجاة. فإن المداجاة ما تصدر إلا عن خوف ممن تداجيه وتداهنه.

وينضاف إلى هذه الصفة الخبيثة والخصلة الذميمة ما صاحبها من الانطواء على الكفر والفساد والشرك والعناد، فالمداهن الذي يداهن الناس في أمور الدنيا مذموم وممقوت أشد الذم وأشنع المقت، قال رسول اللَّه ﷺ: «تجدون شر الناس ذا الوجهين: الذي يأتي هؤلاء بوجه وهؤلاء بوجه»[2]. رواه مالك والبخاري ومسلم، وقال: «من كان له وجهان في الدنيا كان له يوم القيامة لسانان من نار». رواه أبو داود وابن حبان في صحيحه[3]، فكيف بمن يداهن في الدين ويداجي في الحق واليقين بعد ما تبين له وقامت عليه الحجة التي تقطع كل عذر وتخرس كل لسان؟

---

(١) مجلة الإصلاح - العدد السادس عشر - ١٣٤٨/١/١هـ.

(٢) أخرجه مالك ٩٩١/٢، والبخاري (٦٠٥٨)، ومسلم (٢٥٢٦) من حديث أبي هريرة رضي اللَّه عنه.

(٣) أخرجه أبو داود (٤٨٧٣)، وابن حبان (٥٧٥٦) من حديث عمار بن يسار، رضي اللَّه عنه.

إن شر النفوس وأرذلها وأخسها نفس تسفلت إلى هذه الدركة من الأخلاق .

وتكون هذه النفسية في كل زمن لأشخاص أشباه الحيات ، تحسبها لظاهر لينها وملاستها بعيدة عن الشر وهي لا تنفث إلا سما قاتلًا وموتًا مريعًا ، بل هم أشباه الشيطان الذي يخنس للإنسان ويتضاءل حتى إذا وهم الإنسان أنه تلاشى وفني فأمن جانبه إذا به قد دبر من الكيد ونسج من شراك الشر للإنسان ما فيه حتفه وهلاكه .

فكما أن الإنسان يبذل كل جهده ومنتهى طاقته من الفطنة والحذر في توقي الحيات والشياطين فكذلك على الجماعات الإسلامية والأفراد أن يبذلوا هذا الجهد في توقي تلك الحيات والشياطين البشرية فإنها أصل كل فساد وجرثومة كل بلاء ، وما من مصيبة حلت بالإسلام إلا وسببها وجالبها هذه الحيات وتلك الشياطين .

يقول اللَّه تعالى ذكره للنبي والمؤمنين : لا تغتروا بما يظهره أولئك الذين يقولون آمنا باللَّه وباليوم الآخر وما هم بمؤمنين ؛ من حلاوة اللسان وإظهار الموافقة في الأعمال ، ولا تطمئنوا إليهم ، فإن قلوبهم ملأى بالحقد والضغن ، وإن نفوسهم الخبيثة لا تقر إلا بالكيد لكم ولدينكم ، فإنهم لا يزالون محافظين وحريصين على صلتهم بشياطين الفتنة ودعاة الضلال والشرك الذين يصدون عن سبيل اللَّه بما يقيمون من عقبات الوساوس والأوهام ، وما يلقون فيه من أشواك المعايب والمذام ، ويسرون إليهم ما في نفوسهم ، وينثلون عندهم جعبة قلوبهم وكنانة صدورهم ، ويقولون لهم : إنا معكم بقلوبنا وصادق عزائمنا ، وما ذلك الذي نعطيه لمحمد وأتباعه من حلو القول وظاهر الموافقة إلا استهزاء بهم وسخرية ، حتى نتقي شر ما بأيديهم اليوم من قوة ، ونتربص بهم الدوائر ونجتهد في فل ذلك السيف وزلزلة هذه العقائد التي صاروا بها ذوي قوة وعزة وسلطان .

فكشف اللَّه عن هذا التلون وفضح هذه الذبذبة، وقابلهم عليها بما يهدم بنيانهم ويزعزع أركانهم فقال: ﴿ٱللَّهُ يَسۡتَهۡزِئُ بِهِمۡ وَيَمُدُّهُمۡ فِي طُغۡيَٰنِهِمۡ يَعۡمَهُونَ﴾ [البقرة: الآية ١٥].

قال ابن جرير رحمه الله(١): أخبر عنهم في هذه الآية أنهم يقولون للمؤمنين المصدقين باللَّه وكتابه ورسوله بألسنتهم آمنا وصدقنا بمحمد وبما جاء به من عند اللَّه؛ خداعًا عن دمائهم وأموالهم وذراريهم ودرءًا لهم عنها. وإذا خلوا إلى مردتهم وأهل العتو والشر والخبث منهم ومن سائر أهل الشرك الذين هم على مثل الذي هم عليه من الكفر باللَّه وبكتابه ورسوله وهم شياطينهم - وشياطين كل شيء مردته - قالوا لهم إنا معكم، أي على دينكم، وظهراؤكم على من خالفكم فيه وأولياؤكم، دون أصحاب محمد، إنما نحن مستهزئون باللَّه وبكتابه ورسوله وأصحابه. ثم روى عن ابن عباس قال: كان رجال من اليهود إذا لقوا أصحاب النبي ﷺ أو بعضهم قالوا: إنا على دينكم. وإذا خلوا إلى أصحابهم، وهم شياطينهم، قالوا إنا معكم، إنما نحن مستهزئون.

وقال الشوكاني رحمه اللَّه في تفسيره(٢):

معنى لقيته ولاقيته، استقبلته قريبًا، وقرأ محمد بن السميفع اليماني وأبو حنيفة (لاقوا). وخلوت بفلان وإليه، إذا انفردت به، وإنما عدي بـ «إلى» وهو يتعدى بالباء لتضمنه معنى ذهبوا وانصرفوا. والشياطين جمع شيطان على التكسير. وقد اختلف كلام سيبويه في نون شيطان، فجعلها في موضع من كتابه أصلية، وفي آخر زائدة. فعلى الأول هو من شطن، أي بعد عن الحق. وعلى الثاني هو من شط أي بعد، أو شاط، أي بطل، وشاط أي احترق، أو شاط. إذا

---

(١) تفسير ابن جرير ١٢٩/١.

(٢) فتح القدير ٤٣/١.

هلك ، قال الشاعر :

وقـد يـشـيـط عـلـى أرمـاحـنـا الـبـطـل

أي يهلك . وقال الآخر :

وأبيض ذي تاج أشاطت رماحنا   بمعترك بين الفوارس أقيما

أي أهلكت . وحكى سيبويه أن العرب تقول : تشيطن فلان . إذا فعل أفعال الشياطين . ولو كان من شاط قالوا : تشيط .

وقوله : ﴿إِنَّا مَعَكُمْ﴾ [البقرة: الآية ١٤] معناه مصاحبوكم أي في دينكم . وموافقوكم عليه .

والهزء : السخرية واللعب . قال الراجز :

قـد هـزئـت مـنـي أم طـيـلـة   قالت أراه معدمًا لا مال له

قال في الكشاف : وأصل الباب الخفة ، من الهزء وهو القتل السريع ، وهزأ يهزأ مات على المكان . عن بعض العرب : مشيت فلغبت . فظننت لأهزأن على مكان . وناقته تهزأ به أي تسرع وتخف . اهـ .

وقيل أصله الانتقام . قال :

قد استهزئوا منهم بالفي مدحج   سراتهم وسط الصحاصح جثم

فأفاد قوله ﴿إِنَّا مَعَكُمْ﴾ [البقرة: الآية ١٤] أنهم ثابتون على الكفر . وأفاد قوله : ﴿إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِءُونَ﴾ [البقرة: الآية ١٤] درأهم للإسلام . ودفعهم للحق . وكأنه جواب سؤال مقدر ، ناشئ من قولهم : ﴿إِنَّا مَعَكُمْ﴾ [البقرة: الآية ١٤] أي إذا كنتم معنا . فما بالكم إذا لقيتم المسلمين وافقتموهم ؟ فقالوا : إنما نحن مستهزئون بهم في تلك الموافقة . ولم تكن بواطننا موافقة لهم ولا مائلة إليهم . فرد اللَّه ذلك عليهم بقوله : ﴿اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ﴾ [البقرة: الآية ١٥] أي ينزل عليهم الهوان والحقارة ، وينتقم منهم ويستخف بهم انتصافًا منهم لعباده المؤمنين .

وإنما جعل سبحانه ما وقع منه استهزاء مع كونه عقوبة ومكافأة : مشاكلة . وقد كانت العرب إذا وضعت لفظًا بإزاء لفظ جوابًا له وجزاء ذكرته بمثل ذلك اللفظ ، وإن كان مخالفًا له في معناه ، وورد ذلك في القرآن كثيرًا ، ومنه ﴿وَجَزَٰٓؤُاْ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا﴾ [الشورى: الآية ٤٠] ، ﴿فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَٱعْتَدُواْ عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ﴾ [البقرة: الآية ١٩٤] ، والجزاء لا يكون سيئة . والقصاص لا يكون اعتداء لأنه حق . ومنه ﴿وَمَكَرُواْ وَمَكَرَ ٱللَّهُ﴾ [آل عمران: الآية ٥٤] ، و﴿إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا ﴿١٥﴾ وَأَكِيدُ كَيْدًا﴾ ، ﴿يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَهُوَ خَٰدِعُهُمْ﴾ [النساء: الآية ١٤٢] ، ﴿تَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِى وَلَآ أَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِكَ﴾ [المائدة: الآية ١١٦] .

وهو في السنة كثير . كقوله ﷺ : « إن اللَّه لا يمل حتى تملوا »(١) ، وإنما قال : ﴿ٱللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ﴾ [البقرة: الآية ١٥] لأنه يفيد التجدد وقتًا بعد وقت ، وهو أشد عليهم وأنكأ لقلوبهم وأوجع لهم من الاستهزاء الدائم الثابت المستفاد من الجملة الأسمية ، لما هو محسوس من أن العقوبة الحادثة وقتًا بعد وقت والمتجددة حينًا بعد حين أشد على من وقعت عليه من العذاب الدائم المستمر ، لأنه يؤلف ويوطن النفس عليه . اهـ .

وقال ابن جرير(٢) ، بعد أن ذكر أقوال العلماء في معنى الاستهزاء من اللَّه تعالى : والصواب في ذلك من القول والتأويل عندنا ، أن معنى الاستهزاء في كلام العرب إظهار المستهزئ للمستهزأ به من القول والفعل ما يرضيه ويوافقه ظاهرًا ،

---

(١) قال في هامش المجلة : انظر قول الإمام ابن القيم في هذا الموضوع ، فإنه قيم ومفيد جدًّا ، وتجده في الصفحة (٣٦٤) . وهو منقول من كتاب « الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة » الذي بدئ بطبعه على نفقة جلالة الملك عبد العزيز آل سعود ، أيده اللَّه بنصره وأدام توفيقه . اهـ .
قلنا : أخرجه البخاري (٤٣، ١١٥١) ، ومسلم (٧٨٢) من حديث عائشة رضي اللَّه عنها .
(٢) تفسير ابن جرير ١٣٣/١ .

وهو بذلك من قيله وفعله به مورثه مساءة باطنًا ، وكذلك معنى الخداع والسخرية والمكر وإذا كان ذلك كذلك . وكان اللَّه جل ثناؤه قد جعل لأهل النفاق في الدنيا من الأحكام بما أظهروا بألسنتهم من الإقرار باللَّه وبرسوله ، وبما جاء به من عند اللَّه المدخل لهم في عداد من يشمله اسم الإسلام ، وإن كانوا لغير ذلك مستبطنين ، مع علم اللَّه عز وجل بكذبهم ، واطلاعه على خبث اعتقادهم وشكهم فيما ادعوا بألسنتهم أنهم مصدقون حتى ظنوا في الآخرة إذا حشروا في عداد من كانوا في عدادهم في الدنيا ، أنهم واردون موردهم ، وداخلون مدخلهم ، واللَّه جل جلاله مع إظهار ما قد أظهره لهم من الأحكام في عاجل الدنيا وآجل الآخرة إلى حال تمييزه بينهم وبين أوليائه ، وتفريقه بينهم وبينهم معد لهم من اليم عقابه ونكال عذابه ما أعد منه لأعدى أعدائه وأشر عباده حتى ميز بينهم وبين أوليائه فألحقهم من طبقات جحيمه بالدرك الأسفل ، كان معلومًا أنه جل ثناؤه بذلك من فعله بهم ، وإن كان جزاء لهم على أفعالهم وعدلًا ما فعل من ذلك لهم لاستحقاقهم إياه منه بعصيانهم له ، كان بما أظهر لهم من الأمور التي أظهرها لهم مستهزئًا وساخرًا ولهم خادعًا وبهم ماكرًا ، إذ كان معنى الاستهزاء والسخرية والمكر والخديعة ما وصفنا قبل دون أن يكون ذلك معناه في حال فيها المستهزئ بصاحبه ظالم أو عليه فيها غير عادل . اهـ . ببعض تصرف .

قوله تعالى : ﴿وَيَمُدُّهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ [البقرة: الآية ١٥] أي يزيدهم على وجه الإملاء والترك لهم في عقولهم وتمردهم كما وصف ربنا جل ثناؤه أنه فعله بنظرائهم في قوله : ﴿وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ [الأنعام: الآية ١١٠] يعني نذرهم ونتركهم فيه ، ونملي لهم ليزدادوا إثمًا إلى إثمهم .

والطغيان فعلان من قولك طغى فلان يطغى طغيانًا إذا تجاوز الحد فبغى .

ومنه قول اللَّه تعالى : ﴿إِنَّا لَمَّا طَغَا ٱلْمَآءُ حَمَلْنَٰكُمْ فِى ٱلْجَارِيَةِ﴾ [الحاقة: الآية ١١] أي تجاوز الحد والقدر، وقوله : ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَيَطْغَىٰٓ * أَن رَّءَاهُ ٱسْتَغْنَىٰٓ﴾ أي تجاوز في الأمر حده فبغى . وقوله في فرعون : ﴿إنه طغى﴾ أي أسرف في الدعوى حيث قال : ﴿أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ﴾ [النّازعات: الآية ٢٤] . وعن ابن عباس : ﴿فِى طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ [البقرة: الآية ١٥] في كفرهم يترددون وعن ابن مسعود وعن ناس من أصحاب النبي ﷺ ﴿فِى طُغْيَٰنِهِمْ﴾ [البقرة: الآية ١٥] في كفرهم . وعن قتادة ﴿فِى طُغْيَٰنِهِمْ﴾ [البقرة: الآية ١٥] في ضلالتهم .

والعمه الضلال . والعمه : والعامه : الحائر المتردد . وذهبت إبله العمَهى : لم يدر أين ذهبت . والعمه في القلب كالعمى في البصر . قال في الكشاف(١) : العمه مثل العمى إلا أن العمى في البصر والرأي والعمه في الرأي خاصة . انتهى .

قال ابن جرير(٢) : في طغيانهم يعمهون : في ضلالهم وكفرهم الذي غمرهم دنسه وعلاهم رجسه يترددون حيارى ضلالًا لا يجدون إلى المخرج منه سبيل ؛ لأن اللَّه قد طبع على قلوبهم وختم عليها فأعمى أبصارهم عن الهدى وأغشاها فلا يبصرون رشدًا ولا يهتدون سبيلًا .

حقيقة معنى استهزاء اللَّه بالمنافقين

قوله تعالى : ﴿ٱللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فِى طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ [البقرة: الآية ١٥] .

قال الإمام ابن القيم رحمه اللَّه تعالى، في كلامه على هدم طاغوت المجاز الذي ركبه المحرفون مطية إلى تعطيل صفات اللَّه تعالى عن حقائقها :

(الوجه الخامس والعشرون) قولكم : نفرق بين الحقيقة والمجاز بتوقف المجاز على المسمى الآخر بخلاف الحقيقة . ومعنى ذلك : أن اللفظ إذا كان

(١) الكشاف عن حقائق التنزيل ١/١٠٧ .
(٢) تفسير ابن جرير ١/١٣٦ .

إطلاقه على أحد مدلوليه متوقفًا على استعماله في المدلول الآخر كان بالنسبة إلى مدلوله الذي يتوقف على المدلول الآخر مجازًا . وهذا مثل قوله : ﴿وَمَكَرُواْ وَمَكَرَ ٱللَّهُ﴾ [آل عِمران: الآية ٥٤] فإن إطلاق المكر على المعنى المتصور من الرب سبحانه وتعالى يتوقف على استعماله في المعنى المتصور من الخلق . فهو حينئذ مجاز بالنسبة إليه حقيقة بالنسبة إليهم وهذا أيضًا من النمط الأول في الفساد ، أما أولًا : فإن دعواكم أن إطلاقه على أحد مدلوليه متوقف على استعماله في الآخر دعوى باطلة مخالفة لصريح الاستعمال ، ومنشأ الغلط فيها : أنكم نظرتم إلى قوله تعالى : ﴿وَمَكَرُواْ مَكۡرٗا وَمَكَرۡنَا مَكۡرٗا﴾ [النَّمل: الآية ٥٠] ، وذهلتم عن قوله تعالى : ﴿أَفَأَمِنُواْ مَكۡرَ ٱللَّهِۚ فَلَا يَأۡمَنُ مَكۡرَ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡقَوۡمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ﴾ [الأعراف: الآية ٩٩] فأين المسمى الآخر ؟ وكذلك قوله تعالى : ﴿وَهُوَ شَدِيدُ ٱلۡمِحَالِ﴾ [الرّعد: الآية ١٣] فسر بالكيد والمكر وكذلك قوله : ﴿سَنَسۡتَدۡرِجُهُم مِّنۡ حَيۡثُ لَا يَعۡلَمُونَ * وَأُمۡلِي لَهُمۡۚ إِنَّ كَيۡدِي مَتِينٌ﴾ .

فإن قلتم يتعين تقدير المسمى الآخر ليكون إطلاق المكر عليه من باب المقابلة ، كقوله تعالى : ﴿إِنَّهُمۡ يَكِيدُونَ كَيۡدٗا ١٥ وَأَكِيدُ كَيۡدٗا﴾ ، وقوله : ﴿إِنَّ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَهُوَ خَٰدِعُهُمۡ﴾ [النِّساء: الآية ١٤٢] ، وقوله : ﴿نَسُواْ ٱللَّهَ فَنَسِيَهُمۡۚ﴾ [التوبَة: الآية ٦٧] فهذا كله إنما يحسن على وجه المقابلة ؛ ولا يحسن أن يضاف إلى اللَّه تعالى ابتداء ، فيقال : إنه يمكر ، ويكيد ويخادع ، وينسى ، ولو كان حقيقة لصلح إطلاقه مفردًا عن مقابله ، كما يصح أن يقال : يسمع ويرى ويعلم ويقدر .

فالجواب أن هذا الذي ذكرتموه مبني على أمرين : أحدهما معنوي ، والآخر لفظي .

فأما المعنوي ، فهو أن مسمى هذه الألفاظ ومعانيها مذمومة ، فلا يجوز

اتصاف الرب بها .

وأما اللفظي فإنها لا تطلق عليه إلا على سبيل المقابلة فتكون مجازًا . ونحن نتكلم معكم في الأمرين جميعًا .

فأما الأمر المعنوي ، فيقال : لا ريب أن هذه المعاني يذم بها كثيرًا ، فيقال : فلان صاحب مكر وخداع وكيد واستهزاء ، ولا تكاد تطلق على سبيل المدح ، بخلاف أضدادها . وهذا هو الذي غرَّ من جعلها مجازًا في حق من يتعالى ويتقدس عن كل ذم وعيب .

والصواب : أن معانيها تنقسم إلى محمود ومذموم ، فالمذموم منها يرجع إلى الظلم والكذب فما يذم منها إنما يذم بكونه متضمنًا للكذب أو الظلم أو لهما جميعًا ، وهذا هو الذي ذم اللَّه تعالى أهله ، كما في قوله تعالى : ﴿يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَمَا يَخۡدَعُونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمۡ﴾ [البقرة: الآية ٩] فإنه ذكر هذا عقيب قوله : ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَمَا هُم بِمُؤۡمِنِينَ﴾ [البقرة: الآية ٨] فكان هذا القول منهم كذبًا وظلمًا في حق التوحيد والإيمان بالرسول ﷺ وأتباعه . وكذلك قوله : ﴿أَفَأَمِنَ ٱلَّذِينَ مَكَرُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن يَخۡسِفَ ٱللَّهُ بِهِمُ ٱلۡأَرۡضَ﴾ [النّحل: الآية ٤٥] الآية . وقوله : ﴿وَلَا يَحِيقُ ٱلۡمَكۡرُ ٱلسَّيِّئُ إِلَّا بِأَهۡلِهِۦ﴾ [فَاطِر: الآية ٤٣] ، وقوله : ﴿وَمَكَرُواْ مَكۡرٗا وَمَكَرۡنَا مَكۡرٗا وَهُمۡ لَا يَشۡعُرُونَ ۝٥٠ فَٱنظُرۡ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ مَكۡرِهِمۡ أَنَّا دَمَّرۡنَٰهُمۡ﴾ فلما كان استعمال غالب هذه الألفاظ في المعاني المذمومة ظن العاطلون أن ذلك هو حقيقتها ، فإذا أطلقت لغير الذم كانت مجازًا .

والحق خلاف هذا الظن ، وأنها منقسمة إلى محمود ومذموم ؛ فما كان منها متضمنًا للكذب والظلم فهو مذموم ، وما كان منها بحق وعدل ومجازاة على القبيح فهو حسن محمود .

فإن المخادع إذا خادع بباطل وظلم حسن من المجازي له أن يخدعه بحق وعدل، وكذلك إذا مكر واستهزأ ظالمًا متعديًا كان المكر به والاستهزاء عدلًا حسنًا، كما فعله الصحابة بكعب بن الأشرف وابن أبي الحقيق وأبي رافع وغيرهم ممن كان يعادي رسول الله ﷺ، فخادعوهم حتى كفوا شرهم وأذاهم بالقتل، وكان الخداع نصرة لله ولرسوله. وكذلك ما خدع به نعيم بن مسعود المشركين عام الخندق حتى انصرفوا، وكذلك خداع الحجاج بن علاط لامرأته وأهل مكة حتى أخذ ماله. وقد قال النبي ﷺ: «الحرب خدعة»[(١)].

وجزاء المحسن بمثل إساءته جائز في جميع الملل، مستحسن في جميع العقول. ولهذا كاد سبحانه ليوسف حين أظهر لأخوته ما أبطن خلافه جزاء لهم على كيدهم له مع أبيه حيث أظهروا له أمرًا أبطنوا خلافه، فكان هذا من أعدل الكيد، فإن إخوته فعلوا به مثل ذلك حتى فرقوا بينه وبين أبيه وادعوا أن الذئب أكله، ففرق بينهم وبين أخيهم بإظهار أنه سرق الصواع، ولم يكن ظالمًا لهم بذلك الكيد حيث كان مقابلة ومجازاة، ولم يكن أيضًا ظالمًا لأخيه الذي لم يكده، بل كان إحسانًا إليه وإكرامًا له في الباطن، وإن كانت طريق ذلك مستهجنة لكن لما ظهر بالآخرة براءته ونزاهته مما قذف به، وكان ذلك سببًا إلى اتصاله بيوسف واختصاصه به، لم يكن في ذلك ضرر عليه.

يبقى أن يقال: قد تضمن هذا الكيد إيذاء أبيه وتعريضه لألم الحزن على حزنه السابق، فأي مصلحة كانت ليعقوب في ذلك؟

فيقال: هذا من امتحان الله تعالى، ويوسف إنما فعل ذلك بالوحي، والله تعالى لما أراد كرامته كمل له مرتبة المحنة والبلوى ليصبر، فيسأل الدرجة التي لا

(١) أخرجه البخاري (٣٠٣٠)، ومسلم (١٧٣٩) من حديث جابر رضي الله عنه.

يصل إليها إلا على حسب الابتلاء ، ولو لم يكن في ذلك إلا تكميل فرحه وسروره باجتماع شمله بحبَّيه بعد الفراق .

لا بد قبل الوصل من جفوة تذكى غليل الشوق والوجد
من لم يذق طعم الجفا لم يكد يفرق بين الوصل والصد

وهذا من كمال إحسان الرب تعالى : أن يذيق عبده مرارة الكسر قبل حلاوة الجبر ، ويعرفه قدر نعمته عليه بأن يبتليه بضدها ، كما أنه سبحانه وتعالى لما أراد أن يكمل لآدم نعيم الجنة أذاقه مرارة خروجه منها ومقاساة هذه الدار الممزوج رخاؤها بشدتها ، فما كسر عبده المؤمن إلا ليجبره ولا منعه إلا ليعطيه ، ولا ابتلاه إلا ليعافيه ، ولا أماته إلا ليحييه ، ولا نغص عليه الدنيا إلا ليرغبه في الآخرة ، ولا ابتلاه بجفاء الناس إلا ليرده إليه .

فعلم أنه لا يجوز ذم هذه الأفعال على الإطلاق ، كما لا تمدح على الإطلاق .

والمكر والكيد والخداع لا يذم من جهة العلم ولا من جهة القدرة ، فإن العلم والقدرة من صفة الكمال ، وإنما يذم ذلك من جهة القصد وفساد الإرادة ، وهو أن الماكر المخادع يجور ويظلم بفعل ما ليس له فعله ، أو ترك ما يجب عليه فعله .

إذا عرف ذلك فنقول : إن اللَّه تعالى يصف نفسه بالكيد والمكر والخداع والاستهزاء مطلقًا ، وليس ذلك بداخل في أسمائه الحسنى ، ومن ظن من الجهال المصنفين في شرح الأسماء الحسنى أن من أسمائه الماكر المخادع المستهزئ الكائد فقد فاه بأمر عظيم تقشعر منه الجلود وتكاد الأسماع تصم عند سماعه ، وغر هذا الجاهل أنه سبحانه أطلق على نفسه هذه الأفعال فاشتق له منها أسماء . وأسماؤه كلها حسنى ، فأدخلها في الأسماء الحسنى وقرنها بالرحيم الودود الحليم الكريم . وهذا جهل عظيم ، فإن هذه الأفعال ليست ممدوحة مطلقًا ، بل

تمدح في موضع وتذم في موضع، فلا يجوز إطلاق أفعالها على اللّٰه مطلقًا، فلا يقال إنه تعالى يمكر ويخادع ويستهزئ ويكيد، فكذلك بطريق الأولى لا يشتق له أسماء يسمى بها، بل إذا كان لم يأت في أسمائه الحسنى المريد ولا المتكلم ولا الفاعل ولا الصانع؛ لأن مسمياتها تنقسم إلى ممدوح ومذموم، وإنما يوصف بالأنواع المحمودة منها كالحليم والحكيم والعزيز والفعال لما يريد، فكيف يكون منها الماكر المخادع المستهزئ؟

ثم يلزم هذا الغالط أن يجعل من أسمائه الحسنى الداعي، والآتي والجائي والذاهب والقادم والزائد والناسي والقاسم والساخط والغضبان واللاعن، إلى أضعاف أضعاف ذلك من الأسماء التي أطلق على نفسه أفعالها في القرآن، وهذا لا يقوله مسلم ولا عاقل.

والمقصود أن اللّٰه سبحانه لم يصف نفسه بالكيد والمكر والخداع إلا على وجه الجزاء لمن فعل ذلك بغير حق، وقد علم أن المجازاة على ذلك حسنة من المخلوق، فكيف من الخالق سبحانه؟

وهذا إذا نزلناه على قاعدة التحسين والتقبيح العقليين، وأنه سبحانه منزه عما يقدر عليه مما لا يليق بكماله، ولكن لا يفعله لقبحه وغناه عنه. وإن نزلنا ذلك على نفي التحسين والتقبيح عقلًا، وأنه يجوز عليه كل ممكن ولا يكون قبيحًا، فلا يكون الاستهزاء والمكر منه قبيحًا ألبتة، فلا يمتنع وصفه به ابتداء لا على سبيل المقابلة على هذا التقدير. وعلى التقديرين فإطلاق ذلك عليه سبحانه على حقيقته دون مجازه، إذ الموجب للمجاز منتف على التقديرين. فتأمله فإنه قاطع، فهذا ما يتعلق بالأمر المعنوي.

وأما الأمر اللفظي فإطلاق هذه الألفاظ عليه سبحانه لا يتوقف إطلاقها على المخلوق ليعلم أنها مجاز لتوقفها على المسمى الآخر كما قدمنا من قوله: ﴿وَهُوَ

شَدِيدُ ٱلْمِحَالِ﴾ [الرّعد: الآية ١٣] .

وقولـه : ﴿أَفَأَمِنُوا۟ مَكْرَ ٱللَّهِ ۚ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾ [الأعراف: الآية ٩٩] .

فظهر أن هذا الفرق الذي اعتبروه فاسد لفظًا ومعنى .

❁❁❁

تفسير القرآن الحكيم[١]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

قوله تعالى : ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الضَّلَالَةَ بِالْهُدَىٰ فَمَا رَبِحَت تِّجَارَتُهُمْ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ﴾ [البقرة: الآية ١٦] .

إشارة إلى المنافقين المتصفين بالصفات الذميمة الآنفة . ولبعد منزلتهم في الشر وسوء الحال أشار إليهم بـ ﴿أُولَٰئِكَ﴾ الدالة على البعد . و﴿اشْتَرَوُا الضَّلَالَةَ بِالْهُدَىٰ﴾ أي : اختاروا الضلالة على الهدى لما يعتقدون من الفائدة الحاصلة لهم على زعمهم ؛ وذلك لأن اللَّه تعالى قد كان أنزل من الكتب ما فيه الهدى والنور ونص فيها على بعثة محمد خاتم الأنبياء ، وأمرهم باتباعه وأخذ عليهم الميثاق بذلك إذا جاءهم ، فكان عندهم بذلك حظ من هداية الكتاب والدين ، ولكنهم حرفوا وغيروا وبدلوا ، وأحدثوا في دين اللَّه وابتدعوا ، وغلبت عليهم التقاليد الجاهلية والعوائد ، واستحكم سلطان ذلك عليهم . فترك الرؤساء الدين القيم لتلك العقائد المحدثة والأمور المبتدعة ، وأعرض المرؤوسون تقليدًا للرؤساء وحرصًا على طاعتهم في أهوائهم من غير دليل ولا برهان ، فكان الجميع على ضلالة في السبيل الذي سلكوه ، وعلى عمى في المنهج الذي أحدثوه بعد أن كانوا على هداية الكتاب والحق التي تفضل اللَّه عليهم بها لإنارة بصائرهم وقلوبهم بمشكاتها ، وكان العوض الذي أغراهم على ذلك الاستبدال بالنسبة إلى الرؤساء ما فتنوا به من حب الجاه والعلو في الأرض والحرص على الثمن القليل من متاع الدنيا الذي كانوا يبيعون به آيات اللَّه للعامة والدهماء من التابعين ، أما بالنسبة إلى المرؤوسين فما غرهم به أولئك الرؤساء من وضع التكاليف وتخفيف المؤن

(١) مجلة الإصلاح - العددان السابع والثامن عشر - ١٥ المحرم وغرة صفر / ١٣٤٨هـ.

عنهم بما أوهموهم من الكذب والافتراء على اللَّه وعلى رسله ، وما اخترعوا لهم من حيل شيطانية أبطلوا بها أحكام اللَّه وركبوا معاصيه ، وهكذا هداهم اللَّه إلى ما فيه سعدهم فاستحبوا العمى على الهدى ، فحل عليهم غضب اللَّه ومهين عذابه بما كانوا يكسبون . فانطمست البصائر وأظلمت القلوب وانعكست الأفهام فرأوا الشر خيرًا واعتقدوا الفساد صلاحًا ، وزعموا الإيمان كفرًا ، وأوهمهم الشيطان أنهم بعد كل هذا من الفائزين المفلحين . ولكن قد ضل سعيهم وخسرت صفقتهم وما ربحت تجارتهم إذ ما أثمرت لهم ما كانوا يرجون من الثمرة ، بل عادت عليهم بعكس ما كانوا ينتظرون من الفائدة في الدنيا بما كانوا فيه من غاية الذلة والخوف على أنفسهم وأموالهم ، وما هذا شأن السعداء باتباع الحق وطاعة الأنبياء ﴿وَمَا كَانُوا۟ مُهْتَدِينَ﴾ [البقرة: الآية ١٦] في عملهم وتجارتهم إلى وجه النفع الصحيح ، لأنهم باعوا فيها ما وهبهم اللَّه من الهدى والنور بظلمات التقليد وضلالات الأهواء والبدع التي زجوا أنفسهم في حمأتها ، ورضوا بها من الحق بديلًا ، أو أنهم ما اهتدوا ولا في دور من أدوار حياتهم ؛ لأنهم نشأوا على هذه التقاليد الباطلة ، ورضعوا لبان الكفر والضلال من نشأتهم الأولى ، فهم مع أنهم لم يربحوا فقد أفسدوا رأس مالهم ؛ العقل السليم الذي يعرف العقائد الحقة ويهتدي إليها .

ولا يظنن ظان من ظاهر الاشتراء أن من خوطبوا بهذه الآيات كانوا مهتدين ثم تركوا الهدى للضلالة فيتناقض أول الآية مع آخرها ، فإن المعنى أن اللَّه تعالى مكنهم من الهداية بتيسير أسبابها وإزالة الموانع من طريقها ، وليس بلازم أن كل أحد ينتفع بذلك فيكون من المهتدين فعلًا ، فهؤلاء كلفوا بالهدى ومكنوا منه وطولبوا به فباعوه ولم يقبلوه وارتضوا الضلالة مكانه لما عميت بصائرهم فأراهم الشيطان شرها خيرًا وفسادها صلاحًا .

وقال أبو جعفر بن جرير رحمه الله[(١)] : والذي هو أولى عندي بتأويل الآية ما روينا عن ابن عباس وابن مسعود رضي الله عنهما من تأويلهما قوله : ﴿ٱشۡتَرَوُاْ ٱلضَّلَٰلَةَ بِٱلۡهُدَىٰ﴾ [البقرة: الآية ١٦] أخذوا الضلالة وتركوا الهدى . وذلك أن كل كافر بالله فهو مستبدل بالإيمان كفرًا باكتسابه الكفر الذي وجد منه بدلًا من الإيمان الذي أمر به . أو ما تسمع الله جل ثناؤه يقول ، فيمن اكتسب كفرًا مكان الإيمان به وبرسوله ﴿وَمَن يَتَبَدَّلِ ٱلۡكُفۡرَ بِٱلۡإِيمَٰنِ فَقَدۡ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ﴾ [البقرة: الآية ١٠٨] ، وذلك معنى الشراء لأن كل مشتر شيئًا فإنما يستبدل مكان الذي يؤخذ منه من البدل بدلًا منه ، فكذلك المنافق والكافر استبدلا الهدى بالضلال والنفاق فأضلهما الله وسلبهما نور الهدى فترك جميعهم في ظلمات لا يبصرون .

وقال الشوكاني ، رحمه الله[(٢)] : قوله : ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشۡتَرَوُاْ ٱلضَّلَٰلَةَ بِٱلۡهُدَىٰ﴾ [البقرة: الآية ١٦] ... إلخ :

قال سيبويه : ضمت الواو في اشتروا فرقًا بينها وبين الواو الأصلية في نحو : ﴿وَأَلَّوِ ٱسۡتَقَٰمُواْ﴾ [الجن: الآية ١٦] ، وقال الزجاج : حركت بالضمة كما يفعل في نحن . وقرأ يحيى بن يعمر بكسر الواو على أصل التقاء الساكنين . وقرأ أبو السماك العدوي بفتحها لخفة الفتحة . وأجاز الكسائي همز الواو . والشراء هنا مستعار للاستبدال . أي استبدلوا الضلالة بالهدى كقوله : ﴿فَٱسۡتَحَبُّواْ ٱلۡعَمَىٰ عَلَى ٱلۡهُدَىٰ﴾ [فصلت: الآية ١٧] فأما أن يكون معنى الشراء المعاوضة كما هو أصله حقيقة فلا ، لأن المنافقين لم يكونوا مؤمنين فيبيعون إيمانهم ، والعرب قد تستعمل ذلك فيمن استبدل شيئًا بشيء .

قال أبو ذئب :

---

(١) تفسير ابن جرير ١/١٣٩ .

(٢) فتح القدير ١/٤٦ .

فإن تزعمني كنت أجهل فيكم فإني شريت الحلم بعدك بالجهل

وأصل الضلالة الحيرة والحور عن القصد وفقد الاهتداء، ويطلق على النسيان. ومنه قوله: ﴿قَالَ فَعَلْتُهَآ إِذًا وَأَنَا۠ مِنَ ٱلضَّآلِّينَ﴾ [الشُّعَرَاء: الآية ٢٠]، وعلى الهلاك كقوله: ﴿وَقَالُوٓاْ أَءِذَا ضَلَلْنَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [السَّجدَة: الآية ١٠]، وأصل الربح الفضل. والتجارة صناعة التاجر. وأسند الربح إليها على عادة العرب في قولهم: ربح بيعك. وخسرت صفقتك. وهو من الإسناد المجازي، وهو إسناد الفعل إلى ملابس الفاعل، كما هو مقرر في علم المعاني. والمراد ربحو وخسروا، والاهتداء قد سبق تحقيقه، أي وما كانوا مهتدين في شرائهم الضلالة بالهدى، أي: الكفر بالإيمان. ثم قال: وعن قتادة قال: استحبوا الضلالة على الهدى، قد والله رأيتموهم خرجوا من الهدى إلى الضلالة، ومن الجماعة إلى الفرقة، ومن الأمن إلى الخوف، ومن السنة إلى البدعة.

قوله تعالى: ﴿مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ ٱلَّذِى ٱسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّآ أَضَآءَتْ مَا حَوْلَهُۥ ذَهَبَ ٱللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِى ظُلُمَٰتٍ لَّا يُبْصِرُونَ ﴿١٧﴾ صُمٌّۢ بُكْمٌ عُمْىٌ فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ﴾ [البقرة: ١٧، ١٨].

لما ذكر الله حقيقة وصف المنافقين وما هم عليه من الفساد والكفر والضلال عقبه بضرب المثل زيادة في الكشف والبيان؛ لأن المثل يؤثر في القلوب ما لا يؤثره وصف الشيء في نفسه، ولأن المثل تشبيه الشيء الخفي بالجلي فيتأكد الوقوف على ماهيته، وذلك هو النهاية في الإيضاح. وشرط المثل أن يكون فيه غرابة من بعض الوجوه لإلفات السامع أكثر. وقد تقرر عند علماء البلاغة أن لضرب الأمثال شأنًا عظيمًا في إبراز خفيات المعاني ورفع أستار محجبات الدقائق، ولهذا استكثر الله تعالى منه في كتابه الكريم، وكان رسول الله ﷺ كذلك يكثر منه في مخاطباته ومواعظه.

وقال ابن عباس في الآية : نزلت في المنافقين ، يقول : مثلهم في نفاقهم كمثل رجل أوقد نارًا في ليلة مظلمة في مفازة ، فاستدفأ ورأى ما حوله فاتقى ما يخاف ، فبينما هو كذلك إذ طفئت ناره فبقي في ظلمته حائرًا متخوفًا ، فكذلك حال المنافقين أظهروا كلمة الإيمان وآمنوا بها على أنفسهم وأموالهم وأولادهم وناكحوا المسلمين وقاسموهم في الغنائم ، فذلك نورهم ، فلما ماتوا عادوا إلى الظلمة والخوف . اهـ .

وقال ابن جرير رحمه الله(١) : مثل استضاءة المنافقين بما أظهروا بألسنتهم لرسول الله ﷺ من الإقرار به وقولهم له وللمؤمنين : آمنا بالله وكتبه ورسله واليوم الآخر ، حتى حكم لهم بذلك في عاجل الدنيا بحكم المسلمين في حقن الدماء والأموال والأمن على الذرية من السباء وفي المناكحة والموارثة كمثل استضاءة الموقد النار بالنار حتى ارتفق في ضيائها وأبصر ما حوله مستضيئًا بنوره من الظلمة حتى خمدت النار وانطفأت فذهب نوره وعاد المستضيئ به في ظلمة وحيرة ، وذلك أن المنافق لم يزل مستضيئًا بضوء القول الذي دفع عنه في حياته القتل والسباء مع استبطانه ما كان مستوجبًا به القتل وسلب المال لو أظهره بلسانه ، تخيل إليه بذلك نفسه أنه بالله ورسوله والمؤمنين مستهزئ مخادع حتى سولت له نفسه إذا ورد على ربه في الآخرة أنه ناج منه بمثل الذي نجا به في الدنيا من الكذب والنفاق . أو ما تسمع الله جل ثناؤه يقول إذ نعتهم ، ثم أخبر خبرهم عند ورودهم عليه ﴿يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ ٱللَّهُ جَمِيعًا فَيَحْلِفُونَ لَهُۥ كَمَا يَحْلِفُونَ لَكُمْ ۖ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ عَلَىٰ شَىْءٍ ۚ أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلْكَٰذِبُونَ﴾ [المجادلة: الآية ١٨] ظنًّا من القوم أن نجاتهم من عذاب الله في الآخرة بمثل الذي كان به نجاتهم من القتل والسباء وسلب المال في الدنيا ، من الكذب والإفك ، وأن خداعهم نافعهم هنالك نفعه إياهم في الدنيا

(١) تفسير ابن جرير ١/١٤٤ .

حتى عاينوا من أمر الله ما أيقنوا به أنهم كانوا من ظنونهم في غرور وضلال واستهزاء بأنفسهم وخداع، إذا أطفأ الله نورهم يوم القيامة فاستنظروا المؤمنين ليقتبسوا من نورهم، فقيل لهم: ارجعوا وراءكم فالتمسوا نورًا واصلوا سعيرًا.

فذلك حين ﴿ذَهَبَ ٱللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَٰتٍ لَّا يُبْصِرُونَ﴾ [البقرة: الآية ١٧] كما انطفأت نار المستوقد النار بعد إضاءتها له فبقي في ظلمته حيران تائهًا لقول الله جل ثناؤه: ﴿يَوْمَ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتُ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱنظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِن نُّورِكُمْ قِيلَ ٱرْجِعُواْ وَرَآءَكُمْ فَٱلْتَمِسُواْ نُورًا فَضُرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ لَّهُۥ بَابُۢ بَاطِنُهُۥ فِيهِ ٱلرَّحْمَةُ وَظَٰهِرُهُۥ مِن قِبَلِهِ ٱلْعَذَابُ ﴿١٣﴾ يُنَادُونَهُمْ أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ قَالُواْ بَلَىٰ وَلَٰكِنَّكُمْ فَتَنتُمْ أَنفُسَكُمْ وَتَرَبَّصْتُمْ وَٱرْتَبْتُمْ وَغَرَّتْكُمُ ٱلْأَمَانِيُّ حَتَّىٰ جَآءَ أَمْرُ ٱللَّهِ وَغَرَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ ﴿١٤﴾ فَٱلْيَوْمَ لَا يُؤْخَذُ مِنكُمْ فِدْيَةٌ وَلَا مِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مَأْوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ هِيَ مَوْلَىٰكُمْ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ﴾ [الحديد: ١٣ - ١٥].

وقال ابن كثير رحمه الله(١): وتقدير هذا المثل أن الله سبحانه وتعالى شبههم في اشترائهم الضلالة بالهدى، وصيرورتهم بعد البصيرة إلى العمى بمن استوقد نارًا، فلما أضاءت ما حوله وانتفع بها وأبصر ما عن يمينه وشماله وتأنس بها، فبينما هو كذلك إذ طفئت ناره وصار في ظلام شديد لا يبصر ولا يهتدي، وهو مع هذا أصم لا يسمع، أبكم لا ينطق، أعمى لو كان ضياء لما أبصر. فلهذا لا يرجع إلى ما كان عليه قبل ذلك. فكذلك هؤلاء المنافقون في استبدالهم الضلالة عوضًا عن الهدى، واستحبابهم الغي على الرشد.

وفي هذا المثل دلالة على أنهم آمنوا ثم كفروا كما أخبر تعالى عنهم في غير هذا الموضع والله أعلم.

---

(١) تفسير ابن كثير ١/٥٤.

وقال الشوكاني(١) : ﴿مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ ٱلَّذِى ٱسْتَوْقَدَ﴾ [البقرة: الآية ١٧] الآية . مثلهم مرتفع بالابتداء ، وخبره إما الكاف في قوله : ﴿كَمَثَلِ﴾ [البقرة: الآية ١٧] لأنها اسم ، أي مثل مثل ، كما في قول الأعشى :

أتنتهون ولن ينهى ذوي شطط كالطعن يذهب فيه الزيت والفُتلُ

وقول امرئ القيس :

ورحنا بكابنِ الماء يجُنبُ وسطنا تصوب فيه العين طورا وترتقي

أراد مثل الطعن ، وكمثل ابن الماء . ويجوز أن يكون الخبر محذوفًا ، أي مثلهم مستنير كمثل ، فالكاف على هذا حرف ، والمثل الشبه والمثلان المتشابهان . والذي موضوع موضع للذين ، أي كمثل الذين استوقدوا ، وذلك موجود في كلام العرب ، كقول الشاعر :

وإن الذي خانت بفتح دماؤهم هم القوم كل القوم يا أم خالد

ومنه ﴿وَخُضْتُمْ كَٱلَّذِى خَاضُوٓاْ﴾ [التوبة: الآية ٦٩] ، ومنه ﴿وَٱلَّذِى جَآءَ بِٱلصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِۦٓ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ﴾ [الزُّمَر: الآية ٣٣] .

ووقود النار : سطوعها وارتفاع لهبها . و« استوقد » بمعنى أوقد مثل استجاب بمعنى أجاب . فالسين والتاء زائدتان قاله الأخفش ومنه قول الشاعر :

وداع دعا يا من يجيب إلى النداء فلم يستجبه عند ذاك مجيب

أي يجبه .

والإضاءة فرط الإنارة ، وفعلها يكون لازمًا ومتعديًا . و« ما حوله » قيل ما زائدة ، وقيل هي موصولة في محل نصب على أنها مفعول أضاءت ، وحوله : منصوب على الظرفية . وذهب : من الذهاب ، وهو زوال الشيء . و« تركهم » أي أبقاهم في « ظلمات » جمع ظلمة وقرأ الأعمش بإسكان اللام على الأصل . وقرأ

---

(١) فتح القدير ٤٦/١ .

أشهب العقيلي بفتح اللام . وهي عدم النور . وصم وما بعده خبر مبتدأ محذوف ، أي هم . وقرأ ابن مسعود . صمًا بكمًا عميًا بالنصب على الذم . ويجوز أن ينصب بقوله : ﴿وَتَرَكَهُمْ﴾ [البقرة: الآية ١٧] ، والصمم الانسداد ، ويقال : قناة صماء إذا لم تكن مجوفة ، وصممت القاروة إذا سددتها . وفلان أصم ، إذا انسدت خروق مسامعه . والأبكم الذي لا ينطق ولا يفهم ، فإذا فهم فهو الأخرس . وقيل الأبكم والأخرس واحد . والعمى ذهاب البصر .

والمراد بقوله : ﴿فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ﴾ [البقرة: الآية ١٨] أي إلى الحق . وجواب (لما) ، في قوله : ﴿فَلَمَّآ أَضَآءَتْ﴾ [البقرة: الآية ١٧] قيل هو : ﴿ذَهَبَ ٱللَّهُ بِنُورِهِمْ﴾ [البقرة: الآية ١٧] ، وقيل محذوف تقديره طفئت فبقوا حائرين . وعلى الثاني فيكون قوله : ﴿ذَهَبَ ٱللَّهُ بِنُورِهِمْ﴾ [البقرة: الآية ١٧] كلامًا مستأنفًا أو بدلًا من المقدر .

ضرب اللَّه هذا المثل للمنافقين لبيان أن ما يظهرونه من الإيمان مع ما يبطنونه من النفاق - ليثبت لهم به أحكام الإسلام - كمثل المستوقد الذي أضاءت ناره ثم طفئت فإنه يعود إلى الظلمة ، ولا تنفعه تلك الإضاءة اليسيرة ، وكان بقاء المستوقد في ظلمات لا يبصر كبقاء المنافق في حيرته وتردده . وإنما وصفت هذه النار بالإضاءة مع كونها نار باطل لأن الباطل كذلك تسطع ذوائب لهب ناره لحظة ثم تخفت . ومنه قولهم : للباطل صولة ثم يضمحل .

وقال في تفسير المنار : ضرب اللَّه تعالى لهذا الصنف (المنافقين) في مجموعه مثلين ينبئان بانقسامه إلى فريقين خلافًا لما في أكثر التفاسير من أن المثلين لفريق واحد وأن معناهما وموضوعهما واحد .

(الأول) مَنْ آتاهم اللَّه دينًا وهداية عمل بها سلفهم فجنوا ثمرها وصلح حالهم بها أيام كانوا مستقيمين على الطريقة ، آخذين بإرشاد الوحي ، واقفين عند حدود

الشريعة ، ولكنهم انحرفوا عن سنن سلفهم في الأخذ بها ظاهرًا وباطنًا ، ولم ينظروا في حقائق ما جاءهم ، بل ظنوا أن ما كان عند سلفهم من نعمة وسعادة إنما كان أمرًا خصوا به أو خيرًا سيق إليهم لظاهر قول أو عمل امتازوا به عن غيرهم ممن لم يأخذوا بدينهم ، وإن كان ذلك العمل لم يخالط سرائرهم ، ولم تصلح به ضمائرهم ، فأخذوا بتقاليد وعادات لم تدع في نفوسهم مجالًا لغيرها ، ولذلك لم يتفكروا قط في كونهم أحرى بالتمتع بتلك السعادة والسيادة من سلفهم ؛ لأن حفظ الموجود أيسر من إيجاد المفقود ، بل لم يبيحوا لأنفسهم فهم الكتاب الذي اهتدى من قبلهم بما فيه من شموس العرفان ونجوم الفرقان ؛ لزعمهم أن فهمه لا يرتقي إليه إلا أفراد من رؤساء الدين ، يؤخذ بأقوالهم ما وجدوا ، وبكتبهم إذا فقدوا ، فمثل هذا الفريق من الصنف المخذول في فقده لما كان عنده من نور الهداية الدينية وحرمانه من الاهتداء بها بالمرة ، وانطماس الآثار دونها عنده ، مثل من استوقد نارًا ... إلخ . والوجه في التمثيل أن من يدعي الإيمان بكتاب نزل من عند الله قد طلب بذلك الإيمان أن توقد له نار يهتدي بها في الشبهات ، ويستضيئ بها في ظلمات الريب والمشكلات ، ويبصر على ضوئها ما قد يهجم عليه من مفترسة الأهواء والشبهات ، فلما أضاءت ما حوله بما أودعته من الهدى والرشاد ، وكاد بالنظر فيها يمشي على هداية وسداد ، هجمت عليه من نفسه ظلمة التقليد الخبيث ، وعصب عينيه شيطان الغرور ، فذهب عنه ذلك النور وأطبق عليه نحو الضلالة ، بل طفئ فيه نور الفطرة ، وتعطلت قوى الشعور بما بين يديه . فهو بمنزلة الأعمى الأصم لا يبصر ولا يسمع .

وأما الفريق الثاني فقد ضرب له الله المثل في قوله : ﴿أَوْ كَصَيِّبٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ [البقرة: الآية ١٩] ... إلخ ، وهو الذي بقي له بصيص من النور . فله نظرات ترمي إلى ما بين يديه من الهداية أحيانًا ، ولمعاني التنزيل لمعان يسطع على نفسه

الفينة بعد الفينة . ويأتلق في نظره الحين بعد الحين عندما تحركه الفطرة ، أو تدفعه الحوادث للنظر فيما بين يديه ، ولكنه من التقاليد والبدع في ظلمات حوالك ، ومن الخبط فيها على حال لا تخلو من المهالك ، وهو في تخبطه يسمع قوارع الإنذار الإلهي ويبرق في عينيه نور الهداية ، فإذا أضاء له ذلك البرق السماوي سار ، وإذا انصرف عنه بشبه الضلالات الغرارة قام وتحير لا يدري أين يذهب . ثم إنه ليعرض عن سماع نذر الكتاب ودعاة الحق ، كمن يضع إصبعيه في أذنيه حتى لا يسمع إرشاد المرشد ولا نصح الناصح ، يخاف من تلك القوارع أن تقتله ، ومن صواعق النذر أن تهلكه . هذا هو شأن فريقي هذا الصنف بما يشير إليه المثلان إجمالاً . اهـ .

وقوله : ﴿صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ﴾ [البقرة: الآية ١٨] أي أن المنافقين باشترائهم الضلالة بالهدى لم يكونوا للحق والهدي مهتدين ولا عن الضلال مقلعين ، مهما وعظوا وذكروا ورأوا من الآيات البينات ، فهم لغلبة ظلمات التقليد للشيوخ والآباء لا يسمعون إلا لقولهم ولا يرون إلا بنظرهم ولا يتكلمون إلا بأهوائهم ، فكأنهم لما صارت حواسهم إلى هذه الحالة من الفناء والتلاشي والانصياع إلى أولئك الشيوخ فقط ؛ قد فقدوا تلك الحواس ؛ لأنها ما جعلت إلا لتتلقى كل محسوس فتؤديه إلى المدركة التي تميز الطيب من الخبيث والنافع من الضار ، ولكن أين للمقلد ذلك الإدراك الذي هو هبة من اللّه لمن استنارت بصائرهم بنور الحق وحده غير متأثرين بأي اعتبار آخر لا من أشخاص ولا من أزمنة ولا أمكنة ، فما أضيع البرهان عند المقلد ، ولو جاءتهم كل آية لا يؤمنون ما داموا لا يسمعون ولا يرون هذه الآيات إلا بتلك الحواس المعكوسة الملونة بظلمة التقليد ، فهم لا يرجعون عن ضلالتهم ولا يثوبون من غيهم ولا يقلعون عن نفاقهم وكفرهم .

وكذلك الشأن في كل من جعل مقود عقله وحواسه طوعًا للهوى ورأى غيره فإنه لا ينتفع بشيء منها في هدى ولا خير، بل تكون عليه وبالًا وشقاءً لأنها تكون سبيلًا إلى زيادة عماه وضلاله. ونسأل العافية والهداية إلى السبيل الأقوم وأن الله يبارك لنا في أسماعنا وأبصارنا وقلوبنا.

●●●

الصواعق المرسلة[1]

على الجهمية والمعطلة

الإمام محمد بن أبى بكر المعروف بابن قيم الجوزية أغنى من أن نعرفه بترجمة، فإنه رحمة اللَّه عليه قد طبق ذكره الخافقين. وتغلغل صيته في أعماق المشرقين، حتى لم يبق أحد من أطر الشرقية (جاوه) إلى أقاصى المغرب، إلا ويعرف عن ابن القيم رحمه اللَّه أنه نسيج وحده في رد شبه الزائغين، وقمع بدع المبتدعين، وهدم عروش المشركين، ذلك بما ألف رحمه اللَّه في الذب عن عقيدة السلف الصالح من كتب، ورسائل هي أشد وقعًا بقواطع حججها وقوى برهانها على الجاحدين، والمخرفين، والمبتدعين، من مواضى الصوارم البتارة، ورائش السهام المسمومة.

نشأ رحمه اللَّه في أحضان شيخ الإسلام وقرة الأنام، وغرة الأيام أحمد ابن تيمية. وكل الناس يعرف من هو ابن تيمية، علمًا وفضلًا وتقوى، وحسن بلاء في الدفاع عن الإسلام أمام جميع أعدائه، فتعهد ابن تيمية غرس ابن القيم الطيب يغذيه بالعلوم والمعارف، ويورده مناهل الإسلام العذبة صافية غير مشوبة بأيِّ كدر، وفى ابن القيم من سلامة الفطرة وحسن القابلية، والاستعداد التام للنبوغ والتبريز، حتى استوى على ساقه واشتد وصلب عوده، وقويت شكيمته على خصوم الإسلام ومناوئيه، فكان بذلك قرة عين الإمام ابن تيمية وفرحته وبهجته التي كانت تخفف عنه آلام ما كان يلاقى من أذى الأعداء ومضايقة خصوم الحق المعاندين الذين أوتوا - لقدر اللَّه وقضائه ولتكون المثوبة لشيخ الإسلام أوفر والأجر أجزل - من القوة وسلطان الدنيا ونفاذ الكلمة فيها ما كانوا يوجهونه كله

(١) مجلة الإصلاح - العدد الخامس عشر - ١٣٤٧/١٠/١هـ.

في حرب أنصار الإسلام وأعلامه والكيد له ﴿يُرِيدُونَ أَن يُطْفِئُوا نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ وَيَأْبَى ٱللَّهُ إِلَّآ أَن يُتِمَّ نُورَهُۥ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٣٢﴾ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ﴾ .

ووالله إنه لمن آيات ربنا الكبرى ، ومن أجلِّ نعمه العظمى أن حفظ لنا الدين الحنيف بأولئك الغر الميامين من شموس هذه الأمة وأعلاه هدايتها وإنه والله الذي لا إله إلا هو - حلفة غير حانث ولا آثم - ولولا شيخ الإسلام ابن تيمية وتلميذه الإمام ابن القيم في هذا العصر لكانت شئون الإسلام غير هذه الشئون ، ولكان ظفر أعدائه الذين جمعوا جموعهم وغزوه من كل صوب وناحية بالغًا من الإسلام أمرًا تكاد السماوات يتفطرن منه وتنشق الأرض وتخر الجبال هدًّا ، ولكن هي عناية الله تعالى اللطيف الخبير وحسن كلاءته وحفظه لهذا الدين الذي هو خاتم الأديان ، والذى تولى المولى الكريم جل شأنه القيام على حفظه وصيانته إذ قال : ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴾ [الحجر: الآية ٩] ، وهو وعد الصادق الأمين الذي لا ينطق عن الهوى ، إن هو إلا وحى يوحى حيث يقول : «إن الله يبعث لهذه الأمة على رأس كل مائة سنة من يجدد لها دينها»[(١)] فصدق رسول الله ﷺ والحمد لله حمدًا كثير يوافى نعمه ويكافئ مزيد فضله .

قام الإمام ابن تيمية وتلميذه بأعظم قسط من إزاحة غيوم البدع الكثيفة التي أرسلتها عقول المبتدعة والمتفلسفين على شمس الإسلام الوضاحة يحاولون حجب نورها ، حتى لا يعرف الناس من حقيقة الإسلام ما يعرفون الله به حق معرفته بصفاته الحسنى وأسمائه العليا ونعوت كماله وآيات جلاله ، وقد أرسلوا على هذه الصفات سيلًا جارفًا من تعطيلات الزنادقة ، وتأويلات فروخ الفلاسفة :

(١) أخرجه أبو داود (٤٢٩١) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه ، وصححه الألباني .

من الجهمية المعطلة وغيرهم ممن حارب اللَّه أشد المحاربة، وعانده أشد المعاندة، وحاده أشد المحادة: بالإلحاد في صفاته وأسمائه، وتعالى اللَّه عما يقول الظالمون الكاذبون الملحدون علوًا كبيرًا، وما القصد من المحاولات التعطيلية الإلحادية كلها إلا الحيلولة بين العباد وبين ربهم وبارئهم وإلههم الذي لا سعادة لهم ولا هناء في الدنيا والآخرة إلا بأن يكون بينهم وبينه أوثق الصلات وأقواها، بإخلاص العبودية له والضراعة والذل والمسكنة والفقر والاحتياج له وحده حتى يؤدوا حق نعمته ويقوموا بواجب شكر فضله وإحسانه.

ومن أعظم جريمة من عمل على إباق العبد من مالكه وهروبه ونفوره منه إلى عدوه وخصمه الألد، فإذا كان هذا أعظم جريمة ممن حاول هذا بين العبد ومالكه فكيف بمن صرف همه وجهده في تنفير العباد من السيد الأعظم والمالك الأكرم الذي تعرف إلى عباده بأحب أوصافه وأجمل أسمائه (الرحمن الرحيم - الغفور الشكور)؟ ومن فعل ذلك فأيُّ خطر أعظم؟

وأى منزلة أشرف من منزلة من جاهد هذا المجرم الخبيث بكل ما أوتى من قوة وما وهب من يد وسنان ولسان؟

إن جهاد أمثال هذا المجرم الأثيم واللَّه أعظم عند اللَّه ورسوله والمؤمنين من جهاد الكافرين من اليهود والنصارى، فإن جرمهم لا يقاس بجرمه، وكفرهم لا يذكر بجانب كفره، ولذلك لا تجد من قام بهذا الجهاد حق القيام وصبر عليه حق الصبر إلا من أوتى من قرة الإيمان وعظيم الحكمة ونور البصيرة والتضلع من الكتاب والسنة بحظ عظيم، فرأس هؤلاء وسيدهم محمد ﷺ، ثم من بعده الصحابة رضى اللَّه عنهم، ثم من بعدهم أهل العلم والتقى والفضل والورع كالإمام أحمد بن حنبل، ثم من كان على منهجه ومنواله رضى اللَّه عنه، ثم شيخ الإسلام ابن تيمية، ثم تلميذه شيخ الإسلام ابن القيم، ثم شيخ الإسلام مجدد

العصر الشيخ محمد بن عبدالوهاب ، رحمة اللَّه عليهم ورضوانه ، وجزاهم اللَّه عن الإسلام أحسن ما جوزى به ناصح عن نصحه ومجاهد عن جهاده ، وصابر على صبره .

ولما كانت أعظم جيوش الخاسرين في زمان شيخ الإسلام ابن تيمية وتلميذه ابن القيم فتنة وأشدها شكيمة هي جيوش فروخ اليونان وتلاميذ الزنادقة الذين يعارضون صحيح المنقول من الكتاب والسنة بسخيف المعقول من حثالات أفكار شيوخهم وزبالات آراء ساداتهم وكبرائهم ، ويزعمون بهذه العقول السخيفة والآراء السقيمة في صفات اللَّه تعالى التي نطق بها القرآن العربى المبين ، والقول الصادق الصريح من لسان أشرف الأمناء الصادقين ، يزعمون فيها زعما خرج بها عن حقائقها وصار إلى تعطيل اللَّه تعالى عن صفاته وأسمائه ، حتى آل الأمر إلى أنه ليس هناك إله فوق عرشه ولا رب مدبر قائم بنفسه حى قيوم لا تأخذه سنة ولا نوم ، وصار الأمر إلى أن الناس يعبدون وهمًا وخيالًا . بئست مقالة صدرت عن أفجر قلب وأفسقه ، نطق بها أكذب لسانه وأخبثه ، وقبحًا لهم من مارقين ، ولقد باءوا بمثل ما باء به شيخهم الشيطان الرجيم وأستاذهم الذميم في معارضة النقل الصحيح بالعقل السقيم .

أقول : لما كانت هذه الفتنة في عنفوان شرها وشامخ فسادها نهض لها الإمامان المبرزان ، والحجتان القاطعتان ، سيفا اللَّه المسلولان على رقاب أعدائه ، شيخ الإسلام ابن تيمية وتلميذه ابن القيم ، فنفخا عليها من حجج القرآن ما أذهب رمادها ، وأرسلا عليها من شهب السنة وصواعق الفرقان ما أسكت جعجعتها وأذهب شنشنتها ، ورفع اللَّه بهما رأس الإسلام وأعلا مناره ، وعادت كلمة اللَّه هي العليا وكلمة الزنادقة الخاسرين هي السفلى ، والباقية للمتقين .

وخير كتاب لابن القيم في هذا الباب وأشده وقعًا ، وأنكاه فعلًا في هذه البدع

الزائغة كتاب (الصواعق المرسلة) فهو والله كاسمه صواعق أرسلها الله من قلم ابن القيم على رؤوس أهل الزيغ والضلال، والتعطيل والإلحاد، لم يبق والله لقائل قولًا ولا لشيطان كيدًا.

وحق على كل مسلم غيور على دينه أن يقرأ هذا الكتاب قراءة تدبر وإمعان، وأن يتقلد بغال درره التي يعز مطلبها ويقل وجودها إلا في هذا البحر العباب، ولكن أين هذا وكيف؟ ولكتاب نادر الوجود، ليس منه إلا نسخ قليلة في أيدى بعض الأفاضل من علماء نجد وشيوخها، ولكن مهلا إخوانى من الموحدين المتعطشين إلى هذه المناهل العذبة، فلكم البشرى، وقريبًا جدًّا تكون نسخ الكتاب كثيرة بين أيديكم سهلة التناول عليكم. وذلك بفضل إمامنا الموفق، ومليكنا الذي جمع الله له بين ملك الدنيا وملك العلم، أمير المؤمنين (عبد العزيز آل سعود) فإنه - أطال الله عمره، وأيده بنصره وقوته، وبارك لنا وللإسلام فيه - قد صدرت إرادته السنية وأمره الكريم بطبع هذا الكتاب على نفقته، وقد بدئ فعلًا في طبعه بالمطبعة السلفية بمكة المكرمة، وتلك يد بيضاء تضاف إلى حسنات الإمام، ومنة ليست بأخرى مننه، يطوق بها أعناق المسلمين في مشارق الأرض ومغاربها، فجزاه الله عن الإسلام والمسلمين والعلم والعلماء أحسن ما جوزى ساع في الخير على سعيه، وأدام توفيقه ونصره.

ولما كانت النسخة الخطية من الكتاب رديئة الخط ولا يؤمن أن يكون بها غلط أو سقط كان واجب الأمانة والنصيحة أن تقرأ على عالم خبير، وليس لذلك الأمر إلا شيخنا الشيخ عبدالله بن حسن ابن حسين بن على بن حسين بن شيخ الإسلام محمد بن عبدالوهاب، فتفضل حفظه الله بإفراغ جزء من أوقاته ليقرأه الفقير كاتب الأسطر عليه قراءة إمعان وتدقيق؛ حتى تكون النسخة صحيحة قدر الإمكان، وقد أبان الشيخ أحسن الله إليه عن كثير من مضمراتها وحل كثيرًا من مشكلاتها.

وكان يأخذنا الطرب البالغ عند قراءة الكتاب من متانة أسلوبه وقويِّ حجته، وأنه يكب المعطلين على وجوههم كبا، وينضحهم بسهامه نضحًا، لا يبقى لهم في الميدان أثر.

وحرصًا منى على تعجيل المنفعة لإخوانى المؤمنين قد تخيرت بعض مواضيع من الكتاب بأمر شيخنا الشيخ عبداللَّه بن حسن أحسن اللَّه إليه، وسنوالى إن شاء اللَّه نشرها في الإصلاح.

وفى العدد يجد القراء منه نبذة إن شاء اللَّه.

❁❁❁

الإسلام في الغرب[1]

فى برلين عاصمة بلاد الألمان كثير من الألمان الذين دخلوا الإسلام ، وكثير من المؤلفات التي تبحث في الإسلام بحثًا دقيقًا علميًا . وفى (جامعة الألسن) دروس عديدة تلقى في هذا الخصوص . ومن الأشخاص الممتازين الذين يدرسون الإسلام وزير المعارف الألمانى (بيكر) Bebker.

والأستاذ كاميفماير وقد زار مصر في هذا العام لدراسة أحوال المسلمين ، وهو رئيس الجمعية الألمانية للمعارف الإسلامية ، والأستاذ ميتفوخ ، يدرس تفسير القرآن الكريم في جامعة الألسن الشرقية .

ومن مأثور قول عقلاء الألمان وكبار علمائهم قول المستشرق الدكتور شومبس Chombes فقد قال في إحدى اجتماعات الجمعية الإسلامية .

« يقول بعض الناس : إن القرآن كلام محمد ، وهو خطأ محض ، فالقرآن هو كلام اللّه تعالى الموحى على لسان رسوله محمد ﷺ فليس في استطاعة محمد ، ذلك الرجل الأمى في تلك العصور الغابرة أن يأتينا بكلام تحار فيه عقول الحكماء ، ويهدى الناس من الظلمات إلى النور ، وربما تعجبون من اعتراف رجل أوربى بهذه الحقيقة !! درست القرآن فوجدت فيه تلك المعانى العالية والنظامات المحكمة ، وتلك البلاغة التي لم أجد مثلها قط في حياتى ، جملة واحد تغنى عن مؤلفات ، هذا ولا شك أكبر معجزة أتى بها محمد ﷺ عن ربه » .

وقال الدكتور هامر في محاضرة عن حياة النبى محمد ﷺ : « إذا درس الإنسان حياة ذلك الرجل درسًا دقيقًا يجد في تلك الشخصية العظيمة روحًا عالية ، وكل من يطلع على تلك الأخلاق العظيمة التي تحلى بها ذلك الرسول

(١) مجلة الإصلاح - العدد الخامس - ١٣٤٧/٥/١هـ.

العظيم من الصدق والاستقامة ، والوفا بالوعد ، والأخذ بيد الضعيف ، وما شاكل ذلك من الأمور فلا شك أنه يحبه ، وأن التعاليم التي جاء بها مطابقة للعقل السليم وفطرته » .

وللدكتور هامر كتاب نفيس يرد به شبهات المتعصبين الذين نظروا إلى النبى ﷺ بغير عين الإنصاف ، والذين استحكم عليهم نطاق الهوى والعصبية العمياء حتى تكلموا في حقه ﷺ بكلام غير لائق .

ومن الرجال المعروفين الذين دخلوا الإسلام القائم مقام العسكرى الألمانى (هارون الرشيد) ورجلان من رجال الصحافة مع أفراد أسرتهم وهم : محمد أسد اللَّه (وايس الألمانى) ، وهو الآن يقيم متنقلًا ما بين الحجاز ونجد ، فيقضى جزءًا من السنة في الرياض مع جلالة الملك ابن السعود أو وحده متنقلًا بين الإخوان هناك ، متحليًا بالزى العربى الجميل (الصمادة والعقال والمشلح) ومعه نجله الصغير بهذا الزى أيضًا . وقد تعلم اللهجة النجدية في الكلام حتى أصبح يتكلم مثل الإخوان . وقد حببه في الإسلام كثيرًا - كما قال - ما رآه من حرص أهل نجد على دينهم وكثرة عبادتهم ، ورغبتهم الشديدة في تعلم العلم ، واكتساب نفوسهم من العلم والدين أخلاقًا فاضلة تدل على أن الدين قد بلغ من نفوسهم مبلغه بعد ما كانوا عليه قبل هذا الدين في أيام الجاهلية الثانية قبل مجيء شيخ الإسلام ابن عبدالوهاب ، قدس اللَّه روحه ، فإنهم كانوا على أسوأ حال من فساد وفسوق ، فانقلابهم عن هذا إلى ما صاروا عليه الآن من حسن السمت والحلم وحب العلم ، والتفانى في سبيل إعلاء كلمة اللَّه ، جعل ذلك السيد (أسد الله) يرى في الدين الإسلامى الصحيح أكبر مهذب للأخلاق ومرب للنفوس ، فاعتنقه على حب عظيم جعله يلازم بلاد العرب في هذه الأيام تلك الملازمة على ما فيها من الحر الشديد وخلوها من مواد الرفاهية التي كان يجدها موفورة على أتمها في

بلاده « ألمانيا » .

والأستاذ أسد الله صحافى قدير ، يكاتب عدة من الصحف الألمانية ، وكل كتاباته مملوءة بالإعجاب الزائد بالإسلام ، والتعجب من المسلمين الذين يتركون شرائع هذا الدين ويهملونها وراء ظهورهم ، ويقول لو أن المسلمين استمسكوا بدينهم الصحيح استمساك جلالة الملك عبدالعزيز بن السعود وجماعته ، وجعلوا قانونهم وعصمتهم كتاب الله وسنة رسوله ﷺ كما فعل الملك ابن السعود ؛ لانتقلوا انتقالًا كليًا من الحالة السيئة التي هم عليها الآن ، ولغير الله ما بهم من الذلة والضياع إلى حياة الحرية الطيبة والاستقلال الصحيح ، ولتمتعوا في ظل هذا الدين بأطيب حياة وأسعدها كما يتمتع أهل نجد وكل من يستظل براية جلالة ابن السعود الذي جعل همه منصرفًا إلى العمل بكتاب الله وسنة رسوله .

وقد ساح الأستاذ أسد الله في كثير من البلاد الإسلامية ودرس أحوال أهلها ، وقد قال في إحدى نشراته : « إن أكثر المسلمين اليوم قد فتر في قلوبهم الإسلام ، ويزعمون أن دواءهم الوحيد هو أن يسيروا سير الغرب في جميع أمورهم ، ولهذا السبب تزعزع الإيمان . ولا شك أنه لابد أن تقع الأمم الإسلامية إن سارت في هذا الطريق في تضعضع روحى ، فوق ما هي واقعة فيه ، كما هي حال أوروبا اليوم ، فالنجاة في الديار الإسلامية لا تكون إلا عن طريق إصلاح الباطن ، فإذا فهم المسلمون حقًا معنى الإسلام يمكنهم أن يحصلوا على قوى جديدة لتأسيس جماعة المسلمين ، وبذلك يمكنهم يومًا إيجاد وحدة أخوية بين جميع المسلمين ، لا فرق فيها بين مختلف الديار والشعوب » .

والرجل الآخر الذي اعتنق الإسلام هو الأستاذ الدكتور محمد حسن هوفمان ، وهو محرر في جرائد عديدة وعضو من الأعضاء العاملين في الجمعية العلمية الإسلامية .

ولا شك أن هذا يدل على أن الإسلام قد بدأ يظهر نوره مرة أخرى ويسطع على العالم ، وقد بدأ يتبوأ محله من المكانة الرفيعة تصديقًا لقوله ﷺ : « بدأ الإسلام غريبًا وسيعود غريبًا كما بدأ »(١) .

***

(١) أخرجه مسلم (١٤٥، ١٤٦) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه .

الإسلام أمس واليوم(١)

إن الناظر المدقق في حالة العرب الأولى يتضح له ما كانوا عليه في الجاهلية من شكاسة النفوس وعرامة الأخلاق والتوغل في الأثرة إلى حد امتشاق الحسام وإراقة الدماء في سبيل إرضاء شهوات النفس وقضاء مآربها ، وما كان ينجم عن كل ذلك من تقطع أوصال الكتلة العربية وتشتت شملها ، والانحلال والضعف في أسباب الحياة الاجتماعية المادية والأدبية ، وقد كانوا مع هذا أطيب الأمم نفوسا وأقبلها لخير .

وقد طال بهم أمد هذه الحياة المشوشة قرونا تعاقبت ، وفيها من نوابغ الشعراء وأفذاذ الفصاحة والخطابة عددٌ غير قليل . وقد كان فيما بذلوه من قول وجهاد في تقويم الأخلاق وتهذيب النفوس الكفاية لو كان هذا هو السبيل إلى التقويم والتهذيب ، لكنه ما زال طوفان تلك الحياة المشوشة يأخذ سبيله في الطغيان ، غير واقف في وجهه ولا راده عن طغيانه شعر حكماء العرب ولا خطب بلغائهم ، حتى كاد يأتي على هذه الأمة العظيمة لولا ذلك السد القوى الذي أقامه اللّٰه تعالى ببعثة محمد ﷺ ، فحينئذ أخذ مجرى الأخلاق والحياة الاجتماعية سبيلًا إلى الاستقامة والصلاح والعزة ، واجتماع الكلمة واتصال أجزاء الكتلة ، حتى وصل إلى غاية ما كانت العرب ، بل أعظم الأمم مجدًا تحلم بها أو تخطر لها على بال .

إنك إذا استعرضت كل أطوار الحياة العربية ترى أنه ما من طور إلا وفيه صوت من أصوات الحكمة شعرًا أو نثرًا ، يهيب بالعرب عن التحدر إلى مهواة ما كانت آخذة بسببه من الانحلال ، ولكن كان ذلك الصوت يتلاشى ويذهب في هذه الزوبعة الهوجاء ، وقد انحدرت الأمة دركة أسفل من التي قبلها ، وهكذا .

---

(١) مجلة الإصلاح - العددان السابع عشر والثامن عشر - ١٣٤٨/١/١٥هـ .

ثم ما كاد ينبعث صوت محمد ﷺ في جو الجزيرة حتى اهتزت هزة عنيفة تنكس بها علم الشرك ، فذهب حينئذ فساد الأخلاق واندكت صروحهما ، وبعد أن كان الناس مكبين على وجوههم سراعا إلى تلك المهواة استقاموا على طريق سوى ومنهج قويم .

ولم تكن مدة هذا التطور الذي تحول به العرب إلى هذه الاستقامة والكمال في فترة قصيرة من الزمن لا يعبأ بها ولا يلتفت إليها في سير تطور الأمم وانتقالاتها الاجتماعية .

ترى ، ما هو السبب الذي جعل هذه الأمة العصيِّة الأخلاق ، القوية الشكيمة ، الصعبة المراس البالغ في قسوة القلوب وغلظها حد وأد البنات وقتل الأولاد تنقلب ما بين عشية وضحاها إلى ما وصفه اللَّه تعالى ﴿رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ﴾ [الفتح: الآية ٢٩] ، وإلى ما قصه علينا القرآن ﴿وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾ [الحشر: الآية ٩] !!

بالأمس والأمس القريب يقتلون أولادهم خوفًا من الجوع ، واليوم يؤثرون على أنفسهم بالجوع والخصاصة إخوانهم الأبعدين نسبا بما كانوا يملكون من قوت وطعام !! ! إن ذلك وربك لمن المدهشات ، بل من عجائب الحوادث ، بل من الخوارق التي لا يمكن عزوها إلى تطور اجتماعى ، ولا إلى تقدم أخلاقى ، ولا إلى شيء مهما قلت فيه ، اللهم إلا إلى الدين الذي جاءهم به أشرف الخلق محمد ﷺ وأنقذ به قلوبهم مما كان يركسها في حمأة الرذائل من الشرك بالخضوع والذل لأحجار نحتوها بأيديهم واختانوا أنفسهم بطاعة الشيطان أنها تمثل قومًا صالحين .

نعم إن الشرك وعبادة هذه المنحوتات الحجرية والخشبية والنحاسية هو الذي جعل تلك القلوب العربية قلوبًا قاسية ليس فيها للرحمة محل ولا لكرم الخلق

نصيب . قد فطرت القلوب أولًا سليمة فأفسدها الشرك وقتلتها الوثنية ، فكان منها أخلاق وأعمال تشمئز منها النفوس العاقلة ، بل هم بأنفسهم اشمأزوا عندما رفعت عن قلوبهم حجب الشرك وأغلال الوثنية . ولم لا يكون كذلك ؟ ما الشرك إلا أرذل الأخلاق وأسفلها ومنبعها ؛ إذ هو تمرد على اللَّه المبدع الرحمن الرحيم الرزاق الكريم الوهاب ، وعتو عليه ونسيان لفضله ، بل احتقار لنعمته ، وازدراء بقدرته واجتراء على سطوته ، بل هو أعظم سب للَّه حيث جعل المشرك أولئك الذين ضرب اللَّه لهم الذباب مثلا ، بل الذباب أقدر منهم - أندادًا للَّه الحى القيوم . فهل بعد هذا من قسوة أو تسفل في الأخلاق وانحطاط نفسية وارتكاس في رذائل ؟ لا يعرف ذلك إلا من ذاق حلاوة التوحيد وتكيفت نفسه به وارتفع له مناره فهداه إلى أحسن الأخلاق وأكملها ، لأنه عرف ربه أنه الغنى الحميد ؛ غنى وحمدا ملازمين لذاته ، وأن العبد هو الفقير العاجز فقرًا وعجزًا ملازمين لذاته ، فحقق العبودية والخضوع والخوف والخشية والمراقبة للَّه وحده الذي يعلم السر وأخفى ، والذى لا يحب من عباده الفاحشة ولا يرضى لهم الظلم ، ولا يقبل منهم إلا ما كان خيرًا محضًا ، وصلاحًا خالصًا .

إذا أنعمت النظر وحققت هذا على وجهه الصحيح وكنت بصيرا بسر تطور الأمم وعلل انقلاباتها الاجتماعية ، وخبيرًا بدخائل النفوس ومضطلعًا بتقلباتها من ارتكاس وانتعاش وظلمة ونور ، وضح لك جليًا السر فيما كان عليه الصحابة والقرون الأولى رضى اللَّه عنهم من رقة في القلوب ورحمة وحفظ للحقوق ورعاية لأكمل الآداب الفردية والاجتماعية ، وعلى الإجمال كانوا أحسن مثل لقوله تعالى : ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾ [الحجرات: الآية ١٠] ، ذلك لأنهم المثل الأعلى في إخلاص الدين كله علمًا ومعرفة وعبادة ، خوفًا وتوكلًا ورغبة ورهبة للَّه وحده . وتبين لك السر في انتصاراتهم الباهرة التي هي أشبه بالخوارق منها بأيِّ

شيء آخر، والتي هي من آثار انتصارهم أولًا على شيطان الفرقة والهوى الشخصى، ثم تبين لك بعد هذا السر في انحلال أخلاق الأمم الإسلامية وتفكك الروابط الأخوية بينهم وما أصيبت به القلوب من قسوة النفوس ومن شره وشراسة، ورجوعهم أعداء لا ينظر أحدهم إلى الآخر إلا بنظر الخصومة والاحتقار حتى ولو كان ابن أمه، ومهما نصح له أو ذكره لا يحمل منه ذلك إلا على التشفى والنيل من الكرامة والتصغير والتحقير، وبذلك عمتهم أمور وعظائم لا مخلص منها إلا بمعونة اللّٰه ثم برجوعهم إلى سيرة سلفنا الصالح رضى اللّٰه عنهم من توحيد وإخلاص.

يحفظ كثير منا مسائل علمية، بل بعضنا يحوى رأسه من المسائل ما يملأ مجلدات ضخمة، وفى هذه المسائل شيء كثير من العظات والمنبهات، ثم تجد الكثير ممن قد امتلأ رأسه بهذه العلوم فيه من الصفات والأخلاق من طمع وقسوة وحرص على الدنيا من كل طريق حلال أو حرام وأكل أموال الناس بالباطل شيء كثير يتنافى كل التنافى مع هذه العلوم التي امتلأ بها رأسه بل يتنافى مع أى مسألة منها. وإننا إذا لم نعترف بالحق ونعلم الداء الذي أفسد حياتنا وأضاع علينا ثمرات جهود المصلحين منا كان ذلك منا مكابرة، وكان ذلك أعظم داء من كل الأدواء.

فلماذا هذه الأخلاق الذميمة، من أخذ الرشا، إلى الغيبة والنميمة، إلى التقاطع والتدابر والتنابز، إلى غير ذلك مما يشكو منه الجميع؟ ومن أين تولدت هذه الأدواء المهلكة؟ ونحن نحن المسلمون أبناء المسلمين الأماجد وفينا مثل ما كان فيهم من رؤوس وعقول وبيننا ما كان بينهم من كتاب اللّٰه الكريم؟

ارجع البصر معى وارم به إلى العصر الأول واستوعبه من جميع نواحيه على ما قدمت بعضه لك وأنت مجرد عن كل هوى وعصبية، نظرًا خالصًا عن شوائب

العاطفة التي تصبغ كل شيء بلونها، وتجعل الحكم معكوسا، ثم تعال إلى هذه الأمم التي بدأ فيها انحلال الأخلاق وتشتت الشمل، وقارن بين العصر الأول وبين أولئك الخالفين، وتجرد كما طلبت منك من كل شائبة عاطفة وهوى وعصبية، ثم قل لى: ماذا استخلصت من هذه المقارنة؟ وأى نتيجة وصلت إليها في معرفة سبب الداء؟ فإذا كنت على ما وصفت من الإنصاف يتبين لك واضحًا جليا أن الانحلال والضعف وفساد الأخلاق إنما كان نتيجة تحول الناس عن العقيدة الطاهرة والإيمان الخالص، وأخذهم بأقوال المفسدين من بقايا اليهود والنصارى والمجوس والوثنيين الذين اندسوا في الإسلام لهدم قواعده وتفكيك أوصاله وتمزيق شمل الوحدة الإسلامية التي قوضت دعائم ملك فارس والروم وقضت على كل آمال أولئك الأشرار الفاسدين، فمنذ لوى المسلم عنقه عن نصيحة الرؤوف بالمؤمنين الرحيم القائمة على قوله ﷺ: أعبد اللّٰه مخلصًا له الدين. وقوله: «عليكم بسنتى وسنة الخلفاء الراشدين من بعدى، تمسكوا بها وعضوا عليها بالنواجذ وإياكم ومحدثات الأمور. فإن كل بدعة ضلالة»[(١)]. وأصغى إلى قول أولئك الأعداء المتقمصين ثوب المسلمين بدأ هذا الانحلال والفساد والضعف الذي نشكو منه ويشكو منه كل غيور على أمته محب لخيرها وهداها واجتماعها وقوتها.

يقولون: ادعوا إلى تكميل الأخلاق وتهذيبها أولًا، فإن المسلمين في حاجة اليوم إلى ذلك قبل كل شيء!!

غريب ومدهش أيها القائلون، هدانا اللّٰه وإياكم إلى الطريق السوى، هل ما وقع فيه الناس من أشرك غير اللّٰه في العبادة التي لا ينبغى أن تكون إلا له؛ لأنه هو

---

(١) أخرجه أحمد ٤/ ١٢٦، وأبو داود (٤٦٠٧)، والترمذي (٢٦٧٦)، وابن ماجه (٤٣) من حديث العرباض بن سارية رضي اللّٰه عنه. وصححه الألباني.

المتفرد بالربوبية ، هل ذلك الشرك إلا هضم لأعظم الحقوق ، وقطيعة لأهم ما يجب وصله ؟ وهل التوحيد إلا تحسين العلاقة بين العبد وبين ربه على قاعدة : أن لا يضيع حق الله فيعطى لغيره ممن لا يستحقـه ؟ وما ظلموا الله ﴿وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ يَظۡلِمُونَ﴾ [البقرة: الآية ٥٧] ، وهل مكارم الأخلاق التي تدعون إليها ، إلا أن تحسن العلائق بينك وبين إخوانك من المسلمين ، ويحفظ كل واحد منكما للآخر حقوقه كاملة غير منتقصة ؟ فيا لله العجب ! تحافظون على تحسين الصلات بينكم وبين العباد ولا تحافظون عليها بينكم وبين بارئ العباد وخالقها ؟ وهل للعباد عليكم من الواجب ما تحفظون به حقوقهم عشر معشار جزء مما لله عليكم من الواجبات والفضل والنعمة ، ﴿وَإِن تَعُدُّواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحۡصُوهَآۗ إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَظَلُومٞ كَفَّارٞ﴾ [إبراهيم: الآية ٣٤] ؟ حقًّا إنه لظلوم أعظم الظلم وأشده حيث يرعى حقوق العباد ويحرص عليها أكثر مما يرعى حقوق الله ، وإنه لكفار أشد الكفر حيث تظهر أمام عينه ذرة حقيرة تتلاشى لأقل شئ ، يسميها حقًّا ويحفظ للعبد الجميل بها ، ويتعامى عن الجبال من النعم والإحسان ؟ اللهم اهدنا فيمن هديت وعافنا فيمن عافيت .

يغضب الواحد منا لأنه توهم أن شيخه أو محترمه قد نيل من كرامته بعض النيل !! مع أنه في الواقع إنما تولد هذا الغضب عن وهم لا حقيقة له ، ولم يتعرض لشيخه أدنى تعرض ، لا تلميحًا ولا تصريحًا ، وهو بعد يسمع من صريح سب الله تعالى والعدوان على إلهيته ليلًا ونهارًا وعلى رؤوس الإشهاد بما يقع حول القبور المعبودة من دعاء ونذر لأهلها وتمسح بها وغير ذلك مما يكفهر له وجه الإسلام ، ولا يحرك ساكنًا !! بل وا أسفاه لا يرى ذلك يستحق ربع كلمة إنكار !! بل يرى الكلام في ذلك تنفيرا وإرهاقًا وخروجًا عن حدود الذوق واللياقة !! فإنا لله وإنا إليه راجعون .

وأكبر ما يدل على أن الإيمان هو أصل كل خلق حميد أن اللَّه ضرب له المثل في القرآن بالشجرة المباركة التي تؤتى أكلها كل حين ﴿كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ﴾ [إبراهيم: الآية ٢٤] - الآية ، وبالغيث الذي يحيى الأرض فتخرج ثمرات طيبة ، إلى غير ذلك من الأمثال الصريحة في أن الإيمان هو الأصل وكل شيء من الأخلاق والآداب ثمرة له .

ويدل على هذا أيضًا قول عائشة وقد سئلت عن خلق النبى ﷺ : « خلقه القرآن »(١) . وهل يدعو القرآن أولًا وقبل كل شيء إلا إلى تمجيد اللَّه وتوحيده ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٢ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝٣ مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ ۝٤ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ .

وحيث قد تشخص الداء وتبين سببه فقد هان الدواء وعلمت حقيقته ، وليس هو إلا الرجوع أولًا وقبل كل شيء إلى عقيدة التوحيد في العبادة التي قضت على ما كان شائعًا من الفساد في الجاهلية الأولى ، فهو هو الذي يقضى على فساد الجاهلية الثانية ، وهوهو الدواء الذي وصفه اللَّه ورسوله قولًا وعملًا .

فإن كان أحد من المخلصين يريد أن يضم صوته إلى صوت المجاهدين في سبيل خلاص الأمة الإسلامية وإصلاحها فما عليه إلا أن يحقق في نفسه أولًا وقبل كل شيء هذا التوحيد ويتطهر ، من أدران الشرك وعبادة الطواغيت ، ويقلع عن العقائد الخرافية الفاسدة التي بثها مشايخ الطرق الذين هم ذيول أولئك الأعداء الأولين من اليهود والنصارى والمجوس الذين كان أول شر في الإسلام وهدم ظهر فيه ؛ من جمعيتهم الباطنية الملحدة التي ما أسست إلا لحرب الإسلام ومناوأته . ولقضاء اللَّه بلغت بعض ما تريد ، وفى أزمنتنا هذه قد بلغت تقريبًا كل ما تريد ،

---

(١) أخرجه مسلم (٧٤٦) من حديث ابن عباس رضي اللَّه عنهما .

لولا ما جرى من قضاء اللّه من أنه لابد أن تبقى طائفة على الحق تقيم الحجة على الناس .

وبعد أن يتطهر في نفسه هذا التطهر ، ويمارس من آيات القرآن وأحاديث الرسول ﷺ وسيرته وسيرة صحابته وتابعيهم ومن بعدهم من أئمة الهدى ، ويقرأ الكتب المؤلفة في ذلك ما يزداد به بصيرة وهدى ونورًا وعلمًا ، عند ذلك فليتقدم إلى صفوف المجاهدين ، وحق له أن يكون معهم وقد تسلح بأقوى سلاح لا يفل ولا ينبو .

وأرجو كل الرجاء من اللّه الكريم أن يكثر من أولئك المجاهدين على بصيرة لنصل إلى بغيتنا سريعًا .

ومن أجل ذلك وعلى أساس هذه الفكرة أنشئت صحيفة « الإصلاح » المكيَّة وهى آخذة في تقويم المعوج من الأخلاق والأعمال على هذه القاعدة التي نعتقد أنه حق إلهى ، قاعدة (إخلاص الدين كله للّه أولًا) وبها نصل إلى كل ما نريده من كمال . وهى مستمرة في طريقها هذا غير ملتفتة إلى ما ينبزها جماعة ممن يرفعون أصواتهم بدعوى الإصلاح وهم بعد في حاجة إلى إصلاح أنفسهم حتى يروا الحق حقًا والباطل باطلًا .

وكم من داع يزعم أنه داع إلى الحق وهو لا يعلم إلا الباطل فلا تزيد دعوته الباطل إلا رواجًا .

ولنضرب لذلك مثلًا ، هذا ابن الحاج صاحب كتاب (المدخل) ما ألف كتابه ولا أجهد نفسه فيه إلا انتصارًا للسنة وردًّا للبدعة ، ولكن المطلع على هذا الكتاب يرى فيه من الخلط والخبط ما جعل البدعة سنة والسنة بدعة ، وشر ما فيه ترويج التوسلات وزيارة القبور البدعية الشركية باتفاق المسلمين . فليس كل من يدعى دعوى هو صادق فيها حتى يقيم البرهان عليها من قوله وعمله .

ومثل آخر بالشام الآن رجل من أهل العلم وأحد خطباء المساجد الكبرى بدمشق كتب إلى أمير البيان الأمير شكيب أرسلان يقول : « ثم لو رأيتم أن تتحدثوا إلى إدارة مجلة الإصلاح المكية في أن تعتدل وتعدل خطتها وتتريث ، وتحل الحكمة والموعظة الحسنة بالبراهين كما هي خطة مجلة (الفتح) الخطيبية في مصر ، عوضًا عن التكفير والتنفير والاحتقار اللذين لا يوصلان مجلة الإصلاح إلى الغاية المطلوبة .. إلخ » . فإن هذا الشيخ وفقنا الله وإياه من الفقهاء المعنيين بالوعظ والإرشاد ، ولكن الإصلاح عنده هو في اللحية والعمامة فقط !! وعلى ذلك يصول ويجول ويحور ويدور ، أما ما دخل في الصلاة والصيام والحج وبقية العبادات من بدع ومحدثات ومفسدات ، وأما البدع والخرافات الشركية في القبور وأعمال أهل الطرائق وغيرها مما أذهب الدين كله جملة وتفصيلًا ، فكل ذلك عند الشيخ مسكوت عنه ، ولا يحتاج إلى تغيير ولا تبديل .

ونحن بعد هذا نشكر لهذا الشيخ في إنكاره على حالقى اللحى ، فإنه دعا إلى سنة ثبتت عن النبى ﷺ ونهى عن معصية وهى حلق اللحى ، ونرجوه أن يعنى بكل سنن النبى ﷺ خصوصًا ما يتعلق منها بالعقائد عنايته بسنة إعفاء اللحية بل أشد .

وعلى نحو هذا الشيخ الدمشقى شيخ مصرى له جماعة كبيرة وحزب عظيم ، يحرص كثيرًا على اللحية وعذبة العمامة ويعد هذا السنة ، ويعتقد في الصفات عقيدة أهل التأويل والتعطيل ، وهو بعد هذا يعد نفسه أكبر داع إلى السنة .

وكذلك جاء في كتاب من أحد أفاضل أهل العلم قُرَّاء « الإصلاح » بمعهد الإسكندرية العلمى ينتقد فيها ما يكتب أخونا الشيخ أبو السمح في باب الدعوة إلى الله ، ويذكر أن بها شيئا من الشدة والتعرض لبعض الأشخاص ، ونحن نبرأ إلى الله أولًا من التعرض للأشخاص الصغيرة فضلًا عن الكبيرة ، ولكننا نبين العلل

على قاعدة ما سبق في صدر مقالنا هذا ، وهو الذي نعتقده وندين اللّٰه به ، ونقول إن الدواء لابد أن يكون مرًا وقاسيًا حتى يجتث الداء من أصله ويقلعه من جذوره ، وهذه خطتنا التي لا نحيد عنها ، ونعتقد أن المنصفين من دعاة الإصلاح يظاهروننا عليها .

ونتقدم إلي حضرتي الناصحين أن يتفضلا بمقال يبينان فيه ما يريان فيه الصلاح والإصلاح ، ونكون لهما من الشاكرين .

وإنا لنتمنى من صميم قلوبنا أن يتجلى لنا الحق من خلال المناقشة الهادئة البعيدة عن العصبية ، ونعتقد أنه ما حمل الشيخ الدمشقى والشيخ الإسكندرى على الكتابة إلا حسن النية وبراءة الضمير ، ونظن بهما الظن اللائق بمثلهما من الناصحين المخلصين ، ونرجو أن يمعنا في كلمتنا هذه ، فإن رأيا فيها ما لا يتفق مع خطة الإصلاح الحكيمة فليتفضلا بالبيان .

وقد كتب الأستاذ السلفي الشيخ محمد بهجة البيطار لأمير البيان جوابًا على ما جاء في كتاب الشيخ الدمشقي ، ننشره في هذا العدد واللّٰه الموفق والهادى إلى سواء السبيل .

❁ ❁ ❁

باب الفتيا(١)

ننشر تحت هذا العنوان ما يرد إلينا من أسئلة دينية من مختلف الجهات ، ونجيب عنها بقدر طاقتنا وقد نحيل الإجابة عليها على بعض الأفاضل من أهل العلم .

فنرحب بكل سائل وكل مجيب .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

ورد سؤال من الهند مضمونه : هل تصح صلاة الجمعة ، أم هل تجب على المسلمين الذين استولت على بلادهم الإفرنج وأباحوا فيها الزنا والخمر والربا وغير ذلك من المحرمات ، أم لا تجب ؟

الجواب :

الحمد للَّه وحده .

إنها تجب عليهم وتصح منهم إذا كانوا غير راضين بحكم الإفرنج ولو باطنًا ولا سبيل لهم إلى إجلاء الكفار عنهم ولا إلى التحول إلى بلد إسلامى .

فأما إن رضوا بحكم الكفار فلا ؛ لأنهم صاروا مثلهم ، ولا تصح منهم لو فعلوها .

ولا تسقط الجمعة عن المسلمين إلا إذا أكرهوا على تركها ، فإذا أكرهوا فالواجب الهجرة إلى حيث يمكن المسلم أن يقيم دينه منفردًا أو مع جماعة ، واللَّه أعلم .

فمن قال بسقوط الجمعة عن مسلمين يعيشون تحت أحكام الإفرنج ، ولو لم يلقوا منهم إكراها على ترك شيء من الدين ، فهو مطالب بدليل ينفى ما ثبت من أدلة الوجوب وليس بواجد . وقد ثبت أن أهل المدينة جمعوا قبل أن يقدمها

---

(١) مجلة الإصلاح – العدد الخامس عشر – ١/١٠/١٣٤٧هـ .

رسول الله ﷺ وقبل أن تنزل الجمعة ، إذ اجتمعوا إلى سعد بن زرارة فصلى بهم يومئذ وأنزل الله تعالى بعد ذلك : ﴿إِذَا نُودِىَ لِلصَّلَوٰةِ مِن يَوْمِ ٱلْجُمُعَةِ﴾ [الجُمُعَة: الآية ٩] ... إلخ انتهى من فتح البارى (ص٢٩٤ ج٢) في باب فرض الجمعة .

وفى (ص٣١٧) منه في شرح (باب الجمعة في القرى والمدن) أن زريقًا – وكان عاملًا على أيلة – قرية بين المدينة ومصر على بحر القلزم – (البحر الأحمر) – سأل ابن شهاب ، فكتب إليه يأمره أن يجمع واحتج له بحديث « كلكم راع » الحديث .

قال صاحب الفتح : ووجه ما احتج به على التجميع من قوله ﷺ : « كلكم راع » أنه على من كان أميرًا إقامة الأحكام الشرعية والجمعة منها ، وكان زريق عاملًا على الطائفة التي ذكرها ، وكان عليه أن يراعى حقوقها ، ومن جملتها إقامة الجمعة .

قال الزين ابن المنير : في هذه القصة – يعنى قصة زريق – إيماء إلى أن الجمعة تنعقد بغير إذن من السلطان إذا كان في القوم من يقوم بمصالحهم ، وفيه إقامة الجمعة في القرى خلافًا لمن شرط لها المدن[١] .

ومع كون العلامة العينى الحنفى قد رد على ذلك كله في شرحه على البخارى فقد اعترف أخيرًا في ص ١٩١ من الجزء ٦ من الطبعة المنيرية بالجواز حيث قال : ونحن أيضًا نقول : إذا لم يتوصل إلى إذن الإمام فللناس أن يجتمعوا ويقدموا من يصلى بهم . اهـ[٢] .

قلت : وبهذا يحصل الاتفاق على صلاة الجمعة ، فإن أمكن أن يأذن إمام المسلمين لهم بإقامتها في البلاد التي استعمرها الإفرنج كان بها ، وإن لم يمكن

---

(١) فتح الباري ٢/ ٣٨١.
(٢) عمدة القاري ١٠/ ٦٣.

لأجل السياسة تقدم عالم منهم وصلى بهم.

وللمسلمين اليوم ولله الحمد إمام في مهبط الوحى هو الإمام عبدالعزيز بن عبد الرحمن آل سعود، وأظنه إن لم يأذن بالقول رسميًا بإقامتها في جميع بلاد الإسلام المحتلة بالإفرنج فقد أذن إذنًا غير رسمى ولو إذنًا قلبيًا سكوتيًا كما قال تعالى: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ﴾ [التغابن: الآية ١٦].

فإذا لم يمكن المسلمين اليوم أن يجدوا جميع ما اشترط الفقهاء في إقامة الجمعة والجماعة فليعملوا ببعض، وإذا كانت لا تصح مثلًا في مذهب فليعملوا بالآخر، ولم يوجب الله ولا رسوله ولا أحد من الأئمة اتباع مذهب معين، وإنما الناس مكلفون باتباع سنة الرسول محمد ﷺ ومسئولون عن ذلك من حين يضجعون في قبورهم وينصرف عنهم مشيعوهم، وكذلك يوم القيامة قال تعالى: ﴿فَلَنَسْأَلَنَّ الَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْأَلَنَّ الْمُرْسَلِينَ﴾ [الأعراف: الآية ٦].

فمن تعصب لمذهب من مذاهب الأئمة بحيث لا يتبع سواه، وربما كان الحق عند غيره فسيندم ويقول: ﴿يَا لَيْتَنِي اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلًا * يَا وَيْلَتَى لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا﴾.

ومن الغريب العجيب أن أشد الناس تعصبًا للمذاهب أجهلهم بنفس المذاهب والأئمة!! وأنهم إذا هووا شيئًا من أمورهم الدنيوية ولم يجدوا في المذهب ما يوافقهم تركوه والتمسوا ما يوافقهم في مذهب آخر!! فإذا لم يجدوا تركوا المذاهب كلها!!

وأكثر المقلدين للمذاهب يقدسون كل ما ينسب إليها ويقدمونه على الأحاديث النبوية الصحيحة ولو كان للرسول صلى الله وسلم قدر في نفوسهم وحب عظيم في قلوبهم لما سمعوا غير حديثه ولا عملوا إلا به، ولكن لا حول ولا قوة إلا بالله العليِّ العظيم.

بابُ الفتيا[(١)]

إلى حضرة الأستاذ الشيخ محمد حامد الفقى، مدير صحيفة (الإصلاح) الغراء،

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

وبعد: فالرجاء الإفادة عن جواب السؤال الآتي:

ما حكم ما يصنعه الناس في يوم عاشوراء وليلتها من الأطعمة والأشربة والاحتفالات المخصوصة التي لا يعملونها إلا فيها وفى مثلها من المواسم والأعياد، ويستدلون على ذلك بأحاديث يسمعونها من خطباء المساجد، هل ذلك صحيح شرعًا؟ وهل ورد في ذلك حديث يصلح للاحتجاج به؟ أفيدونا مأجورين والله يحفظكم.

الجواب:

الحمد لله وحده، والصلاة والسلام على من لا نبى بعده، محمد وعلى آله وصحبه ومن تبعه.

وبعد: فإن أغلب المسلمين أصبحوا في هذا الزمان لا يعتمدون في أعمالهم على كتاب أو سنة أو قول صاحب، وإنما يعتمدون على ما ورثوه فقط عن آبائهم وأجدادهم، فما كان كذلك فهو صحيح، وإن جاءت النصوص بالنهى عنه والتحذير منه، وما كان على خلاف ذلك لم يعبئوا به ولم يلتفتوا إليه، وإن كان هذا هو العمل الذي كان عليه أشرف المرسلين صلوات الله وسلامه عليه وعليهم أجمعين.

وقد نشأ ذلك من جهل الناس بدين الله وإعراضهم عما كان عليه السلف

(١) مجلة الإصلاح - العدد السادس عشر - ١٣٤٨/١/١هـ.

الصالح من خيار هذه الأمة وساداتها ، وانكبابهم على أشياء ليست من العلم ولا من الدين في قبيل ولا دبير .

ومن الجهل الشنيع أن يعتمدوا على ما بأيدى العامة ، من دواوين خطب محشوة بالبدع والأحاديث الموضوعة .

وقد أغنانا اللَّه تعالى بكتب الحديث المعتبرة كالبخارى ومسلم وما إليهما من الكتب التي هي ثمرة مجهودات عظيمة صرف فيها الأئمة من أهل العلم وخيار هذه الأمة نفيس أوقاتهم وزهرة حياتهم ؛ دفاعًا عن سنة خير الخلق ، وشفقة بالناس أن يضلوا إذا هم خلطوا الخبيث بالطيب من الأحاديث .

فياللَّه ما أشد مصيبة المسلمين بتركهم لهذه الكتب القيمة واعتمادهم على أمثال ديوان الشرنوبى والسقا وما إليهما .

وإن أعظم ما يفرح به الشيطان هو الجهل بدين اللَّه وعدم معرفة سنن الهدى ، فإن ذلك هو السبيل الأعظم الذي تدخل منه البدع الشيطانية والخرافات الشركية في قلوب أولئك الذين يزعمون أنفسهم مسلمين وما هم بمسلمين ، بل هم دمامل وفساد في جسم الإسلام الذي يضج ويشكو إلى اللَّه مما يذوق ويعانى من شرورهم وإذاياتهم له ولأهله . وإن هذه المسألة تكاد تكون من أوليات الدين وبدهياته لو علم الناس .

ولشيخ الإسلام وحجة الأنام ابن تيمية جواب نفيس على هذه المسألة ننقله لما فيه من الفوائد العظيمة والتحقيق البديع .

قال رحمه الله[١] : «لم يرد في شيء من ذلك حديث صحيح عن النبى ﷺ ، ولا عن أصحابه ، ولا استحب ذلك أحد من أئمة المسلمين ، لا الأئمة الأربعة ولا غيرهم ، ولا روى أهل الكتب المعتمدة في ذلك شيئًا عن النبى ﷺ

(١) مجموع الفتاوى ٢٥/٣٠٠ - ٣١٠.

ولا الصحابة ولا التابعين ، لا صحيحا ولا ضعيفا لا في كتب الصحيح ولا السنن ولا المسانيد . ولا يعرف شيء من هذه الأحاديث على عهد القرون الفاضلة ، ولكن روى بعض المتأخرين في ذلك أحاديث ، مثل ما رووا أن : « من اكتحل يوم عاشوراء لم يرمد في ذلك العام » . و« من اغتسل يوم عاشوراء لم يمرض في ذلك العام . وأمثال ذلك » . ورووا فضائل صلاة يوم عاشوراء ، ورووا أن : « فى يوم عاشوراء توبة آدم ، واستواء سفينة نوح على الجودى . ورد يوسف على يعقوب . وإنجاء إبراهيم من النار ، وفداء الذبيح بالكبش » ، ونحو ذلك .

ورووا ذلك في حديث موضوع على النبى ﷺ ورووا أنه « من وسع على أهله يوم عاشوراء وسع اللَّه عليه سائر السنة » .

ورواية هذا عن النبى ﷺ كذب ، ولكنه معروف من رواية سفيان بن عيينة عن إبراهيم بن محمد المنتشر عن أبيه قال : بلغنا أن من وسع على أهله يوم عاشوراء وسع اللَّه عليه سائر السنة[1] .

وإبراهيم بن المنتشر من أهل الكوفة ، وأهل الكوفة كان فيهم طائفتان : طائفة رافضة يظهرون موالاة أهل البيت وهم في الباطن إما ملاحدة زنادقة ، وإما جهال وأصحاب هوى . وطائفة ناصبة تبغض عليًا وأصحابه لما جرى من القتال في الفتنة ما جرى ، وقد ثبت في صحيح مسلم[2] عن النبى ﷺ أنه قال : « سيكون في ثقيف كذاب ومبير » .

فكان الكذاب هو المختار بن أبي عبيد الثقفى ، وكان يظهر موالاة أهل البيت والانتصار لهم ، وقتل عبد اللَّه بن زياد الذي جهز السرية التي قتلت الحسين بن علي رضى اللَّه عنهما ، ثم إنه أظهر الكذب وادعى النبوة . وأما المبير فهو ابن

---

(١) ضعفه الألباني في مشكاة المصابيح (١٩٢٦) .

(٢) أخرجه مسلم (٢٥٤٥) من حديث ابن عمر رضي اللَّه عنهما .

يوسف الثقفي ، وكان منحرفًا عن على وأصحابه .. الحجاج .. فكان هذا من النواصب ، والأول من الروافض وهذا الرافضي كان أعظم كذبا وافتراء وإلحادا في الدين ، فإنه ادعى النبوة ، وذاك كان أعظم عقوبة لمن خرج على سلطانه ، وانتقاما لمن اتهم بمعصية أميره عبد الملك بن مروان ، وكان في الكوفة بين هؤلاء وهؤلاء فتن وقتال . فلما قتل الحسين بن على يوم عاشوراء ، وقتلته الفئة الباغية الظالمة ، وأكرم اللّٰه الحسين بالشهادة ، كما أكرم من أكرم من أهل بيته ، فأكرمه اللّٰه بهذه الشهادة التي لحق بها بأهل بيته الطيبين الطاهرين وأهان بها من ظلمه واعتدى عليه ، وأوجب ذلك شرا بين الناس ، فصارت طائفة جاهلة ظالمة ، إما ملحدة منافقة ، وإما ضالة غاوية ، تظهر موالاته وموالاة أهل بيته ، تتخذ يوم عاشوراء يوم مأتم وحزن ونياحة ، وتظهر فيه شعار الجاهلية ، من لطم الخدود وشق الجيوب والتعزى بعزاء الجاهلية . والذى أمر اللّٰه ورسوله به في المصيبة إذا كانت جديدة إنما هو الصبر والاحتساب والاسترجاع ، وإذا كان اللّٰه تعالى قد أمر بالصبر والاحتساب عند حدثان العهد بالمصيبة فكيف مع طول الزمان ؟ !

فكان ما زينه الشيطان لأهل الضلال والغى من اتخاذ يوم عاشوراء مأتما ، وما يصنعون فيه من الندب والنياحة ، وإنشاد قصائد الحزن ، ورواية الأخبار التي فيها كذب كثير ، والصدق منها ليس فيه إلا تجديد الحزن والغضب ، وإثارة الشحناء والحرب ، وإلقاء الفتن بين أهل الإسلام ، والتوسل بذلك إلى سب السابقين الأولين ، وكثرة الكذب والفتن في الدين .

ولم يعرف طوائف الإسلام أكثر كذبًا وفتنا ومعاونة لأهل الكفر على أهل الإسلام من هذه الطائفة الضالة الغاوية ، فإنهم شر من الخوارج المارقين الذين قال فيهم النبى ﷺ « يقتلون أهل الإسلام ويدعون أهل الأوثان »[1] .

(١) أخرجه البخاري (٣١٦٦، ٦٩٩٥) ، ومسلم (١٠٦٤) من حديث أبي سعيد الخدري رضي اللّٰه عنه .

وهؤلاء الرافضة يعاونون اليهود والنصارى على أهل بيت رسول الله ﷺ وأمته ، والمشركين ، كما أعانوا المشركين من الترك والتتار على ما فعلوه ببغداد وغيرها ، من القتل والسبى وخراب الديار . وشر هؤلاء وضررهم على أهل الإسلام لا يحصى . فعارض هؤلاء قوم ، إما من النواصب المتعصبين على الحسين وأهل بيته ، وإما من الجهال الذين قابلوا الفاسد بالفاسد والكذب بالكذب والشر بالشر والبدعة بالبدعة ، فوضعوا الآثار في شعائر الفرح والسرور يوم عاشوراء ، كالاكتحال والاختضاب وتوسيع النفقات على العيال ، وطبخ الأطعمة الخارجة عن العادة ، ونحو ذلك مما يفعل في الأعياد والمواسم ، فصار هؤلاء يتخذون يوم عاشوراء موسما كمواسم الأعياد والأفراح ، وأولئك يتخذونه مأتمًا يقيمون فيه الأحزان والأتراح . وكلا الطائفتين مخطئة خارجة عن السنة وإن كان أولئك أسوأ قصدًا ، وأعظم جهلًا ، وأظهر ظلمًا ، لكن الله يأمر بالعدل والإحسان . وقد قال النبى ﷺ : « إنه من يعش منكم بعدى فسيرى اختلافًا كثيرًا فعليكم بسنتى وسنة الخفاء الراشدين من بعدى ، تمسكوا بها وعضوا عليها بالنواجذ ، وإياكم ومحدثات الأمور ، فإن كل بدعة ضلالة »[1] [2] .

❁❁❁

(١) أخرجه أحمد ٤/ ١٢٦، وأبو داود (٤٦٠٧) ، والترمذي (٢٦٧٦) ، وابن ماجه (٤٣) من حديث العرباض بن سارية رضي الله عنه . وصححه الألباني .

(٢) إلى هنا انتهى كلام شيخ الإسلام ابن تيمية ، رحمه الله تعالى .

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

افتتاحية مجلة الإصلاح[١]

الحمد للَّه نستعينه ونستهديه ونستغفره ونعوذ باللَّه من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا ، من يهده اللَّه فلا مضل له ومن يضلل اللَّه فما له من هاد . وأشهد أن لا إله إلا اللَّه وحده لا شريك له ، ولا ند له ولا شبيه له ، الحي القيوم الذي لا تأخذه سنة ولا نوم ، وسع كرسيه السموات والأرض ولا يؤوده حفظهما وهو العلي العظيم ، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله وصفيّه وخليله وخيرته من خلقه وأمينه على وحيه والسفير بينه وبين عباده ، بعثه اللَّه بشريعة محكمة وملة حنيفية سهلة سمحة تضمن للناس ما يبتغون من عز الدنيا وسعادة الآخرة ، وأيده بالمعجزات الباهرة وأعظمها الحجة القائمة على ممر الدهور والعصور ، تلك هي الكتاب المبين الذي يهدي به اللَّه من اتبع رضوانه سبل السلام ويخرجهم من الظلمات إلى النور بإذنه ويهديهم إلى صراط مستقيم .

قام ﷺ بأعباء الرسالة خير قيام ، وبلغ الناس ما نزل إليهم من الآيات البينات ، ففتح اللَّه به أعينًا عميًا وآذانًا صمًّا وقلوبًا غلفًا ، وهدى به من الضلالة ، وبصّر به من العمى ، وأرشد به من الغي ، وصار الناس به في بحبوحة من السعادة والعز ورغد العيش وارفة الظلال دانية القطوف ، فصلى اللَّه عليه وعلى آله وصحبه وسلم ، صلاة وسلامًا يليقان بجميل معروفه ، ويتكافآن مع عظيم إحسانه ، وجزاه اللَّه عنا أحسن ما جوزي به نبي عن أمته ، ورضي اللَّه عن كل من أحيا سنته وسلك طريقه القويم .

وبعد : فإن الأيام قد تقلبت بالمسلمين تقلبات شتى ، وتطورت بهم حوادث

---

(١) مجلة الإصلاح - العدد الأول - ١٣٤٧/٢/١٥ هـ .

الزمان تطورات عكسية أدّت أخيرًا إلى ما نراهم عليه من تفكك الأوصال وانحلال القوى ، وانفصام عرى الوحدة ، وتهدم البناء الشامخ الذي أنفق السادة السالفون في تأسيسه وبنائه مهجهم وأرواحهم ، والذي كان موئلًا أمينًا للإسلام ، وحصنًا منيعًا للمسلمين من عاديات الأعداء وصولات المبغضين .

فأصبح المسلمون اليوم لقمة سائغة يلتهمها كل من أراد من دول الاستعمار ، ولقطة ملقاة على مفارق الطرق يلتقطها من يمر بها في طريقه إلى حياة الجد والعمل ، وأصبح الإسلام بعد تلك المهانة التي ضربت على المسلمين نطاقها غرضًا لسهام السفهاء والحمقى وأسافل الناس ، ونقد الأمم الذين لم يكن يجرأ سادتهم في العصر الأول أن يرفعوا أبصارهم إلى الإسلام ، بل إلى أقل واحد من عامة المسلمين .

أصبح أولئك السقط يعتلون منابر الخطابة في البلاد الإسلامية ، ويسددون من فوقها سهام الانتقاد والتجريح إلى دين الإسلام دين الفطرة ، دين العزة ، دين التوحيد ، دين الرقي والإصلاح ، دين الأخلاق الفاضلة والسجايا الكاملة ، دين تخليص البشر من العبودية لغير الواحد الأحد الذي لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوًا أحد ، ويتعرضون لكرامة نبي ذلك الدين (محمد بن عبد الله) الذي لم يطلع على الوجود أضوأ من شمسه ، ولم يحظ العالم بأكرم منه ، فضلًا وعلمًا وحلمًا ، وطهارة قلب ، ورأفة ورحمة بالناس .

ولا وربك ما أصيب المسلمون بتلك الكوارث المحطمة - التي أناخت عليهم بكلكلها حتى قصمت ظهورهم وألزمت أنوفهم الرّغام - إلا حينما استولى عليهم الجهل بشرائع الإسلام وآياته المنزلة شفاء لما في الصدور ، وفهمه على الوجه الذي يبعدهم عن بيان من قال اللّه له : ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [النحل: الآية ٤٤] .

وفي الواقع أن فهمهم هذا لا يتفق مع روح الإسلام وكمال شرائعه ، فبذلك الجهل وهذا الفهم الخاطئ عادت الجاهلية سيرتها الأولى ، ونصب شيطان الهوى والشرك شراكه فأوقع فيها بصائر وعقولًا أوثقها بوثاق العمى والضلال ، وقيدها بقيد الجبن والشهوات ، وأطعمها بسموم الأوهام والخرافات والقادة والرؤوس عن تخليص ذلك التراث الإسلامي من تلك الأغلال والقيود لاهون أو عاجزون . وكان كلما طال الأمد على ذلك اشتدت الظلمات ، حتى غمّت الناس فتن لم يسلم من شرها قائد ولا مقود ، وحتى ازداد في المسلمين طمع شياطين الجن والإنس ففتحوا أبوابًا جديدة من الكفر والفسوق ، أخذوا يزينون للناس ولوجها ويوهمونهم أن من وراء ذلك الثراء والمال الوفير ، واللذات المواتية وحظوظ النفس الحاضرة .

وكان من أحابيلهم في هذه الشباك أن سموا هذا الكفر والفسوق باسم الحضارة والمدنية ، والرقي والتقدم والعلم الجديد . ولا واللّه ما هو إلا الوحشية والهمجية والتأخر والتدلي إلى دركات الهلاك والشقاء المبين .

فالناس الآن ما بين غارق في حمأة الوثنية وخرافات الجاهلية ، يعد ذلك هو الدين الصحيح ، ويرى أن عقيدته لا تصلح إلا بأن يتخذ بينه وبين اللّه وسطاء وشفعاء يقربونه إلى اللّه زلفى ، ويقضون له الحوائج ، ويشفون مرضه وينيلونه غرضه ، من الصالحين الذين يبرؤون إلى اللّه من ذلك ، أو غيرهم ممن انحرف عن الطريق القويم ومال عن هدي خير المرسلين ، وكلهم لا يملكون لأنفسهم نفعًا ولا ضرًا ولا موتًا ولا حياة ولا نشورًا .

وما بين متغلغل في سعير الزندقة والإلحاد ، والفسوق والتمرد على شرائع اللّه ، والتعدي لحدوده .

والقليل هم الوسط الذين لم يميلوا مع المنحرفين ، ولم ينحرفوا إلى

المتزندقين، بل اتبعوا سبيل الله المستقيم، واستضاؤا بنور القرآن الكريم، واعتصموا بحبل سنة خير المرسلين. وما يعود بالمسلمين سيرتهم الأولى ويرجع إلى قلوبهم شجاعتها وغيرتها إلا تضافر أيدي أولئك النفر الوسط المهتدين، وجمع قواهم ونهوضهم إلى انتشال من فسدت عقائدهم بالخرافات، ومن اجتالتهم شياطين الزندقة والإلحاد، والعمل على إرجاعهم إلى دائرة الإسلام.

ولقد أصبح السبيل إلى ذلك غير ميسور على وجهه الأكمل الأتم إلا بواسطة الصحف التي تجوب الفيافي وتخترق الستور وتدخل على كل أمير وعظيم وكبير وصغير، فكان إنشاء الصحف السيارة الإسلامية الناطقة بلسان أولئك المصلحين في هذه الآونة أنجع الوسائل لمعالجة أمراض المسلمين الدينية والأخلاقية، وأقرب الطرق الموصلة إلى ما يبتغيه المخلصون للمسلمين من عز وسعادة.

ولطالما تمنت نفسي أن أصدر صحيفة دينية علمية تضم صوتها إلى صوت المصلحين، وتتعاون وإياهم على ما هم بسبيله من دعوة إلى الحق وإرشاد إلى الصلاح.

وإنه وإن كانت نهضة الإصلاح الإسلامي التي يقودها اليوم جماعة صالحة قيمة من الرجال المخلصين الذين عندهم من الغيرة ما يجعل الأمل في نجاحهم محققًا إن شاء الله تعالى، فإن اتساع دائرة الفساد وكثرة جيش المفسدين يدعو دائمًا إلى إمداد جيش الإصلاح بجنود وعتاد يقوى بهما على رد كيد أولئك المعتدين في نحورهم، ويجعل الظفر والعاقبة إن شاء الله لحزب الله العاملين، وإن جند الله لهم الغالبون.

ولقد أتيحت لي الفرصة في ليلة تشرفت فيها بمقابلة جلالة الإمام عبد العزيز بن عبد الرحمن آل سعود، أعز الله به الإسلام، ووفقه لإحياء سنة سيد المرسلين، تحدثت إلى جلالة الإمام في ذلك، وكشفت له عما يجيش صدري

من شأن هذه الصحيفة فأجاب أطال الله عمره :

« إن ذلك عمل قيّم ، والمسلمون في حاجة إليه ، ولكن يجب أن يكون خاليًا وبعيدًا عما تملكته أغلب الصحف المنتشرة من التحزب والتحيز والعصبية الجاهلية التي أدت في كثير من الأوقات إلى خصومات ومنازعات ثم إلى سباب وفسوق ثم إلى قطيعة وتشتت ، إن ذلك في الواقع هو أكبر عدو للإصلاح ، بل هو أشد المعاول هدمًا لجماعة المسلمين وإن هذه الأخلاق التي تملي مثل هذا وتبثه في الصحف السيارة سمومًا قتالة أشد فتكًا في المسلمين : أخلاقهم ودينهم ودنياهم من كل عدو آخر ، وإنه لا خير في الصحيفة ، ولا أرضى بها ، كما أنه لا ينبغي أن يرضى بها مخلص لدينه وأمته حتى يكون أساس عملها هو إخلاص الدين كله لله ، فلا تخضع القلوب ولا تذل ولا تحب ولا تتوكل ولا تلتجئ إلا إلى الله وحده ، وأن نقدم في سيرنا إلى الله إمامًا وهاديًا محمدًا ﷺ وكتاب الله تعالى ، لا نقدم بين أيديهما أحدًا كائنًا من كان ، وأن يكون السلف الصالح هم المثُل العليا والمصابيح المضيئة لنا سبيل ذلك . وأن أصدق الحديث كتاب الله ، وخير الهدي هدي محمد ﷺ وشر الأمور محدثاتها ، وكل بدعة ضلالة ، وأن المؤمنين أخوة ، نحب لهم ما نحب لأنفسنا من خيري الدنيا والآخرة ، ونكره لهم ما نكره لأنفسنا من معصية وفسوق وبعد عن طاعة الله ، وأن اللين ما كان في شيء إلا زانه ، وما كان العنف في شيء إلا شانه ، وأن أقوم السبل في الدعاء إلى الحق ما رسمه الله تعالى بقوله : ﴿ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ﴾ [النحل: الآية ١٢٥] ، وقوله لموسى وهارون : ﴿ٱذْهَبَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ۝٤٣ فَقُولَا لَهُۥ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ﴾ ، وأن نتحدث إلى الناس بما يعرفون ، حتى نمهد به للتحدث إلى ما نسوه من طول البعد عنه ، فإن ابن مسعود رضي الله عنه يقول : « ما أنت بمحدث قومًا حديثًا لا تدركه

عقولهم إلا كان ذلك فتنة عليهم » ، وأن مقادير الرجال إنما تظهر باتباعهم للحق ، فيستحقون الحمد والثناء وبذل المعونة ، أو اتباعهم للباطل فيستحقون النصح والتقويم ، وأن لا تتعرض الصحيفة للشئون السياسية العامة أو الخاصة ، وأن تتجنب كل ما يثير النزاع والخصومة بين المسلمين ، وأن يكون على الإجمال شعارها الاعتصام بما كان عليه رسول اللّٰه ﷺ من علم وأدب وأخلاق .

إذا سلكت الصحيفة هذه الطريق الحكيمة كان حقًّا على كل مخلص أن يقدم لها كل ما يقدر عليه من مساعدة مادية وأدبية ، وأنا أول المساعدين لها على ذلك » . اهـ .

فلما سمعت كلام جلالة الإمام وما فاه به أطال اللّٰه عمره من هذه الدرر الغالية والنصائح القيمة ، وما رسمه للصحيفة من الخطة العادلة المفلحة السديدة ، ودل بذلك على مقدار ما ينطوي عليه قلبه الطاهر من غيرة على الإسلام وأهله ، وما يحب لهم وله من صلاح وعزة : خالجني من السرور ما كاد يطير بي ، بل قد طار بي في جو المستقبل السعيد المشرق بنور الأمل المؤيد بتوفيق اللّٰه ، خصوصًا وأنها سيكون مركزها في هذا البلد الأمين الذي هو أشرف بلاد الأرض ، وأولاها بأن يصدر عنه هذا الصوت الذي أرجو أن يصل إلى أذن كل مسلم فيصغي له ويلبيه ، وأن من أول أغراض الصحيفة وأجلها أن تقدم كل ما تستطيعه من خدمة ونصح وإرشاد لهذا البلد الأمين وأهله في شؤونهم الدينية والاجتماعية والأخلاقية ، وأن تكون أحسن سبب لوصل أهل هذا البلد بإخوانهم المسلمين في مشارق الأرض ومغاربها ، وأن تزيل ما لعله يحدث من أثر سوء أخلاق النفر النزر الذين لا يخلو منهم مجتمع ، وما يوقعونه من فتنة القطيعة بين الأخوة المسلمين .

ثم بعد أن تفي هذا البلد حقه من النصح والإرشاد تعطف على بقية الجزيرة

العربية مهد الإسلام ومبعث نوره ، ثم إلى بقية البلدان الإسلامية على قدر ما تملك من مجهود ، وهي بعد شديدة الحاجة إلى مد يد المعونة والمساعدة من الأفاضل الغيورين ، ورجال العصر المصلحين من دعاة النهضة الإسلامية وبناة صرحها ، وهم بحمد اللَّه كثير في الحجاز ونجد والهند ومصر والشام والعراق والمغرب وغيرها من بقية البلدان الإسلامية ، وإن للصحيفة الأمل الأكبر فيما يؤدون لها من معونة وما يقومون به نحوها من مساعدة ، بارك اللَّه فيهم ووفقنا وإياهم لما يحب ويرضى ، وسددنا جميعًا في القول والعمل ، وحفظنا من شر أنفسنا ومن شر الشيطان الرجيم ، وآخر دعوانا أن الحمد للَّه رب العالمين .

❁ ❁ ❁

غذاء القلوب والأجسام
على مائدة جلالة الإمام[1]

إن الملك إذا خالط رعيته بنفسه ومازجها بروحه كان ذلك أقوى ما يدعو إلى دوام ملكه وطول عهده، فليس بقاء الملك ولا عظم الدولة بكثرة الجيوش أو بقوة بأس الملك وعظيم بطشه وجبروته، وإنما يعتز جانب الملك وتتسع رقعة الدولة ويعلو ذكرها ويرتفع شأنها بحكمة الجالس على عرشها ورحمة القابض على صولجانها، فإنه بالحكمة يخالطهم مخالطة يستقى منها أخبار دولته من مورد لم تعكره الوشايات والسعايات، ولم يكدره سوء الأداء من بعض المخبرين الذين قد يريدون الخير فتعيا ألسنتهم عن بسطه على وجهه في حضرة الملك، فيزلون زلات، كم أودت بأرواح وأموال، والملك لا شك شريك، وإن كان غير مباشر في هذه الجريمة بسلوكه إلى أخبار دولته، ذلك الطريق الوعر الكثير المهالك والأخطار، وما يكون ذلك إلا عن ضعف في عقلية الملك وسوء تدبير في سياسته. ولطالما كان أمثال هذا سريعي التدهور عن عروشهم، وفي الغالب فريسة للثائرين على هذه السياسة الغاشمة.

وبرحمة الملك وحكمته ينقد هذه الأخبار نقد الوالد والأخ والولد، ويذهب بها إلى نتائجها في رحمة بعيدة عن الضعف، حتى لا تكون عجزًا وخورًا، وقوة بعيدة عن الهوى، حتى لا تكون جبروتًا أو ظلمًا، فيعطى من يؤدبه العطاء، ويضرب من لا تقومه إلا العصا.

وإنك إذا نظرت إلى أمير الملوك وملك الأمراء (عمر بن الخطاب) رضى الله عنه وما كان يسلك في القبض على أزمة القلوب والنواصى بحكمته الرحيمة

---

(١) مجلة الإصلاح - العدد الأول - ١٣٤٧/٢/١٥ هـ.

ورحمته الحكيمة لما عجبت مما فتح اللّٰه على عهده من الفتوح وما بسطه اللّٰه على يده للإسلام من دولة ، وكذلك فلتكن الملوك التي تعطى الملك حقه وتقدره قدره وتعرف له خطره ، فتقي أنفسها ورعيتها من شره ويكونون جميعًا بذلك الملك من الفائزين .

ولقد ارتسم الإمام (عبدالعزيز آل السعود) هذه الخطة السديدة ونهج برعيته هذا المنهج القويم ، فهو يضع نفسه من الرحمة بمنزلة الولد من شيخهم والأخ من كهلهم والوالد من صغيرهم ، ومن الحكمة بمنزلة الطبيب الذي لا يألو جهدًا في شفاء مريضه ، فمرة يعالجه بالدواء ، ومرة يعالجه بالدعاء ، ومرة يغلظ له القول ، وأخرى يتقدم إليه بالاستعطاف والرجاء .

فبالأمس أولم وليمة فاخرة بمناسبة قرب انتقاله - حفظه اللّٰه وكلأه في حله وترحاله - إلى الطائف دعا إليها أهل العلم والقائمين بالأمر من رجال الدين ، فاجتمع على المائدة رجال هيئة القضاء من قضاة ومراقبين ، وهيئة التدريس في الحرم من مراقبين ومدرسين ، وهيئة المعارف من مديرها ومساعديه ، وهيئة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، وفضلاء كثيرون من أهل العلم والدين في مكة من عاكف بها وباد . أخذ يحييهم جلالة الإمام بتحية ما أحلاها وأبركها من تحية ، تحية كانت واللّٰه في النفوس ألذ وأشهى وأطيب ألف مرة مما حوته تلك المائدة من شهى الطعام وحلو الفاكهة وطيب الثمار .

وكيف لا تكون كذلك ؟ وهى موعظة دينية قيمة ، حوت من درر القول وصادقه ما كان يقع على قلوب السامعين وقع الأمطار النافعة على أجادب الأرض الطيبة التربة التي لا يمنعها من إخراج الثمرات إلا حرمانها من تلك الأمطار .

قال أطال اللّٰه عمره - وقد نظر إلى ما قد وضع أمام كل طاعم من ملعقة وشوكة وسكين وما صنف من أطباق الطعام والحلوى والفاكهة على أحدث نظام

في الموائد – إننا لا نعرف في نجد هذه المدنية .... المدنية ....[1] والله إني لا أحب هذه الكلمة ، كلمة المدنية ؛ لأنهم يستعملونها الآن في غير حقيقتها ويضعونها في غير موضعها ، ويريدون منها ما ألفته نفوسهم من لهو وفساد ، وما أوقعهم فيه الشيطان من معاصي وفسوق ، خابوا وخسروا ما هذه والله بمدنية ، ما هي إلا وحشية وهمجية ، بل لو كان هناك شر من الهمجية والوحشية لكانت هذه المفاسد والشرور التي يسمونها كذبًا وزورًا مدنية ، أليس هذا بصحيح ؟

نعم ، هو الصحيح طول الله عمرك .

المدنية[2] الحقة والرفاهية الصحيحة ، هي مدنية الإسلام ورفاهيته هي شرائع الإسلام وأحكامه ، تلك الشرائع التي طهرت الأخلاق من شراستها والطباع من غلظتها والنفوس من عصيانها وتمردها وكفرانها بنعماء الله الكريم الوهاب . المدنية هي هداية القرآن التي خلصت قلوب البشر من قيود الذل والعبودية لغير الله الذي خلقها وبرأها ، هي نور الإيمان الذي شرح الصدور ورفع الإنسان إلى درجة العزة بإخلاصه الدين كله لله ، ذاق طعم هذه المدنية وهدي إلى طيبها من أخلص قلبه بالإيمان الصحيح وأنار بصيرته بنور العلم النافع ، علم كتاب الله وسنة رسول الله ﷺ وإنما يتحقق ذلك لمن حقق (لا إله إلا الله) علما وعملا وحبا وموالاة وكرها ومعاداة . (لا إله) نفت كل تأليه وذل وخضوع وتوكل وإنابة ودعاء لغير الله (إلا الله) أثبتت ذلك كله بجميع معانيه وحقائقه خالصًا لله وحده (محمد رسول الله) هو الذي بعثه الله يعلمنا كيف نحقق معاني (لا إله إلا الله) ونقوم بما أوجبت علينا من عبادة لربنا على الوجه الذي يحبه الله ويرضاه ، البعيد عن تفريط

(١) الكلام غير واضح في الأصل .

(٢) ما زال الكلام للإمام عبد العزيز رحمه الله تعالى .

اليهود المغضوب عليهم ، وإفراط وغلو النصارى الضالين .

وكيف يكون مؤمنا بـ(لا إله إلا الله) على تلك الحقيقة وهذا الوجه من يخضع لغير اللّه ويذل له ويتوكل عليه وينيب إليه ، ويدعو عبادا من الأحياء أو الأموات لا يملكون لأنفسهم نفعا ولا ضرا ولا موتا ولا حياة ولا نشورًا ؟

كيف يكون مؤمنًا بـ(لا إله إلا الله) من لا يعرف له في الشدائد ملجأ إلا حمزة والعباس ، والجيلانى والبدوى وغيرهم ممن أصبحت كل البلدان الإسلامية إلا ما شاء اللّه محشوة أزقتها وحاراتها ومحال عبادتها بما لا يحصى ولا يعد من قبورهم بل أوثانهم ؟

كيف يكون مؤمنًا بـ(لا إله إلا الله) من اتخذ إلهه هواه فاتخذ له طريقا من هذه الطرق المبتدعة الضالة : دندراويا أو رفاعيا أو رشيديا أو بنائينا أو مرغنيًا أو بيوميًا أو غير ذلك مما عمت به البلوى ، وأخذ على الناس كل سبيل وذهب بهم كل مذهب ؟ وما أعمالهم التي يسمونها زورًا وكذبًا ذكرًا إلا نبحًا كنبح الكلاب ونهيقًا كنهيق الحمير ، ورقصًا كرقص السكارى والنساء الفاسدات ، لا حول ولا قوة إلا باللّه .

واللّه يا إخواني إن المصيبة عظيمة ، وإني واللّه ليتفطر قلبى شفقة على أولئك المساكين ، وأود واللّه لو أن يهدى اللّه هؤلاء ثم أكون بعد ذلك وأولادي وكل من يلوذ بي ترابًا ؛ ثمنًا لهداية هؤلاء ورجوعهم إلى الصراط المستقيم ، مساكين واللّه يا إخوانى هؤلاء يزعمون بشركهم أنهم يحبون حمزة والعباس وغيرهما من الصالحين !! فهل المحب يفعل ما يكرهه ويتبرأ منه حبيبه ؟ ! هل يحب حمزة وعلي والعباس وغيرهم أن يدعوا من دون اللّه ؟ ! وأن يشركوا مع اللّه في هذه العبادات ؟ ! إذن فلماذا كانوا يحاربون ؟ ! وعلى أى شيء كانوا يقاتلون مع رسول اللّه ﷺ ؟ ! ما الذي من أجله قتل حمزة وبقر بطنه ومثل به ؟ أليس هو ما كان

يدعوا إليه من إخلاص الدين لله عبادة ودعاء ونذرًا وتوكلًا ؟ ! ويأبى المشركون إلا أن يتخذوا اللات والعزى وكل عبد صالح آلهة يسمونهم شفعاء ووسائط بينهم وبين الله .

فما مثل من يفعل ذلك بالحمزة رضي الله عنه بعد ذلك إلا مثل النصارى الذين عبدوا الخشبة التي يزعمون أن عيسى صلوات الله وسلامه عليه صلب عليها . هذا صدق أم لا ؟

نعم صدق يا طويل العمر بارك الله فيك .

مساكين والله هؤلاء الذين سلكوا هذه الطرق ، وفتنوا بما فيها من أحزاب وأوراد ملؤها الخرافات والشرك ، وقليل جدًّا ما فيها من بعض آيات موضوعة في غير ما يليق بها ، مستعملة على غير وجهها ، ضاعات بهجتها وذهبت حكمتها في متلاطم ما حولها من الأكاذيب والترهات .

خبروني هل عندهم على هذه الطرق من دليل في كتاب الله أو سنة رسوله ﷺ أو عمل أحد من الصحابة أو أحد من التابعين أو أحد من الأئمة ؟ !

واللهِ وباللهِ وتاللهِ إذا كان لشيء مما عليه أولئك من دليل من هذه الأدلة فهو والله على رأسي ، وأنا ضمين أن يكون على رأس جماعتي من أهل نجد وغيرهم من المؤمنين الموحدين ، ولا والله ما نتبع آباءنا ولا أجدادنا ولا شيوخنا ولا نتبع إلا الدليل ونحن محبون لكل قول معه دليل ، بل والله نقدم كل شكر لمن يقدم لنا دليلا أو ينبهنا على عمل صحيح نحن مخالفون له ، وأن هذا هو الحبيب الصادق .

يا أهل مكة ويا إخواننا من المؤمنين . إننا لا نريدها عصبية جاهلية وإنما نريدها طريقة محمدية لا تقوم إلا بالبرهان الصادق ولا تعتمد إلا على الدليل الصحيح ، فمن أرادها غير ذلك من أجل ما كان عليه آباؤه وأجداده ومشائخه

فنحن والله له أعداء وأنا منه ومن عمله براء وأسوتنا في ذلك ﴿إِبْرَٰهِيمَ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ إِذْ قَالُواْ لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَءَٰٓؤُاْ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةُ وَٱلْبَغْضَآءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤْمِنُواْ بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥٓ﴾ [الممتحنة: الآية ٤] فترون أنهم قد تبرؤا من العابد قبل المعبود من دون الله لأنه كثيرا ما يكون المعبود بريئا من جريمة أولئك للمشركين الذين أشركوا مع الله في عبادتهم قال الله تعالى: ﴿قُلِ ٱدْعُواْ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِهِۦ فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ ٱلضُّرِّ عَنكُمْ وَلَا تَحْوِيلًا ۝٥٦ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُۥ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُۥٓ﴾، وقال جل شأنه: ﴿وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ﴾ [فاطر: الآية ١٤]، وقال أيضًا: ﴿وَإِذَا حُشِرَ ٱلنَّاسُ كَانُواْ لَهُمْ أَعْدَآءً وَكَانُواْ بِعِبَادَتِهِمْ كَٰفِرِينَ﴾ [الأحقاف: الآية ٦].

ونحن يا إخواننا والله ما نريد علوا في الأرض ولا ملكا نعتز به للدنيا، وما نريد من هذا الملك إلا أن نتخذه سلما نرقى به إلى خدمة دين الله، وإحياء ما اندرس من معالمه، وحمل الناس على التمسك به وسلوك طريقه القويم.

إننا إذا خاطبناكم بمثل هذا فليس أملنا من ذلك أن يقف الكلام على عددكم هذا فقط وإنما نأمل فيكم - وأملنا محقق إن شاء الله - أن يصل بواسطتكم إلى كل الطبقات الأخرى التي لا يتيسر لنا الاجتماع بهم فأنتم رسلنا إليهم، نعاهدكم أن تبلغوهم عنا ذلك وتعظوهم به بعد أن تكونوا قد وعظتم أنفسكم، وما قصدت من ذلك والله إلا أن تكونوا شركاء فيما أعد الله لعباده المجاهدين في سبيله الداعين إلى طاعته من الأجر والثواب، وإني والله لأحب إليكم ما أحب لنفسي من ذلك، ولا أحب أن تتهاونوا في هذا الأمر الذي أملي عظيم في أن الله سيتمه ويرفع نوره ولو كره المشركون.

فاحذروا أن يفلت من يدكم إلى يد غيركم، وأن تخرجوا من ثوابه بصفقة

المغبون فإنكم عند ذلك تكونوا من النادمين حين لا ينفع الندم .

إن المؤمن العاقل يعرف قدر النعمة فيقوم بواجب الشكر عليها ، والفاسق الجاهل هو الذي يحقر من قدر النعمة حتى يتلاشى أثرها من نفسه ، فلا يكون ثم وازع يزعه لأداء ذلك الشكر ، وإننا والحمد للّه قد جئناكم بأعمال ترضى ربكم وتقر أعينكم ، وسلكنا بكم طريقا يكفل سعادتكم في الأولى والآخرة ما تعرضت لأموالكم بنهب واغتصاب ، ولا لأعراضكم بإساءة وانتهاك ، حاشا بل نحن حرب على من يريد بكم شيئا من ذلك ، أحببنا فيكم عمل السلف الصالح ، وبذلك طهرنا هذا البلد المقدس مما كان بثورا وقروحا في وجه الدين الحنيف .

تذكرون ما كان في مكة من أعمال باطلة وعقائد فاسدة ، تذكرون ذلك الحجر الأحمر الذي كان بجوار الكعبة في المكان الذي يسمى بالمعجنة والذى كان الناس يلحسونه ! ماذا كان في هذا الحجر من دسم أو دهن أو حلوى أو غيرها يلحسونها ؟! لم يكن شيء من ذلك ، اللهم إلا الجهل وفساد العقيدة . تذكرون ما كان يفعل الناس إذا ولد لهم مولود فيجيئون به ويضعونه على عتبة باب الكعبة ، يزعمون بذلك أنه يكون حشو الجنة وحرامًا على النار ، من أين لهم هذا ؟ ! ما هو إلا من تغريرات الذين كانوا لا يعقلون .

تذكرون ما كانت عليه هذه البلاد من جاهلية جهلاء وأمية عمياء ، وما من يد تد إلا لابتزاز الأموال واغتصاب الحقوق وانتهاك الحرمات ، هل من نسبة بين ذلك وبين حركة التعليم القائمة الآن على ساق وقدم ، والتى ترجو الأمة من ورائها الخير والفلاح إن شاء اللّه ؟

تذكرون كل ذلك ... وتذكرون الاستبداد والضغط اللذين كانا يسودان حكومات الحجاز السابقة ؟

ومثال ذلك أن أهل نجد قدموا في سنة من السنين حجاجًا فأمروا بأن

يخفضوا أصواتهم بالتلبية ، وعندما مروا على بيت الحسين القريب من الحرم هالتهم أصوات الطبول والزمور فلم يتمالك غلام منهم نفسه أن قال : واللّه هذا عجيب !! أننهى عن رفع أصواتنا بذكر اللّه في بلد اللّه في حين ترتفع فيها أصوات الطبول والمزامير ؟ ! واللّه إن هذا من أنكر المنكرات .

تذكرون هذا .. وما كان ينفثه أعداء الإسلام والعرب من روح الشقاق والعداوة بين الأخوين الحجازي والنجدي ، ووصف كل واحد منهما بما هو منه برئ ، سعيًا وراء الشهوات الشخصية ، وها قد زال ذلك والحمد للّه فأصبحتم بنعمة اللّه إخوانًا .

فاشكروا يا أهل مكة نعمة اللّه عليكم ، وكونوا عونًا لنا على البر والتقوى ، وانصحوا للّه بطاعته واتباع كتابه ، ولرسوله ﷺ بإحياء سنته ، ولأئمة المسلمين بإرشادهم إلى ما فيه صلاح البلاد والعباد ، ومعاونتهم على ذلك ، وإرجاعهم إذا حادوا إلى الطريق القويم ، وهدايتهم إلى الصراط المستقيم ، ولعامة المسلمين بوعظهم وبيان شرائع الإسلام لهم ، وإقامة دين اللّه تعالى بين أظهرهم وإلا تفعلوه تكن فتنة في الأرض وفساد كبير عاهدوني على أن تطيعوني وتعينوني إذا أطعت اللّه ورسوله ، وتنصحونى وتردونى وتبينوا لي إذا عصيت اللّه ورسوله . عاهدوني على أن تطهروا قلوبكم مما يوسوس به الشيطان من النفاق والمراءاة والخداع ، وأن تكون ظواهركم حاكية عما في بواطنكم ، فإني واللّه لا أخيف واحدا منكم ولا من غيركم يجيئني بحق ، بل واللّه إني أعظمه وأجله ويكون هو الحبيب الصدوق .

عاهدناك على ذلك يا طويل العمر .

أنا واللّه أنصح لكم من قلبي واللّه شهيد على ما أقول ، فأسألكم باللّه أن تنصحوا لي ولحكومتي من قلوبكم ، ولا تخشوا في كلمة الحق لومة لائم أبدًا ،

والله لم يبق لكم عذر، ولم تعد لكم حجة إذا أنتم قصرتم في القيام بما أخذ الله عليكم من عهد وميثاق حيث يقول وهو أصدق قائل: ﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ لَتُبَيِّنُنَّهُۥ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُۥ﴾ [آل عِمرَان: الآية ١٨٧].

هذا بابي مفتوح لأصغر واحد فيكم لا يمنعه عني جند ولا يحول دونه حجاب. بلى والله إني لا أتخذ دونكم حجابًا، ولن يفلح راع اتخذ دون رعيته حجابًا يمنع الفقير والضعيف أن يصل إليه ويشكوا إليه حاجته.

كونوا عونًا لي بارك الله فيكم على النهوض بهذه البلاد المقدسة؛ لنعيد لها سالف مجدها الإسلامي وتكون محط رحال العلم وموئل أهل الفضل من علماء المسلمين.

بارك الله فيكم ووفقني وإياكم لما يحب ويرضى من القول والعمل، وصلى الله على محمد وعلى آله وصحبه وسلم».

تلك هي خلاصة الحكم البالغة التي غذى بها جلالة الإمام أرواح ضيوفه والدرر الغالية التي طوق بها أعناق من يستمعون القول فيتبعون أحسنه.

وخليق بأهل مكة بعد ذلك القول الذي خرج به جلالة الإمام من العهدة أن يقوموا لبلادهم بواجب النصح، وأن يتعاونوا معه ومع حكومته بقلب صادق ونية صالحة، عسى الله أن يأتى بالفتح العظيم الإسلامى على يد هذه الفئة الإسلامية التي كان لآبائها قديما ذلك الشرف الذي ليس بعده من شرف.

وأسأل الله أن يبارك لهذه الأمة في جلالة الإمام، وأن يطيل عمره موفقا للقيام بما يرضي ربه من إعلاء شأن الإسلام وإحياء هدى خير الأنام، وأن يهيء له بطانة صالحة تكون خير عون له على تحقيق آمال المسلمين في هذه البلاد المقدسة وغيرها إنه سميع مجيب.

❁❁❁

جمعية الشبان المسلمين(١)

لطالما ابتلي المسلمون في أموالهم وأنفسهم وسمعوا من الذين أوتوا الكتاب من قبلهم ومن الذين أشركوا أذى كثيرًا ، ولكن ذلك لم يكن في عصر من العصور بأشد منه في هذا العصر الذي تحالفت فيه على الإسلام وأهله جيوش من الأعداء لا يكاد يحصيها العد وأجلبت عليه بخيلها ورجلها حتى ظنت أنها سدت عليه كل السبل وأخذت منه بالخناق ، ولم يبق لها إلا جولة واحدة حتى تدور الدائرة ويكون الإسلام في خبر الغابرين ، ولكن كم كانت حسرة هذه الجيوش الخاسرة حين علمت أن تلك الحملات المتتابعة والهجمات المتوالية لم يصب المسلمين منها إلا وخزات أيقظتهم من نومهم ، ونبهتهم من غفلتهم ، وأشعلت في قلوبهم نار الحمية والغيرة ، فهبوا كالليوث الكواسر ، يذودون عن بيضة الإسلام ويحمون حماه وقد امتشقوا سيف الإخلاص ، وادرعوا دروع الصبر ، وتحصنوا بالعلم النافع والعمل الصالح ، ولتكونن لهم الغلبة ولدينهم العزة ، ﴿وَلَيَنصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ [الحج: الآية ٤٠] .

لقد كان شر ما يطمع أولئك الأعداء الخاسرين في المسلمين ، ما كان غالبا عليهم من تفرق الكلمة وتمزق الوحدة ، والآن وقد عرفوا من أين يؤكلون ووضعوا أيديهم على الداء الذي هد من قواهم وأضعف بأسهم ، وعلموا أنه هو التفرق والتحزب فيما بينهم ، ها هم قاموا قومة صادقة لعلاج ذلك الداء الذي أصبح شفاؤه قريب المنال بمشيئة اللّه تعالى ومعونته ثم بحسن الصبر وقوة العزيمة وتضافر الأساتذة والطبيبين .

قاموا يعالجون ذلك الداء داء الفرقة بتأليف الجماعات التي تضم تحت لوائها

---

(١) مجلة الإصلاح - العدد الثاني - ١٣٤٧/٣/١٥ هـ .

من رجال المستقبل من هم ذخيرة الأمة وعدتها ، فتعقد بينهم صلة التعارف الذي هو أدى الأمور إلى التحابب ثم التعاون على البر والتقوى : قال ﷺ : « لا تدخلون الجنة حتى تؤمنوا ولا تؤمنوا حتى تحابوا ألا أدلكم على شيء إذا فعلتموه تحاببتم أفشوا السلام بينكم »(١) .

ففي جاوه قام جماعة من أهل الغيرة بمساعدة الشيخ أحمد السركتى بتأليف جمعية الشبان المسلمين بعد ما ألفوا في نواحى قطر جاوه وغيرها جمعيات تتفق جميعها في أن الغاية منها تثقيف العقول وتهذيب الأخلاق وإثارة ما هو كامن في النفوس من غيرة وحمية .

وكذلك في مصر قام جماعة من خيرة رجالها وخلاصة أبناء الإسلام فيها خبرة وإخلاصًا وغيرة فألفوا جمعية الشبان المسلمين ، ولقد كان لخبرتهم وإخلاصهم وغيرتهم أحسن أثر في إظهار الجمعية بالمظهر الذي أخزى أعداء الإسلام وكبت خصومه ، وجعل شبان المسلمين يتهافتون على الانضواء تحت لواء الجمعية ، فما كادت تقطع نصف العام من عمرها الطويل إن شاء اللّه حتى شغلت في القطر المصري أعظم وأجل مكانة أدبية ، علمية ، أخلاقية ، وأصبحت تضم بين أعضائها خلاصة العقول الناضجة ، والنفوس الطاهرة ، والأيدي العاملة في الديار المصرية ، وعلى رأسهم رجل الهمة والغيرة الأستاذ عبدالحميد سعيد بك ، ولناديها الذي يشغل في أرقى نقطة من القاهرة قصرا فخما فسيح الأرجاء أوضح أثر في تهذيب الأخلاق وترقية العقول بما يلقي فيه كل ليلة تقريبًا من المحاضرات الدينية العلمية الأخلاقية التي يقوم بها أكفاء الرجال في مصر مثل الأستاذ العظيم الشيخ عبدالعزيز جاويش ، وفضيلة الأستاذ الشيخ محمد الخضر حسين ، وغيرهما من أبناء الإسلام البررة ، وفى النادى فوق هذا مسجد يؤذن فيه

(١) أخرجه مسلم (٥٤) من حديث أبي هريرة رضي اللّه عنه .

لكل صلاة وتقام فيه الجماعة في أغلب الصلوات ، وبه أيضا مكتبة حوت من نفائس الكتب النافعة في تثقيف الشباب ما تفضل بإهدائه المخلصون في الديار المصرية . وللشيخ عبدالرحمن القصيبي - ذى المبرات الكثيرة - في هذه المكتبة أثر يذكر .

وكذلك دبت هذه الروح الحية في الهند والشام وغيرهما من كثير من البلدان الإسلامية ، وأسسوا هذه النوادي التي تجمع شباب المسلمين لتقيهم من شر المتربصين بهم الدوائر ، وتخلصهم من مخالب الذين نصبوا شباكهم لاقتناص أولئك المساكين .

تلك نهضة مباركة وحركة ستجني الأمة الإسلامية طيب ثمارها ، ولكن كنا نود ويود كل مسلم أن يكون صوت هذه النهضة منبعثًا من قلب جزيرة العرب الذي هو مبعث الإسلام ، ومهبط الوحي على خير الأنبياء ، ومنبع الماء العذب الذي غذى قلوب المخلصين في جاوه ومصر والهند وغيرها ، حتى نهضوا هذه النهضة وأخذوا على عواتقهم القيام بذلك العمل القيم الجليل .

ولكن الوقت والحمد لله لا يزال متسعًا ، ولا تزال الفرصة سانحة لأبناء الحجاز الذين إليهم تتطلع الأعين من كل فج ، والذين تناديهم الأصوات من كل صوب ، أن قوموا وضموا صفوفكم إلى صفوف المجاهدين وضعوا أيديكم في أيدي العاملين ، وخذوا نصيبكم من ذلك العبء الذي كان آباؤكم الأولون هم حملته والقائمون به وحدهم .

ولئن فاتكم أن تكونوا قدوة بالسبق إلى هذه النهضة المباركة فلن يفوتكم إن شاء الله أن تكونوا من الذين قالوا : ﴿رَبَّنَآ إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِى لِلْإِيمَـٰنِ أَنْ ءَامِنُوا۟ بِرَبِّكُمْ فَـَٔامَنَّا﴾ [آل عِمرَان: الآية ١٩٣] . والله الموفق والهادي إلى سبيل الرشاد .

«خطبة مدير صحيفة الإصلاح»(١)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله الأكرم، الذي علم بالقلم، علم الإنسان ما لم يعلم. والصلاة والسلام على محمد أفضل من أوتى الحكمة وفصل الخطاب، وأوضح من معالم الهدى وسبل الخير ما قدره حق قدره ذوو العقول السليمة وأولوا الألباب. وعلى آله وصحبه ومن تبعه بإحسان إلى يوم الدين.

أما بعد: فإنه ليس من أمة تنال من السعادة والعزة قسطًا، وتؤتى من القوة والتمكين في الأرض والبسطة في الملك حظًا، إلا على قدر ما تهدى إليه من العلم الذي ينير لها سبل الحياة، ويكشف عن مواقع خطرها، فتتجنب مواقع الزلل، وتنجو من العثرات، والله تعالى يقول وقوله الحق: ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِى الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُوا الْأَلْبَٰبِ﴾ [الزُّمَر: الآية ٩].

ولذا كان من أجلِّ فضل الله على عباده وأمنِّ نعمه على خلقه أن بعث فيهم من أنفسهم أنبياء، يفجر الله على ألسنتهم من ينابيع العلم والحكمة ما صفا مورده وعذب شرابه، فتحيا به قلوب طال عليها أمد الجهل والغفلة، وتستقيم على الطريق الأقوم بعد أن التوت عليها المقاصد وأعوجت أمامها الطرق بما ذاقت من عذاب الجهل الذي أوكسها في مهامه الغى، وأبلسها في مهلكات الضلال والذل والانحلال.

ولقد كانت عناية خاتم الأنبياء، وسيد المرشدين محمد ﷺ بتثقيف قومه

(١) مجلة الإصلاح - العدد التاسع والعاشر - ١٣٤٧/٧/١٥هـ.
وهذه الخطبة ألقاها الشيخ محمد حامد الفقي - رحمه الله - حين زيارة الملك فيصل - رحمه الله - للمعهد السعودي في يوم السبت ١٣٤٧/٧/٣هـ.

وإنارة بصائرهم بنور المعارف والعلوم بالغة أقصى النهاية ، لِمَا رأى ﷺ ما كانت عليه الأمة العربية قبل الرسالة - وقت ما كانت محرومة من العلم - من تفكك وتفرق وضعف في القوة ، وقلة في أسباب الحياة ، وضيق في المعيشة ، ولذلك ما كان ﷺ ولا أصحابه وخلفاؤه رضى اللَّه عنهم -خوفًا على العرب من الشقوة الأولى - يشغلهم عن نشر العلم وإحياء القلوب شاغل ، ولا يقف في سبيلهم دونه عائق .

يدلنا على ذلك كثرة الآيات الواردة في القرآن الكريم والأحاديث الصحيحة في الترغيب في العلم والحض عليه . فمن ذلك ما رواه معاذ بن جبل رضى اللَّه عنه قال : قال رسول اللَّه ﷺ : « تعلموا العلم ، فإن تعليم العلم صدقة ، وبذله لأهله قربة ، لأنه معالم الحلال والحرام ، ومنار سبل أهل الجنة ، وهو الأنس في الوحشة ، والصاحب في الغربة ، والمحدث في الخلوة ، والدليل على السراء والضراء ، والسلاح على الأعداء ، والزين عند الأخلاء يرفع اللَّه به أقوامًا فيجعلهم في الخير قادة وأئمة ، تقتص آثارهم ، ويقتدى بفعالهم ، وينتهى إلى رأيهم ، ترغب الملائكة في خدمتهم ، وبأجنحتها تمسحهم ، يستغفر لهم كل رطب ويابس وحيتان البحر وهوامه ، وسباع البر وأنعامه ؛ لأن العلم حياة القلوب من الجهل ، ومصابيح الأبصار من الظلم . يبلغ العبد بالعلم منازل الأخيار ، والدرجات العلى في الدنيا والآخرة ، التفكر فيه يعدل الصيام ، ومدارسته تعدل القيام ، به توصل الأرحام ، وبه يعرف الحلال والحرام ؛ هو إمام العلم والعمل تابعه ، ويلهمه السعداء ويحرمه الأشقياء »[(١)] .

وبتلك الثقافة الإسلامية العالمية التي كان معلمها الأعظم محمدًا ﷺ .

---

(١) أخرجه ابن عبد البر في جامع بيان العلم وفضله ١/ ٥٤، ٥٥، وقال ابن عبد البر عقبه : ليس له إسناد قوي . وقال الألباني في السلسلة الضعيفة (٥٢٩٣) : موضوع . ولا يصح موقوفًا أيضًا .

وتلاميذه من اختارهم اللّٰه لصحبته واصطفاهم لإنبات شجرة العلم المباركة ، ارتقت الأمة العربية فبلغت من أسباب القوة العقلية والمنفعة المادية ، والغنى والثراء ، وإشراق شموس العلوم والمعارف ، ما كان أقوى عنصر وأنفع غذاء في إحياء الناس أجمعين بما اقتبسوا من نورها واقتطفوه من ثمارها ، ولكن - وللّٰه الأمر - قد نكصت الأمم الإسلامية على أعقابها ، فعادت في الجهل سيرتها الأولى ، فحقت عليها كلمة الفرقة فالذلة ، وما كان ربك ليهلك القرى بظلم وأهلها مصلحون .

وإن مما خص اللّٰه به هذه الأمة - تفضلًا منه وكرمًا - أن يبعث فيها كل حين من يجدد لها أمر دينها ، ويرفع لها مصباح نبيها ، ويحيي ما اندرس من معالم شرعها ، فيوقظ الهمم النائمة ، ويبعث القلوب الميتة بما يشرع من موارد العلم ، ويبذل من المعروف في ذات نفسه ويده لأهله وطلابه ؛ مجدد هذا العصر بلا نكير ، هو الإمام الموفق عبدالعزيز بن الإمام عبدالرحمن آل فيصل آل سعود ، ملك البلاد العربية ومنقذها ، وحامي الحرمين الشريفين ، أمد اللّٰه في أجله ، وبارك في قوله وعمله ، وأقر عينه بولده وأهله .

نظر جلالته إلى ما منَّ اللّٰه به على رعيته من نعمة الأمن والأمان ، وما عمها من العدل وشملها من الكرم والفضل ، فأصبحت بفضل اللّٰه ثم بيمن طلعة ملكها المحبوب في عيشة راضية ، وحياة سعيدة ، فرأى أن ذلك وحده غير كاف في إنهاض الأمة العربية من كبوتها وإقالتها من عثرتها ، فالتفت إلى إحياء قلوبها وتغذية أرواحها حتى تتم لها النعمتان : نعمة العلم ونعمة المال ، وتنال السعادتين سعادة الأولى وسعادة الأخرى ، فجمع إليه رجال العلم وأهل الفضل ، وألقى إليهم بمقاليد المعارف ووضع في أعناقهم أمانة العقول ، وبسط - حفظه اللّٰه - لهم يده ، وفتح خزائن فضله لكل ما يطلبون لتحقيق هذه الرغبة ونوال هذه البغية ؛

بغية الثقافة الإسلامية والتهذيب العلمي ، وجلالته - حفظه اللّٰه - يقدر قدر ما تربح الأمة من وراء ذلك من ثروة علمية يهون في سبيلها كل ما عز وغلا من الثروة المالية . فقام رجاله بارك اللّٰه فيهم وعلى رأسهم سمو نجله المعظم ونائبه المكرم الأمير فيصل - أقر اللّٰه عيون الأمة بطول حياته وحسن توفيقه - قاموا بما يتغيه جلالة الإمام على الوجه الذي يرضي اللّٰه تعالى ويرفع لهذه الأمة ذكرًا في العالمين ، فارجع البصر في أنحاء البلاد ، فهل تقع عينك إلا على دورٍ للعلم تتوافد عليها الشبيبة المباركة - عماد النهضة الإسلامية في هذا القطر العظيم إن شاء اللّٰه - يكرعون من كؤوس العلم ما يكونون به في القريب العاجل قرة العيون وبهجة المحافل وعضدًا قويًا يرفع هذه البلاد إلى مقامها الأول ، ويعيد إليها مجدها الخالد ، وعما قريب نرى مثل ذلك في القطر النجدي إن شاء اللّٰه متى حانت الفرصة التي ينتهزها جلالة الإمام أطال اللّٰه عمره .

ننظر في أرجاء العالم الإسلامي فنرى حركة ونشاطًا ، وسعيًا حثيثًا إلى الحياة العلمية والعملية ، ولكنه مع الأسف ليس بواصل بأولئك السائرين إلى ما يبتغون ، لأنها حركة عكسية ، وسير إلى الوراء والهمجية لا إلى الأمام والمعارف العلمية ؛ ذلك لأنهم جعلوا قائدهم في هذه السبيل التقليد الأعمى للإفرنج في كل شئ ، وتركوا اتباع أهدى الخلق سبيلا وأسعدهم حظا وأصلحهم فعلا ، وأرشدهم قولا ، وأبصرهم بالأمور أولًا وآخرًا ، محمدًا ﷺ الذي لم يكن ينطق عن الهوى ، إن هو إلا وحي يوحى ، علمه شديد القوى ذو مرة فاستوى . تركوا سبيله وسبيل أصحابه الذين بنوا من المجد ، وأسسوا من السلطان ، ونشروا من العلوم والثقافة الحقة ما أحيا البشر كلهم وأنقذهم من ظلمات الجهالات ، وفكهم من أسر الخرافات والضلالات وقت أن كادت هذه الطوام تقضى عليهم لولا أن اللّٰه من عليهم وأرسل محمدًا ﷺ يخرجهم من الظلمات إلى النور ويهديهم بإذن ربه

إلى صراط مستقيم .

ولو أن أولئك المتفرنجين الذين أعمتهم زخارف الغرب وبهرج باطله ، وقاموا ينعقون بالأمم الإسلامية أن تأخذ هذه الزخارف بعجرها وبجرها ، ورشدها وغيها ، لو أنهم كان عندهم من الإنصاف ذرة ومن العقل والتمييز رائحة لعلموا أن ما ينعم به الغربي اليوم - إن كان ثم نعيم - من عظمة وثراء وصناعات إنْ كلُّ ذلك إلا أثر من فضل المسلمين عليهم يوم أناروا أوروبا وأشعلوا فيها مصباح المعارف من جامعات قرطبة ، وحلقات الدرس في إشبيلية وقصر الزهراء ، يشهد بذلك علماء أوروبا ومَنْ عندهم مِن الإنصاف ما حرم منه أولئك الأغبياء الجاهلون الذين تأبى عليهم طبائعهم السقيمة ونفسياتهم المنحطة إلا أن يتلاشوا مرة واحدة علمًا ودنيًا وخلقًا في أوروبا المتهتكة الراقصة الفاسقة .

ولا يظنن ظان أن ما برز فيه الغربي اليوم من علوم رياضية وفلكية وهندسية وكونية هو من بنات أفكاره ومن مبتدعات عقوله ؟! لا ، واللَّه ما بذر بذرته وأسس قواعده إلا علماء المشرق الذين كانوا رجالا يقدرون الحياة قدرها ، ويحرصون على لحظاتها فلا يتركونها تذهب هباء . غير أن الحق أن الغرب أخذ العلوم من الشرقيين وارتقى بها مع نظام الكون وسنته التي فطر عليها من التحسين والترقى دائمًا ، فما زال بها يمشيها مع الحضارة جنبًا لجنب ، ويرقى بها في كل دور من أدوار الحياة ، حتى كانت تلك العلوم ما نرى ونسمع من طيارات وغواصات ودبابات وآلات ميكانيكية وكهربائية مما أدهش المسلمين اليوم ، وظنه بعضهم سحرًا ، وما هو إلا سحر العلوم التي كانت بيدنا فتركناها حتى صرنا عنها غرباء ، وهجرناها حتى أصبح أثرها لدينا نكرًا .

لذلك كان من أهم ما يعنى به جلالة المليك المفدى ، وفقه اللَّه لطاعته ، أن تكون نهضتنا العلمية في خطتها وسيرها إحياء لمجد السالفين من علمائنا ،

واجتهادًا في إرجاع ذلك التراث الذي تسرب إلى الغرب من إهمالنا إلى موطنه الأصلي من هذه البلاد المقدسة ، وأن يكون كل ذلك لإقامة شعائر دين اللَّه الحق ، وإحياء هدى رسوله الكريم ، ولتأسيس الدولة الإسلامية على أساس متين ودعامة قوية ، من الأخذ بكل أسباب الحياة من ناحيتها الدينية والدنيوية ، وفي الحق أن كلًّا منهما لا غنى له عن الآخر ، فلا غنى للدين عن الدنيا ؛ لأن بها يعز جانبه ، ويرتفع صوته ، وتعظم هيبته ، ويحرص الناس على العمل به ، ولا غنى للدنيا عن الدين ؛ لأنها من غيره تكون شهوات بهيمية ، وأهواء حيوانية ، وللناس من ذلك الشقاء المبين .

فكان لزاما أن يكون من أصول الدراسة في دور العلوم هذه العلوم الكونية المهمة ، على شرط أن لا تكون صارفا عن العلوم الشرعية ؛ لأنها في الحقيقة لها خادمة ، وهي إلى العلوم الدينية وسيلة ، وكان واجبًا أن يدرس في دور العلم لغات الأمم الغربية ؛ لنعلم ماذا عندهم من أسباب القوة فنأخذ منه ما نحن في حاجة إليه ، ونعرف ما عندهم من شر فنحذر منه إخواننا وأبناءنا من المسلمين الذين نخشى عليهم أن تكتسحهم المدنية الغربية بفسادها ، وتأخذهم من الإسلام غنيمة وتضمهم إلى أحضانها ؛ وليكون عندنا من الاستعداد لنشر الإسلام في هذه البلاد بلغات أهلها مثلما كان من أسلافنا الأولين الذين أدخلوا الإسلام في الهند والصين وروسيا وغيرها من البلدان القاصية والجهات النائية ؛ ولأن الغربيين يتعلمون لغتنا ، وينبشون في أوساطنا ليبشروا بدينهم المسيحى الزائف . فأولى بنا ثم أولى أن تكون عندنا الكفاءة للتبشير بديننا الحق وهدينا المستقيم .

يا سمو الأمير : هذا المعهد السعودي ثمرة من ثمرات غرس من تلك اللجنة العلمية المباركة التي غرستها يد جلالة والدكم المفدى وجئتم الآن تتعهدونها بماء عطفكم وتغذونها من رحيق شفقتكم وإخلاصكم ، وتطلعون عليها بيمنكم

وبركتكم ، وإن لهذه الزيارة من الأثر العظيم في نفوس أبنائكم طلبة المعهد ما يحفز هممهم ويشحذ قرائحهم ، ويجعلهم يدأبون ليلهم ونهارهم حتى يصلوا إلى الغاية التي ترضي جلالة والدكم وتقر بها أعينكم إن شاء اللَّه .

يا سمو الأمير : إنه ليس غريبًا أن تحلوا من كل قلب في سويدائه ، وأن تكونوا من كل عين نورها ومن كل نفس ريحانها لما حباكم اللَّه به من خلال الفضل وأسبغ عليكم من ثوب الشفقة والرحمة على رعيتكم ، وإن المعارف والأمة لتقدم لسموكم جميل تفضلكم وامتنانكم بهذه الزيارة الميمونة ، وإنا لنعد هذا قطرة من غيثكم وسجلًا من بحركم .

واللَّه نسأل أن يمكن لهذه الدولة السعودية الإسلامية ، وأن يرفع بها كلمة الحق ويؤيد بها دين الإسلام ، ويعز بها شأن المسلمين ، وأن يبارك في جلالة الملك المعظم ويديم توفيقه ونصره وتأييده ، وأن يبارك في سمو نائبه الأكرم وبقية أنجال جلالته المبجلين ، وصلى اللَّه على محمد النبي الأمي وعلى آله وصحبه وسلم .

❁ ❁ ❁

حيث يكون العلم والإيمان
تكون الحياة والعمران[1]

نعم ؛ فإن بالعلم تتبدد الظلمات عن البصائر ، وتستبين واضحة سنن اللَّه وآياته الكونية والقرآنية ، وتذعن النفوس وتنقاد نشطة جادة في حسن الانتفاع والاستفادة الحقة من سنن اللَّه وآياته ، فيكون الإيمان الصادق الراسخ ؛ وتكون الحياة الطيبة والعيش الرغد في ظلال الإخاء والإيمان والتعاون على البر والتقوى ، وتزكو القلوب وتطهر النفوس من كل ما يعوقها ويقعد بها عن السعي الحثيث في الطريق المستقيم ، وما يصدها ويقف بها عن السير الجاد في سبيل الحياة الهنيئة التي يسرها اللَّه برحمته وحكمته لكل الناس على سواء ، فما ردهم عن ذلك إلا خبث النفوس ؛ وقذارة القلوب بالضغن والأحقاد والتحاسد والتباغض والتعادي مما ران على القلوب ، وتكثيف على النفوس من ظلمات الغفلة والجهل بسنن اللَّه الحكيمة ، والكفر بنعم اللَّه ورحمته وفضله على الجميع ؛ فكان ظنهم باللَّه ظن السوء ، وكان من ذلك المعوقات الصادة عن الرقي والسمو على معارج الكمال الإنساني ، والسقوط في مهاوي تلك الشرور الموبقة من التحاسد والتباغض ثم التعادي والتناحر ، وما ربك بظلام للعبيد

ولقد يزعم الأغفال -بجهلهم الحقائق والسنن الكونية ، وبكفرهم بواسع فضل اللَّه وسابغ رحمته- أنهم يستطيعون وحدهم بحقدهم وضغائنهم وعداواتهم أن يهيئوا لأنفسهم وأشخاصهم أسباب الحياة الطيبة والعيش الهنيء ولكنهم لن يجدوا ذلك ولن يستطيعوا إليه أي سبيل ، ولن تتهيأ أسباب الحياة الرضية للفرد ولا للأسرة ولا للأمة إلا إذا كان العلم الصحيح يشرق على القلوب نوره ، فيصهر

(١) مجلة « الحج » محرم ١٣٦٨هـ.

النفوس ويطرد عنها الأقذار والخبائث ويستخرج معدنها من كل ذلك نقيًا صافيا على الفطرة التي فطر اللَّه الناس عليها . فيتم لها الكمال الحق ؛ كمال القوة الرجولية وفتوتها بما أعطى اللَّه ومكن لكل إنسان في نفسه وفي أسرته وفي أمته ، وكمال السذاجة والبساطة والطهارة التي هي أقوى وأحب الروابط وأمتن الأواصر بين بني الإنسان . وإن اللَّه بالناس لرؤوف رحيم .

لقد مرَّ على هذه الجزيرة العربية - كغيرها من كل بلاد اللَّه وعباده وأرضه - أطوار شتى يستطيع كل إنسان ، بل يجب على كل إنسان أن يشهد هذه الأطوار المختلفة ، ويأخذ منها العبر والعظات ، وإن من لم يشهد الماضي لا يشهد الحاضر ، ومن غاب عن الحاضر عاش أعمى ؛ يدوس تحت قدمه سنن اللَّه ونعمه عليه ، فيحطمها ويفسدها ، ويكون له من ذلك البؤس كل البؤس والشقاء كل الشقاء ، والذلة والمهانة كل الذلة والمهانة ، فالعزة والكرامة لن يكون شيء منها إلا على قدر اليقظة والتبصر والعلم بسنن اللَّه ورحمته وحكمته وآياته .

فأول تلك الأطوار فيما نعلم يوم رفع إبراهيم وابنه إسماعيل عليهما الصلاة والسلام هذا البيت المحرم بعد أن صار من حوله بلدا فاء إليه وسكنه من نزعوا من جرهم وغيرهم ينتجعون الماء ، فوجدوا به ماء زمزم . فقام إبراهيم حينئذ يسأل ربه في خشوع وضراعة ﴿رَّبَّنَآ إِنِّيٓ أَسۡكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيۡرِ ذِي زَرۡعٍ عِندَ بَيۡتِكَ ٱلۡمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱجۡعَلۡ أَفۡـِٔدَةٗ مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهۡوِيٓ إِلَيۡهِمۡ وَٱرۡزُقۡهُم مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمۡ يَشۡكُرُونَ﴾ [إبراهيم: الآية ٣٧] فما كانت تلك الدعوة من خليل الرحمن إبراهيم عن علم لغيب المستقبل أحاط به ، وإنما كانت - فيما أعتقد - عن رؤية إبراهيم لهذا الوادي في ذلك الوقت قاحلًا أجرد ؛ لأنه قد مضت عليه أحقاب ودهور لم تعمل فيه يد إنسانية ، ولم تستغل ثمراته المدفونة في سهوله وجباله ، مما اختزنه العليم الحكيم الذي لا يخلق شيئًا باطلًا ، ولا يترك بقعة من

الأرض إلا ويجعل فيها ما ينفع الإنسان في شؤون عيشه المختلفة .

ولن يترك لي علمي بسنن اللَّه وفهمي لآياته وإيماني برحمته الواسعة وحكمته البالغة مجال أن أفهم أن دعوة إبراهيم دعوة مؤبدة ، يبقى معها سكان هذا الوادي عالة على الناس ، يعيشون على ما يفضلون عليهم من الصدقات في كل موسم ، ويبقى أولئك السكان بقية عمرهم معطلين لآيات اللَّه ونعمه عليهم في أيديهم وأرجلهم وأسماعهم وأبصارهم وأفئدتهم ؛ كسالى نائمين ينتظرون ما يأتيهم به أولئك الوافدون المتصدقون !! كلا لا أستطيع أن أقول هذا ولست أرضاه ولا يرضاه مؤمن باللَّه وآياته ورحمته وحكمته ، ولا أستطيع أن أفهم هذا وأقوله !! وهذا الوادي ليس قاصرًا على بقعة مكة ، بل هو يمتد المسافات البعيدة جدًّا بين هذه الجبال - كغيره من وديان الأرض - وتنزل الأمطار على جباله غزيرة فتكون سيولًا تجري بين جنباته . وما يرسل اللَّه تلك الأمطار وينزل تلك الغيوث إلا ليحيي به الأرض بعد موتها ﴿وَتَرَى ٱلْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنۢبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ﴾ [الحج: الآية ٥].

فإذا وجدت هذه الغيوث عقولًا حية بالعلم بسنن اللَّه وآياته ، وقلوبًا مؤمنة برحمة اللَّه وحكمته ، وجدت الأيدي المصلحة العاملة في توجيهها وحفظها وإقامة السدود المحكمة لها تختزنها لحاجتها فتأخذ ما أرادت لأرضها ولشربها وأنعامها ، وإذا لم تجد ذلك أمر اللَّه الأرض أن تمتصها وتخزنها في بطنها حتى يأتي من يعلم فضل ربه ورحمته ؛ فيستنبطها ويحسن الانتفاع بها والاستفادة منها ﴿فَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَسْقَيْنَٰكُمُوهُ وَمَآ أَنتُمْ لَهُۥ بِخَٰزِنِينَ﴾ [الحجر: الآية ٢٢] ، ﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءًۢ بِقَدَرٍ فَأَسْكَنَّٰهُ فِى ٱلْأَرْضِ ۖ وَإِنَّا عَلَىٰ ذَهَابٍۭ بِهِۦ لَقَٰدِرُونَ﴾ [المؤمنون: الآية ١٨].

واللَّه سبحانه يوجه في سور القرآن المكية أنظار العرب ؛ سكان هذا الوادي

وهم المعنيون أولًا بالخطاب إلى ما بث اللّٰه في الأرض من حولهم وما أخرج منها من زروع وثمار كريمة ، وأنها أوضح الآيات على عظيم فضله ورحمته وحكمته ، وأن يربيهم بها ليعرفوا نعمته ، فيقدروه حق قدره ويخلصوا العبادة له وحده ، وذلك يدلنا - إذا نحن فقهنا كلام اللّٰه حق فقهه - أن أرض هذا الوادي كان فيها من مباهج وزينة الزروع وخيرات الثمار ما يراه العرب ، فيدعوهم اللّٰه به إلى الإيمان به ورسوله ؛ ويدلنا هذا على الطور الثاني من أطوار الجزيرة العربية ، ولقد ازداد ازدهارها ونمت خيراتها في القرون الإسلامية الأولى ؛ يوم كان أهلها يسيرون في حياتها على هدى العلم النافع مؤمنين باللّٰه وسننه وكتابه ورسوله .

ثم أخذت أيدي الجهل والغفلة والإعراض عن آيات اللّٰه وكتابه ورسوله تنسج على القلوب والبصائر أغشية ، أخذت تتكاثف شيئًا فشيئًا حتى حجبت القلوب عن الهدى ، ومنعتها لذة العلم الصحيح وصدتها عن التفكير في خلق السموات والأرض وما خلق اللّٰه من شيء ، فعميت البصائر وماتت القلوب ، وبدأ طور آخر تعمل فيه يد الجهالة والتخريب ، فنام أهل هذا الوادي نومة عميقة تحت تخدير الأماني الخادعة والدعاوى الكاذبة ، وافتعلوا لأنفسهم حجة ما أوهاها وأبعدها عن سنن اللّٰه ، تلك هي « الحجاج زرع أهل مكة » !!

وطال أمد هذه النومة العميقة ؛ حتى جاءت الدولة السعودية بالعلم والإيمان ، فدبت الحياة واليقظة ، وتفتحت أعين النائمين فرأوا ركب الحياة يكاد يفوتهم ، فاستيقظوا ، وشمروا وأخذوا يركضون لعلهم يدركون وهم إن شاء اللّٰه مدركون ، بل سابقون ، إذا هم غذوا عقولهم ونفوسهم بالعلم النافع والإيمان الصادق ، وحرصوا على أن تكون نفوسهم وقلوبهم دائمًا طاهرة من خبائث الأحقاد والإحن[1] زاكية بإخلاص الحب للّٰه ولكتابه ولرسوله ، وأن تكون أيديهم

---

(١) الإحنة : الحقد والضغن ، ويُقال : الإحن : تجر المحن . الوسيط (أ ح ن) .

وجوارحهم كلها محسنة الانتفاع بنعم اللّٰه، آخذة بضيع[1] كل عامل، مجدة في إيقاظ الغافل وتعليم الجاهل وتقويم المعوج، محققة قول إمامنا الأعظم ﷺ: «مثل المسلمين في توادهم وتعاطفهم كمثل الجسد الواحد، إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الأعضاء بالسهر والحمى»[2] أو كما قال.

إننا إن أخذنا أنفسنا في إيمان وقوة لا نلبث واللّٰه أن نرى هذه الجزيرة مروجًا خضراء، كما أخبر بذلك النبي ﷺ، فيما حدثني أخي العالم المحدث الشيخ أحمد محمد شاكر: أن الإمام أحمد رضي اللّٰه عنه روى في مسنده عن النبي ﷺ أنه قال: «ستعود هذه الجزيرة مروجًا خضراء»[3].

والأدلة على تحقق خبر الصادق المصدوق ﷺ قائمة ملموسة محسوسة بما صنعت الأيدي الصالحة المحسنة من رجال الدولة السعودية الموفقة.

فلقد حججت في عام ١٣٤٢ ونزل ركبنا في جدة فكانت صحراء قاحلة ليس بها إلا نخيلات متناثرة يكاد سعفها يجف ظمأ، وطوفنا في كل نواحيها نبحث عما يطفئ حرارة الظمأ فبعد لأي وجدنا ما يزيد ماؤها الظمأ حرًّا.

ثم جئتها في عام ١٣٦٥ فوجدتها بدأت بمزروعاتها الخضراء ومياهها العذبة تجري في قنوات إلى حيث تروي الزرع البهيج، فعجبت لهذا التغير وسألت فقيل لي: إن يد الوزير العامل اليقظ الشيخ عبد اللّٰه بن سليمان داعبتها فاستيقظت من نومها فرحة متبسمة.

ثم جئتها يوم الاثنين الخامس عشر من شهر ذي الحجة هذا العام، حيث أدب معالي وزير المالية مأدبة فاخرة دعا إليها نخبة من كرام وفود بيت اللّٰه،

---

(١) هكذا بالأصل.

(٢) البخاري (٦٠١١)، ومسلم (٢٥٨٦) من حديث النعمان بن بشير رضي اللّٰه عنه.

(٣) أحمد ٢/٣٧٠ من حديث أبي هريرة. وقد أخرجه مسلم (١٥٧).

فوجدتها ضاحكة مستبشرة بمروجها الخضراء وأزهارها المتفتحة ، ومياهها المتدفقة فكان عجبي لذلك أشد ، وهتفت من كل قلبي :حيث يكون العلم والإيمان تكون الحياة والعمران !! .

عاشت الأيدي المصلحة والنفوس الزاكية والقلوب العامرة بالإيمان باللَّه وسننه وآياته ، عاش الملك الصالح المصلح الذي يبث في نفوس رجاله هذه الروح القوية ، ويدفع أيديهم وقلوبهم إلى الإيمان والعمران .

أسأل اللَّه أن يطيل عمر جلالة الملك عبد العزيز ، وأن يبارك في حياته النافعة الخيرة ، وأن يجعل من أبنائه قرة عين له وللمسلمين وأن يزيده وحكومته توفيقًا وسدادًا ورشدًا .

❁❁❁

فهرس الجزء الأول

الموضوع **الصفحة**

❁ ❁ ❁